دراسات فى تاريخ وحضارة الأندلس

تأليف
دكتور محمد أحمد أبو الفضل
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
بكلية الآداب - جامعة طنطا

١٩٩٦

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - اسكندرية
ت ٤٨٣٠١٦٣

دار المعرفة الجامعية
للطبع والنشر والتوزيع

❋ الادارة : ٤٠ شارع سوتير
الازاريطة ـ الاسكندرية
ت : ٤٨٣٠١٦٣

❋ الفرع : ٣٨٧ شارع قنال السويس
الشاطبي ـ الاسكندرية
ت : ٥٩٧٣١٤٦

مقدمة

يسرنى أن أقدم كتابى المعنون «دراسات فى تاريخ وحضارة الأندلس» ضمن سلسلة «المكتبة الاندلسية»، ويتضمن هذا الكتاب احد عشر بحثا فى مجال الدراسات الأندلسية، وهى أبحاث تنوعت موضوعاتها بين الوقائع التاريخية والعلاقات السياسية ونظم الحكم والادارة والحضارة، وقد سبق لى نشرها فى الدوريات والمجلات العلمية المتخصصة داخل مصر وخارجها ما بين عامى ١٩٨١-١٩٩٥.

وهو يشتمل على قسمين ، كل منهما يغطى جانبا هاما من جوانب التاريخ والحضارة الاندلسية. الأول يتناول التاريخ السياسى للأندلس والتاريخ الوسيط الاسلامى والأوربى، ويشتمل على ستة بحوث:

أولاها : مغيث الرومى وبنوه : دورهم السياسى والحضارى فى المغرب والاندلس. وفى هذه الدراسة نجد تركيزا على مغيث الرومى مولى الوليد بن عبد الملك مؤسِّس الاسرة، وأفراد أسرته ودورهم فى التاريخ الاندلسى، الذى ساعد إلى حد كبير فى استقرار ملك الأمويين فى الاندلس بحكم مشاركتهم فى جميع مناحى الحياة فى الاندلس أدبية ومادية.

وثانيهما : حول السفارات الاندلسية الى دول أوربا ١٣٨ - ٣٦٦ هـ / ٧٥٥ - ٩٧٦م وقد بدأت هذه الدراسة بمقدمة سجل فيها كيف تحولت اسبانيا بعد الفتح الاسلامى الى اقليم اسلامى تابع للخلافة الاموية، وأبرز التيارات المشرقية التى أثرت فى البناء الحضارى الاندلسى وكان لها الفضل فيما وصلت اليه قرطبة من تفوق حضارى جعلها فى مصاف المدن العالمية العظمى بحيث نافست بغداد ورومة والقسطنطينية فى التخطيط والعمران وفى مجال العلوم والآداب، ومن هذا المنطلق ينتقل الى الاشارة بأن هذا التفوق الحضارى أهلها لأن تكون محط أنظار دول العالم الوسيط يبعثون اليها سفاراتهم طلبا للسلم والموادعة. ثم يتحدث عن السفارات الاندلسية إلى دول أوربا، الى بلاد الفرنجة والى المانيا والى الدولة البيزنطية، ويختم هذه الدراسة بسفارة أندلسية الى بلاد النورمان، وما أثير حول هذه السفارة من أراء واتجاهات مختلفة.

وثالثهما : قضاه ثوار فى الأندلس، وتتضمن هذه الدراسة التعريف بخطة القضاء فى الاندلس، واعتماد القضاة فى أحكامهم على مذهب الامام الاوزاعى

الشامى الى أن انتشر المذهب المالكي في عهد هشام الرضا بحيث أصبح المذهب الرسمي للبلاد، ومدى النفوذ الذى أصابه فقهاء هذا المذهب فى عهد هذا الامير، لاسيما فى عهد الامير عبد الرحمن الاوسط، ثم يتحدث عن أهمية منصب قاضى الجماعة فى قرطبة، ثم يعرض لثورات ثلاث قام بها ثلاثة من القضاة فى الاندلس، أولها، ثورة القاضى ابن جحاف فى بلنسية، وثانيها ثورة القاضى محمد ابن عباد فى اشبيلية، وثالثها ثورة القاضى حمدين بن محمد بن حمدين فى قرطبة. وتخلص الدراسة الى أن هناك سمات مشتركة بين الثورات الثلاث أهمها الشعور بالهوية والانتماء الى الاندلس الذى جمع بين من شاركوا فيها على الرغم من تفرق أماكنها.

ورابعهما، أضواء على العلاقات الحفصية الأرغونية ٦٢٨ - ٦٨٤هـ / ١٢٣٠ - ١٢٨٥م، استهل هذا البحث بدراسة تمهيدية عن أصل بنى حفص فى افريقية، ثم عرض لتطور العلاقات السياسية بين الدولة الحفصية ومملكة أرغون فى فترة تعقدت فيها الحوادث السياسية وتشابكت فى المغرب والاندلس مع حوادث وقعت فى صقلية وجزر البليار وقطالونية. فعرض أولا لتطور العلاقات السياسية بين الدولة الحفصية ومملكة أرغون فيما بين عامى ٦٢٨ - ٦٤٨ هـ / ١٢٣٠ - ١٢٥٠م، ثم للعلاقات السياسية بين الدولتين فيما بين سنتى ٦٤٨ - ٦٧٥هـ/ ١٢٥٠ - ١٢٧٦م، ثم ختم هذه الدراسة بالعلاقات السياسية بين الدولتين فيما بين سنتى ٦٧٥ - ٦٨٤هـ/ ١٢٧٦- ١٢٨٥م.

وخامسهما : غزوة البيازنة والقطلان لجزيرتى يابسة وميورقة الاسلاميتين ٥٠٨- ٥٠٩هـ / ١١١٤ - ١١١٦م. خصص هذا البحث لدراسة تفاصيل الحملة الصليبية البيزية القطلانية الفاشلة لغزو جزيرتى يابسة وميورقة كبرى جزر البليار فى سنة ٥٠٨هـ/ ٥٠٩هـ، فعرض للأوضاع السياسية فى الجزائر الشرقية قبيل وصول الحملة، ووصول الحملة وصمود المسلمين فى جزيرتى يابسة وميورقة، ثم حصار النصارى لمدينة بلمة الذى استمر نحو أربعة أشهر عانى خلالها أهل ميورقة من نقص المؤن والأقوات وانتهى بسقوط المدينة الذى اقترن بمذابح شنيعة سفك فيها النصارى دماء أهل ميورقة رجالا ونساء وأطفالا، ولم يصل أسطول المرابطين لانقاذ ميورقة إلا بعد مغادرة الحملة المشتركة الجزيرة فى ذى العقدة سنة ٥٠٩هـ ١١١٦م.

وسادسهما، الحملة النصرانية على مدينة المرية الاسلامية وضيادة القشتاليين عليها ٥٤٢-٥٥٢هـ / ١١٤٧ - ١١٥٧م. اختص هذا البحث بدراسة الغزوة النصرانية المشتركة التى شاركت فيها جنوة وقطالونية وقشتالة وتعرضت لها المرية فى سنة ٥٤٢هـ وانتهت باستيلاء القوات القشتالية عليها واحتلالهم لها نحو عشر سنوات، إلى أن استردها الموحدون سنة ٥٥٢هـ، وهو حدث هام تعرضت له المرية فى فترة حاسمة فى تاريخ الاندلس شهدت نهاية عصر دولة المرابطين وبداية خضوع الاندلس لدولة الموحدين.

أما القسم الثانى من هذه الدراسات، فيشتمل على خمسة بحوث عن الحضارة الاندلسية، أولاهما، التأثيرات الشامية فى حضارة الاندلس على عهد الامير عبد الرحمن الداخل ١٣٨ - ١٧٢هـ/ ٧٥٦ - ٧٨٨م. خصص هذا البحث لابراز التأثيرات الشامية التى تدفقت على الاندلس فى عهده وأثرت تأثيرا مباشرا فى بناء الاندلس الحضارى. وأول مظهر من هذه التأثيرات فى فن العمارة يتمثل فى تخطيط المسجد الجامع بقرطبة ببلاطاته العمودية على جدار القبلة وتناوب اللونين الأحمر والأصفر فى سنجات العقود وهو تقليد شامى ظهر فى جامع حماه وفى قصيز الحلابات، وكذلك يتمثل التقليد الشامى فى قصر الرصافة الذى أنشأه الامير عبد الرحمن الداخل شمالى قرطبة على غرار رصافة جدة هشام فى أرض الشام الأثيرة لدية، وكذلك قصر الدمشق الذى سمى باسم حاضرة بلاد الشام. ومن مظاهر التأثيرات الشامية أيضا فى مجال الزراعة غرس بعض النوى الشامية كالنخل وشجر الرمان. وفى مجال الآداب كان الشعر الاندلسى لاسيما الشعر الوصفى للطبيعة يحاكى ما نظمه شعراء الشام بحيث شبه عدد من شعراء الاندلس المشهورين فى وصف الطبيعة بشعراء الشام. أما فى مجال الحياة الدينية، فيذكر أن أهل الاندلس فى عهد عبد الرحمن الداخل كانوا يأخذون بأحكام الامام الاوزاعى الشامى.

وثانيهما، قضاه الجماعة فى عصر الامارة الاموية فى الاندلس ١٣٨ - ٣٠٠هـ/ ٧٥٦ - ٧٨٨م، والبحث دراسة عن منصب قضائى هام من المناصب العليا فى الاندلس وهو قضاء الجماعة بقرطبة فى عصر الامارة الاموية فى الاندلس، وينقسم قسمين : الاول ثبت بأسماء من تولى قضاء الجماعة بقرطبة من فقهاء الأندلس تم توزيعهم وفقا لعهود الأمراء مع مراعاة الترتيب الزمنى لكل قاض، وزود كل اسم باللقب والكنية وتاريخ الولاية وتاريخ العزل أو الوفاة ان تيسر ذلك مع ذكر

المصادر التى استند عليها فى دراسة حياة كل منهم مما ساعد على تقصى أسماء القضاة الذين تكررت ولايتهم لقضاء الجماعة بقرطبة وسنى ولايتهم لهذه الخطة، والتوصل الى معرفة مدى القرابة التى تربط فى بعض الاحيان بينهم. أما القسم الثانى، فقد اهتم باختصاصات قضاة الجماعة فى قرطبة، والشروط اللازم توفرها فيمن يتولى هذا المنصب، ومدى استقلال القضاة فى أحكامهم ، ومجلس الحكم، والمذهب الذى يفصل بمقتضى أحكامه فى مختلف القضايا، وحياة القاضى الاجتماعية من زى وطعام ومظهر عام، واختتمت الدراسة بذكر الاسباب التى تؤدى الى انهاء خدماتهم وعزلهم عن ولاية قضاء الجماعة.

وثالثهما: أبو عبيد البكرى والبكريون فى ولبه وشلطيش، فى هذا البحث نجد تركيزا على سيرة هذا العالم الجغرافى ابو عبيد البكرى، فلقد تتبع البحث الاصول التى ينتمى اليها البكرى، ويعرض لشخصية البكرى الجغرافى والأديب، والدور العلمى الرائد الذى لعبه فى مجال العلوم الأدبية وفى علم الجغرافية على وجه الخصوص ويربطه بشخصيات بكرية جليلة أسهمت مساهمة فعالة فى صنع حضارة الاندلس فى أواخر عصر الخلافة الاموية حتى بداية عصر ملوك الطوائف.

ورابعهما: أضوء على النشاط العلمى فى الاندلس، اختص البحث بالقاء أضواء على النشاط العلمى فى الاندلس، وقصر دراسته على بعض فروع العلم، الطب والصيدلة والفلك، وذلك باستعراض تاريخ بعض العلماء الاندلسيين الذين نبغوا منذ عصر الازدهار وحتى نهاية العصر الاسلامى فى الاندلس، وأظهرت الدراسة إلى أن التأثير المشرقى فى الاندلس فى مجال الطب والصيدلة وبعض العلوم لاينكره أحد حتى ان ازدهار علم الطب عند الاندلسيين إنما يرجع الى ما نقله الاطباء النصارى الى الاندلس من المشرق من كتب سواء بلغتها الاصلية أو بترجمات هذه الكتب أو رحلات الاندلسيين الى المشرق فى طلب العلم، وأن جميع الاطباء الذى برعوا فى الاندلس كانوا أيضا صيادلة كتبوا فى الاعشاب والادوية. أما علم الفلك فقد انتقل الى الاندلس أيضا فى عصر الخلافة الاموية أى منذ القرن الرابع الهجرى فانشئت مدارس لدراسة الفلك والرياضة وكتبت الشروح على كتب الفلك، ولما تكالبت المحن على الاندلس انتقل بعض علماء هذا العلم الى شرق الاندلس وطليطلة وغرناطة، فازدهر هذا العلم ليواكب مظاهر الحضارة الاندلسية فى ذلك الوقت، وذاعت شهرة علماء الفلك هناك فى كافة الانحاء.

وخامسهما: ملاحظات حول ألبسة المدجنين فى أسبانيا. استهل البحث بالتعريف بالمدجنين، وعرض لأهم البحوث التى صدرت عن الزى الاسلامى فى المغرب والاندلس فى العصور المختلفة وأهمية دراسة الزى فى المجتمع الاسلامى، وتطوره فى الاندلس منذ القرن الثالث الهجرى والتأثيرات المشرقية التى تعرض لها، ثم يعرض لتقدم صناعة النسيج فى عصر بنى نصر، ثم يلقى الضوء على ملابس المدجنين التى لم يطرأ عليها تغيير جوهرى فى القرن السابع الهجرى، مع وصف عدد من الألبسة المدجنة كما وردت فى بعض المنمنمات بمخطوطة كتاب الشطرنج El Libro de Ajedrez ومنها الجبة البيضاء والبرتقالية والعباءة الخضراء والطيالس البيضاء، ويعرض لملبوسات عامة المدجنين ومن بينها الجباب الصوفية القصيرة فى القرى، والثياب المتأثرة بالأزياء المسيحية ومنها الملوطة التى تشبه الصدرية بدون أكمام، والجوارب الزاهية الألوان والنعال الجلدية المبطنة باللباد والامداس والاقراق من خلال الصور الواردة فى مخطوطة كتاب الشطرنج أو من خلال كتابات الرحالة الاجانب، ثم ينتقل الى وصف ملابس النساء من جبب ومعاطف وأقمصة وسراويل وردية وخمر رقيقة ومقنعات على الرأس، وتختتم الدراسة بالحديث عن الحلى وأدوات الزينة عند نساء المدجنين كالعقود والدمالج والخواتم واستخدام الاصباغ فى الزينة.

والله أسأل السداد والتوفيق، انه نعم الموفق، ونعم النصير،

الاسكندرية فى مايو ١٩٩٥ — محمد أحمد أبو الفضل

القسم الأول
دراسات فى التاريخ السياسى للاندلس



البحث الأول

مغيث الرومى وبنوه :
دورهم السياسى والحضارى فى المغرب والأندلس



مغيث الرومى وبنوه :
دورهم السياسى والحضارى فى المغرب والأندلس

تتميز الفترة الأولى من تاريخ الاندلس بوجود عدد من البيوتات من موالى بنى أمية ، التى أخلص بعضها للامويين اخلاصاً عميقاً ، وشاركوا الامويين جانباً كبيراً من المسئولية .. ومن أكبر هذه البيوتات بنو عبيدة وبنو حدير وبنو شهيد وبنو عبد الرؤف وبنو فطيس وبنو مغيث .

١ – مغيث الرومى مؤسس الاسرة :

أما بنو مغيث – موضوع بحثنا – فهم أبناء مغيث بن الحارث بن الحويرث بن جبلة بن الايهم الغسانى ، مولى الوليد بن عبد الملك وهو المعروف بمغيث الرومى وأن كان غير رومى الأصل فى الحقيقة (١) ، فهو عربى من بنى الحارث الأكبر بطن من بطون الازد القحطانية (٢) .. ومنهم كان ملوك الشام قبل الاسلام وظل الملك فيهم حتى آخر ملوكهم جبلة ابن الايهم الذى أسلم فى زمن الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ثم

---

(١) المقرى (أحمد بن محمد) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، المجلد الثالث ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ١٢ .

(٢) أنظر : ابن حزم (محمد على بن أحمد بن سعيد) : جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، الطبعة الرابعة دار المعارف ، ١٩٧٧ ، ص ٣٧٢ ، القلقشندى (أبى العباس أحمد) : نهاية الأرب ، تحقيق ابراهيم الابيارى ، الطبعة الثانية دار الكتب الاسلامية ، ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م ، ص ٤٦ .

ثم ارتد ونصر ولحق ببلاد الروم (٣)

ويفصل البلاذرى سبب هذا الارتداد . فيروى أن هرقل امبراطور بيزنطة حشد قوات كبيرة من الروم وأهل الشام وأهل الجزيرة وأرمينية قارب عددها مائتا ألف جندى وولى عليهم رجلا من خاصته ، وبعث على مقدمته جبلة بن الايهم الغسانى فى مستعربة الشام من لخم وجذام وغيرهم ، وعزم على محاربة المسلمين . ولما بدأ الاشتباك يوم اليرموك انحاز جبلة ابن الايهم إلى الأنصار وقال لهم «انتم أخوتنا وبنو أبينا وأظهر الاسلام» (٤) غير انه مالبث ان وقعت حادثة غيرت من نفس جبلة وأدت إلى ارتداده إذ يذكر البلاذرى أنه ، لما قدم عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالشام سنة ١٧ هـ لطم جبلة رجلا من مزينة فلطم عينه ، فأمر عمر الرجل بالاقتصاص من جبلة فقال جبلة «أو عينه مثل عينى والله لا أقيم ببلد على به سلطان فدخل بلاد الروم مرتداً» (٥) ، يؤيد ذلك ما رواه المسعودى أن جبله بن الايهم «أسلم وارتد عن دينه خوف العار والقود من اللطمة » (٦) وفى رواية أخرى للبلاذرى أن جبلة بن الايهم أتى عمر بن الخطاب وهو على نصرانيته« فعرض عليه الاسلام وأداء الصدقة ، فأبى ذلك ، وقال : أقيم على دينى وأؤدى الصدقة ، فقال عمر : ان أقمت على دينك فأد الجزية ، فأنف منها فقال عمر : ما عندنا لك الا واحدة من ثلاث : اما الاسلام ، واما أداء الجزية واما الذهاب إلى حيث شئت ، فدخل بلاد الروم فى ثلاثين ألفاً ، فلما بلغ ذلك عمر ندم ، وعاتبه عبادة بن الصامت ، فقال : لو قبلت منه الصدقة

---

(٣) القلقشندى : المصدر السابق ، ص ٢١٧ ، وأنظر أيضاً ، ابن قتيبة (أبو محمد عبدالله ابن مسلم) : كتاب المعارف ، القاهرة ، ١٣٠٠هـ ، ص ٢١٧ .

(٤) البلاذرى (أبى العباس أحمد بن يحيى بن جابر) : كتاب فتوح البلدان تحقيق دى غوية ، بريل ، ١٨٦٦ ، ، ص ١٣٥ ، ص ١٣٦ .

(٥) نفس المصدر ، ص ١٣٦ .

(٦) المسعودى (أبى الحسن على بن الحسين) : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، الجزء الثانى القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ١٠٩ .

ثم تألفته لأسلم» (٧) .

على أية حال ، رحل جبلة بن الأيهم وقومه إلى بلاد الروم وأقاموا بها وانحازوا اليهم فى صراعهم الطويل مع الدولة العربية وعلى الأخص فى العصر الأموى الذى جرت العادة فيه بتوجيه حملتين على بلاد الروم كل عام حملة كبرى فى الصيف (صائفة) وحملة ثانية على نطاق أصغر فى غضون الشتاء (شاتية) واستمرت حملات الصوائف التى وجهها الأمويون إلى منطقة الثغور طوال العصر الاموى ، ولا نستبعد أن يكون مغيث بن الحارث بن الحويرث ابن جبلة ابن الايهم وهو أحد احفاد جبلة قد سبى فى احدى هذه المعارك ربما فى معركة سباستبول سنة ٧٤ هـ (٦٩٣ م) بالذات التى انتصر فيها الأمويون بقيادة محمد بن مروان على البيزنطيين (٨) ، يؤيد ذلك ما أورده المقرى من أن مغيثاً «سبى من الروم بالمشرق وهو صغير» (٩) ، فأدبه الخليفة الاموى عبد الملك بن مروان مع ولده الوليد فى دمشق (١٠) ، ولذلك عرف فيما بعد بمغيث الرومى مولى الوليد بن عبد الملك .

ولا شك أن مغيثاً كان لديه المام باللغة اللاتينية بحكم مولده وتربيته فى الأراضى البيزنطية ، كما أتقن العربية أيضاً بحكم اقامته فى الشام ، ويذكر الحجارى أنه «تأدب بدمشق مع بنى عبد الملك فأفصح بالعربية .

---

(٧) البلاذرى : المصدر السابق ، ص ١٣٦ .

(٨) أنظر ، Finaly (G) : History of Greece, I, Oxford, 1877, P. 389,

وأيضاً : وسام عبد العزيز فرج ، العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادى ، الهيئة العامة للكتاب ، الاسكندرية ، ١٩٨١ ، ص ٥٠ ، ص ١٠١ .

(٩) المقرى : المصدر السابق ، المجلد الثالث ، ص ١٢ .

(١٠) نفس المصدر والمجلد والصفحة .

وصار يقول من الشعر والنثر ما يجوز كتبه ، وتدرب على الركوب ، وأخذ نفسه بالأقدام في مضايق الحروب ، حتى تخرج فى ذلك تخرجاً أهله للتقدم على الجيش الذى فتح قرطبة ، وكان مشهوراً بحسن الرأى والكيد » (١١) فلا عجب أن يتمسك به موسى بن نصير والى المغرب ، ويضمه إلى قواده فى المغرب ، بل ان الحملة التى أعدها موسى بن نصير لفتح الاندلس سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) تحت قيادة طارق بن زياد تألفت من سبعة آلاف بربرى منهم ما يقرب من ثلاثمائة من العرب وموالى المروانين مثل عبد الملك ابن أبي عامر المعافرى وعلقمة اللخمى ومغيث الرومى مولى الوليد بن عبد الملك (١٢) وهذا يوضح أن مغيثا اشترك فى الحملة الأولى لافتتاح الاندلس وليس كما يذكر بعض المؤرخين أنه كان ضمن طالعة موسى بن نصير عندما دخل الاندلس لاستكمال الفتح عام ٩٣ هـ (٧١٢) (١٣) .

وهكذا شارك مغيث الرومى فى حملة طارق بن زياد الذى حقق نصراً

---

(١١) فى ، المقرى : نفس المصدر والمجلد ، ص ١٢ ، ص ١٣ ، ينص المقرى على أن مغيثاً كان لديه المام باللغة اللاتينية ، على الرغم مما هو معروف أن اللغة اليونانية أصبحت منذ عهد الامبراطور هرقل ٦١٠ م هى اللغة الرسمية للامبراطورية البيزنطية .

(١٢) مؤلف مجهول : أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ، تحقيق ابراهيم الابيارى ، دار الكتاب المصرى ، القاهرة ، ١٩٨١ ، ص ١٧ ، الضبى (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة) بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس ، دار الكاتب العربى ، ١٩٦٧ ، ص ٤٧٥ ، ترجمة رقم ١٣٨٨ ، والذى يذكر أن مغيثاً الرومى مولى الوليد بن عبد الملك حضر فتح الأندلس مع طارق وكان على خيله ، وأنظر أيضاً : الحميدى (أبى عبد الله محمد بن أبى نصر فتوح بن عبد الله الأزدى) : جذوة المقتبس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦ ، ترجمة رقم ٨٣٤ ، ص ٣٥٥ ، حسين مؤنس : فجر الأندلس ، دراسة فى تاريخ الأندلس من الفتح الى قيام الدولة الأموية (٧١١ - ٧٥٦) ، الطبة الأولى ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٦٨ ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ، ١٩٨٢ ، ص ٧٢ .

(١٣) أنظر ، سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، حـ ١ ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٧٩ ، ص ٢٥٠ وما بعدها .

كبيراً على القوط فى معركة كورة شدونة (٢٨ رمضان - ٥ شوال سنة ٩٢ هـ ١٩ - ٢٦ يوليو ٧١١م) (١٤) . ورأى طارق بن زياد ان يواصل زحفه نحو طليطلة عاصمة القوط الغربيين للاستيلاء عليها قبل أن تتجمع فلول القوط مرة أخرى ويستفحل أمرهم مخالفاً بذلك أوامر قائده الأعلى موسى بن نصير الذى أمره - بعد أن علم بأخبار الفتح وما حازه المسلمون من الغنائم - أن لا يتجاوز مكانه حتى يلحق به (١٥) ، فزحف طارق إلى مدينة شذونة وحاصرها حصاراً شديداً ثم فتحها عنوة ، وغنم منها غنائم هائلة ، ومضى بعد ذلك إلى حصن المدور (Almodovar) ثم عطف إلى قرمونة (Carmona) ، فمر بعين نسبت اليه بعدذلك فاشبيليه (Sevilla) فصالحه أهلها على الجزية ، ثم زحف بقواته إلى استجه (Ecija) وأخذها عنوه (١٦) .

ويبدو أن جيش طارق قد أخذ يزداد عدة بمن كان ينضم اليه من أهل العدوة المغربية ، الأمر الذى جعل يليان صاحب سبته ينصح طارقاً بأن يفرق بعض قواته فى بعوث جانبية ، «فقال له : قد فتحت الاندلس ، فخذ من أصحابى أدلاء ففرق معهم جيوشك وسر أنت إلى مدينة طليطلة» (١٧)

---

(١٤) أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، الطبعة الأولى ، الاسكندرية ١٩٦٨ ص ٣٢ وما بعدها .

(١٥) ابن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، المجلد الرابع ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ص ٢٥٤ .

(١٦) مؤلف مجهول : أخبار مجموعة ، ص ١٩ ، المقرى : المصدر السابق ، المجلد الأول ص ٢٦٠ ، وأنظر أيضاً ، سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، ص ٨٢ ،
Simonet (Francisco Javier) : Historia de los mozarabes de Espana, Madrid, 1904, P.27; Saavedra (Eduardo) : Estudio sobre la invasion de los Arabes en Espana, Madrid, 1892, P. 81.

(١٧) ابن عذارى المراكشى : كتاب البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، جـ ٢ تحقيق كولان وليفى بروفنسال ، دار الثقافة ، بيروت لبنان ، ص ٩ ، وأنظر أيضاً :
Saavedra : Ibid, P. 77.

ففعل طارق بنصيحة يليان ففرق جيوشه من استجه ، فبعث مغيثا الرومى مولى الوليد بن عبد الملك إلى قرطبة فى سبعمائة فارس ، وبعث جيشاً آخر إلى مالقه (Malaga) وأمر عليه قائداً وجعل معه دليلا من رجال يليان ، كما بعث جيشاً ثالثاً إلى البيرة (Elvira) ، وسار طارق بمعظم جيشه إلى كورة جيان (١٨) فى طريقه إلى طليطلة .

سار مغيث الرومى على رأس فرقة من الفرسان تنفيذاً لتعليمات طارق ابن زياد لا يزيد عددها عن سبعمائة فارس من استجه متجهاً نحو قرطبة وهى «من مدنهم العظام» (١٩) ، ويبدو أن الغرض من انفاذ هذه الحملة علاوة على فتح قرطبة كان تأمين طريق الجيش الاسلامى الرئيسى المتجه إلى العاصمة طليطلة بقيادة طارق بن زياد خوفاً من مفاجأة العدو له أثناء زحفه شمالا .

على أية حال وصل مغيث بقواته حتى اقترب من الضفة اليسرى لنهر الوادى الكبير المقابلة لقرطبة وكمن بقواته فى غيضة أرز شامخة تقع بين قريتى شقنده (Secunda) ، وتعرف اليوم (Campo de la verdad)

---

(١٨) المقرى : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٢٦٠ ، ص ٢٦١ ، ابن عذارى : نفس المصدر والجزء ، صفحات ٩ ، ١٠ ، ١١ وأنظر أيضاً :

A Guado Beleye (Pedro): Manual de Historia de Espana, tomo I, Sexta édicion, Espasa calpe, 1947, P. 398.

(١٩) المقرى : نفس المصدر والمجلد ، ص ٢٦٠ ، ص ٢٦١ ، وقارن ماورد فى المقرى أيضاً (نفس المجلد ، ص ٢٦١) من أنطارق هو الذى سار لقرطبة بنفسه لا مغيث ، لكن هذه الرواية لا تستند على أى أساس من الصحة لأن كتب الفتح الموثوق فيها تنص على أنمغيثاً الرومى هو فاتح قرطبة ، راجع على سبيل المثال ، ابن عذارى : البيان المغرب، حـ٢، أخبار مجموعة هو فاتح قرطبة ، راجع على سبيل المثال ، ابزعذارى ظ البيان المغرب ، حـ ٢ ، أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ، وإذا أضفنا إلى ذلك أن بلاط قرطبة الرومانى القديم عرف بعد الفتح باسم بلاط مغيث نسبة اليه وهو ما يؤكد قيام مغيث بمهمة فتحها ، راجع أيضاً : السيد عبد العزيز سالم : قرطبة حاضره الخلافة فى الأندلس ، الجزء الأول ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧١ ص ٢٢ ، ١٥ .

وطرسيل (Tercios) (٢٠) . وظل مغيث متربصاً بها فترة متجنباً فرصة العبور إلى الضفة الأخرى لاسيا وأن القنطرة التى تصل الشاطئين كانت مهدمة فى ذلك الحين (٢١) .

وكانت قرطبة فى ذلك الوقت مدينة حصينة يدور حولها سور من الحجر الضخم وتقوم على حراستها حامية قرطبة وكانت المدينة تتألف من قسمين يفصل بينهما سور حاجز أقامه الرومان قديماً يبدأ جنوباً من La Cruz del Rastro. ليصل شمالا حتى La puerta del Rincon ، وكان الغرض من اقامة السور الحاجز هو فصل الأهالى الذين يسكنون القسم الشرقى من المدينة عن القسم الغربى الذى يشتمل على المؤسسات الحكومية مثل قصر الحاكم وثكنات الجند ، واستمر الوضع على ما هو عليه أيام القوط ، وهذا القسم الغربى هو ما عرف فى العصر الاسلامى بالمدينة (٢٢) .

وكان على مغيث الرومى أن يواجه هذا الموقف وأن يتغلب على حصانة قرطبة لا سيا وقد أشارت المصادر العربية إلى القنطرة الواقعة على نهر الوادى الكبير وكيف خربها القوط لزيادة حصانة المدينة ، فيذكر ابن عذارى أن المسلمين ، «إذ فتحوا قرطبة ، وجدوا بها آثار قنطرة فوق نهرها ، على حنايا وثاق الاركان من تأسيس الأمم الدائرة قد هدمها مدود النهر على مر الأزمان » (٢٣) ، كما يذكر صاحب أخبار مجموعة «وكان لها جسر يعبر عليه نهرها،ووصفه بخموله وامتناعه عن الخوض الشتاء عامة»(٢٤) ،

---

(٢٠) أخبار مجموعة ، ص ٢٠ ، ابن عذارى : نفس المصدر والجزء ، ص ٩ ، المقرى : نفس المصدر والجزء ، ص ٢٦١ ،

(٢١) أخبار مجموعة ، ص ٢١ ، ابن عذارى : نفس المصدر والجزء ، ص ٣٦ .

(٢٢) أنظر :

Saavedra : OP. Cit., P. 81.

السيد عبد العزيز سالم : قرطبة ، حـ١ ، ص ١٦٣ .

(٢٣) البيان المغرب ، ح ٢ ، ص ٣٦ .

(٢٤) أخبار مجموعة ، ص ٣٠ .

أما ابن حيان فيذكر «وقيل: إنه قد كانت فى هذا المكان قنطرة من بنيان الأعاجم قبل دخول العرب بنحو مائتى سنة أثرت فيها الازمان بمكابدة المدود حتى سقطت حناياها ، ومحيت أعاليها ، وبقيت أرجلها وأسافلها» (٢٥) ويستفاد من النصوص السابقة أنه كانت هناك بالفعل قنطرة تصل ضفتى نهر الوادى الكبير ، وأن حالتها كانت سيئة عند الفتح الاسلامى ، ولا نستبعد أن القوط قد قاموا بهدم القنطرة عندما علموا بزحف المسلمين إلى استجه ، ليزيدوا موقعهم حصانة ومنعة .

وازاء حصانة قرطبة وتخريب قنطرتها ووجود حاميتها القوطية ، آثر مغيث الرومى التريث متربصاً فى غيضة أرز – كما سبق القول – وأرسل من فوره نفراً من ادلائه للاستطلاع ، فتمكنوا من أسر راعى غنم من أهل قرطبة فأمسكوا به واقتادوه هو وغنمه إلى مغيث ، فسأله عن قرطبة وحاميتها فأجابه بأنه قد رحل عنها عظماء أهلها ، ثم سأله مغيث عن حصانة سورها فأخبره الراعى انه حصين الا أن فيه ثغرة فوق باب الصورة ، وهو الباب المعروف بباب القنطرة ، ووصف له الثغرة (٢٦) .

أقام مغيث الرومى فى مكمنه طوال اليوم إلى أن غابت الشمس ، فتحرك بقواته ليعبر نهر الوادى الكبير ، وقد شاركت الظواهر الطبيعية فى نجاح عبورهم دون أن تفطن اليهم حامية المدينة ، إذ هيأت لهم العناية الالهية أسباب الفتح بأن أرسلت السماء برذاذ أخفى حوافر الخيل ، فوصلوا إلى الضفة اليمنى

---

(٢٥) ى ، المقرى : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٤٨٠ .

(٢٦) أخبار مجموعة ، ص ٢٠ ، ابن عذارى : المصدر السابق ، حـ٢ ، ص ١٠ ، المقرى: المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٢٦١ ، وسمى بباب الصورة بسبب تمثال قديم يمثل العذراء صاحبة قرطبة ، وكان قائماً على هذا الباب ، وقد ظلت الصورة التى على باب القنطرة قائمة فى موضعها إلى أن خربها ابن حفصون برجة فى عهد الأمير عبد الله بن محمد ، أنظر أخبار مجموعة ، ص ٢٠ ، ص ١٣٣ ، السيد عبد العزيز سالم : قرطبة ، حـ١ ، ص ١٧٢ هـ ٥

من النهر سالمين ، وتجمعوا هناك فى الفضاء الواقع بين النهر والسور بالقرب من باب القنطرة الذى كان اتساعه لا يزيد عن ثلاثين ذراعاً (٢٧) . وقد صادف ان حراس باب القنطرة أغفلوا الحراسة تلك الليلة لشدة البرد مع تساقط الرذاذ (٢٨) ، فتحرك مغيث وقواته بحرية بحثاً عن الثغرة التى وصفها لهم راعى الغنم ، ولما لم يعثروا عليها ، استدعوه ليدلهم على مكانها ، فدلهم عليها ، فاذا بها غير سهلة الارتقاء (٢٩) ، فعزموا على أن يجعلوا منها منفذاً لهجومهم — خصوصاً وأن فى أسفلها شجرة تين— وتسلق رجل منهم شجرة تين إذ كان أكثرهم نشاطاً وأشدهم حمية ، ثم وثب منها إلى السور ، حتى إذا استقر به ، خلع عمامته وأرسل بطرفها إلى بعض رفاقه ، ثم جذبهم اليه واحداً واحداً والحامية فى غفلة عما يجرى وراء السور طمعاً فى طلب الدفء ، وركب مغيث وبقية قواته ووقفوا ازاء باب القنطرة وتأهب لدخول المدينة بعد أن نزل رجاله من السور إلى داخل المدينة وداهموا حراس الباب المذكور وقتلوا نفراً منهم ، وكسروا الاقفال وفتحوا الباب فدخل مغيث بمن معه واستولوا على المدينة عنوة (٣٠) .

---

(٢٧) أخبار مجموعة ، ص ٢٠ ، ص ١٣٣ : المقرى ، المجلد الأول ، ص ٢٦١ .

(٢٨) أخبار مجموعة ، ص ٢٠ ، المقرى : نفس المصدر والمجلد والصفحة .

(٢٩) المقرى : نفس المصدر والمجلد ، ص ٢٦٠ ، وراجع أيضاً ، أخبار مجموعة ، ص ٢٠ .

(٣٠) مجموعة ، ص ٢٠ ، ص ٢١ ، ابن عذارى : المصدر السابق ، حـ٢ ، ص ١٠ ، المقرى : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٢٦١ ، وأنظر أيضاً : حسين مؤنس : المرجع السابع ، ص ٨٠ ومابعدها ، السيد عبد العزيز سالم : قرطبة ، حـ١ ، ص ٢٢ ومابعدها ، ولنفس المؤلف : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، ص ٨٤ ومابعدها ، وهناك من المؤرخين من يرى بأن مغيث الرومى وأصحابه أقتحموا المدينة من سورها الغربى الذى كان مهدما ، فى ذلك الحين ، أنظر :

Ocana Jimenez : La basiclica de San Vicente Y la gran mezquita de Cordoba, Al-Andalus, 1942, PP. 347 — 363; =

وعلى أثر دخول مغيث وقواته المدينة حدثت بها ضجة أفاقت على أثرها الحامية القوطية التى لم يكن عددها يزيد على أربعمائة فارس فى قول (٣١) والخمسمائة فى قول آخر (٣٢) ، والتى كانت مقيمة مع الحاكم فى القسم الغربى من المدينة ، وكان الحاكم مقيما فى قصره المقام فى الضاحية التى عرفت أيام المسلمين بربض الوراقين بغرب المدينة ، فما كاد يبلغه نبأ دخول المسلمين قرطبة حتى أسرع إلى حاميته ، ولكن لم يمهله العرب إذ فاجأوه ففر بجنده «من باب المدينة الغربى الذى يقال له باب اشبيليه ، فتحصن بكنيسة فى غربى المدينة حصينة ذات بنيان وتقانة وهى شنت أجلح فدخلها» (٣٣)

وهكذا استطاع مغيث أن يستولى على مدينة قرطبة عنوة بعد أن فر عنها حاكمها وحاميتها وتحصنوا داخل كنيسة سانت أجلح الواقعة خارج باب اشبيليه المعروف أيام العرب باسم باب العطارين (٣٤) ، فتبعهم مغيث بقواته محاصراً لهم ، وكتب من فوره إلى طارق بن زياد يبشره بالفتح (٣٥) وأقام مغيث على محاصرتهم فى الكنيسة ثلاثة أشهر ، حتى استطاع المسلمون

= وأنظر أيضاً المناقشة الرائعة التى عقدها الأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم فى هذا الموضوع والتى خرج منها برأى يقول « فاننى أشك فى دخول المسلمين مدينة قرطبة من جهة السور الغربى ، ولا استبعد دخولهم من الباب الجنوبى المواجه لربض شقنده » ، (راجع : قرطبة جـ١ صفحات ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦) .

(٣١) أخبار مجموعة ، ص ٢١ ، وراجع أيضاً : ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ١٠ ، المقرى : المصدر السابق ، المجلد الأول ص ٢٦١ .

(٣٢) أخبار مجموعة ، ص ٢١ .

(٣٣) أخبار مجموعة ص ٢١ ، ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ١٠ ، المقرى : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٢٦٢ ، وكنيسة شنت أجلح هى (San Acisclo) وأنظر أيضاً : حسين مؤنس : المرجع السابق ، ص ٨١ ، سالم : قرطبة ، جـ١ ص ٢٤
Saavedra : Op. Cit., P. 83;

(٣٤) أنظر :
Saavedra : Ibid, P. 83.

(٣٥) أخبار مجموعة ، ص ٢١ ، ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ٢ ص ١٠ ، المقرى : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٢٦٢ .

قطع الماء عنهم ذلك الماء الذى كان يجرى إلى الكنيسة فى مجرى تحت الأرض ولم يفطن اليه المسلمون حتى اكتشفه عبد أسود «ذو بأس ونجدة» يدعى رباح ممن كانوا ضمن قوة مغيث (٣٦) ، وفى خلال فترة الحصار حدث أن خرج حاكم المدينة القوطى هارباً وحده ، وهو ينوى التحصن فى جبل قرطبة ليلحق به أصحابه (٣٧) ، أو «رغب بنفسه عن بليتهم عند ايقان الهلاك» (٣٨) فنمى خبر فراره إلى مغيث ، فانطلق مغيث فى أثره ، وكان الحاكم قد جد فى سيره حتى وصل إلى ضاحية قطلوبه (Cutelobera) ، وكاد ينجو لولا أن عثر به جواده فأدركه مغيث وأسره وحبسه عنده ليقدم به على الخليفة الوليد بن عبد الملك ، ولم يؤسر من ملوك الاندلس غيره لأن منهم من عقد لنفسه اماناً ، ومنهم من هرب إلى أقاصى البلاد مثل جليقية وغيرها » (٣٩) ورجع به مغيث إلى الكنيسة فى الوقت الذى صمد فيه المحاصرون ولم يستسلموا فدعاهم مغيث إلى الاسلام أو الجزية الا أنهم رفضوا ، ويذكر المقرى نقلا عن الرازى أن مغيثاً أشعل النار فى المحاصرين حتى احرقهم فسميت «كنيسة الحرق» والنصارى تعظمها لصبر من كان فيها على دينهم من شدة البلاء» (٤٠) ، بينما يذكر ابن عذارى أن مغيثاً استنزلهم أسرا ، وضرب أعناقهم صبراً ، وسميت كنيسة الأسرى (٤١) . وبعد أن تخلص مغيث من الحامية القوطية ، رجع إلى المدينة وأقام بقصر قرطبة أو البلاط الذى اختطه مغيث الرومى لنفسه ونسب اليه (٤٢) ، وأقام جنده فى المدينة

---

(٣٦) المقرى : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٢٦٢ .

(٣٧) ابن عذارى : المصدر السابق ، حـ٢ ص١٠ ، Saavedra: Op.Cit., PP. 84, 85;

(٣٨) المقرى : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٢٦٣ .

(٣٩) ابن عذارى : المصدر السابق ، حـ٢ ص ١٠ ، وأنظر أيضاً :
حسين مؤنس : المرجع السابق ، ص ٨٢ ، السيد عبد العزيز سالم : قرطبة ، حـ١ ، ص ٢٨ .

(٤٠) المقرى : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٢٦٣ .

(٤١) ابن عذارى : المصدر السابق ، حـ٢ ، ص ١٠ .

ثم عمد إلى يهود المدينة فجعلهم بعض حرسها «استنامة اليهم . دون النصارى للعداوة بينهم» (٤٣)

والمعروف أن موسى بن نصير نزل إلى الاندلس فى جيش كبير والتقى بطارق بن زياد وأساء معاملته ، ويذكر ابن عبد الحكم أن موسى بن نصير أخذ طارقاً «فشده وثاقا وحبسه وهم بقتله » (٤٤) . وكان مغيث الرومى غلاماً للوليد بن عبد الملك فبعث اليه طارق وقال له : «ان رفعت أمرى إلى الوليد ، وأن فتح الاندلس كان على يدى ، وأن موسى حبسنى يريد قتلى أعطيتك مائة عبد ، وعاهده على ذلك» (٤٥) . ويفهم من رواية ابن عبد الحكم أن طارقاً استدعى مغيث الرومى من قرطبة ، فسار اليه بطليطلة بعد أن عاهد طارقاً على ما أراده ، والتقى مغيث بموسى بن نصير وحدثه فى أمر طارق وحثه على ألا يسىء الى طارق قائلا له : «لا تعجل على طارق ولك أعداء ، وقد بلغ أمير المؤمنين أمره وأخاف عليك وجده» (٤٦)

وكان مغيث الرومى أحد رجلين أرسلهما موسى بن نصير إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك يعلماه أنباء فتح الاندلس ، وكان الرسول الثانى هو على بن رباح التابعى (٤٧) . وصل الرسولان إلى دمشق وأبلغا أخبار الفتح العظيم للخليفة ، وذكر أنه لما دخل وفد موسى إلى الوليد فى دمشق ، قال على بن رباح للخليفة ، «تركت موسى بن نصير فى الأندلس ، وقد أظهره

---

(٤٣) المقرى : نفس المصدر والمجلد والصفحة .

(٤٤) ابن عبد الحكم (عبد الرحمن بن عبد الله) : فتوح أفريقية والأندلس ، تحقيق عبد الله انيس الطباع ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ٨٠ .

(٤٥) نفس المصدر ، ص ٨٠ ، ص ٨١ .

(٤٦) نفس المصدر ، ص ٨١.

(٤٧) نفس المصدر ، ص ٨١ ، ابن قتيبة (أبى محمد عبد الله بن مسلم) : الامامة والسياسة ، الجزء الثانى ، تحقيق طه محمد الزينى ، مؤسسة الحلبى ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٦٢ .

الله ، ونصره ، وفتح على يديه ما لم يفتح على يد أحد ، وقد أوفدنى إلى إلى أمير المؤمنين فى نفر من وجوه من معه بفتح من فتوحه فدفع اليه الكتاب من عند موسى ، فقرأه الوليد ، فلما أتى على آخره خر ساجداً» (٤٨) .

ويبدو أن مغيثا الرومى كان ناقما على موسى بن نصير ، فلم يأل جهداً فى نقده وتشويه سمعته ، اما لأنه استاء ان ينسب موسى فضل الفتح كله كله إلى نفسه مغفلا جهود طارق بن زياد ومغيث الرومى نفسه فى ذلك الفتح وأما للمعاملة السيئة التى عامل بها طارقا بن زياد قرب طلبيره ، فضلا عما حدث من طلب طارق من مغيث الرومى ابلاغ الخليفة بما حدث له على يد موسى بن نصير حسب رواية ابن عبد الحكم .

ويبدو كذلك أن الخليفة الوليد بن عبد الملك لم يقر موسى بن نصير على المعاملة التى عامل بها طارقا بن زياد بل بادر بارسال مغيث الرومى بكتاب إلى الاندلس وحين قرأه موسى بن نصير سارع باطلاق سراح طارق ، فوفى طارق لمغيث بما وعده به من قبل ومنحه المائة عبد .

وكان مغيث الرومى قد وصل إلى الاندلس فى الوقت الذى كان فيه موسى ابن نصير يعد العدة للدخول فى بلاد جليقية فدفع اليه برسالة الخليفة الذى يأمره فيها بالخروج من الاندلس والكف عن التوسع فى البلاد وعدم التوغل فيها ، والرجوع إلى دمشق «فساءه ذلك وقطع به عن ارادته ، إذ لم يكن فى الأندلس بلد لم تدخله العرب إلى وقته غير جليقية ، فكان شديد الحرص على اقتحامها» (٤٩) . فلم يكن امام موسى الا أن يلاطف مغيثا ويسترضيه

---

(٤٨) ابن قتيبة : المصدر السابق جـ٢ ، ص ٦٢ ، وأنظر أيضاً :
السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين ، ص ١٠٠ .

(٤٩) المقرى : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٢٧٥ ، ص ٢٧٦ .

ويمنيه بمضى فى استكمال فتح بلاد الاندلس فعرض عليه أن يمنحه نصف ما يغنم من البلاد التى يقوم بفتحها و« أن يكون شريكه فى الأجر والغنيمة»(٥٠) فضلا عن منحه الموضع الذى نسب اليه بعدئذ ، وهو بلاط مغيث بجميع أرضه من أرض الخمس (٥١) ، بدلا من القصر الذى كان قد اختطه لنفسه بمدينة قرطبة بحجة أن هذا القصر لا يصلح لمغيث وانما يصلح للعامل الذى يتولى قرطبة ، وعوضه عنه بدار شرقية ذات سقى وزيتون وثمار يقال لها اليسانه (Lucena) كانت من أملاك الحاكم القوطى ، فتنحى مغيث عن القصر المذكور ونزل الدار التى عينها له موسى غربى مدينة قرطبة والتى عرفت فيما بعد ببلاط مغيث (٥٢) ، فلما اطمأن موسى إلى ذلك بادر بالسير وبصحبته مغيث لاستكمال فتح مدن شمال الاندلس حتى وصل المسلمون فى فتوحهم إلى البحر المحيط ، وأراد موسى أن يفتح جليقية ويبدو أنه استولى على مدينة لك بجليقية ، وهى من أهم مدن هذا الاقليم (٥٣) وفيها أتاه رسول آخر من الخليفة الوليد بن عبد الملك يكنى ابا نصر بعثه إلى موسى عندما استبطأه فى العودة ، وكتب اليه يوبخه ويأمره بالخروج (٥٤) فبادر موسى وطارق وبصحبتهما الرسولان مغيث وأبو نصر بالعودة إلى

---

(٥٠) المقرى : المصدر السابق ، المجلد الاول ، ص ٢٧٦ .

(٥١) أنظر ، نبذه من أخبار فتح الأندلس مأخوذة من الرسالة الشريفية إلى الأقطار الأندلسية فى ، ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، ص ٢٠٩ .

(٥٢) ابن الخطيب (لسان الدين) : كتاب أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام و ما يجر ذلك من شجون الكلام ، نشرة ليفى بروفنسال ، بيروت ، ١٩٥٦ ، ص ٢٠٣ ، المقرى : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٤٦٥ .

(٥٣) أنظر Gonzalez Palencia : Historia de la Espana musulmana, C. Labor, Madr8d, 1945, P. 11;

وأنظر أيضاً : السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين ، ص ١٠٣ ، ص ١٠٤ .

(٥٤) المقرى : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٢٧٦ .

جنوب الاندلس ، وفوصلوا إلى طليطلة ومنها اتجهوا إلى قرطبة فاشبيلية التى استخلف موسى فيها ابنه عبد العزيز فى ذى الحجة سنة ٩٥ هـ بعد أن اختارها له حاضرة للاندلس (٥٥) . ويروى المقرى نقلا عن الحجارى أن طارقا بن زياد طمع فى أن يأخذ الأمير القوطى حاكم قرطبة أسير مغيث منه فلما رفض «أغرى به سيده موسى بن نصير ، وقال له : يرجع إلى دمشق وفى يده عظيم من عظماء الاندلس ، وليس فى أيدينا مثله ، فأى فضل يكون لنا عليه ؟ فطلبه منه ، فامتنع من تسليمه» (٥٦) ويضيف ابن حيان قائلا : «فهجم موسى على العلج وانتزعه من مغيث ، فقيل له : ان سرت به معك حيا ادعاه مغيث والعلج لا ينكر ، ولكن اضرب عنقه ، ففعل فاضطغنها عليه مغيث وبالغ فى أذيته عند سليمان ؟»(٥٧)

على أية حال عاد مغيث الرومى فى صحبة موسى بن نصير وطارق بن زياد إلى المشرق ، وعبر موسى بما غنمه من أموال وذهب وفضة وجواهر فى المراكب إلى طنجة (٥٨) ، ويصف المؤرخون موكب النصر الذى سار فيه موسى خلال رحلته فى المغرب وصفا يفوق الخيال فالذهب والجواهر والأموال حملت من طنجة على العجلات «فكانت وسق مائة عجلة وأربعة عشرة عجلة ، أما السبايا فلم يسمع قط بمثل سبايا موسى بن نصير فى الاسلام » (٥٩) .

ويذكر المؤرخون أن مغيثا الرومى حرص بعد عودته على تشويه صورة

---

(٥٥) المقرى : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٢٧٦ .

(٥٦) فى المقرى : نفس المصدر ، المجلد الثالث ، ص ١٣ ، وأنظر أيضاً . نفس المصدر ، المجلد الأول ، ص ٢٧٩ .

(٥٧) فى ، المقرى : نفس المصدر ، المجلد الثالث ، ص ١٣ ، أخبار مجموعة ، ص ٢٧ .

(٥٨) ابن عذارى : البيان المغرب ، حـ١ ، ص ٤٣ .

(٥٩) نفس المصدر والجزء والصفحة .

كل من موسى بن نصير وطارق بن زياد والاساءة اليهما عند الخليفة سليمان ابن عبد الملك ، على حين يروى صاحب أخبار مجموعة ان مغيثا وطارقا ابن زياد هما اللذان رميا موسى بن نصير بأقبح الصفات ونقلا للخليفة أخبار اساءاته لهما فى الأندلس ، ولم ينس مغيث أن يخبر الخليفة بقصة أسيره حاكم قرطبة ، وبالغا فيما أصابه موسى هناك من كنوز ونفائس وجواهر ، فأوغرا صدر سليمان فبادر بعزل موسى واعفائه من كل أعماله بل أمر بسجنه فى النهاية (٦٠) .

أما موقف مغيث من طارق بن زياد – حسب رواية الحجارى خاصة عندما أراد سليمان بن عبد الملك أن يصرف ولاية الاندلس إلى طارق ، استشار مغيثا فى هذا الأمر «فقال : لو أمر أهلها بالصلاة إلى أى قبلة شاءها لتبعوه ولم يرو أنهم كفروا ، فعملت هذه المكيدة فى نفس سليمان» (٦١) .

وكيفما كان الأمر فان مغيثا بتصرفه هذا أساء اساءة كبرى إلى التابعى الجليل موسى بن نصير وإلى قائده طارق بن زياد ، وربما كان يدفعه إلى ذلك مصلحة شخصية وهى طمعه فى ولاية الاندلس أو العودة اليها أو أنهما لم يوفياه حقه وليس أبلغ على ذلك من قول مغيث نفسه :

أغثتكم ولكن ماوفيتم   فسوف أعيث فى غرب وشرق (٦٢)

ولهذا فقد عاد مغيث الرومى فعلا إلى الأندلس وعاش فى بلاطه وأملاكه وأنجب بنينا سيكون لهم ولاحفادهم شأن كبير فى تاريخ الأندلس ، إلى أن استدعاه الخليفة هشام بن عبد الملك للاشتراك فى الحملة التى يعدها للثأر من هزيمة العرب فى غزوة الاشراف .

---

(٦٠) أنظر : أخبار مجموعة ص ٣٥ ، المقرى : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٢٨٠ .

(٦١) المقرى : نفس المصدر ، المجلد الثالث ، ص ١٣ .

(٦٢) فى ، المقرى : نفس المصدر ، المجلد الثالث ، ص ١٤ .

ولعب مغيث الرومى بعد ذلك دوراً هاما فى الأحداث التى جرت فى المغرب ، فقد كان أحد رجلين اختارهما الخليفة هشام لمعرفتهما بالمغرب والأندلس ليكونا مستشارين لقائده كلثوم بن عياض القشيرى على الجيش الذى جهزه الخليفة وسيره إلى المغرب ، ومع أن جيش كلثوم قد بلغت عدته نحو سبعين ألف على قول بعض المؤرخين بما انضاف اليـــه من قوات افريقية ، الا أن الانشقاق والانقسام دب بين صفوفه بشكل أصبح من المستحيل سيطرة كلثوم عليه ، ويرجع سبب ذلك فى رأى «أن أهل الشام أتوا يزهون بعددهم وعديدهم ، وبما أباح لهم الخليفة من الأباحات ، على المناكيد من أهل أفريقية والمغرب الذين حطمهم البربر فى أكثر من موقعة ، ولم يكن أهل افريقية ليرضوا من أهل الشام بتلك المعاملة الغريبة بعد جهادهم وحسن بلائهم » (٦٣) ، فتجنب كلثوم النزول فى القيروان وسار إلى سبيبه على مسيرة يوم منها (٦٤) ، كما أن ابن أخيه بلج بن بشر طلب من أهل افريقية ألا يغلقوا أبوابهم حتى يعرف أهل الشام منازلهم ، «ومع ذلك كلام كثير يغيظهم به» (٦٥) . أثارت هذه التصرفات عرب افريقية وأغضبت حبيب بن ابن عبيده الذى كان معسكراً على وادى شلف فكتب إلى كلثوم يندد بما فعله ابن أخيه بلج بن بشر بل يطلب منه الرحيل

---

(٦٣) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى حـ١ ص ١ ، ٢٩٤ ، وأنظر أيضاً : ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص ٩٦ ، ابن عذارى : المصدر السابق ، حـ١ ، ص ٥٤ ، ص ٥٥ ، أخبار مجموعة ، ص ٣٦ ، ص ٣٧ ، وأنظر أيضاً :

Isidoro de las Cagigas : Los Mozarabes, T.I, Madrid, 1947, P. 53;

السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين ، ص ١٥٦ ، ولنفس المؤلف ، المغرب الكبير ، حـ٢ (العصر الاسلامى) ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٦ ، ص ٣٠٨ .

(٦٤) ابن عبد الحكم : نفس المصدر ، ص ٩٧ ، ابن عذارى : المصدر السابق ، حـ١ ، ص ٥٤ .

(٦٥) ابن عذارى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

بعسكره من افريقية «والا حولنا أعنة الخيل اليك» (٦٦) ، ورغم اعتذار كلثوم لابن أبي عبيدة فقد كانت تلك التصرفات بداية للتصدع بين قوات الخلافة الشامية وعرب افريقية .

على أية حال خرج كلثوم على رأس قواته ، وجعل على رجالة افريقية مغيث الرومى وعلى فرسانها هارون القرنى وذلك لمعرفتهما باحوال افريقية وخبرتهما فى معارك البربر ، صوب أرض طنجة لتأديب الثوار الذين خرجوا بقيادة خالد بن حميد الزناتى فى جموع هائلة واعداد غفيرة ، وتم اللقاء على الضفة الشمالية لاسافل وادى سبو فى موضع يقال له بقدورة ، ويذكر صاحب اخبار مجموعة أن مغيثا الرومى وهارونا القرنى نصحا كلثوم عندما استشارهما بحفر خندق حول عسكر المسلمين وقالا له :«خندق أيها الأمير وتلوم بالكراديس ، وأعطنا الخيل نخالفهم إلى قراهم وذراريهم » (٦٧) لكنه عاد واستمع إلى نصيحة ابن أخيه بلج ، وكان كلثوم لا يعصيه ، إذ قال له : «لا تفعل ، ولا يرعك كثرة هؤلاء ، فان أكثرهم عريان وأعزل لا سلاح لهم » (٦٨) فناوشهم كلثوم القتال ، وجعل بلج ابن أخيه على قيادة الخيل الشاميين ليدوسهم بها ، وكانت الخيل أوثق فى نفس كلثوم من الرجاله(٦٩) . وفاجأ بلج بن بشر البربر صباحاً، فاستقبلوه بالصياح والحجارة فكانت الخيل تنفر منهم ، كما عمدوا إلى الرمك الصعبة فعلقوا فى أذنابها القرب والانطاع اليابسة ثم وجهوها نحو معسكر كلثوم فنفرت الخيل (٧٠) واضطر كلثوم إلى المناداة بالنزول عن الخيل » وكان ذلك حاجة البربر

---

(٦٦) ابن عذارى : المصدر والجزء والصفحة ١ ، ص ٥٤ .
(٦٧) أخبار مجموعة ، ص ٣٧ ، ص ٣٨ .
(٦٨) نفس المصدر ، ص ٣٧ .
(٦٩) ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص ٩٨ .
(٧٠) أخبار مجموعة ، ص ٣٨ .

لكثرتهم ، وانهم لم تكن لهم خيل تكافىء خيل المسلمين» (٧١) . مما ترتب عليه اضطراب صفوف جيش كلثوم . فالتحم البربر بصفوف أهل الشام ، رغم محاولات بلج المتكررة لوقفهم . ونجح البربر فى عزل بلج عن قوات كلثوم ، وأحاطوا به وبقوات عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة ، بينما وجه خالد بن حميد الزناتى قواته الرئيسية نحو كلثوم فهزموه ، وقتل حبيب ابن أبى عبيدة ، ومغيث الرومى ، وهارون القرنى وسليمان بن أبى المهاجر ، وكثير من وجوه العرب ، وألزمت قوات افريقية من الخيالة والرجالة ، وثبت كلثوم ولكنه قتل وهزمت الشامية هزيمة نكراء (٧٢) .

وهكذا لقى القائد مغيث الرومى مصرعه فى موقعة بقدورة بعد أن أدى خدمات جليلة لدولة الاسلام ، فقد اشترك مع طارق بن زياد فى موقعة كورة شذونة ، تلك الموقعة التى كانت بداية انهيار السيادة القوطية على اسبانيا وخضوعها لدولة الاسلام فى الأندلس التى استمرت ما يقرب من ثمانية قرون ، كما يسجل لمغيث الرومى فتح مدينة قرطبة التى اصبحت حاضرة الاسلام فى الأندلس فيما بعد ، وكان أحد شخصين أرسلهما أمير المغرب موسى بن نصير إلى دمشق حاضرة الدولة الأموية لابلاغ الخليفة الوليد بن عبد الملك بانتصارات المسلمين فى اسبانيا ، ورغم ماينسبه المؤرخون العرب من دور غير كريم قام به مغيث فى الوقيعة بين الخليفة سليمان بن عبد الملك وموسى بن نصير من جهة وطارق بن زياد من جهة أخرى معللين ذلك بطمعه فى ولاية الاندلس ، فان مغيثا الرومى كان تابعيا جليلا أدى للاسلام ولدولته خدمات مجيدة سجلها له التاريخ ولاسرته التى لعبت من بعده دوراً بالغ الأهمية فى الامارة الاموية بالاندلس .

---

(٧١) أخبار مجموعة ، ص ٣٨ .

(٧٢) أخبار مجموعة ، ص ٣٩ ، ابن عذارى : المصدر السابق ، حـ١ ، ص ٥٥ ، ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص ٩٩ ، وأنظر أيضاً .

Chejne (Anwar) : Historia de Espana musulmana, ediciones catédra, Madrid, 1980, P. 23.

٢ أبناء مغيث :

فقد كان ابنه عبد الواحد بن مغيث من أكابر رجال الدولة المروانية فى الأندلس ، تولى الحجابة للأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام المعروف بالداخل (١٣٨ — ١٧٢ هـ) (٧٣) ، ولابنه الأمير هشام الأول (١٧٢ - ١٨٠ هـ) (٧٤) ، وكانت وفاته فى أيام الحكم الأول عام ١٩٨ هـ (٧٥) .

كما لمع أبناء عبد الواحد بن مغيث الثلاثة عبد الكريم وعبد الملك وعبد الحميد الذين كانوا من كبار رجال الدولة الاموية سياسة وقيادة وكياسة وعلما ، فقد كان عبد الكريم وعبد الملك من أعظم القادة العسكريين فى عهدى الأمير هشام الأول والحكم الأول ، وبدأ نجم عبد الكريم ابن عبد الواحد بن مغيث يلمع منذ امارة هشام الأول إذ عهد اليه بولاية كورة جيان ، ثم كلفه بقيادة جيوشه فى غزواته للممالك النصرانية فى شمال اسبانيا وافرنجه ، ثم استحجبه (٧٦) . وفى عهد الحكم الأول تولى الحجابة له طوال عهده «وكان من العقل وحسن الرأى بمكان كبير» (٧٧) ، إلى أن توفى الحكم ، فتولى الحجابة والوزارة والكتابة والقيادة لابنه عبد الرحمن

---

(٧٣) ابن عذارى : المصدر السابق ، حـ٢ ، ص ٤٨ ، وأنظر أيضاً : النباهى المالقى : كتاب المرقبة العليا ، ص ١٢ .

(٧٤) ابن الأبار (أبى عبد الله محمد بن أبى بكر القضاعى) : كتاب الحلة السيراء ، الجزء الأول ، تحقيق حسين مؤنس ، الطبعة الأولى ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٦٣ ، ص ١٣٥ .

(٧٥) ابن سعيد المغربى : المغرب فى حلى المغرب ، حـ١ ، ص ٤٤ .

(٧٦) ابن عذارى : المصدر السابق ، حـ٢ ، ص ٦١ ، ابن الابار : المصدر السابق ، حـ١ ، ص ١٣٥ .

(٧٧) ابن القوطية : المصدر السابق ، ص ٦٧ ، ابن حيان : المقتبس من أنباء أهل الأندلس ، تحقيق محمود على مكى ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ص ٢٥ .

الأوسط حيث توفى فى صدر امارته عام ٢٠٩ هـ (٧٨) ، يذكر ابن الخطيب ان عبد الكريم بن‌عبد الواحد بن مغيث تولى بجانب الحجابة ، القيادة والكتابة (٧٩) ، وفى رواية لابن القوطيه أنه «لم يختلف مختلف من شيوخ الاندلس أنه يخدم بنى أمية بالاندلس أكرم منه عناية وأكثر طاعة ا لا أنه كان يقبل الهدية والمكافأة على قضاء الحاجة (٨٠) . ويصفه ابن حيان بأنه «أكمل من حمل الاسم وأجمعهم لكل حسنه» (٨١) . ويسميه ليفى بروفنسال بحق أعظم رجال دولة الحكم على الاطلاق (٨٢) ، فقد كان يجمع خصالا لم تكن تتوفر للكثيرين من رجال الدولة فى عصره ، فقد كان سياسيا محنكا وعسكريا ممتازاً ، وكاتبا أديبا عالما ، وكان على حد قول الرازى أكمل من ولى الحجابة لبنى مروان (٨٣) .

وحظى أخوه عبد الملك بن عبدالواحد بن مغيث بمكانة رفيعة فى عصر الأمير هشام الأول فولاه الوزارة والقيادة (٨٤) ، فاشترك فى قيادة الجيوش الاسلامية إلى شمال اسبانيا وبلاد الفرنجة وفى عصر الحكم الأول تولى القيادة وعهد اليه بولاية سرقسطة قاعدة الثغر الأعلى الاندلسى (٨٥) .

---

(٧٨) ابن حيان : المصدر السابق ، صفحات ٢٧ ، ٢٨ ، ٣١ ، ابن‌القوطية : المصدر السابق ، ص ٦٧ ، ابن عذارى : المصدر السابق ، حـ ٢ ، ص ٨٢ .

(٧٩) ابن الخطيب (لسان الدين) : الاحاطة فى أخبار غرناطه ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، المجلد الأول ، دار المعارف ، مصر ، ص ٤٨٨ .

(٨٠) ابن القوطيه : المصدر السابق ، ص ٩٤ ، ابن حيان : المصدر السابق ، ص ٣٠

(٨١) ابن حيان : نفس المصدر ، ص ٢٥ ، ص ٢٨ .

(٨٣) أنظر :

Lévi-Provençal : Op. Cit, T.I, P. 102.

(٨٣) فى ، ابن حيان : المصدر السابق ، ص ٢٥ ، وأنظر أيضاً ، نفس المصدر ، حاشية رقم ٨٢ ، ص ٤٤٤ ، ص ٤٤٥ .

(٨٤) المقرى : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٣٣٧ ، ص ٣٣٨ .

(٨٥) ابن الابار : المصدر السابق ، حـ ١ ، ص ١٣٥ .

أما عبد الحميد بن عبد الواحد بن مغيث فقد برز نجمه وعلا شأنه في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ – ٢٧٣هـ) فعهد اليه بولاية غرب الأندلس (٨٦) .

كما برز من هذه الأسرة أيضا عبد الملك بن عبد الله بن محمد بن عبد الحميد بن عبد الواحد بن مغيث الذى تولى قيادة الأسطول الاندلسى فى حملة بحرية على ساحل جليقية شمالا سنة ٢٢٦ هـ (٨٧) .

وتفصل الروايات العربية الدور الهام الذى لعبه أفراد هذه الأسرة فى الجهاد ضد الممالك النصرانية شمالى اسبانيا ثم بلاد الفرنجة ، وفى اخماد بعض الثورات التى قامت ضد الدولة الأموية فى الأندلس ، ففى سنة ١٧٦هـ (٧٩٢م) بعث الأمير هشام الأول قائده ووزيره عبد الملك ابن عبد الواحد ابن مغيث لغزاة العدو ، فبلغ ألبه والقلاع فأثخن فى نواحيها (٨٨) ، بعد وقت قليل من ارتقاء ألفونسو العفيف Alfonso II El Casto) (٧٩١ – ٨٤٢ م) خليفة برمود الأول الذى نقل عاصمته إلى أبيط (Oviedo) (٨٩) .

وفى العام التالى ١٧٧ هـ (٧٩٣)م بعث بة الأمير هشام الأول بالصائفة فى جيش كثيف إلى أرض الروم فى أربونه (Narbonna) وجرنده (Gerona) (٩٠) ، وكانت جرندة قد سقطت فى أيدى الفرنجة سنة

---

(٨٦) ابن حيان : المصدر السابق ، ص ١٥٤ ، ص ١٥٥ .

(٨٧) نفس المصدر ، ص ٣٩٨ ، ص ٣٩٩ .

(٨٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ٦ ، بيروت ، ١٩٦٥ ، ص ١٣٣ ، المقرى : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٣٣٧ .

(٨٩) أنظر : Lévi-Provençal : OP. Cit., T.I, P. 102.

(٩٠) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ٢ ص ٦٤ ، المقرى : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٣٣٧ ، الخشنى (أبى عبد الله محمد بن حارث) : قضاة قرطبة ، تحقيق ابراهيم الإبيارى ، دار الكتب الاسلامية ، ١٩٨٢ ، ص ٩١ .

١٦٩هـ(٧٨٥م)(٩١) قبل وفاة عبد الرحمن الداخل بقليل. فلما توفى عبد الرحمن الداخل ١٧٢ هـ (٧٩١ م) ، وخلفه ابنه هشام الأول ، فانتهز الفرنجة فرصة نشوب الحرب بين هشام الأول وأخوته واستولوا على المنطقة الساحلية فى جنوب سبتمانيا وعلى أرجل (Urgel) سنة ١٧٣ هـ (٧٨٩م) (٩٢) ، فكان ان وجه الأمير هشام هذه الصائفة لمحاربة الفرنج وعدم السماح لهم بالتدخل فى شئون امارته ، فبدأ القائد عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث بمحاصرة جرندة شمال شرق برشلونه وثلم أسوارها بالمجانيق (٩٣) ، ولما لم يفلح فى افتتاحها مضى إلى سبتمانيافعاث فى نواحيها وبقى شهوراً يحرق قراها ويخرب حصونها ، حتى وصل إلى حاضرتها أربونه فى الوقت الذى كان فيه شارلمان ملك الفرنجة مشغولا بمحاربة الأفار ، وعدم استطاعته ارسال نجدات فورية إلى الحدود الاندلسية (٩٤) ، وتذهب الرواية الاسلامية إلى أن عبد الملك قد افتتح مدينة أربونة فى هذه الغزوة (٩٥) ، ولكن يبدو ان عبد الملك اكتفى باحراق ضواحيها وذهب إلى قرقشونه لمواجهة الجيش الذى بعثه لويس ملك اكوتين بقيادة جيوم دوق طولوشه المعروف بذى الأنف القصيرة ، فالتقى الجيشان على ضفاف نهر ابنيو(Onbeeu) بين

---

(٩١) أنظر :

Lévi-Provençal : OP. Cit., T.I, P. 102.

(٩٢) Jackson : The making of medieval Spain, California, 1976, P. 18.

(٩٣) ابن عذارى : المصدر السابق ، حـ٢ ، ص ٦٤ ، وأنظر أيضاً :

Lévi-Provençal : OP. Cit., T.I, P. 102.

(٩٤) أنظر :

Oman (Sir Charles) : The dark Ages, (476 — 918) London, 1962, P. 356;

وأنظر أيضاً :

محمد محمد مرسى الشيخ : دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين فى الأندلس ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، ١٩٨١ ، ص ١٦١ .

(٩٥) ابن عذارى : المصدر السابق ، حـ٢ ، ص ٦٤ ، ابن الأثير المصدر السابق ، حـ٢ ، المقرى : المصدر السابق ، المجلد الاول ، ص ٣٣٧ ، ص ٣٣٨، محمد الشيخ : نفس المرجع ، ص ١٦١ .

أربونه وقرقشونه ، جرت معركة كبيرة انتصر فيها المسلمون ومنى فيها الفرنجة بخسائر فادحة ، بالرغم مما أبداه جيوم دوق طولوشة من شجاعة فائقة (٩٦) ، وغنم المسلمون غنائم كثيرة وعدداً وافراً من السبي ، فقد بلغ فيه «خمس السبي إلى خمسة وأربعين ألفا من الذهب العين» (٩٧) . وأرغم عبد الملك أسراه من الفرنج على جر أحمال من الأحجار ومواد البناء من سور أربونه إلى باب قصر الامارة بقرطبة ، ومنها بنى المسجد الذى يقع تجاه باب الجنان من أبواب قصر الامارة (٩٨) .

وأما صائفة ١٧٨ هـ (٧٩٤م) فقد كانت أقل توفيقا ، إذ بعث الأمير هشام جيشين فى وقت واحد ، احدهما بقيادة عبد الملك بن عبد الواحد ابن مغيث ووجهته بلاد أشتوريش ، والآخر بقيادة عبد الكريم بن عبد الواحد ابن مغيث ووجهته ألبه والقلاع فغنم وسلب (٩٩) ، وقد نجح عبد الكريم فى التغلب على الجلالقة وانتهى إلى استرقه ((Astorga))، أما عبد الملك فوصل إلى مدينة أبيط ونهبها وأثخن فيها،وفى أثناء عودته فوجىء بهجوم قام به نصارى اشتوريش فى بطيحة ثأرفيهاالنصارى من المسلمين وقتل منهم عدد كبير (١٠٠) .

---

(٩٦) ابن عذارى : المصدر السابق ، حـ٢ ص ٦٤ ، وأنظر أيضاً
Lévi-Provençal : OP. Cit., IT., P.102.

(٩٧) ابن عذارى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٩٨) المقرى : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٣٣٧ ، بينما ينسب ابن القوطية فتح أربونه إلى عبد الحميد بن مغيث فيقول : «وافتتح عبد الواحد بن مغيث أربونه فى أيامه ، وفى الخمس الحاصل منها بنى القنطرة والجامع ، راجع : (تاريخ افتتاح الأندلس ، ص ٦٥) .

(٩٩) ابن الأثير : المصدر السابق ، حـ٢ ، ص ١١٤ ، المقرى : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٣٣٨ .

(١٠٠) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء والصفحة ، وراجع أيضاً : المقرى : نفس المصدر والجزء والصفحة ،
Barrau Dihigo : Royaume Asturien, P. 123, N.2;
Lévi-Provençal : OP Cit., T.I, P. 102;
السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين ، ص ٢١٧ .

وكان من الطبيعى أن تحدث الهزيمة رد فعل كبير عند المسلمين ، فبادر الأمير هشام الأول بتجهيز جيش أسند قيادته لقائده عبد الكريم بن عبد الواحد ابن مغيث للانتقام من الاشتوريين ، فسار فى صيف ١٧٩ ﻫ متوجهاً إلى استرقه فلما انتهى استولى عليها (١٠١) ، أما ألفونسو الثانى عندما بلغته أخبار سقوط احدى حواضره ومسير الجيش الاسلامى اليه ، أخذ من فوره فى جمع حشوده واستمد عون البشكنس وأهل البلاد المجاورة ، فانتهى اليه جمع كبير ، فحشد جيوشه «ما بين حيز جليقية و الصخرة» وأفرغ المناطق السهلية من سكانها ونقلهم إلى المناطق الجبلية الساحلية تمهيداً للاشتباك مع جيوش المسلمين (١٠٢) ، عندئذ قدم عبد الكريم احد كبار قواده هو القاضى فرج بن كنانة (١٠٣) على رأس أربعة آلاف من الفرسان من جند شذونه لمواجهة جيش أشتوريش ، ورحل باقى الجيش الاسلامى بقيادة عبد الكريم فى أثره ، فقضى على كل مقاومة فى طريقه ، وأحدث الخراب والدمار فى بلادهم ومزارعهم (١٠٤) ، والتحم جيش فرج بن كنانة مع فرقة مسيحية عدتها ثلاثة آلاف فارس بقيادة غند مارة فى واد يقال له وادى كوثيه ، ونجح القائد العربى ابن كنانة فى الحاق الهزيمة بها «وأسر غندمارة وقتل من أصحابه عدد كبير» ، وغنم المسلمون جميع ما فى تلك

---

(١٠١) ابن عذارى : المصدر السابق ، حـ٢ ، ص ٦٤ ، المقرى : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٣٣٨ ، وراجع أيضاً :
Lévi-Provençal : OP. Cit., T.I, P. 102;

السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين ، ص ٢١٧ ، ص ٢١٨ .

(١٠٢) ابن عذارى : نفس المصدر والجزء والصفحة ، ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، القسم الأندلس ص ١٢ .

(١٠٣) ابن عذارى : نفس المصدر والجزء والصفحة ، وعن ترجمة القاضى فرج بن كنانة راجع ، النباهى المالقى (أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن) : كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ، بيروت ، ص ٥٤ ، الخشنى : قضاة قرطبة ، ص ٩٥ .

(١٠٤) ابن عذارى : المصدر السابق ، حـ٢ ، ص ٦٤ .

الناحية (١٠٥) . ثم واصل فرج بن كنانة تقدمه لتنفيذ مهمته الأصلية وهي ملاقاة ألفونسو الثانى ، الذى تحصن فى حصن له على ضفاف وادى نلون (Nalon)، فضرب الحصار عليه ووافته هناك جيوش عبد الكريم واشتركت معا فى حصاره ، غير أن ألفونسو الثانى استطاع القرار من الحصن متوجها إلى حاضرة ملكه ، فاحتل عبد الكريم الحصن وغنم المسلمون ما وجدوه فيه من الأطعمة وضروب الزخر ، وفى اليوم التالى بعث عبد الكريم قائده فرج بن كنانة على رأس عشرة آلاف فارس لملاحقة ألفونسو ، ونجح فى مهمته فأوقع بالملك الاشتورى وجيشه الهزيمة «وقتل فيهم قتلا ذريعاً» ، واستولى على جميع معداته وذخائره (١٠٦) .

وفى عهد الأمير الحكم الأول (١٨٠ — ٢٠٦ ﻫ) أسند إلى حاجبه عبد الكريم بن الواحد بن مغيث قيادة حملة عام ١٨٥ ﻫ موجهة إلى جليقية فأثخن عبد الكريم بقواته فى أراضيها وتعقب أهلها بالقتل ، وظفر بهم وعاد إلى قرطبة ظافراً (١٠٧) .

وهناك رواية غريبة منسوبة إلى الرازى ، وقيل لابن حيان،مفادها ان الأخوين عبد الملك وعبد الكريم ابنى عبد الواحد بن مغيث كانا قد انضما سنة ١٨١ ﻫ فى بداية عهد الحكم الأول إلى عمه عبد الله بن عبد الرحمن الا اخل

---

(١٠٥) ابن عذارى : المصدر السابق ﺟ ٢ ، ص ٦٤ ، ص ٦٥ .

(١٠٦) ابن عذارى : نفس المصدر والجزء ، ص ٦٥ ، وراجع أيضاً : النباهى المالو المرقبة العليا ، ص ٥٤ .

Lévi-Provençal : Op. Cit, T.I, P. 102.

(١٠٧) المقرى : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٣٣٩

فى ثورته ضد الأمير الحكم ، وأنهما سارا إلى سرقسطة ، لكن أبا صفوان عاملها من قبل الحكم استطاع أن يهزمهم ويأسر «زعيمهم» عبد الكريم ابن عبد الواحد بن مغيث ، ويذكر ان الأخوين عادا بعد ذلك إلى الطاعة واستأمنا فى أوائل عام ١٨٦ هـ ، فأمنهما الحكم ، ووفدا على قرطبة ، وقدما خضوعهما واخلاصهما ، ويميل مؤرخ محدث إلى تأييد هذه الرواية بدليل أنه لم يرد للأخوين ذكر خلال الأعوام الخمسة من ١٨١ — ١٨٦ هـ مع
خضوعهما واخلاصهما ، ويميل مؤرخ حديث إلى تأييد هذه الرواية بدليل أنه لم يرد للأخوين ذكر خلال الأعوام الخمسة من ١٨١ — ١٨٦ هـ مع
«أنهما كانا دائما فى الطليعة فى قيادة مختلف الحملات والغزوات» (١٠٨)

على أن هذه الثورة المزعومة تبدو صعبة فى تحقيقها ، ولو فرض أن الأخوين نجحا فى تحقيقها، فانهما بذلك لن ينالا مجداً ونفوذاً أكبر مما فى أيديهما فعلا ، فعبد الكريم ظل حاجبا طوال عصر الحكم الأول ، وقاد له حملة على جليقية سنة ١٨٥ هـ كما سبقت الاشارة ، أما عبد الملك فبرز نجمه أثناء قيادته للجيوش الاسلامية فى بلاد الفرنجة ثم فى شمال اسبانيا .

وفى سنة ٢٠٠ هـ (٨١٥ — ٨١٦ م) سير الأمير الحكم وزيره عبد الكريم ابن عبد الواحد ابن مغيث لغزو اشتوريش (١٠٩) ، وكان سبب انفاذ هذه الصائفة أن أهل مدينة بنبلونه كانوا قد ثاروا على عاملها مطرف بن موسى بن قسى وقتلوه وأقاموا عليهم واحداً منهم يدعى فلاسكو (Velasco) وانضموا إلى الملك ألفونسو الثانى Alfonso II (١١٠) ، فسار اليهم

---

(١٠٨) أنظر : محمد عبد الله عنان : دولة الاسلام فى الأندلس ، العصر الأول — القسم الأول ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ٢٣١ ، وهامش (١) .

(١٠٩) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٧٥ ، المقرى : المصدر السابق ، جـ١ ص ٣٤٠ .

(١١٠) أنظر : Lévi-Provençal : Op. Cit. T.I, P. 124.

عبد الكريم ودخل بقواته أراضى أشتوريش وتوسطها وأهلك معائشها ومرافقها ، وحطم زروعها وهدم منازلها وحصونها ، حتى استوفى جميع قرى وادى أورن» (١١١) واشتبك مع قوات الفونسو الثانى على نهر أرون (Oron) وانتصر على الفونسو الثانى انتصاراً حاسما مع قوات الفونسو الثانى ومرافقها ، وحطم زروعها وعدم منارلها وحصونها ، حتى استوفى جميع قرى أوادى أرون » (١١١) واشتبك مع قوات الفونسو الثانى على نهر أرون (Oron) وانتصر على الفونسو الثانى انتصاراً حاسما وقتل من قواته عدداً عظيما لا يحصى (١١٢) ، كما لقى عدد كبير من قواده مصرعهم من بينهم غرسيه بن لب خال ألفونسو الثانى ، وشانجه احد زعماء البشكنس ، وعاد عبد الكريم ظافراً فى السابع من ذى القعدة سنة ٢٠٠ هـ (يونيه ٨١٦ م) (١١٣)

وكان للحاجب عبد الكريم دور فعال فى القضاء على ثورة الربض الشهيرة بقرطبه عام ٢٠٢ هـ (٨١٧) ، تلك الثورة التى كانت تهدف إلى الاطاحة بدولة الحكم ، فعهد إلى حاجبه عبد الكريم ووزيره فطيس بن سليمان بالدفاع عن قصر الامارة ، بينما خرج عبيد الله بن عبد الله البلنسى فى قوة من الفرسان والمشاه وعبرت نهر الوادى الكبير إلى الربض الثائر ، وأضرمت فيه النار ، فلما حاول أهل الربض الرجوع الى بيوتهم لاطفاء النار وانقاذ أهاليهم ، تلقتهم سيوف جند الحكم من ورائهم ومن أمامهم واستمر القتل والنهب فى أهالى الربض ثلاثة أيام حتى مزقوا شر ممزق ، عند ذلك أشار الحاجب عبد الكريم على الأمير الحكم بايقاف تلك المذبحة ، ولعله أشار

---

(١١١) ابن عذارى : المصدر السابق ، حـ٢ ، ص ٧٥ ، المقرى : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٣٤٠ .

(١١٢) ابن عذارى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(١١٣) أنظر :
Lévi-Provençal : Op. Cit., T.I, P. 124.

عليه بتغريب أهل الربض خارج الأراضى الاندلسية (١١٤) .

وفى سنة ٢٠٨ هـ (٨٢٣ م) كانت الغزوة المعروفة بغزوة ألبة والقلاع غزاها عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث بالصائفة ، فاقتحم المسلمون ألبه من فج معروف لعبد الكريم تمام المعرفة له وهو فج جرنيق (١١٥) ، ويذكر ابن عذارى المراكشى أن وراء هذا الفج ارضا مستوية للعدو يحتفظ فيه بخز ائنه الحربية وذخائره ، فوقع جند عبد الكريم على هذه الأرض فنهبوها ودمروا الأراضى والبقاع التى مروا عليها وأقفروها (١١٦) ، وهزموا النصارى فى عدة مواقع ، واشترط عبد الكريم عليهم ان يدفعوا جزية كبيرة ، وان يطلقوا اسرى المسلمين ، وعاد الحاجب عبد الكريم إلى قرطبة محملا بالغنائم والسبى (١١٧) .

وتوفى الحاجب النابه والقائد المظفر عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث

---

(١١٤) عن ثورة الربض ، أنظر : أخبار مجموعة ، ص ١١٨ ، ص ١١٩ ، ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، ص ٦٧ ومابعدها ، ابن عذارى : المصدر السابق ، حـ٢ ، صفحات ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، القسم الأندلسى ، ص ١٥ ، محمد عبد الله عنان : المرجع السابق ، ص ٢٤٣ ومابعدها ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين ، ص ٢٢٢ ، ص ٢٢٣ وأنظر أيضاً :
Lévi-Provençal : OP. Cit., T.I, P. 188.

(١١٥) ابن عذارى : المصدر السابق ، حـ٢ ، ص ٨١ ، ص ٨٢ ، ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، القسم الأندلسى ، ص ١٩ ، ص ٢٠ ، ويرى ليفى بروفنسال أن فج جرنيق لعله الممر المعروف اليوم باسم Guernics أو El Puerto de Hernechu-Guernu الواقع بين سيرادى أنثيا Sierra de Encia وجبال اتوريتا Iturieta فى،السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين ، ص ٢٣٨ ، ٢٣٩

(١٦٦) ابن عذارى : نفس المصدر والجزء ، ص ٨١ ، ص ٨٢

(١١٧) المقرى : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٣٤٤ ، ص ٣٤٥ ، محمد عبد الله عنان : المرجع السابق ، ص ٢٥٦

فى غزاته بالصائفة إلى أوريط سنة ٢٠٩ هـ (٨٢٤ م) (١١٨) ، بعد أن أدى خدمات جليلة للاسلام ولدولته بالأندلس .

أما عبد الحميد بن عبد الواحد بن مغيث فقد ولاه الأمير محمد بن عبد الرحمن ولاية غرب الأندلس ، وفى توليته يروى ابن حيان (١١٩) رواية طريفة ملخصها ، ان الأمير محمد أمر حاجبه عيسى بن الحسن (١٢٠) فى حضور وزرائه باستدعاء عبد الحميد بن عبدالواحد بن مغيث ، الذى كان الأمير عاتباً عليه ثم صفح عنه لما لأسرته من مكانة كبيرة فى الدولة ، وأمر كذلك بكتابة سجل بتوليته ولاية غرب الأندلس كلها إلى قلمريه (Coimbra)(١٢١) ويذكر ابن حيان أن الحاجب عيسى بن الحسن نسى مكان ولاية عبدالحميد ،

---

(١١٨) ابن عذارى : المصدر السابق ، حـ٢ ، ص ٨٢ .

(١١٩) المقتبس ، تحقيق محمود على مكى ، ص ١٥٤ .

(١٢٠) هو الحاجب عيسى بن الحسن بن أبى عبده ، تولى الحجابة للأمير محمد عبد الرحمن بعد حجابه عيسى بن شهيد ، راجع ، (ابن حيان : نفس المصدر ، ص ١٥٢ ، ابن عذارى : المصدر السابق ، حـ٢ ، صفحات ٩٣ ، ٩٦) ، وقد أشار العذرى إلى أنه قاد الجيوش الأندلسية التى صدت غارات المجوس (النورمان) فى هجومهم الثانى على سواحل غرب الأندلس فى سنة ٢٤٥ هـ (٨٥٩ م) ، راجع ، (نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الأثار والبستان فى غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك ، تحقيق عبد العزيز الأهوانى ، مطبعة معهد الدراسات الاسلامية ، مدريد ، ١٩٦٥ ، ص ١١٨) .

(١٢١) قلمريه (وتكتب أيضاً : قلنبريه) Coimbra، مدينة تقع على مقربة من مصب نهر منديق Mondego فى المحيط الأطلسى على الساحل الغربى لشبه جزيرة أيبريا ، وهى تقع إلى الشمال منحرفة قليلا إلى الشرق بالنسبة إلى الأشبونه على مساحة نحو ٢٢٠ كم وتقع إلى الجنوب من برتقال (بورتو Porto) على نحو ١٢٠ كم ، راجع ، الأدريسى (الشريف) : وصف المغرب والأندلس من كتاب «نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، نشرة دوزى ودى جويه ، ليدن ، ١٨٦٦ ، ص١٨٣ الحميرى (أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم) : صفة جزيرة الأندلس – منتخبة من كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار ، نشر ليفى بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٣٧ ، ص ١٦٤ من النص العربى ، ص ١٩٧ من الترجمة الفرنسية) .

فبسأل عنها الوزير هاشم بن عبد العزيز (١٢٢) . فلم يصدقه القول وذكر له باغه (Priego) (١١٣) فصدقه فلما حضر عبد الحميد بن عبد الواحد ابن مغيث ، وأبلغه الحاجب عيسى بصفح الأمير عنه وبأمر تكليفه له على باغه «تنمر ابن مغيث وقال : ما هى علاقة رضى عنى ، بل اركاس بى والله ما أرضاها لغلامى ، وأنه لبرتفع عنها .. فقال له عيسى اكتب عن نفسك ، فانه أصلح ، وفعل » (١٢٤) . ومن الواضح ان حنق حفيد مغيث وغضبه لم يكن الا لأن باغه لم تكن سوى بليدة صغيرة قليلة الخطر ضئيلة الشأن بالنسبة لفرد من أسرة بنى مغيث ، ومن هنا نرى عبث الوزير هاشم ابن عبد العزيز بالحاجب عيسى بن الحسن وتعمية أمر الأمير عليه ، فلما بلغ الأمير محمد كتاب ابن مغيث ضحك وعلم بما فعله وزيره المقرب اليه ، فأغضى عن عبثه ، وأوضح للحاجب عيسى بن الحسن مكان ولاية حفيد مغيث على غرب الأندلس كله ، فرضى حفيد مغيث عن ولايته وشكر الأمير (١٢٥)

---

(١٢٢) الوزير أبوخالد هاشم بن عبد العزيز كان من أشهر وزراء الأمير محمد بن عبد الرحمن وأحظاهم عنده ، وأكبر رجالات الدولة فى عهده ، وأقربهم إلى قلبه ، راجع فى ترجمته ، ابن حيان : المصدر السابق ، ص ١٤٣ ،والحاشية رقم ٣٣٠ ص ٥٣٣ والمراجع التى وردت بها .

(١١٣) يعتقد الأستاذ الدكتور محمود على مكى أن الأمير محمد أشار بتولية ابن مغيث على باجه (Beja) وأعمالها ، فقد كانت باجه مركزاً غرب الأندلس ، فعمد هاشم إلى تعمية الأمر مستغلا ذلك الشبه اللفظى بين باجه وباغة ، راجع (ابن حيان : المصدر السابق ، ص ٥٢٩ ، حاشية رقم ٣٢١) ، وباغه بضم الغين وسكون الهاء ، وتكتب أيضاً باغو وبيغو (Priego)، وقد كان اسمها اللاتينى القديم (Ipugrum) بلدة كانت من أعمال غرناطه وتقع الآن على بعد نحو مائة كيلو متر إلى شمال غرب غرناطه ، وعلى مسافة نحو ١١٠ كم إلى الجنوب الشرقى من قرطبة ، وتتبع حالياً مديرية قرطبة ، راجع ، الأدريسى : المصدر السابق ، ص ٢٠٤ ، ابن سعيد : المغرب ، ج٢ ، ص ٥٤ ، الحميرى : المصدر السابق ، ص ٦٠ ، ص ٦١ من النص العربى ، وص ٧٦ - ٧٧ من الترجمة الفرنسية .

(١٢٤) ابن حيان : نفس المصدر ، ص ١٥٤ .

(١٢٥) نفس المصدر ، ص ١٥٤ ، ص ١٥٥ .

برز أيضاً من أسرة مغيث الرومى عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الواحد ابن مغيث عامل الأمير محمد بن عبد الرحمن على الثغر . فقد شارك فى القضاء على ثورة عمروس بن عمرو بن عمروس بن يوسف الذى ثار على موسى ابن غلند عامل وشقه (Huesca) وانتزعها منه وقتله سنة ٢٥٦ ﻫ (٨٧٠م) ، وعمروس هو حفيد عمروس بن يوسف بطل واقعة الحفرة بطليطلة زمن الأمير الحكم الأول ، وقد كان بنو عمروس مولدين من أصل نصرانى ، لا يشعرون بأى ولاء حقيقى لحكومة قرطبة ، فأخرج الأمير محمد اليه أحمد بن شاهد العريف المعروف بالتدميرى فى جيش كثيف ، فوصل إلى مدينة لارده وأقام بها ، وفى نفس الوقت حشد عبد الوهاب ابن أحمد بن عبد الواحد بن مغيث حشوده وقدم عليهم عبد الأعلى العريف الذى انضم إلى جيش أحمد بن شاهد ، وتقدما فى طريقها إلى مدينة وشقه فلما بلغ بن عمرو المنتزى بوشقه قربهما ، خرج عنها هارباً إلى شرطانية فدخلت قوات الأمير محمد وشقه ، وأسرت بها حفيده لب بن زكريا ابن عمروس (١٢٦) . وقتل وعلق رأسه على سور المدينة .

كما شارك عبد الوهاب ابن أحمد بن عبد الواحد بن مغيث بقواته فى سنة ٢٥٧ ﻫ (٨٧١م) والقوات التى أرسلها الأمير محمد بقيادة عبد الغافر ابن عبد العزيز فى مطاردة فلول عمروس ، فسار إلى مدينة تطيلة (Tudela) وأسرت بها والده زكريا وابناءه وجماعة من أهله ، وقتلهم على باب مدينة سرقسطة ، وقفل عبد الغافر بن عبد العزيز إلى قرطبة ورؤسهم بين يديه (١٢٧)

(١٢٦) ابن حيان : المصدر السابق ، ص ٣٢٥ ، العذرى المصدر السابق ، ص ٦١ ، ٦٢ ، ابن عذارى المصدر السابق ، ﺣ٢ ، ص ١٠٠ ، محمد عبد الله عنان : المرجع السابق ص ٣٠١ .

(١٢٧) ابن حيان : المصدر السابق ، ص ٣٢٦ ، العذرى : المصدر السابق ، ص ٦٢ ، ابن عذازاى : المصدر السابق ، ﺣ ٢ ، ص ١٠١

وحدث في نفس العام أن ثار لب بن موسى بأرنيط (١٢٨) وظاهر عرسية بن ونقه Gancia Iniguez ملك نبره أخوه لأمه (١١٩) . وتغلب في العام التالي ٢٥٨ هـ (٨٧٢م) على الثغر الأعلى كله (١٣٠) ، فاستولى على مدينة تطيلة في الرابع من شهر ربيع الأول من نفس العام وأسر عبدالوهاب ابن أحمد بن عبد الواحد بن مغيث المعروف بوهيب عامل الأمير محمد على الثغر الأعلى الذي كان متواجداً بالمدينة . وقدم لب بن موسى أخاه فرتون عليها (١٣١) ، ثم قدم أخاه اسماعيل بن موسى على مدينة سرقسطة في ٧ ربيع الأول من العام المذكور ، ويبدو أنه وجد مقاومة عنيفة من عاملها محمد بن عبد الوهاب وعرب سرقسطه ، يذكر العذرى أن لب بن موسى انضم إلى قوات أخيه بعد ثلاثة أيام أي يوم ١٠ ربيع الأول وتمكن من أسر عاملها محمد بن عبد الوهاب وأخوته وسجنهم مع أبيهم وقتل عرب سرقسطة (١٣٢) .

وبعد أن استولى على تطيلة وسرقسطة سار إلى مدينة وشقه وانتزعها من عاملها عباس بن عبد البر وقدم عليها أخاه مطرف (١٣٣) ، وللأسف

---

(١٢٨) هو لبيب بن موسى بن موسى القسوى ، كان رهينا عند الأمير عبد الرحمن الأوسط بقرطبة حتى خرج المجوس في عام ٢٤٥ هـ (٨٥٩ م) ، فأخرجه الأمير محمد من محبسه ووجهه اليهم ، فأبلى في قتالهم ، فأطلق الأمير سراحه وأهدى اليه جارية تسمى عجباً البلاطية انجبت له ولده محمد بن لب ، وأمر الأمير محمد لب بن موسى بالتوجه إلى الثغر فقدم وبني حصن بقيره Viguerao ودارت بينه وبين اخوته اسماعيل ومطرق وفرتون حروب حتى اضطروه إلى تسليم أرنيط والخروج من بقيرة ، راجع (العذرى : نفس المصدر ، ص ٣١)

(١٢٩) ابن حزم الأندلسى (أبو محمد على بن سعيد) : جمهرة أنساب العرب ، تحقيق وتعليق عبد السلام محمد هارون ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، ١٩٧٧ ، ص ٥٠٢ ، ٥٠٣

(١٣٠) ابن حيان : المصدر السابق ، ص ٣٢٦ ، وراجع أيضاً :
Lévi-Provencçal : OP. Cit., T.1, P. 388.

(١٣١) العذرى : المصدر السابق ، ص ٣١ .

(١٣٢) العذرى : نفس المصدر ، ص ٣١ - ٣٢ ، ابن حيان : المصدر السابق ، ص ٣٢٦ ، ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ١٠١

(١٣٣) العذرى : المصدر السابق ، ص ٣١ . ابن حيان : المصدر السابق ، ص ٣٢٦ ، وأنظر أيضاً :
Afif Turk : El Reino de Zaragoza. en el siglo XI de Cristo (V de la Hégira) Madrid, 1978, PP. 14—15.

لم تمدنا المصادر الاسلامية بشيء عن مصير عامل الثغر عبد الوهاب بن أحمد ابن عبد الواحد بن مغيث ، وان كان من غير المستبعد أن يكون قد أطلق سراحه بعد ذلك

وإذا كان بنو مغيث قد برزوا فى الحروب البرية فى شمال اسبانيا وفى أراضى الفرنجة ، فقد ظهر منهم من برز فى ميدان البحر أيضاً ، فيستفاد مما رواه المؤرخ ابن حيان القرطبى فى حوادث ٢٦٦ هـ (٨٧٩م) أن الأمير محمد قد علم من بعض أمراء أسطوله ان جليقية من ناحية البحر المحيط عورة لا معقل لها ولا حصن ، وان ساحلها نزهة لمن قصده ، فطمع الأمير فى غزوها ، وأصدر أوامره فى الحال بانشاء المراكب وجمع لها البحارة فلما تم اعدادها وتجهيزها أمر عليها ابن مغيث المعروف بالدك وهو عبد الله ابن محمد بن عبد الحميد بن مغيث ، وعقد لواءه فى المسجد الجامع بقرطبه ويضيف ابن حيان أن أمير البحر عبد الملك «خرج فى أفخم خروج خرج به قائد من قرطبه» ، وما كاد الأسطول الأموى يدخل فى مياه المحيط حتى تعرض لعاصفة عاتية فرقت قطعه ولم يجتمع بعضها إلى بعض ، وغرق معظمها ، ولم يعد منها الا اليسير ونجا قائد الأسطول مع قليل من جنده (١٣٤) مما يرجح أن بناء هذا الأسطول كان سيئاً ، وأن بحارته لم يكن لديهم دراية بالملاحة حتى أنه غرق بمجرد بلوغه لمياه المحيط ، وهذا يعنى أن البحرية

---

(١٣٤) راجع فى أخبار هذه الحملة البحرية ، المقتبس ، تحقيق محمود على مكى ، ص ٢٩٨ ، ص ٣٩٩ ، وانظر أيضاً : ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ١٠٣ ، ص ١٠٤ ، أورد ابن حيان لقب قائد الأسطول الأموى ابن مغيث المعروف بالدك فى حين رسمه ابن عذارى الرعيطى المعروف بابن مغيث ، راجع ، (البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ١٠٤) ، غير أن ابن حيان أورد اسمه كاملا وهو عبد الملك بن عبد الله بن محمد بن عبد الحميد ابن مغيث ، راجع ، لابن حيان ، نفس المصدر ، ص ٣٩٨ والحاشية رقم ٦٣٠ ، وراجع أيضاً فى أخبار هذه الحملة ، أرشيبالد لويس : القوى البحرية التجارية فى حوض البحر المتوسط ، ترجمة أحمد عيسى ، مكتبة النهضة المصرية ، ص ٢٣٢ ، السيد عبد العزيز سالم (بالاشتراك مع أحمد مختار العبادى) : تاريخ البحرية الاسلامية فى المغرب والأندلس ، مؤسسة شباب الجامعة ، ص ١٦٦ .

الاموية لم تبلغ مرحلة النضج بعد ، وان كانت قد بلغتها فى عهد الناصر فى القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى .

* * *

من هذا العرض يتبين لنا الدور الهام الذى لعبه أبناء مغيث الرومى فى الاندلس ، فقد تولوا مناصب رفيعة وأسندت اليهم أعمال خطيرة فى الأندلس كالحجابة والوزارة والكتابة والقيادة البرية والبحرية وولاة بعض الكور ، وكانوا أوفياء لدولة بنى أمية ، وظلوا موالين لأمراء هذه الدولة ولا غرو فقد كان مؤسس هذه الأسرة مولى للوليد بن عبد الملك ، فرابطة الولاء هذه للامويين دفعتهم للمشاركة بكل اخلاص – وليس كما يذكر البعض أنهم تآمروا عليهم – فى قمع الثورات الداخلية ، كما قادوا الجيوش بغرض الجهاد ضد الممالك النصرانية فى الشمال الاسبانى وبلاد الفرنجة وأحرزوا فيها انتصارات رائعة .

ويمكننا أن نؤكد القول أن أسرة مغيث الرومى ساعدت إلى حد كبير فى استقرار ملك الامويين ببلاد الاندلس فقد شاركت هذه الأسرة فى جميع مظاهر الحياة الاندلسية أدبية ومادية .. ومن الجدير بالذكر أن بروز بنى مغيث لم يقتصر على نبوغهم فى المجالات السياسية والحربية ، وانما تجاوز ذلك إلى المجال العلمى والأدبى ، فقد ظهر منهم شعراء عظام مثل الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث الذى نظم شعراً حماسياً فيقول :

طـارت بنا الخيل ومن فوقها شهب بزاة لحمام الحسام
كأنما الأيدى قسى لها والطير أهداف وهن السهام (١٣٥)

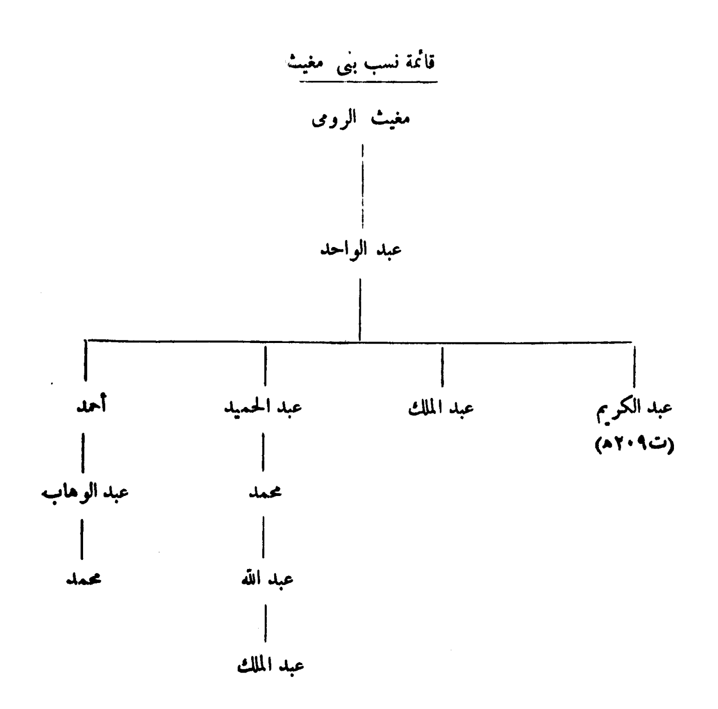
(١٣٥) فى ، المقرى : المصدر السابق ، المجلد الثالث ، ص ٢٤١ ، ص ٢٤٢ .

وكذلك أخوه أحمد بن عبد الواحد بن مغيث الذى قال فى الغزل والأنس بالمحبوب :

أشرب على البستان من كف من ... يسقيك من فيـــه وأحـــداقه
وأنظـــر إلى الايـــكة فى برده ... ولاحظ البدر بـــأ طـــواقـــه
وقد بـــدا السرو عـــلى نهـــره ... كخائض شمـــر عـــن ســـاقه (١٣٦)

---

(١٣٦) فى ، المقرى : المصدر السابق ،المجلدالثالث ، ص ٢٤٢ .


قائمة نسب بنى مغيث
مغيث الرومى
عبد الواحد
عبد الكريم
(ت٢٠٩هـ)
عبد الملك
عبد الحميد
محمد
عبد الله
عبد الملك
أحمد
عبد الوهاب
محمد



مصادر ومراجع البحث

(أولا) مصادر عربية قديمة :

ابن الابار : أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م) :
الحلة السيراء ، الجزء الأول ، تحقيق حسين مؤنس ، الطبعة الأولى ، الشركة العربية للطباعة والنشر (القاهرة ١٩٦٣) .

ابن الأثير : أبو الحسن على بن محمد الجزرى (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م) :
الكامل فى التاريخ ، الجزء السادس (بيروت ١٩٦٥) .

الادريسى : أبو عبد الله محمد الشريف السبتى (ت حوالى ٥٤٨ هـ / ١١٥٤ م) : وصف المغرب والاندلس ، من نزهة المشتاق فى اختراق الافاق ، نشره دوزى ودى خوية ، (ليدن ١٨٦٦) .

البلاذرى : أبى العباس أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م)
فتوح البلدان ، تحقيق دى غوية ، (بريل ١٨٦٦) .

ابن حزم : أبو محمد على بن أحمد الاندلسى (ت ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م)
جمرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، الطبعة الرابعة دار المعارف (القاهرة ١٩٧٧) .

الحميدى : أبى عبد الله محمد بن أبى نصر فتوح بن عبد الله الازدى —
جذوة المقتبس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، (القاهرة ١٩٦٦) .

الحميرى : أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم (ت فى أواخر القرن التاسع الهجرى) : الروض المعطار فى خبر الأقطار ، نشر وترجمة ليفى بروفنسال (القاهرة ١٩٣٧) .

ابن حيان : أبو مروان (ت ٤٦٩ هـ/ ١٠٧٩ م)
المقتبس من أبناء أهل الاندلس ، تحقيق محمود على مكى ، دار الكتاب العربى ، (بيروت ١٩٧٣) .

الخشنى : أبى عبد الله محمد بن حارث
قضاة قرطبة ، تحقيق ابراهيم الابيارى ، دار الكتب الاسلامية ، (القاهرة ١٩٨٢) .

ابن الخطيب : لسان الدين بن الخطيب محمد بن عبد الله (ت ٧٧٦ هـ/ ١٣٧٤ م) أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام ، نشره ليفى بروفنسال ،(بيروت١٩٥٦) الاحاطة فى أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، المجلد الأول دار المعارف (مصر) .

ابن خلدون : أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥٦ م)
كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، المجلد الرابع ، القسم الأول ، منشورات الكتاب اللبنانى (بيروت ١٩٦٨) .

ابن سعيد المغربى : المغرب فى حلى المغرب ، الجزء الأول ، تحقيق شوقى ضيف (القاهرة ١٩٥٣) .

الضبى : أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة (ت ٥٩٩ هـ / ١٢٠٣ م)
بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس ، دار الكاتب العربى (القاهرة ١٩٦٧) .

ابن عبد الحكم : عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٢٧٦ هـ/ ٨٨٩ م)
فتوح افريقية والأندلس ، تحقيق عبد الله أنيس الطباع ، دار الكتاب اللبنانى ، (بيروت ١٩٦٤) .

ابن عذارى المراكشى : أبو العباس أحمد بن محمد
البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، الجزء الثانى ، تحقيق كولان وليفى بروفنسال ، دار الثقافة (بيروت بدون تاريخ)

العذرى : أحمد بن عمر بن أنس المعروف بابن الدلائى (ت ٤٧٨ هـ/ ٩٨٨م) .
ترصيع الاخبار وتنويع الاثار والبستان فى غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك ، تحقيق عبد العزيز الاهوانى ، مطبعة معهد الدراسات الاسلامية (مدريد ١٩٦٥) .

ابن قتيبة : أبى محمد عبد الله بن مسلم
الامامة والسياسة ، الجزء الثانى ، تحقيق طه محمد الزينى ، مؤسسة الحلبى (القاهرة ١٩٦٧)

القلقشندى : أبى العباس أحمد بن على (ت ٨٢١ هـ/ ١٤١٨ م)
نهاية الارب ، تحقيق ابراهيم الابيارى ، الطبعة الثانية ، دار الكتب الكتب الاسلامية (القاهرة ١٩٨٠) .

ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ، تحقيق عبد الله أنيس الطباع ، دار النشر للجامعين ، (بيروت ١٩٥٧) .

المسعودى : أبى الحسن على بن الحسين
مروج الذهب ومعادن الجوهر ، الجزء الثانى ، (القاهرة ١٩٢٨) .

المقرى : شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد التلمسانى (ت ٨٤٥ هـ/ ١٤٤١ م) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، المجلدان الأول والثالث ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر (بيروت ١٩٦٨) .

مؤلف مجهول : أخبار مجموعة فى فتح الاندلس ، تحقيق ابراهيم الابيارى دار الكتاب المصرى ، (القاهرة ١٩٨١) .

النباهى المالقى : أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن (ت فى أواخر القرن الثامن)

تاريخ قضاة الاندلس (كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا) (بيروت بدون تاريخ) .

(ثانياً) مراجع عربية حديثة وأوربية معربة :

أحمد فكرى «دكتور» :

قرطبة فى العصر الاسلامى ، تاريخ وحضارة ، مؤسسة شباب الجامعة (الاسكندرية ١٩٨٣) .

أحمد مختار العبادى (دكتور) :

دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس ، الطبعة الأولى ، (الاسكندرية ١٩٦٨) .

ارشيالد لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، مكتبة النهضة المصرية .

حسين مؤنس (دكتور) :

فجر الاندلس ، دراسة فى تاريخ الاندلس من الفتح إلى قيام الدولة الاموية (٧١١ — ٧٥٦م) الطبعة الأولى ، الشركة العربية للطباعة والنشر (القاهرة ١٩٥٩) .

سعد زغلول عبد الحميد (دكتور) :

تاريخ المغرب العربى ، الجزء الأول ، منشأة المعارف ، (الاسكندرية ١٩٧٩) .

السيد عبد العزيز سالم (دكتور) :
تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس (من الفتح العربى حتى سقوط الخلافة بقرطبة) ، مؤسسة شباب الجامعة ، (الاسكندرية ١٩٨٢) .
قرطبة حاضرة الخلافة فى الاندلس ، الجزء الأول ، دار النهضة العربية (بيروت ١٩٧١) .
المغرب الكبير ، الجزء الثانى (العصر الاسلامى) ، الدار القومية للطباعة والنشر ، (الاسكندرية ١٩٦٦) .

السيد عبد العزيز سالم (دكتور) بالاشتراك مع أحمد مختار العبادى (دكتور)
تاريخ البحرية الاسلامية فى المغرب والاندلس ، مؤسسة شباب الجامعة (الاسكندرية ١٩٨١) .

محمد عبد الله عنان :
دولة الاسلام فى الاندلس ، العصر الأول ، القسم الأول ، الطبعة الرابعة (القاهرة ١٩٦٩) .

محمد محمد مرسى الشيخ (دكتور) :
دولة الفرنجة وعلاقتها بالامويين فى الاندلس ، مؤسسة الثقافة الجامعية (الاسكندرية ١٩٨١) .

محمود مكى (دكتور) :
تاريخ عبد الملك بن حبيب ، القسم الخاص بالاندلس ، نشر محمود مكى ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، العدد الخامس (مدريد ١٩٥٧) .

وسام عبد العزيز فرج (دكتور) :
علاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الاموية حتى منتصف القرن الثامن الهجرى ، الهيئة العامة للكتاب ، (الاسكندرية ١٩٨١)

ثالثاً : مراجع أوروبية :

Aguado Beleye (Pedro) :
— Manual de Historia de Espana, tomo I, sexta edicion ; Espasa Calpe, (Madrid 1947).

Afif Turk :
— El Reino de Zaragoza en el siglo XI de Cristo (V de la Hegira), (Madrid, (1978).

Chejne (Anwar) :
— Historia de Espana musulmane, ediciones Catétdra, (Madrid, 1980).

Finaly, (G) :
— History of Greece, T.I, (Oxford, 1877).

Isidoro de laes cagigas :
— Las Mozarabes, T.I, (Madrid, 1947).

Jackson :
— The making of medieval Spain, (California, 1976).

Lévi-Provençal (E) :
— Historia de l'Espagne musulmane tome premier, L'institut Français, (Cairo, 1944).

Ocana Jimenez:
— La basilica de San Vicente Y la gran mezquita de Cordoba, Al-Andalus, (Madrid 1942).

Oman (sir charles) :
— The dark Ages, (476—918), (London, 1962).

Palencia (Gonzalez) :
— Historia de la Espana musulmana, C. Labor, (Madrid, 1945).

Saavedra (Eduardo) :
— La invasion de los Arabes en Espana, (Madrid, 1892).

Simonet (Fracisco Javier) :
— Historia de los Mozarabes de Espana, (Madrid, 1904).

البحث الثانى

حول السفارات الأندلسية إلى دول أوروبا

١٣٨ - ٣٦٦ هـ / ٧٥٥ - ٩٧٦م



تمهيد :

كان الفتح الإسلامي لاسبانيا حدثاً سياسياً وحضارياً هاماً، إذ أصبحت أسبانيا إقليماً إسلامياً تابعاً للخلافة الأموية، فانسلخت عن أوربا المسيحية، وطبعها الإسلام بطابع مميز زاده ما اكتسبته من إمتزاج حضارتها السابقة بحضارة الإسلام، فنتج عن هذا الإمتزاج فيما بعد حضارة أندلسية إسلامية.

فالمعروف أن الأندلس أصبحت منذ الفتح الإسلامي حتى ١٣٢هـ/ ٧٥١م ولاية إسلامية تابعة للخلافة الأموية، ولهذا فقد تأثرت بالحضارة الشامية وسارت على نهجها، غير أنه بقيام الإمارة الأموية بالأندلس أخذ طابع الاستقلال السياسي عن الشرق يقوى فيها وإن استمرت الإمارة تتلقى التأثيرات الحضارية من المشرق.

فمنذ إعتلاء عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل (١٣٨ — ١٧٢هـ ٧٥٦ — ٧٨٨م) كرسي الإمارة في الأندلس عمل أولاً على توحيد أقاليمها وإحلال الأمن والإستقرار بها، فاستطاع أن يقضي على عناصر الفوضى ونزعات الانفصال المتمثلة فيما اقتطعه العرب والبربر من نواحي الأندلس التي تطلعوا إلى الاستقلال بها، فأخذهم الداخل بالشدة والحزم فدخلوا في طاعته، وأعاد الداخل بذلك هيبة الأمويين وأحاط نفسه بهالة من فخامة الملوك وأبهة الخلفاء، ولكنه لم يتلقب بلقب الخليفة بل اكتفى بأن أضاف إلى اسمه لقب ابن الخلائف وهو اللقب الذي استمر في خلفائه من بعده حتى سنة ٣١٦هـ/ ٩٢٨م عندما تلقب عبد الرحمن بن محمد بلقب الخلافة. واستمرت الأندلس على عهد عبد الرحمن تتلقى مؤثرات الحضارة الشامية في شتى المجالات العمرانية والأدبية والفنية والدينية.

ثـم اهـتـم الأمير هـشـام الأول الملقب بـالرضـا (١٧٢ ـــ ١٨٠هـ / ٧٨٩ـــ٧٩٦م) بـالقـضـاء على المؤامرات الـتـى حيكت ضده، وعلى أطماع نـصـارى الـشـمـال، وتـلـقـت الأندلس في عهده تأثيراً حجازياً تمثل في انتشار المذهب المالكي بالأندلس. وخلفه ابنه الحكم الأول الملقب بالربضي (١٨٠ ـــ ٢٠٦هـ / ٧٩٦ ـــ ٨٢٢م) الـذي استطاع بفضل حزمه وثباته القضاء على ثورة أهـل الـربض، وأعاد إلى الأندلس الاستقرار والنظام مرة أخرى، وسمح بـدخول بعض مظاهر الحضارة الاجتماعية والثقافية التى كانت مزدهرة آنذاك في الحجاز.

وحـيـنـمـا توفى الحكم الربضي في ذي الحجة ٢٠٦هـ / ٨٢٠م، تسلم أبنه عـبـد الـرحمن الأوسط (٢٠٦ ـــ ٢٣٨هـ / ٨٢٢ ـــ ٨٥٢م) قطراً هادئاً وادعا يسوده الأمن والسلام، فنعمت الأندلس بالاستقرار لسياسته الحكيمة فقد كان شاباً ذكياً ورث قدراً من خصال جده وأبيه، فلم يهمل دينه، ولم ينس دنياه، فـانـصـرف إلى اللهو المعتدل، وانعكس ذلك على الأندلسيين الذين انصرفوا إلى أعـمـالهـم من ناحية واستمتعوا بمباهج الحياة من ناحية أخرى ونتيجة لهذا كثر ورود الـعـلـمـاء والـتـجـار والـفنانين المشارقة وخاصة من بغداد إلى الأندلس، فـتـأثـرت بـحـضـارتهم البغدادية، وتمثل ذلك التأثير في جميع مظاهر الحضارة من فـنـيـة واقـتـصـادية وإدارية واجتماعية، فامتزجت التيارات الحضارية المشرقية الـثـلاثـة مـع حـضـارات أسبانيا القديمة، ونتج عن هذا الامتزاج ظهور الروافد الأولى للـحـضـارة الأنـدلـسـية الإسلامية، وانعكس ذلك بطبيعة الحال على ما وصـلـت الـيـه قرطبة حاضرة الامارة الأندلسية من مكانة هامة، فأضحت محط أنظار ملوك وأباطرة هذا العصر، ولا شك أن الذى ساعد على تبوئها هذه المكانة الـرفـيـعـة مـا نـعـمـت بـه الأنـدلـس من استقرار وما حفل به بلاط عبد الرحمن الأوسط مـن رجـال مميزين في شتى المعارف فعبد الرحمن «هو الذى استكمل فـخـامـة الملك، وترتيب الخدمة بالأندلس وكسا الامارة أبهة الخلافة، وظهر في أيـامـه الـوزراء والـقـواد وأهـل الكور، وشيد القصور، وجلب المياه من الجبل،

و بنى الرصيف على الوادي الكبير» (١) .

على أن قرطبة ما لبثت أن أضحت في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ ــ ٣٥٠هـ / ٩١٢ ــ ٩٦١م) في مقدمة حواضر العالم آنذاك لما بلغته من مستوى علمي وسياسي رفيع تمتعت به حكومتها ومجتمعها آنذاك (٢) فقد أحاط الناصر نفسه بهالة من فخامة الملوك وأبهة الخلفاء ، وأسهم في قيام حركة معمارية في الأندلس ، وخاصة في قرطبة حاضرة الخلافة لم تشهد لها الأندلس نظيراً من قبل ، فأنشئت مدينة الزهراء ومنية الناعورة وأضيف إلى قصر الخلافة بقرطبة مجالس وقاعات ، و يرجع ذلك إلى شغف الناصر بالبنيان ، فخصص له ثلث جبايته ، و بهذه الأموال « أسس الأسوس ، وغرس الغروس ، وأتخذ المصانع والقصور» (٣) فنعمت الأندلس بفضل جهود الناصر برخاء وازدهار وانعكس ذلك بطبيعة الحال على عهد أبنه الحكم المستنصر (٣٥٠ ــ ٣٦٦ / ٩٦١ ــ ٩٧٦م) من سلم واستقرار بلغت الحضارة الأندلسية فيه ذروتها ، ووصلت قرطبة حاضرة الخلافة إلى قمة البهاء والعظمة ، وأصبحت تنافس مدن العالم الكبرى : بغداد وروما والقسطنطينية في الاتساع والتخطيط وفي الحضارة (٤) .

ولهذا لم يكن غريباً أن تفد سفارات دول أوربا إلى بلاط الأمويين في قرطبة طلباً للسلم والمودة والمواصلة ، وخروج سفارات أندلسية إلى هذه الدول لاجراء مباحثات لصالح الطرفين ، و يهمنا هنا السفارات الأندلسية إلى دول أوربا .

---

(١) ابن الآبار (أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي) : الحلة السيراء ، الجزء الأول ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ١١٣ ــ ١١٤

(٢) Jakson : The Making of Medieval Spain, California, 1976, P 30.

(٣) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، ج ٢ ، تحقيق كولان وليفي بروفنسال ، دار الشروق ، بيروت ، لبنان (بدون تاريخ) ، ص ٢٢٣ .

(٤) السيد عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ، الجزء الأول ، مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ، ١٩٨٤ ، ص ٦١ .

١ — السفارات الأندلسية إلى بلاد الفرنجة:

اتسمت العلاقات بين دولة الفرنجة والأندلس في أوقات كثيرة بالعداء وبخاصة في صدر إمارة بني أمية في الأندلس، عندما أقدم الفرنجة على تكرار هجماتهم على الأندلس، ولم يلبث أن أدركوا بعد ذلك أنه من الأفضل تغيير سياستهم عندما تحققوا من قوة الأندلس واستحالة هزيمة الأندلسيين بالسهولة التي كانوا يتصورونها(٥).

وينبغي أن نقرر هنا أن السياسة الأندلسية في عصر الامارة الأندلسية في الأندلس كانت بوجه عام تتعجل الاستجابة إلى أي طلب للصداقة، فلم تكن الأندلس أبداً في حالة تسمح للداخل، على سبيل المثال، أن يأخذ زمام المبادرة في أى هجوم على الفرنجة لذلك فقد اتبع الداخل سياسة دفاعية يمكنه بمقتضاها تقوية إمارته واخضاع المتمردين ضد الحكومة المركزية في قرطبة.

ولكن ليس معنى ذلك أن عبد الرحمن الداخل هادن تماماً دولة الفرنجة لكنه تقصى اخبارها وأحوالها الداخلية، واستطاع بمقدرته ودهائه السياسي أن يرغمهم على سلمه بطريقة دبلوماسية فائقة، ونفهم مما ورد في المصادر الاسلامية أن شارلمان ملك الفرنجة مال بعد هزيمة جيشه في ممر رونسفالة (Roncesvalles) في جبال البرتات بعد حملته الفاشلة على الأندلس (١٦١ — ١٦٢ هـ / ٧٧٨ — ٧٧٩م) إلى تغيير سياسته العدائية نحو الأندلس بسياسة تتسم بالسلام والوئام، فتبودلت السفارات بين الجانبين وحلت العلاقات السلمية محل العلاقات العدائية في الأيام الأخيرة لحكم عبد الرحمن الداخل(٦)، يقول المقري: «وخاطب عبد الرحمن قارله (شارلمان) ملك الفرنج وكان من طغاة الأفرنج، بعد أن تمرس به مدة، فأصابه صلب المكسر،

El-Hajji (A.A.) : Diplomatic relations between Andalusia and the Franks during the umayyad period, in the Islamic Quarterly, V. Xii, No. 2-April-June, P. 115.

(٦) Reinaud Muslim colonies in France, Northen Italy and swizerland English Translation by Sherwani, Lahore, 1964, P. 4.

تام الرجولية فمال معه إلى المداراة ودعاه إلى المصاهرة والسلم، فأجابه إلى السلم ولم تتم المصاهرة» (٧) و يستفاد من هدا النص أن سفارة أندلسية خرجت إلى بلاد الفرنجة برسالة من الأمير عبد الرحمن الداخل يطلب فيها مسالمة ومصاهرة امبراطور الفرنجة شارلمان، و بالرغم من اختلاف الباحثين في أي من العاهلين هو الذي بادر بعرض اقتراحه للسلم والمصاهرة وأي منهما كان البادىء بالكتابة إلى الآخر، فالمستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال يرى أنه من المحتمل أن يكون قد حدث تحريف أثناء نقل المقري لهذا النص عن ابن حيان القرطبي، ولهذا فهو يستبعد أي شك في أصالتها أو صدقها في ضوء أحداث العصر (٨) و يستند في ذلك إلى أن شارلمان لم يقم بأية حملات عسكرية على الأندلس بعد حملته الفاشلة سنة ١٦١ هـ (٧٧٨م) حتى نهاية حكم عبد الرحمن الداخل (١٧٢ هـ — ٧٧٨م) (٩) ولعل سوء الأوضاع الداخلية التى تمر بها الامبراطورية الكارولنجية في عهد شارلمان والاضطرابات التى سببها السكسون والتي استنفذت جهداً عظيما منه وجعلته ينصرف إلى اخضاعهم، كانت دليلا على رغبة شارلمان في موادعة حكومة قرطبة (١٠). وإذا أضفنا إلى ذلك رغبة عاهل الأندلس في تحقيق السلم مع الفرنجة خشية أن تزداد علاقة هؤلاء بالعباسيين توثقاً وتتطور إلى قيام مشروعات مشتركة عدائية ضد الأندلس (١١). لكل ذلك جرى الاتفاق بين الجانبين ونجحت السفارة

---

(٧) المقري (أحمد بن محمد): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المجلد الأول، تحقيق الدكتور احسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨، ص ٣٣٠ — ٣٣١.

(٨) Levi-Provençal : Histoire de L'Espagne musulmane, t. I, Paris, 1950, P. 127.

(٩) Levi-Provençal : Op. Cit, t. I, P. 179.

(١٠) Einhard : "Life of charlemagne", in the Medieval world, by Cantor, Newyork, 1968, P. 141.

محمد محمد مرسي الشيخ: دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس، مؤسسة الثقافة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٨١، ص ٢٢٤.

(١١) Deanesly : A history of Early Medieval Europe, London, 1956, P. 394.

الأندلسية إلى شارلمان في تحقيق غرضها باحلال السلم بين الطرفين، بينما لم تتم المصاهرة السياسية بزواج ابنة شارلمان من عبد الرحمن الداخل لتعلل الأخير بسوء صحته وكبر سنه(١٢) وتوج هذا الاتفاق بين الطرفين بمعاهدة سلمية ربما في سنة ١٦٣ هـ / ٧٨٠م.

وفي سنة ١٩٧ هـ (٨١٢م) أرسل الحكم الربضي سفارة أندلسية إلى أكس لاشابل Axi-La-Chapelle(١٣) عاصمة دولة الفرنجة للتفاوض مع شارلمان (١٤)، و يرجع السبب في ارسال هذه السفارة إلى أن شارلمان أعتقد أنه بوفاة عبد الرحمن الداخل ١٧٢ هـ زالت العقبة الكؤود أمامه لتحقيق مشروعه الكبير في أسبانيا فأخذ في تحريض نصارى شمال اسبانيا ضد حكومة الأندلس، ثم قام في سنة ١٨٥ هـ / ٨٠١م بارسال جيش كبير للاستيلاء على برشلونة تحت قيادة ابنه لويس أمير أكوتين (Aquitaine)(١٥) ونتيجة للحصار الشديد الذي فرضه الفرنجة على برشلونة، وضعف مقاومة سعدون الرعيني والي المدينة عن الصمود للحصار من جهة، وانشغال أمير قرطبة في قمع الثورات الداخلية ضده (١٦)، لم يجد والي المدينة بداً من الخروج بنفسه إلى قرطبة والتماس عون الحكم الربضي، لكن لسوء حظه وقع اسيراً في قبضة الفرنج ولم يلبث الفرنجة أن دخلوا المدينة بعد حصار دام سبعة أشهر(١٧). و بذلك دخلت برشلونة في حوزة الفرنجة بعد أن بقيت في أيدي المسلمين نحو تسعين عاماً (١٨). و بسقوط

---

(١٢) El-Hajji : Op. Cit, P. 118.

(١٣) Ibid : P. 118, Nota, I.

(١٤) Levi-Provençal : Op. Cit, t. I, PP. 127-128.

(١٥) Levi-Provençal : Op. Cit, t. I, P. 179.

(١٦) ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن الجزري): الكامل في التاريخ، ج٦، بيروت، ١٩٦٥، ص ١٦٨.

(١٧) Levi-Provençal : Op. Cit, t. I, P. 180.

(١٨) المقري: نفح الطيب، ج ١، ص ٣٣٩، وانظر أيضاً: محمد الشيخ: دولة الفرنجة ص ١٧١

برشلونة في أيدي الفرنجة طمع شارلمان في مد نفوذه إلى أبعد من ذلك لا سيما تجاه ساحل شرق الأندلس، فعاد في سنة ١٩٣ هـ (٨٠٩م) إلى مهاجمة طرطوشة وحاصرها لكن قوات الحكم بقيادة ابنه الأمير عبد الرحمن اشتبكت مع قوات الفرنجة ودارت بين الفريقين حرب شديدة انتهت بانتصار المسلمين انتصاراً حاسماً على جيش الفرنجة (١٩)، وجرت محاولات أخرى من قبل شارلمان للاستيلاء على بعض ثغور الأندلس غير أنها باءت بالفشل، وعاقت شارلمان عن تنفيذ مشروعه، عند ذلك أحس الجانبان الفرنجي والأندلسي بعقم هذه الحروب، فمالا إلى المهادنة والصلح، وآثر الأمير الحكم بسبب مشاغله الداخلية الكثيرة، لا سيما ثورات المولدين، واستفحال أمر الادارسة بالمغرب، وتوجسه من عواقب قيام دولتهم (٢٠)، وتمشياً مع سياسة جده الداخل ارسال السفارة المشار اليها، التي نجحت في عقد معاهدة سلام بين الجانبين مدتها ثلاث سنوات (٢١).

وفي سنة ٢٠١ هـ ـ ٨١٦م بعث الحكم الربضي سفارة أندلسية إلى العاهل الفرنجي لويس التقي الذي استقبلها في بلاطه بإكس لاشابل، وجرت مفاوضات بين الجانبين ثم عقدت اتفاقية سلام بين الطرفين (٢٢). و يبدو أن هدف هذه السفارة الأندلسية كان لتجديد الاتفاقية السابقة والتي أبرمت في عهد شارلمان، الذى توفى فى عام ٨١٤م، وخلفه ابنه لويس التقي

(١٩) ابن عذارى: البيان المغرب، ج ٢، ص ٧٢ ـ ٧٣، المقري: نفس المصدر، ج ١، ص ٣٤٠، السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ص ٢٢٦.

(٢٠) السلاوي: الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الأول، القاهرة، ١٣٠٦ هـ ص ٧١ وما بعدها.

(٢١) Levi-Provençal : Op. Cit, 128 Sanchez-Albornoz (Claudio) : El Islam de Espana yel Occidente, segunda édicion, coleccion austerial, Espasa-Calpe, Madrid, 1981, P. 164.

(٢٢) Sanchez-Albornoz : Op. cit., P. 164.

فلا بد وأن العاهل الأندلسي رغب في تجديد الاتفاق معه لاستمرار السلام بين الجانبين .

وفي عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط أرسلت سفارة أندلسية إلى دولة الفرنجة سنة ٢٢٤هـ — ٨٣٨م لاجراء محادثات مع لويس التقي ملك الفرنجة أيضاً (٢٣)، غير أن المصادر الأجنبية صمتت عن ذكر سبب ايفاد هذه وما أسفرت عنه، ونعتقد أن هذه السفارة لم تحقق نتيجة تذكر لأن هذه الفترة شهدت تحولا في سياسة الفرنجة نحو الأندلس، تمثل فى محاولات الفرنجة التدخل فى شئون الأندلس حربيا، باخضاع جماعات البشكنس أولا والتمهيد للعبور إلى شمال اسبانيا ثم التحول لمهاجمة المسلمين (٢٤)، غير أن محاولاتهم فشلت أمام تعاون البشكنس ومسلمي الأندلس فانزلوا الهزيمة بجيش الفرنجة (٢٥). فضلا عن أن العاهل الفرنجي لويس التقي استطاع أن يحقق مآربه فى ميدان آخر حين بسط حمايته على جزر البليار (ميورقة ومنورقة و يابسة) وسردينيا وقورسيقا، وقبل حكام هذه الجزر الحماية الفرنجية (٢٦). ولم يكن أمام عبد الرحمن الأوسط إذن غير محاولة التفاهم مع لويس التقي فأقدم على ارسال السفارة المذكورة سنة ٢٢٤هـ — ٨٣٨م. غير أن المفاوضات التى جرت بين الجانبين حينئذ لم تؤد إلى نتيجة ايجابية، لذلك حشد عبد الرحمن الأوسط قواته البحرية على طول سواحل شرق الأندلس فيما بين طرطوشة و بلنسيه، وشن أسطوله هجمات مستمرة على شواطىء الفرنجة في جنوب فرنسا فيما بين سنتي ٢٢٥هـ، ٢٢٦هـ/ ٨٣٨، ٨٣٩م حتى قضى على قواعد المقاومة فيها مثل مرسيليا وارل وما حولها، واتخذت جزيرة كامارج Camargue عند مصب

(٢٣) Levi-Provençal : Op. Cit, t. I, P. 175.

(٢٤) Deanesly : Op. Cit, P. 354.

(٢٥) شكيب أرسلان: تاريخ غزوات العرب في فرنسا وايطاليا وجزر البحر المتوسط، بيروت ١٩٦٦، ص ١٩٢. محمد الشيخ: الفرنجة، ص ١٧٤.

(٢٦) Deanesly : Op. Cit, P. 354.

نهر الرون قاعدة يشن منها مغامرو البحر الاندلسيون غاراتهم على الساحل الجنوبي الفرنجي بل والتغلغل في أراضيه عن طريق وادي الرون نفسه (٢٧)، واستطاع عبد الرحمن الأوسط أن يفرض حمايته على جزر البليار بعد أن شعر حكام هذه الجزر بعدم جدوى الارتباط بدولة الفرنجة (٢٨).

وفي سنة ٢٣٤هـ — ٨٤٧م أرسل عبد الرحمن الأوسط سفارة أندلسية إلى بلاد الفرنجة لعقد اتفاقية سلام، وصداقة مع العاهل الفرنجي شارل الأصلع Charles le chauve (٢٩). و يبدو أن السبب الأساسي لارسال هذه السفارة إلى دولة الفرنجة، يرجع إلى أن العلاقات بين الجانبين تبدلت بعد وفاة لويس التقي سنة ٨٤٠م / ٢٢٦هـ إذ اندلعت الحروب الأهلية بين ابناء لويس التقي واستمرت ثلاث سنوات انتهت بتولي شارل الأصلع حكم الجهات الغربية من الامبراطورية والتي شملت الأراضي المتاخمة للاندلس، فسار شارل على سياسة سلفه العدائية ضد الأندلس وأخذ يحرض الثوار على القيام بثورات ضد مسلمي الأندلس، لكن الأمير عبد الرحمن الأوسط لم يكن بغافل عما يدبره شارل الأصلع فقام بدوره بتأييد الثائرين ضد الملك الفرنجي وتحريضهم على القيام بثورات ضده، يؤيد ذلك ما ذكره المؤرخ القرطبي ابن حيان في احداث سنة ٢٣٢هـ — ٨٤٦م من قدوم أحد الثوار الفرنجة و يدعى وليم والذي سماه ابن حيان «غليالم بن برناط بن غليالم» كونت تولوز، والذي أعلن العصيان على شارل الأصلع، وطلب المساعدة من عبد الرحمن الأوسط، فأجابه إليها (٣٠) و يضيف رينو أن «غاليالم» هذا كان أحد رجال بيبن

(٢٧) أرشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ترجمة أحمد محمد عيسى، القاهرة، ١٩٦٠، ص ٢٢٩ — ٢٣٠، أحمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، الطبعة الأولى، الاسكندرية، ١٩٦٨، ص ٢٥٨ — ٢٥٩.

(٢٨) ابن حيان: المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق الدكتور محمود علي مكي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ص ٢ — ٣.

(٢٩) Levi-Provençal : Op. Cit, t. I, OI, P. 148.
Sanchez-Albornoz : Op. cit., P. 165.

(٣٠) ابن حيان: المصدر السابق، ص ٣. Reinaud : Op. Cit, PP. 199-120.

الصغير ابن أخي شارل الأصلع الذي ثار في اكوتين ضد عمه شارل الأصلع، وأنه هو الذي أرسل غليالم إلى بلاط عبد الرحمن الأوسط في قرطبة لطلب المساعدة (٣١)، وقد أشار إلى هذا الاتفاق أيضاً المؤرخ المستعرب القرطبي سان ايولوخيو بأن الأمير عبد الرحمن الأوسط وعد «غليالم» هذا بأن يعينه ويمده لو أنه ثار على شارل الأصلع ملك الفرنجة (٣٢). وقد ترتب على ذلك بلا شك أن اتسمت العلاقات بين الجانبين الفرنجي والأندلسي بالعداء، وتوقف على أثر ذلك الحوار والمفاوضة بينهما لفترة، ولم يتجدد إلا في السنوات الأخيرة لحكم عبد الرحمن الأوسط، وهو ما يشير إليه ليفي بروفنسال والذي جعله في سنة ٢٣٤هـ — ٨٤٧م(٣٣)، وإذا أضفنا إلى ذلك ما ذكرة ابن القوطية في أخبار تلك السفارة بقوله: «وذلك أن رجلاً يعرف بالقصبي كانت له وجهة، وكان يوفده عبد الرحمن بن الحكم إلى قارله (شارل) ملك الفرنجة وإلى ملك الروم»(٣٤) وعلى الرغم من عدم معرفتنا باسم هذا السفير الأندلسي والفرنجة، فقد توجت جهوده بعقد صلح واتفاق سلام بين العاهلين قبل وفاة عبد الرحمن الأوسط بسنوات قليلة(٣٥).

وقد احتفظ الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ — ٢٧٣هـ/ ٨٥٢ — ٨٨٦م) بعلاقات الود والصداقة مع شارل الأصلع الذي تبادل معه الهدايا لاستمرار المواصلة والمهادنة، فقد ذكر أحمد بن محمد الرازي أن «حال الأمير محمد كانت لدى المجاورين له من ملوك الطواغيت بأرض الأندلس نهاية في التعظيم له والهيبة، والتماس السلم منه في أغلب أحوالهم بالالطاف والمهاداة

---

(٣١) محمد محمد مرسي الشيخ: دولة الفرنجة ص ٢٤٢.

(٣٢) San Eulogio : Memoriale sanctorm en Levi-Provençal Histoire, t. I, P. 212, N, I.

(٣٣) Levi-Provençal : Ibid, P. 148.

(٣٤) تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٩٢.

(٣٥) El-Hajji : Op. Cit, P. 120.

وكان أكلفهم بذلك طاغوتهم الأعظم قرلش بن لذو يق (شارل الأصلع) صاحب الفرنجة الجبار المستبصر في دين الملكانية، وكان أعظم ملوك الفرنجة ملكاً وأفخمهم أمراً وأبعدهم صيتاً(٣٦). و يقول ابن عذارى المراكشي: «وكان قرولش (شارل الأصلع) ملك الفرنجة يسترجع عقله فيهاديه و يتحفه»(٣٧). و يؤكد ذلك ما ذكره ليفي بروفنسال نقلاً عن الحوليات المسيحية التي أرخت لحكم قرولش أو قارل بن لذو يق (شارل الأصلع) والتي تذكر خبر الصداقة بين الأمير محمد و بينه وما تبودل من سفارات بينهما(٣٨)، إذ استقبل شارل الأصلع سفارة أندلسية في Campiegne سنة ٢٤٩هـ — ٨٦٣م وأخرى في Senlis سنلس عام ٢٥٠هـ — ٨٦٤م(٣٩). وتسلم منها رسالتين من العاهل الأندلسي من انشاء المستعرب Samson مترجم البلاط القرطبي وهدايا ثمينة(٤٠). ويمكننا أن نؤكد أن السفارتين قد نجحتا في مهمتهما لتجديد المواصلة واحلال السلام بين الطرفين، بدليل استقبال الأمير محمد سفارة فرنجية في سنة ٢٥٢هـ — ٨٦٦م وقبول هداياهم وفيها تم عقد معاهدة صلح وسلام(٤١).

٢ ـــ السفارات الأندلسية إلى المانيا:

وجه الخليفة عبد الرحمن الناصر سفارة أندلسية إلى أوتو الأول Otto I امبراطور الدولة الرومانية المقدسة ٣٣٩هـ — ٩٥٠م، وعلى رأسها أسقف

---

(٣٦) ابن حيان: المقتبس، تحقيق الدكتور محمود علي مكي، ص ١٣٠.

(٣٧) ابن عذارى: البيان المغرب، ج ٢، ص ١٠٨.

(٣٨) Levi-Provençal : Op. Cit, t. 1, P. 283, N. 3.

(٣٩) Ibid, PP. 198-200.

(٤٠) Simonet (Francisco Javier) : Historia de los Mozarabes de Espana, Madrid, 1903, P. 494.

(٤١) El-Hajji : Op. Cit, P. 120.

وانظر أيضاً: محمد محمد مرسي الشيخ: دولة الفرنجة، ص ٢٤٥.

مستعرب(٤٢)، فرد عليه أوتو الأول بسفارة المانية وصلت إلى قرطبة برئاسة جان Juan رئيس دير جورز Gorz في Lorena، والراهب جرامانو Garamanno في سنة ٣٤٣هـ ــ ٩٥٤م(٤٣). ومما لا شك فيه أن بلاط قرطبة بلغ مكانة كبيرة، وأصبح مقصداً لجميع سفراء الملوك والأباطرة ذلك الوقت، فاتسم بنشاط دبلوماسي مع سفراء الدول الأجنبية وتعاون فيه الناصر مع عدد من الشخصيات المستعربة، والتي كانت بمثابة حلقة وصل بينه و بين سفراء الدول الأجنبية، و يبدو أن غرض السفارة التي أرسلها أوتو الأول إلى الأندلس كان لوضع حد لاغارات مجاهدي البحر الأندلسيين الذين اتخذوا قاعدة فراكستيم Fraxinetum على قمة جبل سانت ترو بيز Saint tropez والتي تشرف على سهول بروفانس وحدود ايطاليا مركزاً لشن غاراتهم على المدن الساحلية الفرنسية والايطالية فشكلت بذلك مصدر خطر لحركة المواصلات والتجارة التي تربط بين فرنسا وايطاليا وسو يسرا عبر جبال الألب(٤٤). على أية حال وصل الراهب جان ومن معه إلى قرطبة واستقبل بما يليق بمكانته كسفير لدولة كبرى، وأنزل بأحد قصور قرطبة بالقرب من احدى كنائسها حتى يستطيع اداء شعائره الدينية، وطبقاً للتقاليد الدبلوماسية أحيط الخليفة علماً بمضمون الرسالة التي يحملها السفير جان قبل تسليمها إليها رسمياً، و يبدو أن الرسالة التي حملها باسم الامبراطور كانت من انشاء برونو Bruno أسقف كولونيا Colonia وأخي الامبراطور أوتو، كانت تتضمن قذفاً في الدين الإسلامي مما سببت ازعاجاً كبيراً للخليفة الناصر، لهذا رفض تسلمها وطلب مقابلة السفير

(٤٢) Isidoro de les cagigas — Los Mozarabes, t. II, Instituto de Estudios Africanos, Madrid, 1948, P. 331.

(٤٣) Ibid, P. 331.

(٤٤) Paz y. Mella : Embajada del Emperador de Alamania oto I. al califa de Cordoba Abderrahman III, Boletin de la Academia de Ciencias, Bellas latras Y Nobles Artes de Coraoba, X, 1931, N. 33. Levi-provençal Op. Cit, t. II, P. 154.

أحمد مختار العبادي: دراسات، ص ٢٧٢.

بالهدية فقط التي بعث بها الامبراطور دون الرسالة ، لكن السفير جان أصر على تقديمها كتعليمات الامبراطور أوتو الأول([45]) .

لكن عبد الرحمن الناصر استطاع أن يحل هذه القضية الشائكة بحذق ومهارة ، فاختار الأسقف المستعرب ريسموند Recemundo القرطبي أسقف البيرة Iliberis المعروف بين الأندلسيين باسم ربيع بن زيد الأسقف القرطبي والذي حظي بمكانة ممتازة في القصر الخلافي ، وكان موضع تقدير الناصر لمعارفه الفلكية الواسعة ، فضلاً عما وقف عليه هذا الأسقف المستعرب من تسامح مسلمي الأندلس تجاه المستعربين ، ليكون أقدر من يلعب دور الوساطة بينه و بين الامبراطور الالماني أوتو الأول لكونه مسيحياً من ناحية ، ولما توسمه فيه من مقدرة على شرح وجهة نظر الخليفة بطريقة ممتازة من ناحية أخرى لوضع حل للموقف الصعب الذي خلقه القاصد الرسولي العنيد السفير جان([46]) . وهكذا وقع اختيار الناصر على الأسقف ريسموند ليكون سفيره إلى المانيا ، وزوده بما يلزم من توجيهات فضلاً عن أن السفير الالماني جان زوده أيضاً برسائل لمقدم دير جورز لتسهيل مهمته([47]) .

خرجت السفارة من الأندلس في طريقها إلى المانيا ، فوصلت أولاً إلى دير جورز وفيه سلم الأسقف ريسموند رسالة السفير الالماني جان ومكث فترة من الوقت في ضيافة الدير إلى أن تم اعداد مقابلته مع الامبراطور الالماني([48]) أوتو الأول في فرانكفورت الذي استقبل السفارة الأندلسية بحفاوة وأكرم وفادتهم وأطلع على رسالة الخليفة الناصر وتفهم ما جاء بها واستجاب لما طلبه العاهل

(٤٥) Isidoro de las Cagigas : Op. Cit, t. II, P. 331.

(٤٦) Ibid, t. II, PP. 330-332

(٤٧) El-Hajji (A.A.) : Andalusian diplomatic relations with western Europe during the Umayyad Period, Beirut, 1970, P. 219,

محمد الشيخ : دولة الفرنجة ، ص ٢٦٦ .

(٤٨) Isidoro de las Cagigas : Op. Cit, t. II, PP. 332-333.

الأنـدلسي، وأرسـل الامبـراطور الالمـاني دوق فردان Verdun في سفارة بعدئذ للأندلس، فاستقبله الخليفة الناصر متناسياً ما جاء في الرسالة السابقة([49]).

وهـكـذا كللت سفارة الأسقف المستعرب ريسموند بالنجاح وقفلت عائدة إلى قرطبة في سنة ٣٤٥هـ ــ ٩٥٦م.

٣ ــ سفارة أندلسية إلى روما:

وفي عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر وجه سفارة أندلسية إلى روما، وكانت مهمة هذه السفارة شراء بعض الأعمدة الرومانية المتخلفة من معابدها الرومانية القديمة من أجل الاستفادة بها في تشييد مدينة الزهراء التي أنشأها الناصر شمال غرب قرطبة لتكون مقراً لخلافته، والتي حرص على تزيينها وتجميلها حتى تليق به وتصبح مقراً لخلافته، وعهد بالاشراف على بنائها إلى ابنه وولي عهده الحكم، و يبدو أن السفارة الأندلسية حققت أغراضها، وأجيب الناصر لطلبه، ويحتمل أن يكون تاريخها بعد سنة ٣٤٥هـ ــ ٩٥٦م وقبل سنة ٣٥٠هـ ــ ٦٩١م، أي في السنوات الأخيرة لخلافة الناصر([50]).

السفارات الأندلسية إلى القسطنطينية:

تميز القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) بتغير العلاقات الدولية بين الأندلس و بيزنطة، فحلت المصالح الدولية السياسية محل الاعتبارات الدينية و برز ذلك واضحاً في السفارة التي أرسلها الامبراطور البيزنطي ثيوفيل Theophilus (٨٢٨ ــ ٨٤٢م) إلى عاهل الأندلس عبد الرحمن الأوسط سنة ٢٢٥هـ ــ ٨٣٩م.

فقد اتسمت العلاقات الدولية في هذا القرن بتغيرات هامة، كانت فيه المصالح السياسية والقومية والاقتصادية تملي على أباطرة وملوك وحكام الدول البحث عن عقد المحالفات والمعاهدات للتمكن من مجابهة المواقف والأوضاع

(٤٩) Isidoro de las Cagigas : Op. Cit, t. II, P. 333.

(٥٠) Ibid, P. 333. El-Hajji : Anda' 'sian, P. 287.

الدولية والداخلية على السواء .

وقد حفظت لنا المراجع الأجنبية أخبار سفارات تبودلت بين شارلمان امبراطور الفرنجة و بين هارون الرشيد الخليفة العباسي ، بغية تحقيق مصالح مشتركة على حساب الدولتين البيزنطية والأموية في الأندلس ، وعلى الرغم من أنها لم تحقق شيئاً من أهدافها إلا أنها عمرت بعبارات التبجيل وتبادل الهدايا القيمة .

وتمشياً مع مبدأ المصالح السياسية ، أدرك الامبراطور البيزنطي ثيوفيل أنه من الحكمة اقامة علاقات ودية مع مسلمي الأندلس بغرض تخفيف الضغط العسكري الذي تواجهه امبراطوريته سواء من جانب البحريين الأندلسيين في كريت والأغالبة في افريقية وصقلية الذين يدورون في فلك الدولة العباسية أو من جانب الخلافة العباسية في المشرق ، فلقد نجح البحريون الأندلسيون في انتزاع جزيرة كريت التابعة لبيزنطة واتخذوها قاعدة لهم شنوا منها الغارات على جزر بحر إيجة وساحل تراقيا وجبل آنوس ومدينتي ميليتين وسالونيك وغيرها ، كما نجح الأغالبة بعد غزواتهم البحرية المتكررة على سواحل البحر الادرياتي وجنوب إيطاليا من الاستيلاء على جزيرة صقلية . أما في المشرق فقد تمكن الخليفة العباسي المعتصم (٢١٨ — ٢٢٣ هـ ٨٣٣ — ٨٤٢م) من دحر قوات البيزنطيين بانتصاره عليهم في عمورية ٢٢٣ هـ — ٨٣٨م .

وقبل الحديث عن السفارات الأندلسية إلى القسطنطينية ، ينبغي لنا أن نلقي الضوء على القوى الإسلامية التي لعبت دوراً أساسياً في مواجهة بيزنطة والتي حملت الامبراطور البيزنطي ثيوفيل على طلب المساعدة من أمير الأندلس عبد الرحمن الأوسط .

فلقد استطاع البحريون الأندلسيون أن يستغلوا حالة الفوضى التي عاشتها مصر في ظل الخلاف الذي نشب بين الأمين والمأمون وما ترتب على ذلك من فوضى في مصر فدخلوا طرفاً في النزاع الدائر على أرض مصر وتمكنوا من الاستيلاء على مدينة الاسكندرية بمعاونة عرب البحيرة و أسسوا فيها إمارة

أندلسية مستقلة عن الخلافة العباسية دامت أكثر من عشر سنوات وعندما دانت الخلافة للمأمون، واستقرت الأوضاع في العاصمة، رأى المأمون أن يضع حداً للاضطرابات الداخلية في مصر، فأرسل قائده عبدالله بن طاهر بن الحسين على رأس جيش إلى مصر لهذا الغرض سنة ٢١٢هـ ــ ٨٢٨م(٥١) فحاصر الاسكندرية لمدة اسبوعين ولم يجد الأندلسيون بداً من مصالحته، فصالحهم على أن يخلوا الاسكندرية إلى حيث أرادوا بشرط ألا يأخذوا في مراكبهم أحداً من الأهالي ولا عبداً ولا آبقا، فإذا خالفوا هذا الشرط حلت دماؤهم(٥٢). بينما يذكر ابن الابار أن عبدالله بن طاهر صالح الأندلسيين على التخلي عنها مقابل مال بذله لهم وخيرهم في النزول حيث شاءوا من جزائر البحر، فاختاروا جزيرة اقريطش التي غزوها بقيادة زعيمهم أبي حفص عمرو بن شعيب البلوطي(٥٤). وكان اختيار البحريين الأندلسيين لجزيرة اقريطش مقراً لهم اختياراً موفقاً لما تتمتع به الجزيرة من موقع استراتيجي ممتاز في شرقي البحر الأبيض المتوسط، فضلاً عن خصوبة أرضها(٥٥). والواقع أن هذا الاختيار لم

(٥١) Levi-Provençal : Histoire, t. I, P. 127.

وانظر أيضاً عن البحريين الأندلسيين واستيلائهم على الاسكندرية من المراجع العربية الحديثة: سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي، ج ٢، منشأة المعارف، الاسكندرية ١٩٧٩، ص ٢٢٨ وما بعدها، السيد عبد العزيز سالم (بالاشتراك مع أحمد مختار العبادي): تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، ج ٢٢، مؤسسة شباب الجامعة (بدون تاريخ)، ص ٦٧ وما بعدها، أحمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، الطبعة الأولى، الأسكندرية، ١٩٦٨، ص ٢٥٣ وما بعدها، اسمت غنيم: الامبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية، دار المعارف، ١٩٨٣، ص ٥٢ وما بعدها.

(٥٢) الطبري (محمد بن جرير): تاريخ الأمم والملوك، ج ١٠، المطبعة الحسينية المصرية القاهرة ١٣٢٦هـ، ص ٢٧٥، ٢٧٦، ابن الأثير: الكامل، ج ٤، ص ٢١٢.

(٥٣) ابن الآبار: الحلة السيراء، ج ١، ص ٤٥.

(٥٤) الضبي (أحمد بن يحيى بن أحمد: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، دار الكتاب العربي ١٩٦٧، ص ٤٠٥ (ترجمة ١١٦٥).

(٥٥) ابراهيم احمد العدوي: اقريطش بين المسلمين والبيزنطيين في القرن التاسع الميلادي، المجلة التاريخية المصرية، اكتوبر ١٩٥٠، المجلد الثالث، العدد الثاني، ص ٥٥.

يأت بمحض الصدفة، فيذكر المؤرخ فازلييف اعتماداً على ما رواه جنزيوس أن البحريين الأندلسيين أغاروا مرات على كريت وعلى جزر يونانية أخرى قبل أن يخرجوا من الاسكندرية في سنة ٢١٢هـ — ٨٢٧م فقد أغار البحريون الأندلسيون على جزيرة كريت في سنة ٢١١هـ — ٨٢٦م وعلى جزر أخرى يونانية وعادوا محملين بكثير من الأسرى والغنائم بعد أن خبروا المكان وعرفوه معرفة دقيقة(٥٦).

وربما كان للظروف الداخلية العصيبة التي كانت تمر بها بيزنطة من جراء ثورة توماس الصقلبي أثر في عدم مبادرتها بالدفاع عن الجزيرة، وإذا أضفنا إلى ذلك أن امكانات الجزيرة العسكرية لم تكن تسمح لها بمقاومة البحريين الأندلسيين أدركنا بلا شك كيف نجح البحريون الأندلسيون في فتح الجزيرة وفي استكمال فتح بقية أجزائها، وتمكنوا في وقت قصير من الاستيلاء على تسع وعشرين مدينة لم تحفظ اسماؤها(٥٧). ثم لم تلبث باقي نواحي الجزيرة أن دانت لهم بالطاعة وخضعت الجزيرة تماماً للفاتحين. وكان من الطبيعي أن يلتمسوا الأمان بالانتماء إلى الخلافة العباسية التي كانت تسيطر على الشرق الأدنى الإسلامي كله بما في ذلك مصر وأفريقية(٥٨). وما لبثت اقريطش أن أصبحت في التقسيم الاداري للدولة العباسية إقليماً تابعاً لمصر(٥٩).

أما عن موقف بيزنطة من هذا الفتح، فيستفاد مما أوردته المصادر البيزنطية في هذا الشأن أن الامبراطور ميخائيل الثاني (٨٢٠هـ — ٨٢٩م) قام بمحاولات يائسة لاسترداد الجزيرة غير أن هذه المحاولات باءت كلها بالفشل الذريع، وتأكدت السيطرة الإسلامية على الجزيرة بل وشجعت مسلمي كريت

(٥٦) فازلييف : العرب والروم، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي شعيرة، مراجعة الدكتور فؤاد حسنين علي، الفكر العربي، القاهرة (بدون تاريخ) ص ٥٥.

(٥٧) فازلييف : نفس المرجع، ص ٥٨ وما بعدها وانظر أيضاً.

Bury : History of the Eastern Roman Empire, London 1912, P. 289.

(٥٨) السيد عبد العزيز سالم : البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، ج ٢، ص ٨٣.

(٥٩) العدوي : اقريطش بين المسلمين والبيزنطيين، ص ٥٩.

على اتخاذها مركزاً لشن هجماتهم على السواحل والجزر البيزنطية المجاورة فكانوا مصدر ازعاج وقلق مستمر لخلفة ثيوفيل الذي أغار البحريون الأندلسيون في أوائل عهده على شواطىء أيونيا Ionia وكايرا Caira على الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى في نحو خمسين سفينة، كما هاجموا أديرة الرهبان في جبل آتوس Atus(٦٠). غير أن ثيوفيل ما لبث أن أدرك عدم جدوى مواصلة سياسة والده في محاولة استرداد الجزيرة فآثر تغيير خططه ولعله رأى من الأصوب أن يقضي على الأصل فيسقط الفرع، لذلك نجده يستغل الظروف الصعبة التي كانت تمر بها الدولة العباسية وقتذاك وانشغالها بفتنة بابك الخرمي، واندلاع بعض الثورات في نواحيها، فدخل في حروب معها إلا أنه مع ذلك لم ينجح في محاولته الجديدة.

أما عن دولة الأغالبة، فمن المعروف أنها قامت في أفريقية سنة ١٨١هـ — ٧٩٨م بموافقة الخلافة العباسية التي آملت أن تكون هذه الدولة بمثابة حاجز بين أملاك الخلافة العباسية في المشرق و بلاد الادارسة في المغرب الأقصى الذين تطلعوا إلى فصل المغرب عن بقية العالم الإسلامي(٦١)، واتخذ الأغالبة مدينة القيروان حاضرة لهم في عهد أميرهم ابراهيم بن الأغلب (١٨١ — ١٩٦هـ — ٧١٨ — ٨١١م)، وعملوا على تكوين قوة بحرية تمكنهم من غزو جزيرة صقلية وتم ذلك فعلاً على عهد زيادة الله بن ابراهيم (٢٠١ — ٢٢٣هـ — ٨١٦ — ٨٣٧م)، الذي أعد جيشاً يتكون من سبعمائة فارس وعشرة آلاف راجل من اشراف افريقية من العرب والبربر والجند والأندلسيين وأهل العلم

---

(٦٠) Ostrogorsky : Ahistory of the Byzantine state, English translation by Hussy, Oxford, P. 253,

أسمت غنيم : المرجع السابق، ص ١٠٩.

(٦١) ابن الخطيب (لسان الدين): أعمال الإعلام، القسم الثالث الخاص بالمغرب، ص ١٧هـ ٢، السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، الجزء الثاني، الدار القومية للطباعة الاسكندرية، ١٩٦٦، ٣٧٤.

والبصائر(٦٢) تحملهم سبعون سفينة(٦٣) بقيادة قاضي القيروان أسد بن الفرات، فاحتلوا مدينة مازره Mazara(٦٤)، وغيرها من المواضع المواجهة للساحل الأفريقي جنوباً. ثم استشهد القاضي والقائد أسد بن الفرات تحت أسوار سرقوسة Syrcuse شرقي الجزيرة سنة ٢١٣ هـ ــ ٨٢٨م ودفن تحت أسوارها(٦٥)، بعد أن وطد الحكم الإسلامي في بعض نواحيها(٦٦)، و«قاتل الروم قتالاً شديداً، فقتلهم وهزمهم واستأصلهم، وسكنها المسلمون واستوطنوها» (٦٧) ولم يلبث الأغالبة بعد سنوات قليلة أن استكملوا فتح الجزيرة كلها، ثم أخذوا في تكثيف نشاطهم على النواحي التابعة لبيزنطة، فأغاروا على قلورية (كلابريا) في جنوب إيطاليا وهزموا الأسطول البيزنطي وأجبروه على العودة إلى القسطنطينية(٦٨) كما عبرت أساطيلهم مضيق مسيني في الفترة من ٢٢٢ ــ ٢٢٧ هـ واجتاحت ولاية ماجنا جراتسيا القديمة وشملت غاراتهم البحرين التيراني والادرياتي فتغلبوا على ولايتي أبوليا وقلورية وخربوا دوقية سبوليتو و باغتوا انكونا الواقعة على البحر الادرياتي واستولوا عليها(٦٩).

---

(٦٢) ابن عذارى المراكشي : البيان في أخبار الأندلس والمغرب، ج ١، تحقيق كولان و بروفنسال، دار الشروق، بيروت، ص ١٠٢، المالكي (أبو بكر بن أبي عبدالله): رياض النفوس، تحقيق الدكتور حسين مؤنس، الجزء الأول، الطبعة الأولى مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥١، ص ١٨٧.

(٦٣) المالكي: نفس المصدر والجزء، ص ١٨٧، سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق، ص ٢١٧.

(٦٤) ميشيل أماري: المكتبة الصقلية، ليبسك ١٨٧٥، ص ١٦٥.

(٦٥) سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق، ص ٢٢٣.

(٦٦) المالكي: المصدر السابق، ص ١٨٩.

(٦٧) نفس المصدر والصفحة.

(٦٨) ابن الأثير: الكامل، ج ٦، ص ٤٩٤، المكتبة الصقلية، ص ٢٢٨، ابن خلدون (عبد الرحمن): كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. الجزء الرابع، منشورات الأعلمي، بيروت، لبنان، ١٩٧١، ص ٢٠٠.

(٦٩) سالم : البحرية في المغرب والأندلس، ج ٢، ص ١٣٢.

و ينبغي الاشارة إلى أن مجاهدي البحر الأندلسيين قد لعبوا دوراً هاماً في استقرار الفتوح الإسلامية في صقلية بمشاركتهم قوات الأغالبة في مواجهة القوات البيزنطية فيذكر ابن عذاري في أحداث سنة ٢١٤هـ ــ ٨٢٩م «وصل من الأندلس إلى صقلية نحو ثلاثمائة مركب فيها أصبغ بن وكيل الهواري المعروف بفرغلوش»(٧٠). و يؤكد ذلك النويري فيشير إلى أن السفن القادمة إلى صقلية كانت من الأندلس قدمت في مجموعتين برسم الغزو أولها بقيادة أصبغ بن وكيل الهواري وثانيها بقيادة سليمان بن عافية الطرطوشي(٧١). بينما يذكر الحميري أنه وصل من الأندلس مراكب كثيرة، وأمير الأندلس إذ ذاك عبد الرحمن بن الحكم، «وكانوا فصلوا من طرطوشة يريدون بلاد الروم، فأخرجتهم الريح إلى صقلية، فنزلوا جزيرة طرابنش من صقلية»(٧٢).

ومما لا شك فيه أن المساعدة البحرية الأندلسية كانت ذات أثر فعال في استقرار نفوذ الأغالبة في صقلية مما مكن هؤلاء من التحول بعد ذلك لمهاجمة الأراضي البيزنطية.

أما عن موقف ثيوفيل من أحداث صقلية فلم يختلف عن موقفه من سقوط جزيرة كريت، ففي عهده استسلمت للأغالبة كثير من الحصون والمواضع وذلك في عام ٢٢٥هـ ــ ٨٣٩م(٧٣)، خضعت لهم دون قتال.

وعن علاقة الدولة العباسية ببيزنطة على عهد ثيوفيل، فقد كانت في مجموعها علاقة عدائية تركزت في المقام الأول في محاولة العباسيين تأمين حدودهم المطلة على الأراضي البيزنطية مع الاهتمام بتنظيم منطقة الثغور الإسلامية. ولقد نشب النزاع بين الدولتين البيزنطية والعباسية خاصة بعد قيام

(٧٠) ابن عذارى: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٣٢.

(٧١) النويري (شهاب الدين أحمد): نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٢٢، نسخة مصورة عن المخطوط المحفوظة بدار الكتب المصرية برقم ٢٤٩ معارف عامة، ورقة ٢٢٨.

(٧٢) الحميري (عبد المنعم): الروض المعطار في أخبار الأقطار، نشر ليفي بروفنسال، القاهرة، ١٩٣٧، ص ١٦٨.

(٧٣) فازلييف: العرب والروم، ص ١٦٦.

الامبراطور ثيوفيل بالهجوم على منطقة الثغور الجزرية وتحطيمه مدينة زبطرة الإسلامية ورد الخليفة المعتصم على ذلك بحملة شهيرة في التاريخ تلك التي اقتحم فيها مدينة عمورية وأذل الامبراطور في مسقط رأسه وأنزل به هزائم متتالية وألجأه إلى طلب العون والمساعدة من قوى أخرى كما ألجأه إلى طلب التحالف مع الأندلس. عول ثيوفيل على التماس المساعدة أولاً من القوى الأوربية المسيحية، فبعث سفارة بيزنطية على رأسها ثيودور أسقف خلقدونية إلى لويس التقي امبراطور الفرنجة يحملون رسالة تيوفيل وهداياه الثمينة ويطلب فيها أن يعينه بجيش كبير ويحثه على القيام بعمل عسكري ضد المسلمين في افريقية ليشغل الخلافة العباسية عن بيزنطة ويضعف قوة المعتصم ويشتتها وعلى الزغم من أن هذه السفارة لقيت ترحيباً من عاهل الفرنجة، إلا أنها لم تنجح في مهمتها، ذلك أن مملكة الفرنجة كانت تعاني أزمات داخلية مستمرة وتشهد حرباً أهلية طاحنة، فضلاً عن انهماك الفرنجة في حروب مع مسلمي الأندلس، ثم كانت وفاة ثيودور رئيس الوفد البيزنطي وموت لويس التقي عاهل الفرنجة(٧٤)، نهاية تعسة لهذه الجهود الدبلوماسية الفاشلة. وفي نفس الوقت بعث ثيوفيل بسفارة أخرى إلى دوق البندقية بيير تراندكو يطلب منه العون لحرب الأغالبة(٧٥) الذين هددوا الممتلكات البيزنطية بإيطاليا ونزلوا على سواحل كالابريا وأبوليا واستولوا على تارانت مستغلين الاضطرابات التي كانت سائدة آنذاك في مدينة بنفان Bénévent(٧٦).

ولعل ما يعنينا من ذلك كله ما حدث من اتصال دبلوماسي بين بيزنطة على عهد ثيوفيل والأندلس على عهد عبد الرحمن الأوسط إذ أرسل تيوفيل سفارة ثالثة في سنة ٢٢٥هـ — ٨٣٩م برئاسة قراطيوس Kartiyas إلى عاهل الأندلس

(٧٤) فازلييف: المرجع السابق، ص ١٦٣ — ١٩٦٤ Bury. Op. Cit. P. 273

(٧٥) فازلييف: نفس المرجع، ص ١٥٧

(٧٦) ليفي بروفنسال: الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة الدكتور السيد عبد العزيز سالم والأستاذ محمد صلاح الدين حلمي ومراجعة الدكتور لطفي عبد البديع، مجموعة الألف كتاب رقم (٨٩)، ص ٩٩.

عبد الرحمن الأوسط الذي استقبل رسل ثيوفيل بحفاوة بالغة وقبل هداياه وتسلم رسالته(٧٧) مما يؤكد اتجاه بيزنطة إلى محاولة إقامة محور سياسي وتقارب مع الأمويين بالأندلس موجهاً ضد العباسيين وحلفائهم الفرنجة إذ يذكر المؤرخون أن سفارة ثيوفيل هذه طلبت عقد معاهدة صداقة مع الأمويين في الأندلس فضلاً عن أن تيوفيل حرص في رسالته إلى عبد الرحمن الأوسط على أن يحثه على محاربة العباسيين لاسترجاع ملك أجداده في المشرق ولا يخفى علينا أن ذلك يستهدف شغل العباسيين وفتح جبهة جديدة أمامهم.

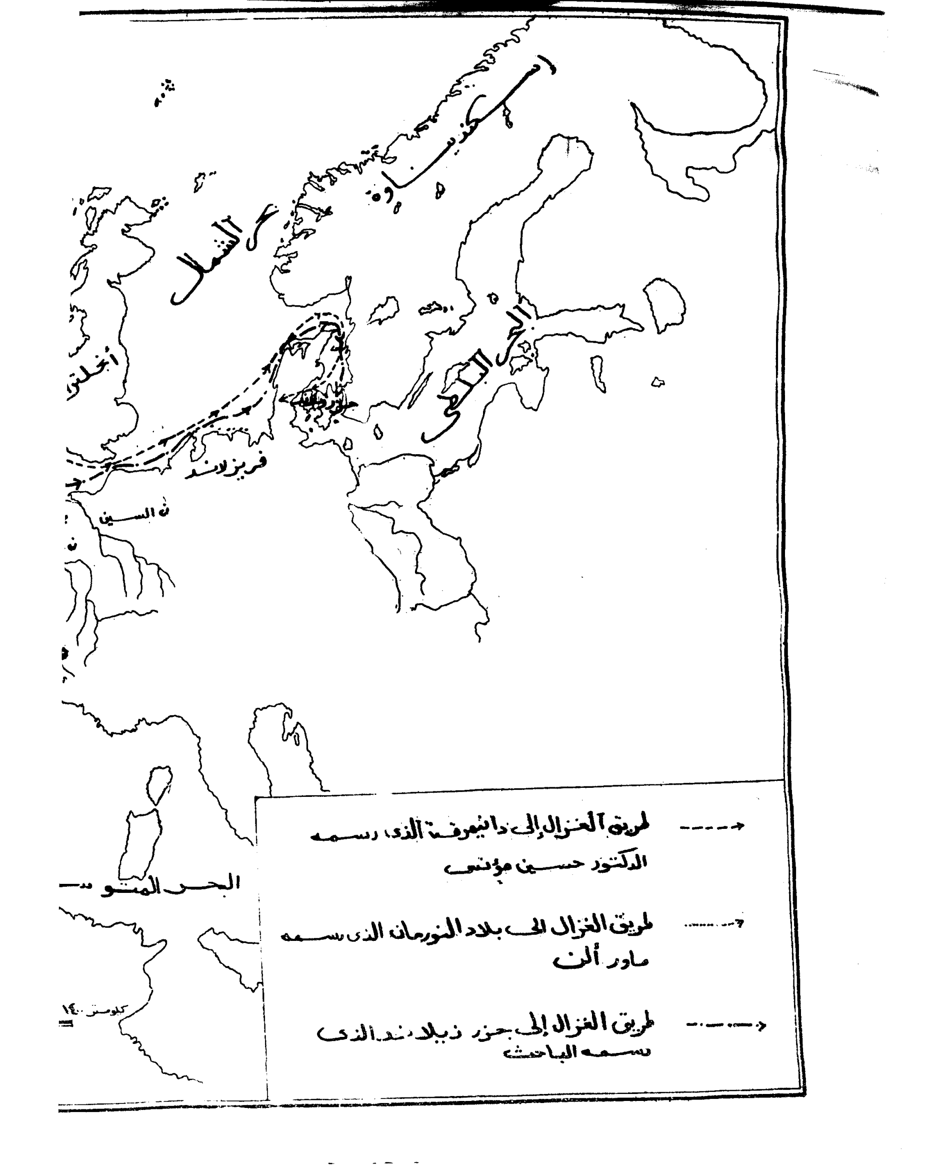
ولما وقف الأمير عبد الرحمن الأوسط على مضمون هذه الرسالة لم يبد اهتماماً كبيراً بها لعلمه بالأسباب التي دعت ثيوفيل إلى ذلك. ولكنه كان مضطراً إلى اجابة الامبراطور على رسالته بما يليق بمكانته، لذلك قرر ارسال سفارة إلى القسطنطينية تحمل رده، فانتدب لذلك شاعره الحكيم يحيى بن حكم الغزال — الذي يرتفع نسبه إلى قبيلة بكر بن وائل — والذي يملك من السجايا والصفات ما يؤهله لهذه المهمة، فقد كان حكيم الأندلس وشاعرها وعرافها، حصيفاً لبقاً، ذكياً حاضر البديهة لطيف المدخل، و يكفيه فخراً أنه رئيس أول بعثة دبلوماسية تمثل أميراً مسلماً لدى ملك أوربي(٧٨)، كما اختار الأمير عبد الرحمن الأوسط رجلاً يسمى يحيى صاحب المنيقلة ليرافق الغزال في سفارته(٧٩) وعهد إليهما بالرد على العاهل البيزنطي، وهو على حد قول ليفي

(٧٧) ابن خلدون: العبر، ج ٤، ص ١٣٠، المقري: النفح، ج ١، ص ٣٤٦، وانظر ابن حيان في ليفي بروفنسال: الإسلام في المغرب والأندلس، ص ٩٧ — ٩٨ — ١٠٠.

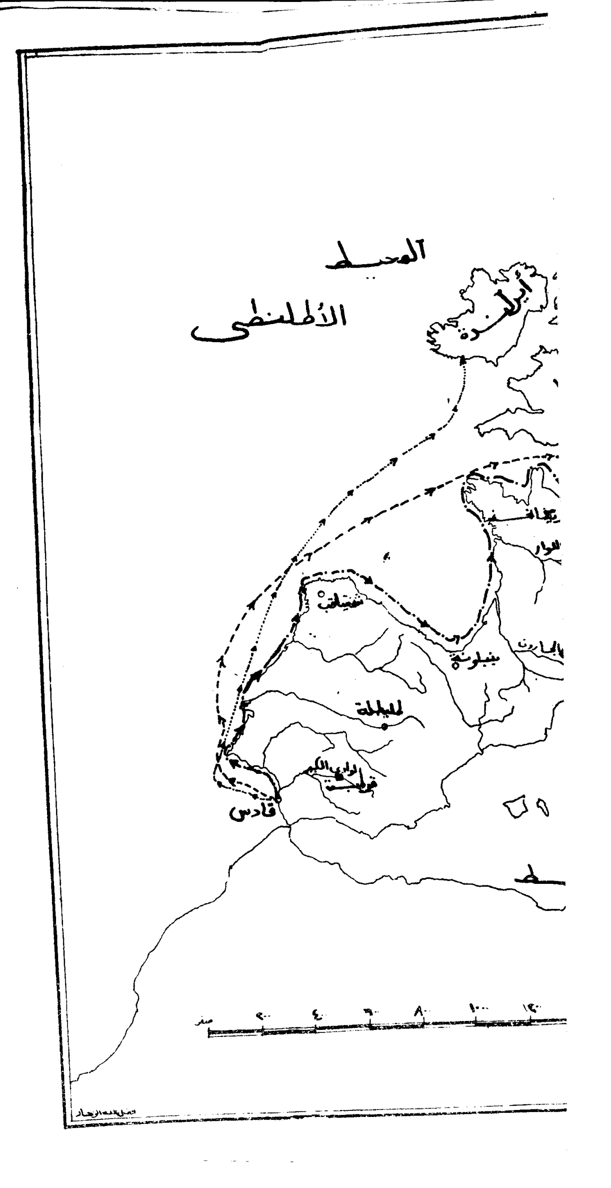
(٧٨) انظر في ترجمة يحيى بن حكم الغزال: الحميدي: جذوة المقتبس، ص ٧٤، ابن حيان: المقتبس، بتحقيق الدكتور محمود علي مكي، ص ١٤٩، الضبي: بغية الملتمس، ص ٥٠٠، ابن دحية: المطرب، ص ١٣٣، ليفي بروفنسال: الإسلام في المغرب والأندلس، ص ٩٢، بروكلمان: الأدب العربي ج ٢، ص ١٠٤، ابراهيم أحمد العدوي: السفارات الإسلامية إلى دول أوربا في العصور الوسطى، ص ١١٣، محمد صالح البنداق: يحيى بن حكم الغزال، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٩، ص ٣٠ وما بعدها، سعد اسماعيل شلبي: الأصول الفنية للشعر الأندلسي، عصر الادارة، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٨٣، ص ٧٥٨.

(٧٩) ليفي بروفنسال: الإسلام في المغرب والأندلس، ص ١٠٠.





بحر الشمال
اسكنديناوة
البحر البلطي
أنجلترا
فريزلاند
البحر المتوسط
طريق الغزال إلى دانيمرقة الذى رسمه الدكتور حسين مؤنس
طريق الغزال إلى بلاد النورمان الذى رسمه ماور ألن
طريق الغزال إلى جزر زيلاند الذى رسمه الباحث


المحيط
الأطلنطى
أيرلندة
بنبلونة
طليطلة
قادس



بروفنسال أمر لم يكن منتظراً بل يعد نادراً في تاريخ المغرب الإسلامي(٨٠).

سافر الوفد الأندلسي بصحبة الوفد البيزنطي إلى القسطنطينية فوصلها بعد رحلة بحرية شاقة، حيث استقبل العاهل البيزنطي ثيوفيل وفد الأندلس بترحيب بالغ، فقدم له يحيى الغزال رسالة أميره الجوابية، وقام الغزال بأداء مهمته خير قيام وعمل على توثيق العلاقات بين الدولتين «فأحكم فيهما الوصلة»(٨١).

ولحسن الحظ حفظ لنا ابن حيان نص هذه الرسالة الجوابية(٨٢) والتي تضمنت رد عاهل الأندلس، الذي اتسم بالحكمة و بعد النظر والدبلوماسية فقد شارك ثيوفيل رغبته في تجديد صلات المودة والصداقة بين البلدين كما شاطر العاهل البيزنطي سخطه على العباسيين ورجا من الله أن يقطع دابرهم إلا أن أمير الأندلس لم يأخذ على نفسه أي تعهد بالقيام بأي عمل حربي ضدهم ولم يتعهد لعاهل بيزنطة بموقف محدد من الخلافة العباسية، ودلل بذلك على حصافة وحكمة و بعد نظر.

أما عن تحديد موقفه من الربضيين في كريت، فقد تبرأ الأمير منهم لأنهم خرجوا عن طاعته، وترك لعاهل بيزنطة حرية معاقبتهم وطردهم من كريت(٨٤)، و بذلك تخلص الأمير عبد الرحمن الأوسط من شرك ثيوفيل، إذ كان ثيوفيل يريد اتخاذ عبد الرحمن الأوسط أداة لتخليصه من الربضيين فإذا بعبد الرحمن الأوسط يتملص من ذلك و يلقي بهذه التبعة على ثيوفيل نفسه.

---

(٨٠) نفس المرجع والصفحة.

(٨١) المقري: نفح الطيب، ج ١، ص ٣٢٤.

(٨٢) Lévi-Provençal : Un échange d'ambassades entre Cordoue et Byzance au IXe, Siécle, en Byzantion, tome, XII, Bruxelles, 1937, PP. 17-20.

وانظر أيضاً:

ليفي بروفنسال: الإسلام في المغرب والأندلس، الملحق ص، ١١٥ — ١١٨.

(٨٣) ليفي بروفنسال: نفس المرجع السابق، ص ١١٧.

(٨٤) نفس المرجع، ص ١١٨.

أما بالنسبة للأغالبة، فلم يرد في رسالة الأمير عبد الرحمن الأوسط ذكر لهم، على الرغم من أن بيزنطة كانت تضيق بسياستهم، كما سبقت الإشارة وطلبت عوناً من دولتي الفرنجة والبندقية لحربهم، ومع ذلك نجد الأمير الأندلسي لا يذكر شيئاً عنهم في رسالته، و يبدو أنه آثر التحفظ فيما يختص بالأغالبة ربما لأنه كا يؤيد جهودهم في صقلية و يعتبر ذلك نوعاً من الجهاد في سبيل الله وفي سبيل توسيع رقعة الأراضي الخاضعة للمسلمين. وربما آثر الأمير الأندلسي أن يترك الرد على ذلك لسفيره قراطيوس، فيذكر ابن حيان أنه كشف لرسوله أسراراً أخرى لم تتضمنها الرسالة، و يقول: «وقد أدخلنا رسولك قراطيوس علينا وكشفناه على الذي أوصيت به إلينا، وعن كل ما يجب لصديق أن يعرفه من حال صديقه(٨٥). ولكن يبدو أن عاهل الأندلس استجاب لبعض مطالب ثيوفيل تجاه الأغالبة لأن المساعدات الأندلسية للأغالبة بجزيرة صقلية لم تستمر بعد ذلك طويلاً وإن لم يقم الأمير الأندلسي بعمل حربي مضاد لنشاط الأغالبة في صقلية لأنه كان يعتبرهم مجاهدين في سبيل الله كما أسلفنا.

ويمكن القول أن سفارة الغزال إلى القسطنطينية قد حققت نجاحاً طيباً فهي من جهة تعتبر أول اتصال رسمي بين بيزنطة والأندلس، ومن جهة أخرى ترتب عليها ابرام اتفاقية ودية بين العاهلين البيزنطي والأندلسي في حوالي سنة ٢٢٦هـ ــ ٨٤٠م.

وفي عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر وفدت سفارة بيزنطية من قبل الامبراطور قسطنطين السابع، فاستقبلها في قرطبة في صفر سنة ٣٣٨هـ ــ ٩٤٩م لتجديد المودة والصداقة بين البدين(٨٦)، وقد رد الخليفة الناصر بسفارة

(٨٥) ليفي بروفنسال: الإسلام في المغرب والأندلس، ص ١١٨.

(٨٦) ابن خلدون العبر، ج ٤، ص ١٤٢، المقري: نفح الطيب، ج ١، ص ٣٦٤ ــ ٣٦٦ ويجعل ابن خلدون تاريخ السفارة في سنة ٣٦٦هـ (نفس المصدر والجزء والصفحة)، غير أننا أخذنا التاريخ الذي أورده المقري نقلاً عن ابن حيان (النفح، ج ١، ص ٣٦٦) لأن حكم الناصر لم يستمر حتى هذا التاريخ.

أندلسية برئاسة هشام بن هذيل ومعه هدايا قيمة، بغرض تجديد المودة وتأكيد الصداقة بين العاهلين واستمرت مهمته نحو سنتين (٨٧).

وفي عهد الناصر خرجت سفارة أندلسية على رأسها الأسقف ربيع بن زيد القرطبي إلى القسطنطينية، وكان غرض هذه السفارة جلب بعض السواري والتحف الرومانية القديمة، يذكر ابن عذاري أن ملك الروم أهدى الناصر مائة وأربعين سارية، وحوض غريب منقوش مذهب بالتماثيل لا يقدر بثمن، وضعه الناصر في بيت المنام في المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس بمدينة الزهراء(٨٨).

وفي عهد الحكم المستنصر ٣٥٠ ـــ ٣٦٦هـ ـــ ٩٦١ ـــ ٩٧٦م تجددت العلاقات الودية بين الأندلس و بيزنطة، فيذكر ابن عذاري أن الحكم أوفد سفارة أندلسية إلى بلاط الامبراطور البيزنطي نقفور فوكاس Phocas Nicephore، لاحضار صانع بيزنطي مختص في تنزيل الفسيفساء في زيادة الحكم بالمسجد الجامع بقرطبة، فاستجاب الامبراطور لطلب الحكم و بعث بالصانع وزوده بهدية من الفسيفساء تقدر بثلا ثمائة وعشرين قنطاراً(٨٩).

٥ ـــ سفارة أندلسية إلى بلاد النورمان :

يعتبر ابن دحية الأشبيلي أول من أورد أخبار سفارة أندلسية قام بها يحيى بن حكم الغزال إلى بلاد النورمان بتوجيه من الأمير الأندلسي عبد الرحمن

(٨٧) ابن خلدون، العبر، ج ٤، ص ١٤٣، غير أنه يرسم رئيس الوفد الأندلسي هكذا (هشاب ابن كليب الجايليق)، المقري: ج ١، ص ٣٦٥.

(٨٨) ابن عذارى : البيان المغرب، ج ٢، ص ٢٣١.

(٨٩) البيان المغرب، ج ٢، ص ٢٣٧، وانظر أيضاً:

Lévi-Provençal : L'Espagne Musulmane au Xé siecle, P. 217.

الإسلام في المغرب والأندلس، ص ٩٢ ـــ ٩٣، السيد عبد العزيز سالم: قرطبة، ج ١، ص ٣٤١.

الأوسط سنة ٢٣٠هـ — ٨٤٤م في رواية طويلة[٩٠].

وقبل أن نمضي في دراسة تفاصيل رحلة الغزال إلى بلاد النورمان ينبغي أن نتوقف قليلاً لعرض ما أثير حول هذه السفارة ومدى صحتها وحقيقة قيامها. فقد اختلف الباحثون حول ذلك كله، فمنهم من ينفي بشدة قيام هذه السفارة و يتشكك في صحتها، ومنهم من يرى امكانية قيامها و يؤكد صحتها و يرى أنها حقيقة تاريخية، و بطبيعة الحال كل له رأيه ووجهة نظره.

ويمثل الاتجاه الأول، المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال، الذي ذهب إلى القول أن ما أثير حول هذه السفارة واتجاهها إلى اسكنديناوه إنما جرى اختراعه خلال القرن السابع الهجري (١٣م) وأنها ليست «إلا سفارة مزعومة مشكوك في صحتها وحقيقة قيامها، واستند في رأيه هذا على أن المؤرخ القرطبي، الكبير ابن حيان وغيره من ثقاة مؤرخي الأندلس لم يذكروا شيئاً بشأنها وإنما ورد الحديث عنها في روايات ابن دحية المتوفى ٦٣٣هـ — ١٢٣٥م، فضلاً عن أن معظم فقرات روايته عن هذه السفارة مستعار من رحلة الغزال إلى القسطنطينية، و يبرر ذلك بأن مسلك الامبرطور البيزنطي حيال قرطبة ثم ما حدث من غارة النورمان على الأندلس كل ذلك كان سبباً في ذيوع تفاصيل اتسمت بالخيال و بعدت كثيراً عن الحقيقة وأدى إلى اختلاط الحادثتين وامتزاجهما في أذهان الشعب الأندلسي حيث انتهى الأمر إلى تشويه الحقيقة التاريخية شيئاً فشيئاً كما يحدث عادة[٩١]، وقد تابعه في هذا الرأي المستشرق الأسباني أو يثي ميراندا[٩٢].

---

(٩٠) ابن دحية (ذو النسبين أبي الخطاب عمر بن حسن): المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق الأستاذ ابراهيم الأبياري والدكتور حامد عبد المجيد، والدكتور أحمد أحمد بدوي. راجعه الدكتور طه حسين، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٥٤، ص ١٣٢ — ١٤٧.

(٩١) Lévi-Provençal : Un échange d'ambassades entre Cordoue et Byzance au IX, Siécle, dans Byzantion, XII, 1937, P. 16 Histore, t. I, P. 177-178.

وله أيضاً: الإسلام في المغرب والأندلس، ص ١١٣ — ١١٤.

(٩٢) Encyclopdie de L'Islam, par Huici Miranda, t. II, P. 1062

أما الاتجاه الثاني فيمثله المستشرق الهولندي رينهارت دوزي الذي وثق كثيراً في رواية ابن دحية وقام بترجمتها كاملة(٩٣)، والمؤرخ الانجليزي ماور ألن في مقاله عن الفايكنج(٩٤). وكلاهما تبنى رواية ابن دحية وأخذ بها واعتقد في صحة قيام هذه السفارة ووجهتها ولم يتشكك في أي جانب من جوانبها. أما من الباحثين العرب فإن الدكتور حسين مؤنس يعد أول من أكد قيام هذه السفارة إلى بلاد النورمان ووثق من صحتها ووجهتها وذلك في بحث نشره منذ سنوات أرخ فيه تاريخاً كاملاً لعلاقات النورمان بالأندلس وتناول غزواتهم لسواحلها وأعاد فيه أيضاً بحث أمر هذه السفارة وقام هذا المؤرخ العظيم بتفنيد آراء ليفي بروفنسال، وأثبت أن رواية ابن دحية صحيحة لا شك فيها وأن هذه السفارة التي أرسلها عبد الرحمن الأوسط برئاسة الغزال إلى بلاد النورمان حقيقة تاريخية لا مراء فيها، فيقول: «لا نستطيع إذن أن نحكم على سفارة الغزال إلى ملك النورمانيين بأنها مجرد أسطورة، بل لا مناص لنا من قبولها كحقيقة تاريخية وهذا لا يمنع من الظن بأن بعض تفاصيل سفارة الغزال إلى بلاط بيزنطة قد اختلطت بها، وذلك أمر لا يقلل من أهميتها على أي حال»(٩٥).

ونحن نميل إلى تأييد هذا الاتجاه ونؤيد أن سفارة الغزال إلى بلاد النورمان حقيقة تاريخية، فبالاضافة إلى ما ذكره الدكتور حسين مؤنس فإننا لا نستطيع أن نتشكك في روايات ابن دحية خاصة وانه كان عالماً وراوياً للأحاديث النبوية ومدققاً وثقة في أخباره ورواياته. حقيقة كان ابن دحية الأشبيلي من

---

(٩٣) Dozy (R.) : Recherches sur l'histoire ert la litteratura de L'Espagne pendant le Moyen-âge, t. II, P. 269-278.

(٩٤) Mawer Allen : The vikings, in cambridge Medievel History t. III, Cambridge, at the University press, 1963, P. 317.

(٩٥) انظر: حسين مؤنس: غارات النورمان على الأندلس بين سنتي ٢٢٩ و٢٤٥هـ — ٨٤٤ و ٨٥٩م وسفارة يحيى الغزال إلى ملك النورمان في سنة ٢٣٠هـ ٨٤٥م، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الثاني — العدد الأول، مايو، ص ٤٤ — ٤٥.

علماء القرن السابع الهجري (١٣ ميلادي) وكان محدثاً وأديباً أكثر من كونه مؤرخاً إلا أن ذلك يزيد اطمئناناً إلى رواياته بحكم دقته في رواية الأحاديث وتثبته مما يكتب لأنه كان من أهل السنة ضليعاً في اللغة عالماً بالتاريخ ثقة في رواية الحديث، ولا شك أن رجلاً بهذه الصفات كان لا بد وأن يتثبت مما ينقل، ولا يسمح لنفسه أن ينسج قصصاً خيالية أو يذكر أخباراً واهية خاصة وأنها تتعلق بعلاقات الأندلس الخارجية(٩٦). وإذا سلمنا بكون ابن دحية أديباً، فإن مصدر روايته الذي استقى منه أخبار سفارة الغزال إلى بلاد النورمان هو المؤرخ تمام بن عامر بن علقمة الذي استوزره ثلاثة من أمراء بني أمية وهم الأمير محمد بن عبد الرحمن والمنذر وعبدالله، وكان تمام صديقاً للغزال، وكثيراً ما روى عنه، وقد نظم تمام بن عامر بن علقمة «الأرجوزة المشهورة في ذكر افتتاح الأندلس وتسمية ولاتها والخلفاء فيها، ووصف حروبها من وقت دخول طارق بن زياد إلى آخر أيام عبد الرحمن بن الحكم»، وكان بجانب ذلك عالماً وأديباً، وتوفي في سنة ٢٨٣هـ — ٨٩٦م(٩٧)، وهذا يعني أن ابن علقمة كان معاصراً لهذه السفارة وسمع أخبارها من صديقه الغزال ثم سجلها ثم أخذها عنه ابن دحية.

وإذا أضفنا إلى ذلك أن تفاصيل سفارة الغزال إلى بلاد النورمان هي التي اختلطت بالفعل بتفاصيل سفارته إلى بلاط بيزنطة وليس العكس، يمكن ملاحظة ذلك الخلط في مقارنة الروايتين، وما جاء بهما من أخبار ما تعرض له الغزال في رحلته البحرية من شرق الأندلس إلى القسطنطينية وما تعرض له في رحلته من غرب الأندلس إلى بلاد النورمان، والباحث المدقق يمكنه أن يستنتج من دراسة النصين أن رحلة الغزال الثانية وما لاقاه من هياج البحر والعواصف لا يمكن حدوثها إلا في منطقة خليج بسكاي التي تتعرض لرياح شديدة وعواصف يعرفها جيداً الجغرافيون وعلماء الطبيعة وقد ذكرها الغزال وصور

(٩٦) جونثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي ترجمة الدكتور حسين مؤنس، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٥٥، ١٩٨٣، ص ٢٨٣ — ٢٨٤.

(٩٧) نفس المرجع: ص ٥٦ — ٥٧.

قوتها حيث كاد يرى ملك الموت مخيماً(٩٨) ثم نضيف ملاحظة أخرى تتعلق بالأميرة تود التي يعرفها ليفي بروفنسال بالأميرة تيودورا البيزنطية وعلاقتها بالغزال مثل قولها له «ليس في ديننا نحن هذا، ولا عندنا غيره، ولا نساؤنا مع رجالنا إلا باختيارهن تقيم المرأة معه ما أحبت وتفارقه إذا كرهت»(٩٩)، وهذا القول بطبيعة الحال لا يصدر من أميرة بيزنطية مسيحية لها تقاليد حضارية راسخة، فهذه العبارة أيضاً اختلطت ودست في تقرير رحلة الغزال إلى القسطنطينية، والرأي عندنا أنه يمكن أن تصدر هذه العبارة عن أميرة نورماندية ذات حضارة أقل، وحديثة عهد بالمسيحية وهذا ينطبق على ما قاله الغزال فيها من شعر ورضيت به، ولعل ما يؤكد ذلك قول الغزال فيها:

اني تعلقت مجـ..........وسية	تأبى لشمس الحسن أن تغربا
أقصى بـــــلاد الله لي حيث لا	يلقى إليها ذاهب مذهباً(١٠٠).

هذا وقد سبق الاشارة إلى مرافق الغزال في رحلته إلى القسطنطينية والذي رسمه ابن حيان «يحيى صاحب المنيقلة»، بينما رسمه ابن دحية يحيى بن حبيب، فهل هما شخص واحد أم شخصان، واعتقد أنهما شخص واحد ذلك لأن رحلة الغزال إلى بلاد النورمان كانت بلا شك تحتاج إلى مرافق ملم بالعلوم الفلكية والطبيعية وهذه المواصفات كانت تتوفر بالفعل فيه.

بقيت نقطة أخيرة، تتعلق بأهمية السفارتين وهي: هل كانت الأندلس أحوج إلى سفارة القسطنطينية منها إلى سفارة إلى بلاد النورمان. الثابت تاريخياً أن الأندلس لم تكن لها علاقة مباشرة مع بيزنطة ولا مصلحة مشتركة قبل سفارة الغزال للقسطنطينية وإنما بيزنطة هي التي طلبت الود والمصادقة فلبى الأمير عبد الرحمن الأوسط طلب عاهل بيزنطة ثيوفيل وأجابه في بعض ما أراد كما سبق أن أشرنا، وحقيقة الأمر أن الأندلس كانت أحوج بالفعل إلى سفارة

(٩٨) ابن دحية: المطرب، ص ١٣٩.
(٩٩) نفس المصدر، ص ١٤٣.
(١٠٠) نفس المصدر، ص ١٤٤.

إلى بلاد النورمان منها إلى بيزنطة نظراً لأن النورمان هم الذين شنوا غاراتهم على غرب الأندلس ودمروا وخربوا فيه في سنتي ٢٢٩ — ٢٣٠ هـ — ٨٤٣ — ٨٤٤م، فلما واتت عاهل الأندلس الفرصة حين طلب ملك النورمان الصلح والمهادنة لبى عبد الرحمن على الفور، وهذا أدعى بالفعل إلى إرسال سفارة إلى بلاد النورمان تحقيقاً للأمن والأمان للأندلس.

مما سبق يمكننا القول أن سفارة الغزال إلى بلاد النورمان حقيقة تاريخية وليست أسطورة نسجها خيال الأندلسيين. وقبل أن نمضي في استعراض تفاصيل سفارة الغزال هذه، ينبغي أن نقف على بعض أحوال النورمانيين وعلى اسمائهم التي عرفوا بها في ذلك الوقت إذ تذكرهم المصادر العربية باسم «الأردمانيين» أو «المجوس» وللاسمين دلالة واحدة تعني أهل الشمال Northmen(١٠١). وأما عن اسم المجوس فهم لم يكونوا مجوساً، بل كانوا وثنيين، فيهم من يعبد النجوم ومظاهر الطبيعة وآلهة ترمز لها مثل آله الخصب وآلهة الحروب وغيرها(١٠٢). و يعلل الدكتور حسين مؤنس إطلاق هذه التسمية عليهم لأنهم كانوا يشعلون النار في كل مكان يمرون به، فإذا نزلوا بمكان وخيموا أشعلوا ناراً عظيمة في معسكرهم، وإذا فاجأوا بلداً أشعلوا النار في مبانيه ونهبوا ما فيه، وربما حسبهم المسلمون من عبدة النار فأطلقوا عليهم هذه التسمية(١٠٣). بينما يرى الدكتور سعيد عاشور أن المسلمين أطلقوا عليهم هذه التسمية نتيجة للحرائق التي كانوا يشعلونها في البلاد التي يستولون عليها أو لما اعتادوه من إشعال النار ليلاً للاستئناس والتدفئة، الأمر الذي جعل المسلمين يعتقدون أنهم من عبدة النار أي المجوس(١٠٤). و يعرف النورمانيون

---

(١٠١) حسين مؤنس: غارات النورمان، ص ٢٤.

(١٠٢) فشر: تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ترجمة محمد مصطفى زيارة و د. السيد الباز العريني و د. ابراهيم العدوي، القاهرة، ١٩٥٠، ص ١١٣.

(١٠٣) حسين مؤنس: غارات النورمان، ص ٢٤.

(١٠٤) سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى الجزء الأول (التاريخ السياسي)، الطبعة الرابعة ١٩٦٦، ص ٢٤٤ هـ ٢ ٤.

في المصادر الأوربية باسم الفايكنج Vikings، وهي كلمة مشتقة من لفظ vik أي الخليج أو الفيورد وهم قراصنة البحر الذين يأوون إلى الخلجان و يستخدمونها كمراكز يشنون منها الغارات على ما يجاورها(١٠٥).

و ينقسم الشعب النورماني(١٠٦) إلى ثلاث مجموعات: السو يديون والنرويجيون والدانيون (الدانماركيون)، فالسو يديون القاطنون بشرق اسكنديناوه اتجهوا إلى شرق أوربا و بلاد الصقالبة وسهول أوربا الشرقية والبحر الأسود، بينما اتجه النورويجيون الذين قطنوا الجانب الغربي من اسكنديناوه إلى غرب أوربا والجزر الغربية ووصلوا إلى انجلترا وايرلندا(١٠٧)، واتجه الدانيون إلى هولندا و بعض سواحل شرق انجلترا وايرلندا وسواحل

---

(١٠٥) Mawer Allen : Op. Cit, P. 306.

(١٠٦) ينتمي النورمانيون من الناحية العنصرية إلى الأصل التيتوني أو الجرماني المعروف، الذي سكن شبه جزيرة اسكنديناوه وشبه جزيرة الدانمارك وحوض البحر البلطي، ومنذ أوائل القرن التاسع الميلادي أخذت أعداد النورمانيين النازلين في هذه المناطق تتزايد تزايداً كبيراً، واضطرتهم الحاجة الماسة إلى البحث غن مناطق جديدة، وإلى الإغارة على الممالك المتاخرة بغرب أوربا، وإذا أضفنا إلى ذلك أن شارلمان حينما حارب السكسون أوغل كثيراً فيما وراء الرين، فأدرك الدانيون مدى الخطر الذي يتهددهم من هذه الجهة، فلم يعد لهم سوى السهول الساحلية، التي لا تعدو في معظم الأحيان أشرطة ساحلية ضيقة كثيرة التعاريج، فضلاً عن طبيعة بلادهم القاسية ذات الغابات والمستنقعات والأحراش، فاتجهوا إلى البحر و برعوا في أمور الملاحة وصيد الأسماك، وصبغتهم حياتهم الجديدة بالصرامة والقسوة، فوجهوا نشاطهم إلى أعمال القرصنة التي كانت تستلزم بناء السفن التي تفوقوا فيها وتميزوا ببناء سفن صغيرة مكشوفة اتصفت بالطول وقلة العرض ومدببة في نهايتها ودعمت كل حافيتها بصف من الدروع وتسير بالمجذاف أو الشراع، وقاموا بنهب السواحل وتخريبها والعيش في وديان الأنهار، فنهبوا كما كان يحلوا لهم ولم يكن هناك من يستطيع أن يطردهم أو يتصدى لهم، ننمت قوتهم البحرية وأصبحت حكراً عليهم، وأصبحوا سادة البحار،

انظر: Haskins (Ch. H.) : The Northmen in the European history New York, 1959, PP. 30-31.

(١٠٧) Keen : A history of Medieval Europe, London, 1967, P. 29.

محمد محمد مرسي الشيخ: الممالك الجرمانية في أوربا في العصور الوسطى، دار الكتب الجامعية، ١٩٧٥ ص ٢٦٢.

الامبراطورية الفرنجية(١٠٨) .

و يهمنا هنا المجموعة الأخيرة (الدانيون) الذين اتحدوا في مملكة واحدة أواخر القرن الثامن الميلادي وتكونت بلادهم من ثلاثة أقسام رئيسية وهي شبه جزيرة جوتلاند Jutland إلى الايدر، وثانيها: جزر زيلاند Zealand حيث يوجد بها المقر الملكي لير Leire وثالثها: سكانيا Scania مع هالاند Halland و بلكنج Bleking(١٠٩) .

وكان ملك الدانيون في أوائل القرن التاسع الميلادي جوتفريد أو جوتريك Cottfried Gotrik حتى قبل سنة ٨١٠م — ١٩٤هـ وتولى بعده هارولد Harald الذي دخل في صراع مع أبناء الملك المقتول وفي ظل هذا الانقسام دخلت بعثات تبشيرية مسيحية فمهدت بذلك لانتشار المسيحية انتشاراً محدوداً، ولم يلبث ابناء جوتفريد أن ثاروا على الملك الجديد هارولد فهرب إلى المانيا واعتنق المسيحية في سنة ٨٢٦م — ٢١٠هـ ليحظى بمساعدة عاهل الفرنجة لو يس التقي، الذي سانده في استعادة عرشه مرة أخرى(١١٠) .

غير أن هارولد لم يحفظ لعاهل الفرنجة معروفه، فانتهز الملك الداني وفاة لو يس التقي سنة ٨٤٠م — ٢٢٥هـ والصراع الذي اندلع بين أبنائه حول العرش في فونتيناي Fontenay وأغار على بلاد الفرنجة، ووصلت أساطيله إلى جنوب أسبانيا إلى نهر الوادى الكبير(١١١) . ولم يلبث هارولد أن أقصى عن عرشه مرة أخرى إذ ثار عليه زعيم آخر من أقاربه يسمى «هاريك»، واستطاع

(١٠٨) Mawer Allen : Op. Cit, P. 310.

(١٠٩) Schjoth, Hans : Denmark and its sister states, Great days of the Northmen, in the Book of History, A History of all nations from the earliest times to the present, Vol. VII, P. 3557.

(١١٠) Ibid, P. 3557.

(١١١) Haskins : Op. Cit, P. 33.

هذا الأخير أن يعتلي عرش الدانيين سنة ٨٤٤م / ٢٣٠ هـ (١١٢).

أما الذين أغاروا على الأندلس فهم الدانيون أو مجموع القبائل الدانية الذين أغاروا على سواحل شبه جزيرة ايبيريا سنة ٢٢٩ هـ / ٨٤٣م كما هو ثابت في المصادر ولا بد وأن هذه الاغارات قد حدثت على عهد الملك الدانى هارولد الذى أقصى عن عرشه سنة ٢٣٠ هـ / ٨٤٤م، ولعل سفارة يحيى بن حكم الغزال كانت موجهة إلى خليفته هوريك أو اريك.

و يستفاد مما أورده ماور ألن أن النورمان قاموا بغارة على سواحل أشتوريس Asturias الشمالية، ونزلوا بالساحل عند بلدة خيخون ونهبوا اقليمها (١١٣). وتضيف المصادر الأسبانية أنهم ساروا بسفنهم بحذاء الساحل حتى جليقية Galicia وأغاروا عليها (١١٤). فتصدى لهم ردمير الأول Ramiro I, ملك أشتوريس وأجبرهم على العودة إلى مراكبهم ثم ألتحم الأسطول الأشتوري معهم في معركة بحرية، وتمكن في هذه المعركة من احراق سفينة من سفن النورمان (١١٥) فاضطروا إلى السير جنوباً بحذاء الساحل الغربي الاندلسي فظهروا أمام لشبونه Lisboa يوم الاربعاء أول ذي الحجة ٢٢٩ هـ — ٢٠ أغسطس ٨٤٤م ونزلوها واستولوا عليها وعاثوا فيها فساداً ثلاثة عشر يوماً، وفي هذه الاثناء أرسل وهب الله بن حزم عامل أشبونة على الفور يبلغ الأمير عبد الرحمن الأوسط بنزول المجوس بلده و يطلب المدد منه، يقول العذرى في أحداث سنة ٢٢٩ هـ «ورد كتاب وهب الله بن حزم عامل أشبونة، يذكر أنه حل بالساحل قبله أربعة وخمسون مركبا للمجوس، ومعها أربعة وخمسون قارباً

(١١٢) Mawer Allen : Op. Cit, P. 313-315.

(١١٣) Ibid, P. 316.

(١١٤) Espana Sagrada, t. XIX, P. 13.
حسين مؤنس : غارات النورمان، ص ٢٨.

(١١٥) Dozy : Recherches, t. I, P. 250.

فخرجت الكتب إلى العمال بالاحتراس» (١١٦)، ثم ألتحم المسلمون معهم في معارك شديدة تمكنوا في نهايتها من هزيمتهم وارغامهم على العودة إلى سفنهم يؤكد ذلك ما ذكره العذرى «أنه وقعت بينهم و بين المسلمين ملاحم» (١١٧)، فساروا يبحثون عن ناحية يحطون فيها، وتوزعت سفنهم إلى وحدات صغيرة طرق بعضها قادس وشذونه، لكن أغلب سفنهم تجمعت أمام نهر الوادي الكبير وقامت بغارة شاملة على اشبيلية وتمكنوا من الاستيلاء عليها وضواحيها عدة أيام عاثوا خلالها قتلا ونهباً وحرقاً وتخريبا سنة ٢٣٠هـ — ٨٤٤م، يقول ابن عذارى «فخرج المجوس في ثمانين مركبا كأنما ملأت البحر طيراً جونا، كما ملأت القلوب شجوا وشجوناً فحلوا بأشبونة ثم إلى قادس وإلى شذونه ثم قدموا على اشبيلية، ونازلوها نزالا إلى أن دخلوها قسراً، واستأصلوا أهلها قتلا وأسراً فبقوا بها سبعة أيام يسقون أهلها كأس الحمام» (١١٨)، ولم يلبث الأمير عبد الرحمن الأوسط أن ارسل المدد والمساعدة التي بفضلها استطاع أن يقضي على المجوس في موقعه فاصلة عند بلدة طلياطه Tejada بين لبلة واشبيلية يوم الثلاثاء ٢٥ صفر سنة ٢٣٠هـ — ١١ نوفمبر ٨٤٤م «قتل فيها منهم خلق كثير، وأحرق من مراكبهم ثلاثون مركبا» (١١٩)، ومن بين قتلاهم أميرهم وقائد أسطولهم (١٢٠) ثم ركب النورمان مراكبهم «وساروا إلى لبلة، ثم توجهوا منها إلى أشبونة، فانقطع خبرهم» (١٢١).

وفي هذه السنة ٢٣٠هـ — ٨٤٤م أرسل ملك الدانيين هوريك — على

---

(١١٦) العذري (أحمد بن عمر بن أنس): نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق الدكتور عبد العزيز الأهواني، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٦٥، ص ٩٨، ابن عذاري البيان المغرب، ج ٢، ص ٨٧.

(١١٧) العذاري: نفس المصدر، ص ٩٨.

(١١٨) ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٢، ص ٨٧.

(١١٩) ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٢، ص ٨٨.

(١٢٠) ابن دحية: المطرب، ص ١٣٨.

(١٢١) ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٢، ص ٨٨.

الأرجح ــ الذي تولى العرش الداني في هذا العام، سفارة إلى الأندلس بغرض عرض الصلح على عاهل الأندلس عبد الرحمن الأوسط، يقول ابن دحية في المطرب «ولما وفد على السلطان عبد الرحمن رسل ملك المجوس يطلب الصلح، بعد خروجهم من اشبيلية وايقاعهم بجهاتها ثم هزيمتهم بها وقتل قائد الاسطول فيها، رأى أن يراجعهم بقبول ذلك، فأمر الغزال أن يمشي في رسالته إلى رسل ملكهم» (١٢٢).

والغريب هنا هو اتصال ملك الدانيين بمسلمي الأندلس بعد غارتهم عليها، و يبدو أن الملك الداني هوريك أو أريك كان بعكس سلفه هارولد الذي وقعت الغارات في عهده يميل إلى السلم فقد طلب الصلح، ربما رغبة في اقامة علاقات تجارية بين الجانبين الداني والاسلامي (١٢٣)، لأن الأندلس كانت في ظل الأمير عبد الرحمن الأوسط من أغنى دول أوربا الغربية وأكثرها تحضراً، فربما رغب الدانيون في الحصول على منتجات الأندلس من الثياب والأواني وغيرها. و يبدو أن الأمير عبد الرحمن الأوسط هو الآخر مال إلى السلم وحاول أن يجنب بلاده خطر الدانيين، ورغب أيضاً في الحصول على بعض منتجات الشمال الأوربي سيما الفراء والرقيق، إذ كان النورمان بصفة عامة يشتغلون بتجارة الفراء كما عرفوا بأنهم نخاسون قساة (١٢٤) وإذا أضفنا إلى ذلك عاملا آخر رغب الأمير عبد الرحمن الأوسط في الاستجابة لطلب الصلح، وهو الموقف السياسي في غرب أوربا بصفة عامة، فربما تنبه الأمير بحكمته و بعد نظره إلى العداء الناشب بين الدانيين والفرنجة وسمع أخبار الحروب المستعرة بين الجانبين، فأراد أن يجتذب الدانيين إلى جانبه لا سيما وأن الفرنجة على عهد شارل الأصلع حاولوا التوغل في الأندلس واحياء الثغر

---

(١٢٢) ابن دحية: المطرب، ص ١٣٨ ــ ١٣٩.

(١٢٣) Keen : Op. Cit; P. 25.

محمد محمد مرسي الشيخ: الممالك الجرمانية، ص ١٦١

(١٢٤) Schjoth : Op. Cit; PP. 3539.

الاسباني في ناحية برشلونة (١٢٥) وفي ظل هذا ليس من المستغرب أن يحدث التقارب بين الجانبين الداني والاسلامي تحقيقاً للمصالح المشتركة وكان الغزال كما سبق القول قد اضطلع قبل ذلك بسنوات قليلة في سنة ٢٢٦ هـ — ٨٤٠م بسفارته إلى بيزنطة وعاد منها بتجربة دبلوماسية طيبة ولهذا لم يكن من الغريب أن يعهد اليه الأمير الأندلسي بسفارة أخرى إلى بلاد النورمان في الشمال .

بقيت مسألة ما زالت موضع خلاف بين الباحثين حول تحديد المكان الذي توجهت اليه سفارة الغزال ، فبعضهم يرجح أنه يتمثل في بلاط الملك النورماني في ناحية من نواحي جوتلاند (الدانمرك) ، و يقول بهذا الرأي جورج باكوب (١٢٦) . أما المستشرق الهولندي دوزى فانه لم يحدد لهذا اللقاء مكاناً ، ولكنه يقرر أن النورمانيين الذين أغاروا على الأندلس كانوا دانيين ، وأنهم أقبلوا من دانيمرقة إلى بلاد الفرنج واشتوريس والأندلس و يرجح أن يكون لقاء الغزال بملكهم قد تم في دانيمرقة نفسها (١٢٧) ، و يؤخذ بهذا الرأى الدكتور حسين مؤنس (١٢٨) ، بينما يقول آخرون أن المكان بلاط « تورجسيوس Turgesuis النروجي فاتح ايرلندا ، و يقول بهذا الرأي ماور ألن من أن سفارة الغزال انما أتت إلى موضع في جزيرة ايرلندا في جنوب غربها وليس في دانيمرقة ، وقابلت هذا الزعيم ، معتمداً في رأيه هذا على أن دولة الدانيين كانت تشمل فيما تشمل جزءاً كبيراً من جنوب النرو يج في ذلك الوقت ، وأن النورمان الذين أغاروا على سواحل أوربا وأسبانيا كانوا من النرو يج و يستند في ذلك على أن كتاب هذا العصر كانوا يسمون هؤلاء الغزاة

(١٢٥) حسين مؤنس : غارات النورمان ، ص ٤٦ .

(١٢٦) Georg Jacob : Arabishe Berichte.
في حسين مؤنس : غارات النورمان ، ص ٢٨ .

(١٢٧) Dozy : Recherches, t. 1, PP. 250-251.

(١٢٨) حسين مؤنس : غارات النورمان ، ص ٦٢ — ٦٣ .

في بعض الأحيان باسم الفستفالدنجي Westfaldingi أي الفستفالدين نسبة إلى فستفلد مقاطعة في غرب النرو يج كانت خاضعة للدانيمرقة في ذلك الحين ، و يضيف ماور ألن بأنه كانت لتورجسيوس هذا زوجة تسمى أوتا Ota أو Tota يرجح أنها طود أوتود الملكة النورمانية التي تحدث عنها الغزال ، وقال فيها شعراً(١٢٩) .

و باستعراض الآراء السابقة حول تحديد المكان الذي توجهت اليه سفارة الغزال ، فاننا نستبعد رأي ماور ألن من أن مكان اللقاء كان في موضع في جزيرة أيرلندا ، حقيقة أن الدانيين قاموا بغزوات في جزيرة ايرلندا قرب منتصف القرن التاسع الميلادي لكنهم قوبلوا بمقاومة شديدة من جانب النرويجيين من أجل السيطرة على الجزيرة في الوقت الذي هب فيه الايرلنديون لتحرير بلادهم ، فحدثت فوضى شاملة عمت البلاد لم تنته إلا بوصول أولاف Olaf ابن ملك النرو يج سنة ٨٥٣م ـ ٢٣٩ هـ ليضع حداً لهذا الصراع(١٣٠) . فليس ممكنا إذن أن يكون اللقاء في موضع في جزيرة ايرلندا وهي في حالة من الفوضى والصراع من أجل السيطرة عليها من الطرفين المتنازعين وأهل البلاد ، كما أن تورجسيوس الذي يشير اليه ماور ألن لم يكن ملكاً للدانيين ولكنه على ما يبدو أحد الزعماء الدانيين إذا سلمنا بقوله ، ولذلك فاننا نؤيد الرأي الذي يقول أن مكان اللقاء كان في داتيمرقة ذاتها ولكننا نميل إلى تحديد المكان بدقة أكثر ونرى أن اللقاء تم في المقر الملكي في لير بجزر زيلاند حيث بلاط الملك الداني هوريك .

خرج يحيى بن حكم الغزال ويحيى بن حبيب في سفارة أندلسية إلى بلاط

(١٢٩) وله أيضاً : . Mawer Allen : Op. Cit, P. 317.

The poet and the spae-wife, an attempt to reconstruct Al-Ghazal Embassy to the vikings. Dublin, 1960, P. 39.

(١٣٠) Mawer Allen : the vikings, P. 317.

محمد محمد مرسي الشيخ : الممالك الجرمانية ، ص ٢٦٩ .

الملك الداني هوريك واستقلا مركبا أنشىء لهما لهذا الغرض، وأبحر هذا المركب من مدينة شلب Silves مع مركب سفير الدانيين، وتعرض المركبان لعاصفة عاتية عند «الطرف الأعظم الداخل في البحر الذي هو حد الأندلس في آخر الغرب وهو الجبل المعروف بألوية» (١٣١) وربما هو رأس فينيستر Finisterre (جليقية الآن وهي أقصى نقطة في الشمال الغربي لشبه جزيرة ايبريا) الذي يؤدي إلى خليج بسكاي فتعرضوا لعاصفة شديدة كادت تحطم سفينة الغزال ولكنها نجت بأعجوبة، ومن ثم توقف ملاحوها لاصلاحها في موضع يحدده بعض الباحثين باسم San vicente de Barquera (١٣٢) فأقام فيها الغزال وصاحبه أياماً أصلحا فيها المركب، ثم تابعا رحلتهما شمالا حتى وصلا إلى أول بلاد الدانيين إلى جزيرة من جزائرها «وهي جزيرة عظيمة في البحر المحيط» (١٣٣) و ينطبق هذا الوصف على جزيرة جوتلاند بينما يرى ماور ألن أن هذا الوصف ينطبق على شبه جزيرة كيرى Kerry في جنوب غرب ايرلندا ثم إلى الجزيرة العظيمة في البحر المحيط التي يقول عنها جزيرة ايرلندا مقر الملك تورجسيوس وزوجه أوتا التي يسميها نود أو تود (١٣٤).

على أية حال وصلت سفارة الغزال إلى جزيرة جوتلاند ومنها إلى المقر الملكي للملك هوريك في لير في جزر زيلاند، «واستقبل الملك سفير الأندلس استقبالا حافلا وأعد له وأحفل في السلاح والزينة الكاملة» (١٣٥)، ثم قدم الغزال للملك رسالة أميره، ففضت وترجمت له، فاستحسن ما جاء بها ثم تسلمها، وأمر بهدية الأمير الأندلسي ففتحت أمامه وسر على ما اشتملت عليه من الثياب والأواني (١٣٦).

---

(١٣١) ابن دحية : المطرب، ص ١٣٩ .

(١٣٢) محمد صالح البنداق : المرجع السابق، ص ١٤٦ .

(١٣٣) ابن دحية : المطرب، ص ١٤٠ .

(١٣٤) Mawer Allen : The poet and the spae-wife, PP. 37.

(١٣٥) ابن دحية : المطرب، ص ١٤١ .

(١٣٦) ابن دحية : المطرب، ص ١٤١ .

و يبدو أن الغزال نجح في مهمته بدليل ما لقيه من ترحيب ومعاملة طيبة ولقاء مع زوج الملك: الأميرة نود التي أظهرت استحسانها له فبالغ الغزال في وصف جمالها وذكر أنها مثال الحسن والجمال وذلك في قصيدة نسجها لهذا الغرض، ولما علمت الأميرة أن هذه القصيدة سوف تروى في الأندلس سرت كثيراً وأخذها الزهو بذلك، فأمرت له بصلة إلا أن الغزال أمتنع عن أخذها، وكان هذا التصرف من الغزال غير مفهوم للأميرة التي سألت الغزال على حد قول ابن دحية «ألأنَّهُ حقرها (الهدية) أم لأنه حقرني (الأميرة)» فزادها الغزال من حديثه العذب ومن لباقته المعروفة أن أعظم ما أهدته الملكة هو مجرد السماح له بالوصول اليها وعندئذ أمرت الملكة بأن تحمل هديتها إلى مقره فشكرها الغزال وأثنى على هديتها، وعلق ماور ألن على هذا الحدث تعليقاً طريفاً بقوله: أن هذا الكلام يعنى أنه نجح في مهمته السياسية نجاحاً باهراً لأنه أظهر ذكاء ودهاء بمدح أميرة بربرية من أميرات تلك البلدان «فوق ما أراد» ونجح في تطوير العلاقات التجارية بين قرطبة والدانيين وهو أمر أكدته النصوص التاريخية (١٣٨).

و يلاحظ الدكتور حسين مؤنس أن الدعابات المتواترة بين الغزال وملكة النورمان «ظاهرة التكلف، ولا يبعد أن يكون الغزال نفسه صنعها ليزوق بها وصف رحلته و يضفى عليها طرافة» و يضيف قائلا: وإذا كان صحيحاً أن الغزال لقى أمرأة تسمى «تود» في دانيمرقة وأعجب بها وأعجبت به وقال فيها هذا الشعر كله، فالغالب أنها كانت من سيدات البلاط أو الظاهرات من نساء النورمانيين (١٣٩).

والواقع أن تقرير ابن دحية عن سفارة الغزال وما جاء فيه من معلومات جغرافية واجتماعية ينطبق على أوضاع بلاد الشمال في العصور الوسطى. فقد

(١٣٧) ابن دحية: المطرب، ص ١٤٢.

(١٣٨) Mawer Allen: The poet and the spae-wife, P. 53.

محمد صالح البنداق: المرجع السابق، ص ١٥٤ — ١٥٥.

(١٣٩) حسين مؤنس: غارات النورمان، ص ٦٢ — ٦٣.

أشير فيه إلى عبادة النار، والافتتان بألعاب القوى وعلاقة المرأة بالرجل والزواج والطلاق والتزواج من الأم ومن الأخت وكلها معلومات تضيف إلى معرفتنا بهذه البلاد وذلك المجتمع في حقبة هامة وخطيرة في العصور الوسطى، ولهذا جاءت سفارة الغزال إلى تلك البلاد على جانب كبير من الأهمية العلمية والعملية، و يقول فابريستوس أن ملاحظات الغزال عن بلدان الشمال هي الوحيدة المتوفرة والمستندة إلى مشاهدة ورحلة قام بها فعلاً رجل عربي إلى تلك الأصقاع تؤكدها وقائع تاريخ الشمال الثابتة(١٤٠).

و بعد أن قضى الغزال مهمته عاد إلى بلاده عن طريق البحر، فوصل إلى شمال اسبانيا على مقربة من شنت ياقب Santiago de compostela «بكتاب ملك المجوس إلى صاحبها، فأقام عنده مكرماً شهرين حتى انقضى حجهم»(١٤١)، إذ كانت هذه المدينة محجاً يحج إليه المسيحيون، أقام مكرماً عند صاحبها روميرو الأول Ramiro I (٨٤٢ — ٨٥٠م — ٢٢٨ — ٢٣٦هـ، و يدل ذلك دلالة قاطعة على أن ثمة علاقة طيبة ربطت ما بين هوريك ملك النورمان وروميرو الأول ملك اشتوريس من جهة وعلاقة سلام بين روميرو الأول وعبد الرحمن الأوسط من جهة أخرى(١٤٢). قضى الغزال شهرين في ضيافة ملك أشتوريس عاد بعدهما إلى قرطبة عبر منطقة قشتالة Castilla وطليطلة Toledo وقدم تقريره لعاهل الأندلس عبد الرحمن الأوسط حوالي سنة ٢٣٢هـ-٨٤٦م.

تلك هي سفارة يحيى بن حكم الغزال إلى هوريك ملك الدانيين والتي تمثل أول لقاء بين مسلمي الأندلس والدانيين و ترتب عليه فيما يبدو علاقات تجارية بين البلدين، فضلاً عن نتائج سياسية غير مباشرة تتمثل في عدم تعرض الأندلس خلال عصر عبد الرحمن الأوسط على الأقل لأي غزو نورماني وهذا يمثل في حد ذاته نتيجة ايجابية لسفارة الغزال ونجاحاً ملموساً لرحلته وسفارته إلى ملك النورمان.

---

(١٤٠) انظر: محمد صالح البنداق، المرجع السابق، ص ١٥٨.

(١٤١) ابن دحية : المطرب، ص ١٤٦.

(١٤٢) حسين مؤنس : غارات النورمان، ص ٦٣.

مصادر ومراجع البحث

(أولاً) مصادر عربية قديمة:

ابن الآبار: أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي (ت ٦٥٨ هـ — ١٢٦٠م) — الحلة السيراء، الجزء الأول، تحقيق الدكتور حسين مؤنس، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٦٣.

ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن الجزري (ت ٦٣٠ هـ — ١٢٣٣م) — الكامل في التاريخ، الجزء السادس، بيروت ١٩٦٥.

الحميري: أبو عبدالله محمد بن عبد المنعم — الروض المعطار في أخبار الأقطار، نشر ليفي بروفنسال، القاهرة ١٩٣٧.

ابن حيان: أبو مروان (ت ٤٦٩ هـ — ١٠٧٩م) — المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق الدكتور محمود علي مكي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان ١٩٧٣.

ابن الخطيب: لسان الدين (ت ٧٧٦هـ — ١٣٧٤م) — أعمال الاعلام، القسم الثالث الخاص بالمغرب، نشر الدكتور أحمد مختار العبادي والأستاذ ابراهيم الكتاني، الدار البيضاء، سنة ١٩٦٤.

ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ — ١٤٠٥م) — كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، الجزء الرابع، منشورات الأعلمي بيروت، لبنان ١٩٧١.

ابن دحية: ذو النسبين أبي الخطاب عمر بن حسن (ت ٦٣٣هـ — ١٢٣٦م) — المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق الأستاذ

ابراهيم الابياري والدكتور حامد عبد المجيد والدكتور أحمد أحمد بدوي، راجعه الدكتور طه حسين، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٥٤.

السلاوي : أبو العباس أحمد بن خالد الناصري (ت ١٣١٥هـ ـ ١٨٩٧م) ـ الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الأول، القاهرة، ١٣٠٦هـ.

الضبي : أحمد بن يحيى أحمد بن عميرة (ت ٥٩٩هـ ـ ١٢٠٣م) ـ بغية الملتمس في تاريخ أهل الأندلس، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٣٢٦هـ.

الطبري : محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ ـ ٩٢٣م) ـ تاريخ الأمم والملوك، الجزء العاشر، المطبعة الحسنية المصرية، القاهرة، ١٣٢٦هـ.

ابن عذارى : أبو العباس أحمد بن محمد (كان حياً عام ٧١٢هـ ـ ١٣١٢م) ـ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج١، ٢، تحقيق كولان وليفي بروفنسال، دار الشروق، بيروت ـ لبنان (بدون تاريخ).

العذري : أحمد بن عمر بن أنس المعروف بابن الدلائي (ت ٤٧٨هـ ـ ٩٨٨م) ـ نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق الدكتور عبد العزيز الاهواني، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٦٥.

المالكي : أبو بكر بن أبي عبدالله (ق الخامس الهجري) ـ رياض النفوس، تحقيق الدكتور حسين مؤنس، الجزء الأول الطبعة الأولى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥١.

ابن القوطية : أبو محمد بكر محمد ـ تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق دون خوليان ريبيرا، مدريد، ١٩٢٦.

المقري : شهاب الدين أبو العباس التلمساني (١٠٤١هـ ـ ١٦٣١م) ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المجلد الأول، تحقيق الدكتور احسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨.

النويري : شهاب الدين أحمد (ت ٧٣٢هـ ـ ١٣٣٢م) ـ نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٢٢، نسخة مصورة عن المخطوط المحفوظة بدار الكتب المصرية برقم ٢٤٩ معارف عامة مودعة بمكتبة آداب الاسكندرية رقم ٢٢م.

(ثانياً) مراجع عربية حديثة وأوربية معربة:

أرسلان (شكيب) : تاريخ غزوات العرب في فرنسا وايطاليا وجزائر البحر المتوسط، بيروت ١٩٦٦.

أماري (ميشيل) : المكتبة الصقلية، ليبسك، ١٨٧٥.

بالنثيا (جونثالث) : تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة الدكتور حسين مؤنس، الطبعة الأولى ـ القاهرة ١٩٥٥.

بروفنسال (ليفي) : الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة الدكتور السيد عبد العزيز سالم والأستاذ محمد صلاح الدين حلمي ومراجعة الدكتور لطفي عبد البديع، مجموعة الألف كتاب رقم (٨٩).

بروكلمان (كارل) : الأدب العربي، الجزء الثاني، نقله إلى العربية الدكتور عبد الحليم النجار، الطبعة الثالثة، دار المعارف بمصر، ١٩٧٤.

البنداق (محمد صالح) : يحيى بن حكم الغزال، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٩.

سالم (دكتور السيد عبد العزيز) :
قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، الجزء الأول،

مؤسسة شباب الجامعة الاسكندرية ، ١٩٨٤ .
تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، مؤسسة شباب الجامعة الاسكندرية .
المغرب الكبير ، الجزء الثاني ، الدار القومية للطباعة والنشر الاسكندرية ١٩٦٦ .
(بالاشتراك مع الدكتور أحمد مختار العبادي) : تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ، ج٢ ، مؤسسة شباب الجامعة (بدون تاريخ) . .

شلبي (دكتور سعد اسماعيل) :
الأصول الفنية للشعر الأندلسي ، عصر الامارة ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٨٢ .

الشيخ (دكتور محمد محمد مرسي) :
دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨١ .
الممالك الجرمانية في أوربا الوسطى ، دار الكتب الجامعية ١٩٧٥ .

عاشور (دكتور سعيد) :
أوربا العصور الوسطى ، الجزء الأول (التاريخ السياسي) الطبعة الرابعة ، ١٩٦٦ .

العبادي (دكتور أحمد مختار) :
دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، الطبعة الأولى ، الاسكندرية سنة ١٩٦٨ .

عبد الحميد (دكتور سعد زغلول) :
تاريخ المغرب العربي ، ج٢ ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، سنة ١٩٧٩ .

العدوي (دكتور ابراهيم أحمد) :
اقريطش بين المسلمين والبيزنطيين في القرن التاسع الميلادي ، المجلة التاريخية المصرية ، اكتوبر ١٩٥٠ ، المجلد الثالث ، العدد الثاني .

غنيم (دكتورة اسمت) :
الامبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية دار المعارف ، سنة ١٩٨٣ .

فازلييف : العرب والروم ، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي شعيرة ، مراجعة الدكتور فؤاد حسنين علي ، دار الفكر العربي ، القاهرة (بدون تاريخ) .

فشر : تاريخ أوربا في العصور الوسطى ، ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور السيد الباز العريني والدكتور ابراهيم العدوي ، القاهرة ، ١٩٥٠ .

لويس (ارشيبالد) : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، ترجمة الأستاذ أحمد محمد عيسى ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

مؤنس (الدكتور حسين): غارات النورمان على الأندلس بين سنتي ٢٢٩ — ٢٤٥هـ — ٨٤٤ — ٨٥٩م) وسفارة يحيى الغزال إلى ملك النورمند في سنة ٢٣٠هـ — ٨٤٥م) المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثاني ، العدد الأول ، مايو ١٩٤٩ .

(ثالثاً) مراجع أوربية :

— Bury : A History of the Eastern Roman Empire, London, 1912.
— Deanesly : A History of Early Medieval Europe, London, 1956.
— Dozy (R.) : Recherches sur L'histoire et la Littértura de l'Espagne pevdant le moyen-âge, t. II, Amesterdam 1905.
— El-Hajji (A.A.) : Diplomatic relations between Andalusia and the franks during the Umayyed period, in the Islamic Quarterly V, XIII, Nor. 2 April-June, 1969.
— Andalusian diplomàtic relations with Western Europe during the umayyad period, Beirut, 1970
— Einhard : Life of charlemagne, in the medieval world by Cantor, New-york. 1968.
— Encyclopdié de L'Islam.
— Haskins (Ch. H) : The Northmen in the European history, New-york, 1959.
— Isidoro de las Cagigas : Los Mozarabes, t. II, Instituto de Estudios Africanos, Madrid, 1948.
— Jakson : The making of Medieval Spain; California, 1976.
— Keen : A History of medieval Europe, London, 1967.
— Levi-provençal : Histoire de L'Espagne musulmane, t. I, Paris, 1950.
— Un échange d'ambassades entre Cordoue et Byzance au IXe Siecle, en Byzantion, tome XII, Bruxelles, 1937.
— Mawer Allen : The vikings, in Cambridge Medieval history, t. III, Cambridge, at, the univ. press, 1936.
— The poet and the spae-wife, an attempt to reconstruct Al-Ghazal's Embassy to thę vikings, Dublin, 1960.
— Ostrogorsky : A History of the Byzantine state, English translation by Hussy, Oxford.
— Pazy Mella : Embajada del Emperador de Alemania Oto I al Califa de Cordoba Abderrahman III, Boletin de la Academia de ciencias, Bellas letras Y Nobles Artes de Cordoba, X, 1931.

— Reinaud : Muslim colonies in France Northen Italy and Swizer-land, English Translation by sherwani, Lahore, 1964.
— Sanchez- Albornoz (Claudio) : El islam de Espana yel Occidente, segunda edicion, coleccion austerial, Espasa calpe; Madriad, 1981.
— Schjoth, Hans : Denmark and its sister states, Great days of the northmen, in the Book of history, A History of all nations from the earliest times to the present, Vol. VII.
— Simonet (Francisco Javier) : Historia de los Mozarabes de Espana, Madrid, 1903.

البحث الثالث

قضاة ثوار فى الاندلس



لفظ القضاء يأتى فى اللغة بمعنى انقطاع الشئ وتمامه، يقال «قضى الحاكم»، اذا فصل فى الحكم، «وقضى دينه»، أى قطع ما لغريمه قبله بالأداء، «وقضيت الشئ» أحكمت عمله[١]، ومنه قول الله تعالى «سورة مريم، آية٣٥» : «اذا قضى أمرا»، أى أحكمه وأنفذه. ويعرف العلامة ابن خلدون القضاء بقوله : «منصب الفصل بين الناس فى الخصومات حسما للتداعى وقطعا للتنازع، إلا أنه بالأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة»[٢]

وخطة القضاء من أسنى الخطط، فان الله تعالى قد رفع درجة الحكام وجعل اليهم تصريف أمور المسلمين، يحكمون فى الدماء والأبضاع والأموال والحلال والحرام، وتلك خطة الانبياء ومن بعدهم من الخلفاء، فلا شرف فى الدنيا بعد الخلافة أشرف من القضاء، لذلك اشترط العلماء فى متولى القضاء شروطا للصحة والكمال، وهى عشرة : الاسلام والعقل، والذكورة والحرية والبلوغ والعدالة والعلم وسلامة حاسة السمع والبصر من العمى والصمم، وسلامة حاسة اللسان من البكم[٣]. ومن ثم فان خطة القضاء تعتبر من أعظم الخطط قدراً، وأجلها خطرا، «لاسيما اذا اجتمعت اليها الصلاة، وعلى القاضى مدار الاحكام، واليه النظر فى جميع وجوه القضاء»[٤].

ولما كانت الاندلس احدى الولايات التابعة للدولة العربية، يجرى عليها ما يجرى على ولايات المشرق الاسلامى، فان خطة القضاء فيها كانت ذات أهمية خاصة، يدل على ذلك ما بلغه القضاء بها من علو المكانة ووفرة للسلطان وعظم الجاه، فقد كان القضاة فى الأندلس قبل قيام دولة بنى أمية يسمون قضاة الجند، فلما تولى عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل امارة الاندلس فى ١٠ ذى الحجة سنة ١٣٨هـ (١٥مايو سنة ٧٥٦م) أصبح القاضى يسمى «بقاضى

---

(١) النباهى (أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن) : كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، نشر ليفى بروفنسال، دار الكتب المصرى، القاهرة، ١٩٤٨، ص٢

(٢) ابن خلدون (عبد الرحمن) : المقدمة. المجلد الأول، المطبعة الثانية، دار الكتاب اللبنانى، بيروت ١٩٧٩، ص٣٩٠

(٣) النباهى : المصدر السابق، ص٤

(٤) كتاب الاعلام بنوازل الاحكام فى، المرقبة العليا، ص٦

الجماعة وهو اسم محدث لم يكن في القديم»[٥].

ومنذ عهد الداخل اعتمد القضاة في أحكامهم على مذهب عبد الرحمن ابن عمرو الاوزاعي امام الشام (٨٨-١٥٧هـ/٧٠٧-٧٧٤م)[٦]، بحكم الرابطة المتينة بين الأندلس وبلاد الشام ولتجدد الدولة الاموية في الأندلس، ولتوافق ما ذهب اليه هذا الفقيه وخاصة في التشريعات الحربية، وأحكام الحرب والجهاد[٧]، مع ما كان يسود الأندلس في هذه الفترة من عدم استقرار. ويذكر ابن الفرضي أن أول من نقل هذا المذهب الى الاندلس هو القاضي الالبيري أسد بن عبد الرحمن السبئي (كان حيا سنة ١٥٠هـ/٧٦٩م)[٨]، وانتشر على يد صعصعه بن سلام الشامي (ت:١٩٢هـ/٨٠٧م)[٩]. وهكذا سيطر المذهب الاوزاعي على الاندلس خلال القرن الثاني الهجري وكانت الاحكام تصدر وفقا لما تنص عليه.

غير أنه، بدءا من عصر الامير هشام الأول ابن عبد الرحمن بن معاوية الملقب بالرضا (١٧٢-١٨٠هـ/٧٨٩-٧٩٦م)، نعمت بلاد الاندلس بقدر من

---

(٥) الخشني (أبو عبد الله محمد بن حارث بن أسد القيرواني» : قضاة قرطبة، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦، ص١٤، وأنظر أيضا : النباهي : المصدر السابق، ص٢١،
Lévi-provencal : Histoire de L'Espagne musulmane, Tome III, Paris, 1953,pp.118-119.

(٦) هو أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن محمد الاوزاعي، ولد بمدينة بعلبك بالشام سنة ٨٨هـ/٧٠٧م، وأصله من عرب اليمن، أخذ عن عطاء بن رباح مفتي مكة المتوفى في سنة ١١٥هـ/٧٣٣م، والزهري المتوفى سنة ١٢٤هـ/٧٤٢م وغيرهما، كما أخذ عنه سفيان الثوري ومالك بن أنس عالم دار الهجرة، وبعد أن جال في البلاد في طلب العلم عاد الى وطنه وأقام في بيروت ومات فيها سنة ١٥٧هـ/٧٧٤م، ومن مصنفاته كتاب السير الذي يتناول فيه أحكام الجهاد والقتال، أنظر في ترجمته : كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، الجزء الثالث، نقله الى العربيه الدكتور عبد الحليم النجار، الطبعة الثانية، دار المعارف، مصر، ١٩٦٩، ص٣٠٧-٣٠٨، والمصادر التي وردت به.

(7) Mahmud Makki : Ensayo sobre Los aportaciones orientales en La Espana Musulmana, en, Revista del Instituto de Estudios Islamicos en Madrid. V.IX-X, Madrid, 1961, pp.129,154.

(٨) ابن الفرضي (أبو الوليد بن محمد بن يوسف الازدي): تاريخ علماء الاندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦، ص٧٤.

(9) Mahmud Makki : op. cit, 130

الاستقرار والنضوج، لا سيما بعد أن قضى الامير هشام الاول على معارضيه أهمهم أخوه سليمان الذى سانده الحزب الشامى الاندلسى، فأسفر ذلك عن التخلص تدريجيا من التأثير الشامى، فضلا عن أن التراث الشامى لم يعد ملائما لامداد الاندلس بمقومات حياته الفكرية وعلى الأخص فى مجال الحياة الدينية، فبدأ الاندلسيون يتطلعون الى حضارة جديدة وتراث جديد، فاتجهت أنظارهم الى الحجاز يستمدون منه قوام حياتهم الروحية، وكانت المدينة المنورة حاضرة دينية ممتازة فى العلوم الدينية آنذاك، يقيم فيها الامام مالك بن أنس(١٠)، صاحب المذهب المعروف باسمه ومقدم مدرسة أهل الحديث فى الفقه. وكان يعاصره بالعراق الامام أبو حنيفه النعمان (ت١٥٠هـ/٧٦٩م) صاحب المذهب المنسوب اليه، الذى انتشر فى العراق لمواءمته للبيئه العراقيه وعقلية أهل العراق وهو مقدم مدرسة أهل الرأى والقياس فى الفقه. وكان من الطبيعى أن يتجه الاندلسيون الى مذهب امام دار الهجرة لا سيما أن الفكر الدينى للامام مالك بدت فيه سمات خاصة وبوادر معينة جعلته أقرب الى تأييد بنى أمية ومعارضة العباسيين من أى فكر آخر.

ولكن كيف تسنى للمذهب المالكى أن يحتل مكان الصدارة فى الاندلس

(١٠) أبو عبد الله مالك بن انس بن أبى عامر بن عمرو الاصبحى، ولد بالمدينة المنورة فى سنة ٩٧هـ/٧١٥م وقيل فى سنة ٩٣هـ/٧١١م، وينسب أهله الى ذى أصبح الحميرى الذى كان ملكا من ملوك حمير، أخذ مالك عن الزهرى المحدث، ونافع القارئ وغيرهما، ومن مصنفاته كتاب الموطا أى السهل الواضح، رتب فيه أبواب الفقه على الحديث معا، تذكر فيه الاحاديث فى الموضوع الفقهى الذى سجتهد فيه ثم عمل أهل المدينة المجمع عليه، ثم رأى من التقى بهم من التابعين وآراء الصحابة والتابعين الذين لم يلتق بهم كسعيد بن المسيب، وفيه الآراء المشهورة بالمدينه، وقد روى بعده روايات، وأشهر الروايات له روايتان : أحدهما رواية يحيى بن يحيى الليثى الاندلسى المتوفى عام ٢٣٤هـ، والاخرى رواية محمد بن الحسن الشيبانى صاحب أبى حنيفة. وتوفى الامام مالك بالمدينة المنورة فى سنة ١٧٩هـ/٧٨٦م.

أنظر : ابن فرحون (ابراهيم بن على) : الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب، تحقيق الدكتور محمد الاحمدى أبو النور، الجزء الاول، مكتبة دار التراث، القاهرة، ١٩٧٢، ص٨١وما بعدها.

الامام محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الاسلامية فى السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية، دار الفكر العربى «بدون تاريخ»، ص١٣٠.

كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربى، الجزء الثالث، ص٢٧٤، والمراجع التى وردت به.

Mahmud Makki : op. cit., p. 154

بمثل هذه السرعة؟ وما أهم العوامل التى مكنته من ذلك؟ وللاجابة على ذلك ينبغى أن نسرع الى القول بأن المذهب المالكى انتشر فى الاندلس وحل محل المذهب الاوزاعى بسرعة كبيرة، ربما لقوة المذهب ذاته وملاءمته لأفكار واتجاهات كثير من الناس من ناحية، ولسبب آخر لا يخلو من ناحية سياسية فقد كانت امارة الاندلس مستقلة عن الخلافة العباسية خارجة عن طوعها ولما كان المذهب الحنفى بمثابة المذهب الرسمى للعباسيين، كان من الطبيعى أن يتجه الاندلسيون الى مذهب مالك ابن أنس، الذى أبدى اعجابه بالأمير هشام ومدحه فى مجلس من مجالسه فى حضور عدد من طلاب العلم الاندلسيين بقوله: «نسأل الله أن يزين حرمنا بملككم»[١١]، ولعل ذلك يؤيد ما ذهب اليه عالم محدث من أن مذهب مالك انتشر فى الاندلس بسلطان الدولة[١٢].

فضلا عن أن المجتمع الاندلسى كان يضم فيما يضم عناصر عربية من أصول حجازية دون العراقيين الذين لم يشاركوا فى جيوش الفتح والطوالع التى وفدت الى الاندلس مما أدى الى أن يفكر عدد كبير من العرب الحجازيين فى العودة الى بلادهم لزيارة أهلهم ولتأدية فريضة الحج، فلما عادوا كانوا أكثر تأثرا بمذهب مالك ونشروه فى الاندلس«ولم يكن العراق فى طريقهم فاقتصروا على الأخذ عن علماء المدينة وشيخهم يومئذ وامامهم مالك وشيوخه من قبله وتلميذه من بعده، فرجع أهل المغرب والاندلس وقلدوه دون غيره، ممن لم تصل اليهم طريقته»[١٣]. وقد ساعد ذلك بطبيعة الحال على اتصال الاندلسيين بالامام مالك والالمام بمذهبه.

على أن ابن خلدون يضيف عاملا آخر لانتشار المذهب المالكى بالاندلس فيقول: «فالبداوة كانت غالبة على أهل المغرب والاندلس،ولم يكونوا يعانون الحضارة التى لأهل العراق، فكانوا الى أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة، ولهذا لم يزل المذهب المالكى غضا عندهم،ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع فى غيره من المذاهب»[١٤]. غير أننا نخالف العلامة ابن خلدون فيما ذهب اليه، ذلك أن حواضر الحجاز لم يعد سكانها من البدو لا سيما فى العصر الاموى الذى كان

---

(١١) ابن القوطية القرطبى (أبو بكر محمد): تاريخ افتتاح الاندلس نشر دون غوليان ريبيرا، مدريد ١٩٢٦، ص٤٣

(١٢) الامام محمد أبو زهرة: المرجع السابق، ص٣٩.

(١٣) ابن خلدون: المقدمة، ص٨٠٥.

(١٤) ابن خلدون، المقدمة، ص ٨٠٥-٨٠٦.

يغدق فيه الخلفاء على تلك الحواضر مما تفيض به خيرات الأمصار المفتوحة، ولذلك ظهر فيهم الترف وكثر التنعم ونبغ شعراء الغزل وظهر الغناء الحضرى، بل أمدوا به بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وأن سلمنا بما ذكره ابن خلدون من أن حواضر الحجاز يسكنها البدو فلا يجوز أن نسلم له قط بذلك فى الاندلس، فأهل الاندلس كانوا أصحاب حضارة دون شك وتأثروا بالحضارة التى كانت قائمة قبل الفتح الاسلامى ثم بعده، وهى حضارة استقت أصولها الاولى من الحضارة الفينيقية بخاصة ثم من الحضارة الرومانية، يشهد على هذا تلك النظم الرومانية التى كانت سائدة قبل الفتح وبعده وكذا الآثار الرومانية الضخمة التى مازالت قائمة حتى اليوم[١٥].

وهكذا انتشر المذهب المالكى فى الاندلس وحل محل المذهب الاوزاعى، غير أن الأندلسيين احتفظوا بمسألة استجازة غرس الشجر فى صحون المساجد[١٦] متتبعين فيها مذهب الاوزاعى، ومذهب مالك يكره ذلك، وهذه المسألة ميزت المالكية الاندلسية عن غيرها حتى انتهاء دولة الاسلام فى الاندلس.

وتجمع المصادر الاندلسية على أن دخول المالكية وانتشارها فى الاندلس تم على أيدى الاندلسيين أنفسهم، الذين درسوا على الامام مالك بن أنس فى المدينة المنورة، ثم عادوا الى بلادهم ونقلوا فقهه اليها. وأول من نقل هذا المذهب من تلاميذه هو زياد بن عبد الرحمن اللخمى المعروف بشبطون (ت:٢٠٤هـ/٨١٩م)[١٧]، يذكر المقرى أنه : «كان فقيه الاندلس على مذهب

---

(١٥) انظر : Aguado Bleye : Manuel de la historia de Espana. Tomo I, Madrid, 1947. pp. 15 : Antonio de Vega (L.) : Amilcar Barca Fundador de Espana. Madrid. 1961.

(١٦) النباهى : المرقبة العليا، ص٥١.

(١٧) عن زياد بن عبد الرحمن، أنظر : الخشنى : قضاة الاندلس، ص٣، ص٤، ابن الفرضى تاريخ علماء الأندلس، ص١٥٤(ترجمة : ٤٥٨)، الحميدى (أبو عبد الله محمد ابن أبى نصر فتوح بن عبد) : جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الاندلس، الدار المصرية للتأليف والنشر، ١٩٦٦، ص٢١٨، ابن القوطية : المصدر السابق، ٤٢، ٤٣، ابن سعيد المغربى : المغرب فى حلى المغرب، تحقيق دكتور شوقى ضيف، الجزء الأول، دار المعارف بمصر، ١٩٥٣، ص٣٩، ٤٤، النباهى : المرقبة العليا، صفحات ١٢، ١٧، ١٠، ابن فرحون الديباج، الجزء الأول، ص٢٧٠

مالك، وهو أول من أدخل مذهبه الاندلس»[١٨]، ويضيف قائلا : «هو أول من أدخل موطأ مالك الى الاندلس مكملا متقنا فأخذه عنه يحيى بن يحيى» الليثى (ت٢٣٤هـ/٨٤٨م)[١٩].

وانتشرت المالكية فى الاندلس على يد الفقيه المحدث الواسع الشهرة يحيى الليثى، الذى سماه مالك «بعاقل الاندلس»[٢٠]، وكان الشيخ يحيى عميد فقهاء الاندلس[٢١]، قد بلغ مكانة سامية لدى الامير هشام الملقب بالرضا، وجعل للفقهاء والقضاة منزلة كبيرة فى عصره، فارتقوا أهم المناصب، واعتمد عليهم الامير هشام وقربهم اليه وهو بطبيعته كان تقيا ورعا[٢٢]، فكان يستمع اليهم وينفذ مشورتهم فكثر تدخلهم فى شئون الدولة.

وهكذا انتقلت الفتوى فى الاندلس الى رأى مالك بن أنس وأهل المدينه، فانتشر علم مالك ورأيه فى حواضر الاندلس[٢٣]، فيما عدا أربع مسائل خالف فيها

---

(١٨) المقرى (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد التلمسانى) : نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب، المجلد الثانى، بيروت، ص٤٥.

(١٩) المقرى : نفس المصدر والجزء، ص٤٦.

(٢٠) انظر فى ترجمته، ابن القوطية : المصدر السابق، ص٣٥، ٥١، ٥٨، الخشنى : المصدر السابق، ص٣٥-٣٦، ابن الفرضى : المصدر السابق، القسم الثانى، ص١٧٩، ١٨٠، ١٨١ (ترجمة ١٥٥٦)، الحميدى : المصدر السابق ص٤٧ - ٥٠، ١٤٨ - ١٥٠، ١٦٣ - ١٦٥ ابن فرحون : المصدر السابق، حـ٢، ص٣٥٢ - ٣٥٣، ابن الخطيب (لسان الدين) : أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام، نشره ليفى بروفنسال، بيروت، ١٩٥٦، ص١٥، النباهى، المرقبه العليا، ص١٤-١٨، ٤٥، ٥٥-٥٦، Mahmud Makki : op. cit p. 65.

(٢١) ابن حيان (أبو مروان) : المقتبس من أبناء أهل الاندلس، تحقيق الدكتور محمود على مكى، دار الكتاب العربى، بيروت، ١٩٧٣، ص٨٣.

(٢٢) ابن عذارى المراكشى (أبو العباس أحمد بن محمد) : البيان المغرب فى أخبار الاندلس والمغرب، الجزء الثانى، تحقيق كولان وليفى بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، (بدون تاريخ)، ص٦٥-٦٦.

(٢٣) انظر : المقرى : نفح الطيب، المجلد الثالث، ص٢٣٠، ابن الخطيب (لسان الدين) : الاحاطة فى أخبار غرناطه، المجلد الأول تحقيق محمد عبد الله عنان، القاهرة، ١٩٧٣، ص١٣٤، اللذان يذهبان الى أن المذهب المالكى انتشر فى عهد الحكم بن هشام، وهذا يخالف الاحداث التى وقعت فى عهد ذات الامير، والاقرب الى الصحة ان هذا المذهب انتشر فى عهد الامير هشام الاول.

مالكية الاندلس مالكية المشرق فأخذوا ثلاثا منها من مذهب الامام الليث بن سعد وأخذوا الرابعة من مذهب الامام الاوزاعى[٢٤].

واذا كان الفقهاء والقضاة قد بلغوا منزلة سامية فى عهد الامير هشام الرضا، فان خلف الامير الحكم بن هشام لم يكن على شاكلة أبيه فى الورع والتقوى، بل على العكس من ذلك اتسمت شخصيته بحب اللهو وحضور مجالس الغناء والرقص، وكان يؤثر مجالس الشعراء والندماء على مجالس الفقهاء والعلماء، مولعا بالصيد والقنص، فلم يرع مكانة الفقهاء ولم يهتم بتقريبهم اليه، فنفروا منه عندما شعروا أنه يعمل على الحد من نفوذهم ومنعهم من التدخل فى شئون الدولة، فأنقلبوا عليه شر منقلب وأخذوا من فوق المنابر يحرضون الناس عليه واتهموه بالفسق والمجون ولقبوة بالمخمور،ولقى تحريضهم هذا هوى وآذانا صاغية خاصة لدى طائفة المولدين فى الاندلس، وهم الدين كانوا يتطلعون الى المساواة فى المعاملة مع العرب، وتحسين أوضاعهم السياسية والاجتماعية، ولهذا اغتنموا الفرصة، ودبروا ثورتين كبيرتين فى مدينتى طليطلة وقرطبة غيرأن الحكم الاول استطاع بمقدرة فائقة القضاء نهائيا على هاتين الثورتين[٢٥]، وتعقب الفقهاء المحرضين على الفتنة، الذين فروا من قرطبة الى حواضر الاندلس أمثال الفقيه يحيى بن يحيى وعيسى بن دينار وطالوت بن عبد الجبار، لكنه لم يلبث أن أمن هؤلاء الفقهاء استجابة لملتمس

---

(٢٤) المسائل الأربعة هى: «ان لا يحكموا بالخلطة، ولا بالشاهد اليمين، وأجازوا كراء الارض بالجزء مما يخرج منها، وهومذهب الليث ابن سعد، وأجازوا غرس الشجر فى المساجد، وهو مذهب الأوزاعى»، من، المرقبة العليا، ص٥١، وأنظر أيضا:

Mahmud Makki : op. cit pp. 227-231.

(٢٥) انظر عن هاتين الثورتين: مؤلف مجهول: أخبار مجموعة فى فتح الاندلس، تحقيق ابراهيم الابيارى، دارالكاتب المصرى، القاهرة، ١٩٨١، ص١١٨-١١٩، ابن القوطية: المصدر السابق، ص٤٦، ٤٨، ابن عذارى: المصدر السابق، الجزء الثانى، ص٧٥، ٧٦، ٧٧. ابن الخطيب: أعمال الاعلام، القسم الاندلسى، ص١٥، محمد عبد الله عنان: دولة الاسلام فى الأندلس، العصر الاول، القسم الاول، الطبعة الرابعة، القاهرة، ١٩٦٩، ص٢٤٣ وما بعدها، اليسد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين، ص٢٢٢-٢٢٣، أحمد مختار العبادى: فى تاريخ المغرب والاندلس، ص١٢٨، ١٢٩ وما بعدها، وأنظر أيضا:

Levi Provençal : Histoire de L'Espagne musulmane. Tome IL'Institut Français, Cairo. 1944, p. 188.

تقدموا به، وعادوا للاقامة مرة أخرى فى قرطبة حاضرة الامارة[٢٦].

ولم تلبث منزلة الفقهاء والقضاة أن ارتفعت مرة أخرى فى امارة عبد الرحمن الأوسط، فنعموا بما كانوا ينعمون به على عهد جده هشام الرضا من علو المكانة والقرب من الامير، بل والتسلط عليه أحيانا بحيث كان لا يستطيع ابرام أى أمر دون استشارتهم، فكان الامير عبد الرحمن الأوسط لا يبت فى اختيار القضاة الا بعد استشارة «كبير الفقهاء المشاورين الاثير عنده يحيى بن يحيى»[٢٧]، فكان لا يستقضى قاضيا ولا يعقد عقدا ولا يمضى فى أمور الدين إلا بعد مشورته[٢٨]. وهذا يدل على عظم المكانة السامية التى وصل اليها الفقيه يحيى بن يحيى فى دولة الامير عبد الرحمن الأوسط، وبالتالى ما وصل اليه الفقهاء والقضاة من مكانة هامة استمرت طوال العصر الاموى فى الاندلس.

وكان منصب قاضى الجماعة بقرطبة حاضرة الاندلس من المناصب الهامة، لمنزلة متوليه الدينية ومكانته الاجتماعية، وكان اختصاصه يشمل النظر فى المواريث والوصايا والتحجير والاحباس وأموال اليتامى وقضايا الطلاق، وقد تجمع له فوق ذلك أمامة الصلاة العامة، وهى صلاة الجمعة والعيدين وصلاة الاستسقاء، كما كان الاشراف على الحسبة داخلا فى اختصاصه[٢٩]، لذلك فان امراء بنى أمية كانوا لا يسندون قضاء الجماعة الا الى كل من عرف بغزارة العلم والبراعة فى الفقه، ووصف بالفضل والورع ونزاهة الضمير[٣٠]، وهذا ينطبق على قضاة حواضر الاندلس الأخرى.

وقد ترتب على ذلك أن عظمت خطة القضاء فى الأندلس، وارتفعت مكانة القضاة بين الناس، فوثقوا فيهم، والتفوا حولهم، وكان من أثر ذلك أن تدخل بعض القضاة فى الحياة السياسية، وأصبحوا أمل الناس فى تحقيق استقلالهم، فثاروا على الاوضاع القائمة فى الاندلس خلال فترات الضعف التى مر بها القطر، فنكب بعضهم، ونجح البعض الآخر، وهذا ما سنعالجة بعد، حين نستعرض ثورات القضاة

---

(٢٦) المقرى : نفح الطيب، المجلد الثانى، ص١١

(٢٧) ابن حيان : المقتبس، تحقيق محمود على مكى، ص٤٠

(٢٨) نفس المصدر، ص٤٢.

(٢٩) النباهى : المرقبة العليا، ص٥.

(٣٠) نفس المصدر، ص٤، ٥.

في كل من شرق الأندلس وغربه ووسطة تسهيلا للدراسة.

أولا : ثورة القاضي ابن جحاف في بلنسية
(٤٨٥-٤٨٧هـ / ١٠٩٢/١٠٩٤م) :

هو جعفر بن عبد الله بن جعفر بن عبد الرحمن بن جحاف، من أسرة عريقة تنتسب الى قبيلة معافر اليمنية، من أعرق البيوتات في بلنسية (Valencia)، اشتهرت بالعلم والرياسة، وكان جعفر بن عبد الله بن جحاف من أبرز أعلام هذه الأسرة علماء، فقد نبغ في ميدان الفقه والحديث، وتولى بعض المناصب الهامة، ومنها منصب صاحب أحكام المدينة، ثم أسندت اليه خطة القضاء[٣١].

وقد عايش جعفر بن جحاف الوضع السياسي المتردي في مدينة بلنسية في الربع الاخير من القرن الخامس الهجري (١١م)، إذ كانت تمر بمرحلة دقيقة في تاريخها يشوبها القلق والاضطراب، وتتسم بالضعف في الظاهر والغليان في الباطن، تحت حكم أمير مسلم يدعى القادر بالله يحيى بن ذي النون[٣٢]، الذي جعل الاستحواذ على السلطة هدفه والامرة نصب عينيه ومراده، وفي سبيل تحقيق هذه الغاية ودرءا لخطر مناوئيه من أمراء المسلمين الأخرين وملك قشتالة النصرانية الطامعين في ملكه[٣٣]، اضطر لشراء حماية السيد القمبيطور[٣٤]

---

(٣١) أنظر في ترجمته : ابن حزم : جمهرة انساب العرب، ص٤١٩، الضبي : بغية الملتمس، ص٢٥٧ (ترجمة ٦١٥)، ابن الابار (أبو عبد الله محمد القضاعي) : التكملة لكتاب الصلة، جـ١، نشر السيد عزت العطار، القاهرة، ١٩٥٦، ص٢٣٩-٢٤٠ (ترجمة ٦٢٣)، ابن الخطيب : أعمال الاعلام : القسم الاندلسي، ص٢٠٣.

(٣٢) هو القادر بالله يحيى بن ذي النون حفيد المأمون ذي النون. وكان فتى حدثا، قليل الخبرة والتجارب، يميل الى اللهو والترف والملذات، راجع، ابن الاثير : الكامل في التاريخ، حـ٧، ص٢٩٢.

(٣٣) من الأمراء المسلمين الطامعين في ملك بلنسية، المستعين بن هود أمير سرقسطه والمنذر بن هود أمير لارده وطرطوشه، ومن ملوك النصرانية الفونسو السادس Alfonso VI ملك قشتالة.

(٣٤) هو الفارس القشتالي المشهور روديجو دياث بيبار Rodrigo Diaz Vivar الملقب بالسيد الكمبيادور أو القمبيطور.

Huici Miranda (A.) : Histoire musulmana de Valencia y su region. tomo II. p. 7 y nota I:

ليفي بروفنسال : الاسلام في المغرب والاندلس، ص ٢٧٠ ترجمة الدكتور لطفي عبد البديع، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٦، ابن الكردبوس : تاريخ الاندلس، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الاسلاميه، مدريد، ١٩٧١، ص٩٩، هامش٥.

ووافق على ما اشترطه عليه من التعهد بدفع جزية أسبوعية قدرها ألف دينار(٣٥).

ووفقا لهذا الاتفاق دخل السيد القمبيطور (El cid Campeador) مدينة بلنسية ونشر قواته بها، وأقام بقصر الامارة، وأرغم الحصون والقلاع التابعة لبلنسية على اعادة دفع ضريبة الخراج التى سبق أن حبسوها عن القادر، كما استبد بشئون المدينة فأخذ «بمخنق بلنسية، وألقى زوره عليها، يجبى رعيتها ويستغلها حاضرة وبادية، وقد استضعف حفيد برادى النون ملكها المشئوم»(٣٦).

ثم انشغل السيد القمبيطور بعد ذلك بأمور اضطرته للخروج فى بعض قواته تجاه مدينة سرقسطة (Zaragoza) فعهد الى ابن الفرج–الوزير السابق للقادر بن ذى النون–بادارة شئون المدينة(٣٧)، تعاونه قوات السيد المنتشرة فى كل ارجائها.

وازاء هذا الموضع المتدهور الذى لا يبشر بأمل فى الخلاص القريب لبلنسية من استبداد قوات النصارى مع ضعف أميرها القادر، رأى مسلمو المدينة، الذين يمثلون قلبها النابض المتحرك لتخليص بلدهم من نير النصارى، ووضع نهاية لهذا الحال، الاتصال بقاضى المدينة جعفر بن جحاف، بعد أن استشعروا فيه روح الزعامة ولما كان يتمتع به من واسع الجاه والنفوذ فضلا عن أنه سليل بيت من البيوتات العربية العريقة فى بلنسيه.

---

(٣٥) انظر : Huici Miranda : op. cit. tomo II. p.2.

فى حين تذكر مدونة السيد أن مقدار الجزية الى تعهد القادر بدفعها للسيد هى أربع آلاف دينار أسبوعيا، وهذا مبالغ فيه، ولعله قد وقع تحريف فى النسخ فكتبت : «أسبوعيا بدلا من شهريا»، أنظر :

Chronicle of the Cid. from spanish by Robert Southey. London 1883. p. 126.

(٣٦) ابن عذارى : البيان المغرب، حـ٤، ص٣١.

(٣٧) أنظر :

Alfonso El Sabio : primera Cronica general de Espana, tomo II. publicado por Ramon Menendez Pidal. Madrid, 1955, p. 562.

Menendez Pidal (R) : La Espana del cid, cuarta édicion, tomo I. Madrid, 1947, p. 389.

كمال السيد محمد أبو مصطفى : تاريخ مدينة بلنسية الاسلامية حتى سقوطها فى أيدى المرابطين، رسالة ماجستير غير منشورة وبأشراف الاستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم، كليه الآداب، جامعة الاسكندرية ١٩٨١، ص١١٧.

وكان القاضى جعفر بن جحاف بحكم منصبه مطلعا على ما يجرى فى المدينة، ومتفهماً لمشاعر أهلها، ومشاركا لهم فى النقمة على الأوضاع المتردية، حتى ضاقت نفسه بهذه التصرفات الجائرة من قوات السيد المنتشرة، هذه التصرفات المنافية لشريعة الاسلام، وسئم «اضافة عدو الله القمبيطور بلنسيه، وسومه أهلها خطة الخسف، وسئم الذل وضاق صدره بحفيد ابن ذى النون»[٣٨]، فلم يتردد فى اجابتهم مشاركتهم فى تغيير هذه الأوضاع، فحمل من ساعته لواء المعارضة ضد سيطرة النصارى، لا سيما وأنه كان مطلعا على ما يجرى حوله فى الاندلس، وعلى علم بتقدم المرابطين فى شرق الاندلس، وضمهم لمدينتى مرسيه Murcia ودانيه Dania، وتطلعهم الى ضم بلنسية لحوزتهم، فاستفاد من كل ذلك، وعرض الأمر على أهل الحل والعقد بالمدينة وفى مقدمتهم أبو الحسن بن واجب، مشيرا عليهم باستدعاء قوات المرابطين لمعاونتهم فى التخلص من القادر بن ذى النون وقوات السيد فى مقابل حفظ المدينة للمرابطين، فوافقوا على ما ذهب اليه. عندئذ كاتب ابن جحاف القائد المرابطى ابن عائشة وأبلغه موافقة أهل المدينة على الاستنجاد به وتسليم المدينة له[٣٩].

ولما كان القائد المرابطى ابن عائشة يتطلع الى ضم بلنسية حاضرة شرق الاندلس بعد استيلائه على مرسية ودانية، فانه لم يتردد فى تلبية هذه الدعوة، وأرسل على الفور الى بلنسية فرقة من المرابطين بقيادة أبى ناصر وذلك فى شهر رمضان سنة ٤٨٥هـ/ أكتوبر ١٠٩٢م[٤٠].

سارت الفرقة المرابطية تجاه بلنسية فدخلت المدينة من باب بيطاله Boatella الواقع فى جنوبى غربى المدينة، ولما علم مسلمو المدينة بقدومها، قاموا بالثورة ضد النصارى فعم المدينة الاضطراب وسادها الهرج، وقاد القاضى جعفر بن جحاف

---

(٣٨) ابن الخطيب : أعمال الاعلام، القسم الاندلسى، ص١٠٣.

(٣٩) انظر، ابن الكردبوس : تاريخ الاندلس، ص١٠٣، ابن عذارى : المصدر السابق، جـ٤، ص٣١، ابن الخطيب : نفس المصدر، ص٢٠٣.

(٤٠) ابن الكردبوس : نفس المصدر، ص١٠٣، ابن عذارى : نفس المصدر، الجزء والصفحة، ابن الخطيب :نفس المصدر والصفحة.

جموع الثائرين تجاه قصر الامارة، فاقتحمة واستولى عليه، وقبض على الوزير ابن الفرج نائب السيد بالمدينة، وبحث عن القادر الذى كان قد اختفى فى حمامات القصر حتى عثر عليه، فقبض عليه، وصادر أمواله وكنوزه[41]. ولم يلبث ابن جحاف أن أمر بقتل القادر بالله يحيى بن ذى النون جزاء خيانته للمسلمين وتحالفه مع النصارى وذلك فى اليوم الثالث والعشرين من رمضان ٤٨٥هـ/٢٨ أكتوبر ١٠٩٢م، وتم ذلك على يد فتى من بنى الحديدى كان له ثأر قديم عند القادر[42].

وفى اليوم التالى الموافق ٢٤ رمضان اختير القاضى جعفر بن حجاف رئيسا للجماعة، فتولى زمام الأمور، وأخذ يحشد الجند، ويحصن أطراف المدينة، وينظم شئونها ويستعد للطوارئ.[43] وهكذا تبوأ جعفر بن حجاف الرئاسة فى بلنسية، فأظهر أبهة الملك، وحاول التشبه بنظيره القاضى محمد بن عباد المعتمد (٤٦١-٤٨٤م/١٠٦٩-١٠٩١م) أمير إشبيلية، فكان يجلس «مكتنفا بالوزراء والفقهاء والزعماء والغلمة أمامه، ويركب فيتقدمه العبيد والطرد ويتأخر عنه الجند، وتسقبله المصانعة بالدعاء والثناء»[44].

لنا أن نتساءل هنا، هل أوفى ابن جحاف بعهده للمرابطين بتسليم المدينة لهم وكيف تم ذلك والجماعة فى بلنسية اختارته رئيسا عليها، وهل تم ذلك بموافقة أمير المرابطين يوسف بن تاشفين؟

والواقع اننا نجد اشارة مقتضبة لابن الخطيب فى معرض حديثه عن المرسلات

---

(٤١) ابن بسام (أبو الحسن على) : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، القسم الثالث، المجلد الأول، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، ١٩٨١، ص٩٧، ابن عذارى : المصدر السابق، جـ٤، ص٣١، وأنظر أيضا : ابن ابى زرع الفاسى (أبو الحسن على بن عبد الله) : الانيس المطرب بروض القرطاس، تورنبرغ، أو بساله، ١٨٤٣، ص١٠١.

Pidal, op. cit., p. 483

(٤٢) ابن بسام : نفس المصدر والقسم والجزء، ص٩٦، ابن عذارى، حـ٤، ص٣٢، ١٤٩، ابن الخطيب : أعمال الاعلام، ص٢٠٣.

(٤٣) ابن عذارى، حـ٤، ص٣٢، ابن الخطيب : نفس المصدر، ص٢٠٣.

(٤٤) ابن عذارى، حـ٤، ص٣٢.

بين السيد القمبيطور وابن جحاف، تفيد رد ابن جحاف عليه بأن بلنسيه لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين[٤٥]، ويبدو أن المرابطين اكتفوا بوجود حامية مرابطة داخل المدينة رمزا لتملكهم لها وتبعيتها لهم، ومساندة لحليفهم ابن جحاف فى التصدى لهجوم متوقع من جانب السيد القمبيطور، اذ تشير المصادر الى أن السيد القمبيطور عندما وصلته أنباء التطورات المزعجة ببلنسية غضب لما أصاب حليفه القادر بالله على يدى ابن جحاف وأعوانه، واعتبرها ضربة موجهة لشخصه وتمردا على سلطانه، يترتب عليها فقد الجزية التى كان يؤديها له أهل بلنسية كل عام[٤٦]. فخرج فى قواته صوب بلنسية مضمرا الانتقام، وفرض على الحصون الواقعة فى طريقه المغارم والأقوات، حتى نزل فى جباله (Juballa) وهنالك اجتمع به أنصار القادر بالله بن النون، وانضموا اليه وأعلنوا ولاءهم له للأخذ بثأر مولاهم[٤٧].

وعندما وصل السيد القمبيطور الى أحواز بلنسية ضرب الحصار حولها، وأحرق ما يحيط بها من الضياع والمروج، واستولى على معظم الحصون والقلاع التابعة لها، ثم اقتحم ربض الكدية (Alcudia) الواقع فى شمالها وفرض عليه سلطانه وأقام به عسكره[٤٨]، فى الوقت الذى أخذ فيه ابن جحاف يحشد قواته، ويعلن حالة الطوارئ لمواجهة هذه الحملات المخربة التى كان يشنها السيد بقواته على أطراف المدينة.

ولما تم للسيد القمبيطور حصار المدينة، آثر أن يصطنع سياسة تقوم على الترغيب والترهيب مع ابن جحاف، فكتب له يهنئه على ما تهيأ له من تولى مقاليد الحكم، ثم يسخر منه فيها بأنه أنهى صومه بالحسنة «أننى اكتسبها فى رمضان بقتل سلطانه»[٤٩]، ويطلب منه أطعمته المختزنة عنده ببلنسيه. فرد عليه ابن جحاف بأن

---

(٤٥) اعمال الاعلام، القسم الاندلسى، ص٢١٣

(٤٦) ابن الكردبوسى، ص١٠٣

(47) Huici Miranda : op. cit., t. II. p. 57.

(48) Menendez Pidal : op. cit., p. 428.

(٤٩) ابن عذارى، جـ٤، ص٣٢، وأنظر أيضا : حسين مؤنس : «السيد القمبيطور وعلاقاته بالمسلمين»، المجله التاريخية المصريه، المجلد الثالث، العدد الاول، مايو ١٩٥٠، ص٥٩.

البلد لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين «وتلك الأطعمة انتهبها رجاله»(٥٠).

عندئذ تحول السيد القمبيطور الى سياسة الترهيب، فأرسل لابن جحاف رسالة يهدده فيها ويقسم «بمغلظات الايمان ألا يبرح بلنسية حتى يظفر به، ويأخذ ثأر ذى النون معه»(٥١).

وهكذا كشف السيد القمبيطور عن وجهه واشتد فى حصار بلنسية، واستجلب أمدادا كثيرة من الحصون المجاورة «واتصل الضرب منها الى بلنسيه، فأضربها، وقتل من ظفر به من أهلها، وكان معه جملة من رجال ابن ذى النون»(٥٢).

ولما تأكد ابن جحاف من سياسة السيد القمبيطور العدوانية والحاحه فى الاستيلاء على المدينة أرسل يطلب مددا من القائد المرابطى ابن عائشة، فأمده هذا بمدد جديد بلغ به عدد فرسانه ثلاثمائه، فزاد وثوقا من نفسه، وبدأت المناوشات بين السيد القمبيطور وبين أهل بلنسيه(٥٣).

وينفرد ابن عذارى برواية تفيد أن ابن جحاف بدأ يضيق بوجود جند المرابطين فى المدينه، فقد «استثقلهم، ...،واستشعروا ذلك منه»(٥٤)، ويضيف ان السيد القمبيطور لمس فى ابن جحاف نيته فى الانفراد بحكم المدينة دون المرابطين، فأكد له أنه معه فيه، وأيده فى طرد المرابطين، يقول ابن عذارى : «وأمل القمبيطور ازعاج المرابطين من بلنسية ... وداخل ابن جحاف فى اخراجهم، واستبداده بالملك لنفسه ليقيمه معه مقام ابن ذى النون، يحمى حوزته، ويقاتل عنه، فطمع فى ذلك»(٥٥).

وقد سايرت المصادر الاسبانية ما ذهب اليه ابن عذارى فى رغبة ابن جحاف فى الاستبداد بالسلطة لنفسه والسعى الى السيطرة والسلطان(٥٦).

---

(٥٠) ابن عذارى، حـ٤، ص١٥٠، حسين مؤنس : نفس المرجع ص٥٩.

(٥١) ابن عذارى، حـ٤، ص٣٢

(٥٢) ابن عذارى، حـ٤، ص٣٢.

(٥٣) نفس المصدر، حـ٤، ص٣٢.

(٥٤) البيان المغرب، جـ٤، ص٣٢

(٥٥) نفس المصدر، حـ٤، ص٣٢-٣٣

(٥٦) أنظر : Chronicle of the cid, p. 141 : Menendez Pidal op. Cit., t. II. pp. 442-443.

غير أننا لا نميل الى ما ذهب اليه ابن عذارى والمصادر الاسبانية، ذلك لان ابن جحاف كان قد رفض هذا السلوك من جانب القادر بن ذى النون أمير بلنسية السابق وهو السلوك نفسه الذى كان السبب فى استجابة ابن جحاف لمسلمى بلنسية لزعامة الثورة ضد القادر وحلفائه النصارى، فكيف يرضى بذلك الآن، وقد أصبح أمل شعب بلنسيه. ويبدو أن الظروف التى مرت بابن جحاف هى التى أجبرته على مصانعة السيد القمبيطور، لاسيما وقد انقسم أهل المدينة على أنفسهم، فظهر منهم فريق يميل الى السيد القمبيطور وهم بطبيعة الحال موالى الأمير القادر يتزعمهم ابن الفرج، وفريق ثان يتزعمة بنو واجب وكانوا يميلون للمُرابطين، وفريق ثالث يتزعمه ابن جحاف وكان يسعى لتحرير بلنسية من أى تدخل خارجى خاصة وقد لمس ابن جحاف تراخى المرابطين عن نصرته واكتفاءهم بارسال فرقة صغيرة بلغ بها عدد القوات المرابطة بالمدينة ثلاثمائة فارس، وهذه القوة بطبيعة الحال عجزت عن التصدى لغارات السيد القمبيطور الملحة على أطراف بلنسية، فضلاً عن أن استمرار السيد على حصار المدينة أدى الى نقص فى الاقوات والمؤن، والى سوء الحالة الاقتصادية بها مما أدى الى عجز ابن جحاف عن الوفاء بالتزاماته نحو سداد رواتب جند المرابطين، فأخذ فى تقليلها. وهذا ما يدفعنا الى القول بأن ابن جحاف يئس من مناصرة المرابطين الايجابية، فمال الى اصطناع سياسة مرنة لصالح بلده أولا وأخيرا تقضى بمهادنة السيد القمبيطور.

وفى هذه الاثناء أرسل السيد القمبيطور سرا الى ابن جحاف يطلب اليه طرد المرابطين، ويتعهد له بأن يتركه فى حكم بلنسية دون منازع، ويساندة فى مواجهة جميع خصومه وأعدائه، وأن يمده بالعون والحماية، فجنح ابن جحاف الى التفاهم، وأخذ يفكر فى الأمر، ويبدو أنه استطلع رأى أهل بلنسية الذين آثروا التفاهم والصلح، وتنفرد المصادر الاسبانية بذكر بنود الاتفاق وهى : أن تغادر القوة المرابطية بلنسية فى أمان، وأن يعوض ابن جحاف السيد عن ثمن مؤنه التى كانت بمخازن بلنسية وقت مقتل القادر، وأن يؤدى أهل بلنسية الجزية السابق تقريرها أمام القادر، ومقدارها ألف دينار أسبوعيا من وقت أن بدأت الثورة، وأن تبقى ضاحية الكدية بيد السيد القمبيطور، وأن يرتد الجيش القشتالى الى جباله ويقيم فيها ومعه السيدالقمبيطور(٥٧).

(٥٧) أنظر Primera cronica general. apud, Menendez Pidal La Espana del cid. p. 449.

محمد عبد الله عنان دول الطوائف.، ص ٢٤٢

ويبدو أن ابن جحاف قد اضطر تحت ضغط الظروف الخارجية والداخلية الى الموافقة بحذر على ما جاء في بنود هذا الاتفاق أملا فى كسب الوقت حتى يتدبر أمره لاسيما وأن السيد القمبيطور كان قد أحكم الحصار حول مدينة بلنسية من جهة الشمال، فاستولى عنوة على ربض منية ابن عبد العزيز (Villa Nueva) شمال شرق بلنسية فى ربيع ٤٧٦م (١٠٩٣م) وربض الكدية فى شمالها.

واذا سلمنا بما جاء بهذا الاتفاق، فاننا نرى أن ابن جحاف كان مضطرا الى الاذعان مؤقتا لطلبات السيد القمبيطور، فقد كانت الظروف الخارجية والداخلية فى غير صالح بلده، فمن جهة نجد أن السيد القمبيطور استطاع أن يحكم الحصار على شمالى بلنسية، فضلا عن يأس ابن جحاف من إرسال المرابطين لمدد جديد وما ترتب على ذلك من انقسام أهل بلنسية واختلافهم وتسرب مشاعر اليأس والقنوط الى نفوسهم، وربما آثر ابن جحاف الموافقة على هذا الاتفاق أملا فى اتاحة الفرصة له لاعادة السكينة والهدوء الى المدينة وطمعا فى مساندة ايجابية من جانب المرابطين.

وبمقتضى هذا الاتفاق خرج المرابطون من المدينة بسلام، وانسحب السيد القمبيطور من ربض ابن عبد العزيز والكديه ورابط بقواته فى جبالة[٥٨].

ولكى يوفى ابن جحاف بتعهداته المالية تجاه السيد القمبيطور فرض على القرى والقلاع التابعة لبلنسية ضريبة مقدارها عشر مواردهم المالية، كما أعاد تنظيم ضريبة خراج الأرض مع معاونيه الأوفياء: نائبه وجابى الخراج والكتاب والخراص (مفتشى الزراعة) لتقييم الفواكه والمحاصيل الزراعية، ولحسن الحظ كان ذلك فى شهر يوليو ١٠٩٣م/ ربيع الأول ٤٨٦هـ وهى فترة الحصاد[٥٩].

ولقد عمل ابن جحاف على تنفيذ ما تعهدت به بلنسية من شروط قبل السيد القمبيطور لكن الاخير لم يوف بتعهداته، بل استغل فرصة خروج المرابطين

---

(58) Pidal : op, cit., pp. 449-450.
(59) Ibid, p. 450.

والخراص هم الذين يقدرون المحصول المنتظر أثناء الزرع أو بعد الحصاد، انظر: ابن عبدون (محمد ابن أحمد التجيبى) رسالة فى القضاء والحسبه، نشرها ليفى بروفنسال ضمن ثلاث رسائل أندلسية فى آداب الحسبه والمحتسب، القاهرة، ١٩٥٥، ص١٥، ليفى بروفنسال: سلسلة محاضرات عامة فى أدب الاندلس وتاريخها عامى ١٩٤٧/١٩٤٨، ترجمها الى العربية محمد عبد الهادى شعيره وراجعها عبد الحميد العبادى، المطبعة الأميريه، ١٩٥١، ٨٢٢-٨٩٣

من المدينة، ونقض عهوده، كعادته، فأرهق أحواز المدينة بغاراته المتكررة، أملا فى أن يعجز ابن جحاف عن سداد التراماته المالية قبله، وفى نفس الوقت اشتد على أهل بلنسية بمطالبه المالية التى لا تنتهى فضاقوا بكل ذلك «واستصرخوا أمير المسلمين يوسف وبسطوا عنده القول فيما نزل بهم، فجد فى أمرهم وأمر قواده وعماله على بلاد الاندلس بنصرهم»(٦٠).

وبالفعل تحركت قوات المرابطين بقيادة أبى بكر اللمتونى تجاه شرق الاندلس ووصلت الى مدينة شاطبه، وكان السيدالقمبيطور على علم بهدف هذه الحملة، فأفصح عن أطماعه فى فرض سيطرته على المدنية، وأرسل الى ابن جحاف يطلب النزول مع بعض أتباعه فى قصر وحدائق ربض منية ابن عبد العزيز، فوافق ابن جحاف على طلبه مضطرا، ولم يلبث السيد القمبيطور أن استولى على الربض كله(٦١).

وقد استغل بنو واجب-أولياء المرابطين آنذاك-هذا التصرف من جانب ابن جحاف،وأخذوا يؤلبون عليه أهل بلنسية، ورغم محاولات ابن جحاف لتبرير موقفه والقول بأن اقامة السيد القمبيطور فى ربض منية ابن عبد العزيز موقوته، فان بنى واجب الذين كانوا على علم بمقدم المرابطين نجحوا فى اثارة الناس ضده فتمردوا عليه وخلعوا رئاسته فى سنة ٤٨٦هـ(نوفمبر ١٠٩٣م)، وأسندوا رئاسة الجماعة الى أبى الحسن بن واجب صاحب الاحكام ببلنسية(٦٢).

وفى الوقت الذى وصلت فيه الأنباء باقتراب قوات المرابطين من بلنسية واستبشر أهلها «بنصرهم والانتقام من عدوهم، واستنشقوا ريح الحياة»(٦٣)، انقلبوا على السيد القمبيطور وأخلوا بتعهداتهم معه مثلما فعل، فأقدموا على اغلاق أبواب بلنسية فى وجهه، وأخذوا أهبتهم للدفاع عنها، فلم يستغرب القمبيطور هذا التصرف من أهل بلنسية، لاسيما وقد وصلته الأخبار بقدوم قوات المرابطين لنجدة المدنية، فأعدعدته لمواجهتهم، وتقدم بقواته جنوبا، واستولى على ربض ريوسا

---

(٦٠) ابن عذارى : المصدرالسابق، حـ٤، ص٣٣

(61) Chronicle, pp. 148-149 : Pidal : op cit, pp. 456-458.

(٦٢) رواية ابن علقمة فى، مؤنس : المرجع السابق، ص٦٣، وأنظر ايضا :
Pidal : op.cit., p. 459.

(٦٣) ابن عذارى : المصدر السابق، حـ٤، ص٣٣.

(Rayossa) بجنوب بلنسية، وأخذ فى قطع جسور المياه فأغرقت الاراضى السهلة المحيطة بها، وكان السيد القمبيطور يرمى بهذا الى إرغام المرابطين على اتخاذ طريق ضيق متعدد الشعاب للوصول اليه(٦٤) فضلا عن أنه قسم قواته الى فرقتين «وأمر كل فرقة فلزمت مصافها»(٦٥) .

غير أن القائد المرابطى أبا بكر ابراهيم اللمتونى لم يلبث أن ارتد بقواته وهو على مشارف بلنسية وعاد أدراجه نحو مرسية، معللا بعد ذلك تصرفه هذا بقلة الأزواد، وبهطول الامطار وتدافع السيول مما عاق جيشه عن التقدم(٦٦) . ولو أننا نرى أن ما أقدم عليه السيد القمبيطورمن تعزيز المنطقة الجنوبية للمدينة، وأغراقها بالمياه بعد قطع الجسور كان سببا فى تصعيب مهمة المرابطين، وربما أدرك القائد المرابطى بخبرته العسكرية صعوبة التقدم ففضل العودة، وترك الوضع مؤقتا على ما هو عليه، خوفا من هزيمة قد تلحق بالمرابطين تطمس انتصارهم الساحق فى الزلاقة (Zagrajos) قبل ذلك بسبع سنوات (٤٧٩هـ/١٠٨٦م)

ولما وصل النبأ الى أهل بلنسية وتحقق انسحاب المرابطين وتخليهم عن نصرة بلنسية، خيم اليأس على أهل المدنية، وتبددت آمالهم فى النجاة «فبهت أهل المدينة وسقط فى أيديهم، ويئسوا من الحياة»(٦٧) .

وكان من الطبيعى بعد أن تخلى المرابطون عن انقاذ مدينة بلنسية أن يزداد طمع السيد القمبيطور فى ملكها «فلزمها ملازمة الغريم، وتلذذ بها تلذذ العشاق بالرسوم، ينتسف أقواتها، ويقتل حماتها، ويسبق اليها كل أمنية، ويطلع عليها من كل ثنية»(٦٨) . ومنع الناس من الدخول الى المدينة أو الخروج منها، لا سيما سكان القرى التابعة لها، فاذا أظهر بعضهم مقاومة استبعد أهله وولده، ولهذا لم يقدم أحد

---

(٦٤) الطاهر أحمد مكى : ملحمة السيد، ترجمة وتقديم، الطبعة الأولى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٠، ص١٢٨ ،وأنظر أيضا :

Pidal : op. cit., p. 460 : Huici Miranda (A) : Las Luchas del Cid Campeador con Los Almoravides. Hesperis, vol. VI. Fasc unique 1965, p.81.

(٦٥) ابن عذارى، حـ٤، ص٣٣.

(٦٦) حسين مؤنس:المرجع السابق، ص٦١.

(٦٧) ابن عذارى، جـ٤، ص٣٣.

(٦٨) ابن بسام : الذخيرة، القسم الثالث، المجلد الأول، ص٩٧.

على التحرك أو التجول(٦٩)، وازداد شعور الناس باليأس وخارت عزائمهم، وأنحوا باللائمة على بنى واجب الموالين للمرابطين ونسبوا اليهم ما أصابهم من محن ونكبات، وأدركوا حكمة ابن جحاف رئيس الجماعة السابق فى تدبير الأمور ومصانعة العدو المصاقب لهم، فتطلعوا الى زعامته مرة أخرى، وأيقنوا أنهم تسرعوا فى سحب ثقتهم منه، فاشترط عليهم الطاعة فتعهدوا له بذلك، ثم بايعوه برئاسة الجماعة مرة أخرى فى سنة ٤٨٧هـ (أوائل ١٠٩٤م)(٧٠).

رأى ابن جحاف أن يعاود سياسة المداراة مع السيد القمبيطور، فعرض على أعيان المدينة أمر تخليصها من الحصار القاسى المفروض عليها لقاء اتاوة كبيرة يدفعونها للقمبيطور، فاعترض على ذلك نفر من أعيان المدينة ممن كانوا لا يزالون يؤملون فى نجدة المرابطين، وفى مقدمتهم بنو واجب ورئيسهم أبو الحسن بن واجب صاحب الاحكام فى بلنسية فعزله ابن جحاف عن الاحكام، وكان ابن جحاف يأمل فى موافقة السيد القمبيطور على طلبه لاسيما وأنه لم يكن فى مركز السلطة عندما أخل أهل بلنسية بالشروط السابقة، وسارت الرسل بينهما، غير أن القمبيطور اشترط هذه المرة اخراج بنى واجب من البلد قبل البدء فى التفاوض، ويبدو أن هذا الشرط قدلقى ترحيبا من جانب ابن جحاف الذى رأى أن يجردهم من سلطانهم ونفوذهم ويتخلص من مناوئتهم له، فسير أحد قواده ويدعى التاكرنى على رأس قوة من الفرسان والمشاة ليلا الى دار بنى واجب فاعتقلهم، ثم سلمهم للقمبيطور ورجاله فقتلوهم(٧١).

وعندما علم السيد القمبيطور أن أهل بلنسية قد وافقوا على شروطه أيقن من ضعفهم فاشتد فى مطالبه، وطلب الى ابن جحاف ان يسلم كل موارد المدينة، بل طلب منه أن يقدم له ابنه رهينة، عندئذ رفض ابن جحاف وأغلق أبواب المدنية دونه، وكتب يستصرخ أميرالمسلمين يوسف بن تاشفين «على بعد داره، وتراخى قراره، فتارة يسمعه ويحركه. وتارة ينقطع دونه ولا يدركه، وقد كان أمير المسلمين

---

(٦٩) ابن عذارى : المصدر السابق، حـ٤، ص٣٣،

(70) Pidal : op. cit., pp. 468-469

(71) Primera Cronica general, apud.

حسين مؤنس : المرجع السابق، ص٦٤.

بموضع، ومن رأيه الجميل بمرأى ومسمع،ولكن أبطأ به عن نصره تنائى الدار»[٧٢].

كما بعث ابن جحاف يستنجد بأحمد بن يوسف بن هود المستعين (٤٧٨-٥٠٣هـ/١٠٨٥-١١١٠م) أمير سرقسطه، فأرسل اليه يعده خيرا، وكتب ابن جحاف كذلك الى الفونسو السادس ملك قشتاله فبعث اليه يعده العون، وصمم ابن جحاف على المقاومة والصمود مؤثرا الموت على التسليم.

وفى نفس الوقت، ضرب السيد القمبيطور حصارا شديدا على المدينه، وعاث كعادته فى الانحاء المجاورة، ولم يأل جهدا فى منع الاقوات عن بلنسية خوفا من أن تصمد له حتى يدهمه المرابطون، واستمر الحصار على هذا النحو عشرين شهرا، «فعدمت الاقوات بالجملة، وهلك الناس، ولم يبق من ذلك الجم الا نزر يسير، وتولى اليبس واستحكم الوباء، وبينما الرجل يمشى سقط ميتا»[٧٣]. حتى بلغ الضيق بأهالى بلنسية منتهاه، وفتك بهم الجوع أيما وفتك «وبلغ الجهد بأهلها والامتحان أن أحلوا محرم الحيوان»[٧٤].

ولما بلغ الأمر الى هذا الحد، ويئسوا من نجدة المرابطين، وتحققوا من مراوغة المستعين بن هود لهم بالتسويف والمطل، اجتمع الناس بالفقيه أبى الوليد الوقشى لينوب عنهم فى مخاطبة ابن جحاف فى تسليم المدينة وعقد الصلح مع السيد القمبيطور، وعندئذ اجتمع أعيان المدينة، وأرغموا ابن جحاف على مفاوضة القمبيطور فى التسليم وعقد الصلح، فأذعن لرغبتهم وترك لهم المفاوضة، فذهب وفد منهم لمفاوضة السيد القمبيطور، وتم الاتفاق على أن يبعث أهل بلنسية رسلهم الى المستعين بن هود أمير سرقسطه وابن عائشة قائد المرابطين بمرسيه فى طلب النجدة، وذلك فى مدة خمسة عشر يوما وأن يقوم ابن عديس خلال ذلك بالاشراف على المدينة، وأن تسلم الابواب ليحتلها الروم المحليون. فاذا لم يحضر أحد للنجدة فى خلال المدة الممنوحة سلمت بلنسية بالشروط الآتية :

«أن يبقى ابن جحاف قاضيا للمدينة وحاكما لها، وأن يؤمن فى نفسه وماله وأهله، وأن يؤمن أهل بلنسية فى أنفسهم وأموالهم، وأن يتولى مندوب السيد

(٧٢) ابن بسام : المصدر السابق، ص٩٨.

(٧٣) ابن عذارى : المصدر السابق، حـ٤، ص٣٩.

(٧٤) ابن بسام : المصدر السابق، ص٩٧.

القمبيطور الاشراف على تحصيل الضرائب، وأن تحتل المدينة حامية من النصارى المعاهدين الذين يعيشون بين المسلمين، وأن يرابط السيد القمبيطور بجيشه فى جباله وألا يغير شيئا من شرائع المدينة وأحكامها»(٧٥).

سافر رسل المدينة فعلا فى طلب النجدة، ولكن مضت المهلة المتفق عليها دون أن يعود أحد منهم، وفى صباح اليوم التالى لانتهاء المهلة الموافق ٢٨ جمادى الاولى سنة ٤٨٧هـ (١٥ يونيو ١٠٩٤م) خرج ابن جحاف ومعه عدد من أعيان المدينة ووقعوا عهدا بتسليمها،والامان لسكانها فى أنفسهم وأموالهم، وتعهد ابن جحاف ان يسلم السيد القمبيطور سائر أموال القادر(٧٦).

دخل السيد القمبيطور بلنسية مع جنده،وما لبث رجاله ان احتلوا أبواب وأبراج المدينة خلافا لشروط المعاهدة، ونزل السيد القمبيطور بالقصر، ثم جمع أعيان المدينة وألقى فيهم خطابا، وعد فيه أن يسير شئون المدينة بالعدل، وأن يستمع لظلاماتهم مرتين أسبوعيا، وأن يحميهم،وأن يرد لكل ذى حق حقه الى غير ذلك من الوعود الخلابة، ثم عرج على ابن جحاف فاتهمه بالتعدى والظلم وسلب أموال رعيته دون وجه حق وعليه أن يرد الاموال التى اغتصبها من أصحابها، ثم ختم خطابه بقوله «ولا أريد دخول بلدكم ولا المقام فيها، وانما سأتخذ لى عند القنطره منزلا أقيم فيه اذا مست بى الضرورة الى المقام»(٧٧).

والواقع أن تصرفات السيد القمبيطور جاءت مخالفة لما ذكره فى خطابه، فلم يستمع الى تذمر أو ظلامات أحد، واحتل النصارى معظم دور المدينة وضياعها، وتسلم من ابن جحاف أموال القادر وذخائره وأبقاه فى منصبه قاضيا للمدينة، لكنه أخذ يضيق عليه السؤال عما اذا كان قد بقى لديه شئ من ذخائر القادر، بل طلب اليه حلف اليمين أمام أعيان الشهود من المسلمين والنصارى، فأقسم ابن جحاف بأنه لم يخف شيئا وليس لديه شئ منها، عندئذ أنذره القمبيطور بأنه أن وجد لديه شيئا من هذه الذخائر، فسوف يستبيح دمه، شهد هذا العهد أعيان الملتين

---

(٧٥) انظر، ابن عذارى : المصدر السابق، جـ٤، ص٣٩، نفس المصدر، حـ٣، ص٣٠٥-٣٠٦
Chronicle, p. 172; Pidal : op.cit., p.482;

محمد عبد الله عنان : المرجع السابق، ص٢٤٤.

(٧٦) ابن عذارى : المصدر السابق، حـ٣، ص٣٠٥-٣٠٦.

(٧٧) حسين مؤنس : المرجع السابق، ص٦٧-٦٨.

(المسلمون والنصارى)، يقول ابن بسام : «كان رذريق لأول دخوله قد سأل عنها، واستحلفه بمحضر جماعة من أهل الملتين على البراءة منها، فأقسم بالله جهد ايمانه، غافلا عما فى الغيب من بلائه وامتحانه، وجعل رذريق بينه وبين القاضى المذكور عهدا أحضره الطائفتين وأشهد عليه أعلام الملتين أن هو انتهى بعد اليها، وعثر عنده عليها، ليستحلن اخفار ذمه، وسفك دمه»(٧٨).

بيد أن السيد القمبيطور لم يلبث أن عثر بعد ذلك بقليل على مخبأ الحلى والذخائر التى انتزعها ابن جحاف من القادر حين مقتله، فكان ذلك نذيرا بمحنة ابن جحاف،ولا شك أن الصلابة التى أبداها الأخير وعناده أمام محاولات السيد القمبيطور المتكررة للاستيلاء على المدينة، ومعارضته الاستسلام مرارا له، كانت السبب المباشر لمحنة ابن جحاف إذ رأى السيد القمبيطور التخلص منه بمهاره، فأرغمه على القسم أولا وأشهد عليه أهل الملتين، ثم أنذره بنهاية مؤلمة تمهيدا للخلاص منه، فدبر له هذه المكيدة، ومما يؤيد ذلك ما ذكره ابن بسام فى هذا الشأن بقوله : «لعلها كانت منه (أى من السيد القمبيطور) حيلة أدارها، وداهية من دواهيه سداها وأنارها»(٧٩).

وهكذا نجح السيد القمبيطور فى الايقاع بابن جحاف، فأمر على الفور بالقبض عليه وعلى أفراد أسرته، وعذبه عذابا شديدا، يقول ابن عذارى ان السيد القمبيطور سأل أهل بلنسية (ما جزاء من قتل أميره عندكم فى شرعكم فصمتوا، فقال : أما نحن فجزاؤه عندنا الاحراق»(٨٠)، ثم أمر باعدامه حرقا، ويصف ابن علقمه المؤرخ المعاصر ذلك فيقول : «فجمع له حطب كثير، وحفرت له حفرة وأقيم فيها، وأصير الحطب حوله، وأوقدت فيه النار، فكان يضم النار إليه بيديه ليكون ذلك أسرع لخروج روحه»(٨١). ثم قام السيد القمبيطور يومئذ «بتحريق زوجه وبناته، فكلمه فيهن بعض ظغائنه، فبعد لأى ما لفته عن رأيه، وبتخليصهن من يدى نكرائه، وأضرم هذا المصاب الجليل يومئذ أقطار الجزيرة نارا، وجلل سائر طبقاتها خزيا وعارا»(٨٢).

---

(٧٨) ابن بسام: الذخيرة، القسم الثالث، المجلد الأول ص ٩٨.

(٧٩) نفس المصدر والقسم والمجلد، ص٩٨-٩٩.

(٨٠) ابن عذارى : المصدر السابق، جـ٤، ص١٥١.

(٨١) من، البيان المغرب، جـ٣، ص٣٠٦

(٨٢) ابن بسام : المصدر السابق، ص٩٩.

تلك هي شخصية القاضي جعفر بن جحاف الذى استطاع بعلمه وفقهه أن يؤثر فى شعب بلنسية، فالتقوا حوله، لتحقيق آمالهم فى الانتقام من أميرهم القادر بالله يحيى بن ذى النون الذى اشترى حماية النصارى وأذل شعبه ثم بايعوه رئيسا للجماعة، فتحمل مسئوليته كاملة، وواجه ظروفا صعبة، ورغم ذلك تصدى لمقاومة النصارى بقيادة السيد القمبيطور الذى أرهب شعب شرق الاندلس بغاراته المتكررة،واستطاع ابن جحاف ان يصمد أكثر من ثلاث سنوات، استعمل فيهاكل أساليب الدهاء والمراوغة فأثبت حنكته وخبرته السياسية فى ادارة دفه الامور ببلنسية،وليس كما يذكر ابن بسام أنه «دفع فى أمور سلطانية لم يتقدم قبل فى غوامض حقائقها،وإلى ركوب أساليب سياسية لم يكن له عهد باقتحام مضايقها، ولا بالدخول فى ضنك مآزقها، ولم يعلم أن تدبير الاقاليم غير تلقين الخصوم، وأن عقد ألوية البنود، غير الترجيح بين العقود، وانتحال الشهود»[٨٣]، واضطر مرغما بعد أن تخلى المرابطون وأمير سرقسطه عن نصرته من جهة، وضغط أهل بلنسية عليه من جهة أخرى الى تسليم المدينة للسيد للقمبيطور الذى لم ينس له موقفه العنيد، فنسج مؤامرة دبرها بذكاء ومهارة ونكب ابن جحاف، الذى أصبح بعد موته رمز البطولة والفداء ليس لمسلمى بلنسية فقط بل لكل مسلمى الاندلس، وكان على حد قول مؤرخ السيد القمبيطور المستشرق الاسبانى مننداث بيدال أشد خطرا على القمبيطور مما كان فى حياته، وجاء استشهاده حافزا على اثارة مشاعر المسلمين واستنهاض هممهم ضده[٨٤].

ثانيا : ثورة القاضى محمد بن عباد فى اشبيليه (٤١٤ - ٤٣٣هـ / ١٠٢٣-١٠٤٢م)

هو أبو القاسم محمد بن اسماعيل بن قريش بن عباد بن عمرو بن أسلم ابن عمرو بن عطاف بن نعيم[٨٥]. وجدهم عطاف ينتسب الى قبيلة لخم العربية، وكان يقيم بحمص الشام،[٨٦] وهو الداخل الى الاندلس فى طالعة بلج بن بشر

(٨٣) نفس المصدر، ص ٩٦ - ٩٧.

(84) Pidal : op. cit., p. 518.

(٨٥) ابن بسام: الذخيرة، القسم الثانى، المجلد الأول ، ص١٤، ابن الابار : الحلة السيراء،جـ٢، ص٣٤، ابن حزم : جمهرة انساب العرب، ص٤٢٤، ابن عذارى البيان المغرب، ج٣، ص١٩٤-١٩٥، ابن الخطيب : أعمال الاعلام، ص١٥٢.

(٨٦) ابن بسام : نفس المصدر والقسم والمجلد والصفحة، ابن الابار : الحلة السيراء، جـ٢، ص٣٤، ابن عذارى : نفس المصدر والجزء ، ص١٩٥.

القشيرى عام ١٢٤هـ/٧٤٣م، بعد هزيمة العرب من البربر فى موقعة بقدورة بالمغرب، واضطرار عبد الملك بن قطن والى الاندلس آنذاك–الذى فشل فى مواجهة ثورات بربر الاندلس التى اجتاحت البلاد الى السماح لبلج بن بشر وجنده بالعبور الى الاندلس، فتم له ذلك، وقضوا على ثورات بربر الاندلس، غير أن بلجا وجنده سرعان ما انقلبوا على والى الاندلس، وتحول الصراع الى صراع بين العصبتين العربيتين المضرية واليمنية وقتل كل من عبد الملك بن قطن وبلج بن بشر، وتولى أبو الخطار بن ضرار الكلبى ولاية الاندلس، فعمل على تهدئة جذوة الصراع بين البلديين والشاميين، وقدم على أبعاد جند بلج بن بشر الشاميين عن قرطبة، ووزعهم على كور الاندلس ليقضى على عوامل الاضطراب والفتنة[٨٧].

ويهمنا هنا ما كان من أمر انزال عطاف جد بنى عباد، وهو من أهل حمص بالشام فى كورة اشبيليه، فيستفاد من رواية ابن حيان أنه نزل بقرية يوحين من أقليم طشانه Tocina بكورة اشبيليه Sevilla، وأقام بها، ومن نسله جاء بنو عباد، الذين أقاما بها مدة من الزمان، ثم أقام بعضهم بمدينة أشبيلية[٨٨].

ويبدو أن أسرة بنى عباد قد نعمت فى عهد أبى الوليد اسماعيل بن عباد بنفوذ كبير فى كورة اشبيليه، فيذكر أنه مؤسس مجدهم، لما كان يمتلكه من الضياع والأراضى التى بلغت مساحتها ثلث كورة اشبيليه[٨٩]، فضلا عن أن اسماعيل بن عباد كان حسن المعرفة بقطع الشعر، صالح النظر فى الفقه عالما، كاتبا، حليما، أديبا، حسيبا[٩٠]، مما أهله لكى يحظى بمكانة كبيرة فى ظل الخلافة الاموية بالاندلس، فتقلد بعض الوظائف الهامة فى اشبيلية، لاسيما فى عصر الخليفة الحكم المستنصر بالله وابنه هشام المؤيد بالله، وقد حفظ له الحاجب

---

(٨٧) عن ثورات البربر فى المغرب والاندلس، أنظر :

ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس، ص١٥–١٦ ،مؤلف مجهول : اخبار مجموعة فى فتح الاندلس، تحقيق ابراهيم الابيارى، دار الكتب الاسلامية، القاهرة، ١٩٨١، ص٣٦–٤٠، ٤٢–٤٥، ابن عذارى : البيان المغرب: ط، ص٥٤–٥٦، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين واثارهم فى الاندلس، ص ١٥٣–١٦٣.

(٨٨) ابن بسام : الذخيرة، القسم الثانى، المجلد الأول، ص١٤. ابن عذارى : البيان المغرب، جـ٣، ص١٩٥، ابن الابار : الحالة السيراء، حـ٢، ص٩٥، ابن الخطيب : أعمال الاعلام، ص١٥٢.

(٨٩) ابن عذارى : البيان المغرب، حـ٢، ص١٩٥، النباهى : المرقبة العليا، ص٩٤.

(٩٠) النباهى : المرقبة العليا، ص٩٤.

المنصور محمد بن أبى عامر مكانته، فقربه اليه وجعله من جملة رجاله ووضع ثقته فيه، يدل على ذلك ما ذكره ابن حيان من أن اسماعيل بن عباد كان مشتغلا لهم (أى للعامريين) بالامور العظيمة[٩١]، فولاه الحاجب المنصور محمد بن أبى عامر خطة القضاء فى اشبيلية، وظل فى منصبه حتى تولى حجابة الاندلس المظفر عبد الملك بن عامر فصرفه عن القضاء بايعاز من ابن ذكوان قاضى القضاة وصاحب الصلاة بقرطبة، وعهد بها الى عمر بن الباجى الذى ظل يتولاها، ما يقرب من عام، غير أن هذا الاخير لم يوفق فى خطة القضاء، مما اضطر الحاجب المظفر عبد الملك الى ردها الى اسماعيل بن عباد مرة أخرى[٩٢].

ولما اضطرمت الفتنة فى الاندلس عقب مصرع عبد الرحمن شنجول بن المنصور بن أبى عامر فى آخر جمادى الثانية عام ٣٩٩هـ/١٠٠٩م، وما ترتب على ذلك من انهيار الخلافة الاموية، وتفكك الوحدة السياسية فى الاندلس، وبروز البربر وتدخلهم فى تعيين الخلفاء وعزلهم والتعصب لخليفة ضد آخر، وانتشار الفوضى، واحتدام الصراع بين الحموديين والمروانيين للظفر بالخلافة، كل هذا شجع بعض رؤساء الاندلس وقادتها على اعلان انفصالهم عن السلطة المركزية بقرطبة التى فقدت هيبتها وتراخت قبضتها على كور الاندلس فى ذلك الوقت[٩٣].

فى ظل هذه الأوضاع، استطاع القاضى اسماعيل بن عباد بما امتاز به من دهاء، وما عرف عنه من حزم ومضاء عزيمة أن يستغل ظروف الفتنة التى تمر بها الأندلس لصالحه على أكمل وجه، فقد عمل على الاستحواذ على السلطة فى كورة اشبيلية شيئا فشيئا، مستندا على مكانة أسرته من ناحية وعلو منزلته هو شخصيا، وثرائه العريض من ناحية أخرى، ومكنه ذلك من استمالة كبار الشخصيات فى اشبيليه الى جانبه، فضلا عن أنه أقدم على عمل جليل أسبغ عليه شكل الرياسة بترحيبه بمختلف الجاليات العربية الفارة من قرطبة عند احتدام الفتنة فيها، وايوائهم فى اشبيليه فأغدق عليهم من فيض ثرائه ومن ماله وغلاته، فأقام على خطة القضاء والأمانة باشبيليه[٩٤]، حتى أن ابن حيان المؤرخ المعاصر وصفه بأنه

(٩١) نفس المصدر والصفحة

(٩٢) النباهى : المرقبة العليا، ص٩٤.

(٩٣) محمد أحمد أبو الفضل : تاريخ مدينة المرية الاندلسية فى العصر الاسلامى، الهيئة العامة للكتاب، الاسكندرية، ١٩٨١، ص٨٣-٨٤.

(٩٤) ابن عذارى : البيان المغرب، جـ٣، ص١٩٤.

«رجل الغرب (أي غرب الاندلس) قاطبة، المتصل الرئاسة فى الجماعة والفتنة ... آوى صفوف الجالية من قرطبة عند احتدام الفتنة»[٩٥].

وهكذا مهد القاضى اسماعيل بن عباد لأسرته الاستحواذ على السلطة فى كورة اشبيلية بفضل علمه ودهائه وثرائه وبعد نظره، ولما أيقن من تحقيق هدفه، وكانت قد أثقلته السنون، وكف بصره أو كاد، أسند القضاء إلى ابنه أبى القاسم محمد، واقتصر هو على رياسة اشبيلية وتولى رأى المشيخة[٩٦]، إلى أن توفى عام ٤١٠هـ/١٠١٩م[٩٧].

وكانت اشبيلية تتبع بنى حمود وأميرهم حينئذ القاسم بن حمود[٩٨]، وذلك منذ بويع بالخلافة على بن حمود فى قرطبة فى ٢٣ محرم عام ٤٠٧هـ/١٠١٦م، وتلقب بالناصر لدين الله[٩٩]، غيرأنه حابى حزبه البربرى وفضل البربر على أهل قرطبة فتحول هؤلاء عنه، ثم وثبوا عليه فقتلوه فى غرة ذى القعدة عام ٤٠٨هـ/١٠١٧م[١٠٠]، فخلفه أخوه القاسم بن حمود الذى تلقب بالمأمون. وما لبث القاسم بن حمود هذا أن أسند للقاضى اسماعيل بن عباد رئاسة اشبيليه التى ظل يتولاها الى أن توفى عام ٤١٠هـ كما سبق أن بينا، فخلفه ابنه أبو القاسم محمد بموافقة الخليفة القاسم بن حمود، يقول ابن حيان «وكان القاسم بن حمود قد اصطنعه بعد مهلك أبيه اسماعيل»[١٠١].

غير أن القاضى ابا القاسم بن عباد هذا لم ينعم برئاسة اشبيليه، اذ ما لبثت الامور أن اضطربت فى قرطبة واضطر خليفتها القاسم بن حمود الى الفرار منها على اثر خروج ابن أخيه يحيى بن على بن حمود عليه، فلجأ الى اشبيلية، بينما صفت الامور فى قرطبة لابن أخيه يحيى بن على فبايعه البربر وأهل قرطبة بالخلافة

---

(٩٥) فى، ابن بسام : الذخيرة، القسم الثانى، المجلد الأول، ص١٤-١٥.

(٩٦) ابن الخطيب : أعمال الاعلام، ص١٥٢

(٩٧) ابن بشكول : الصلة، القسم الأول، ص١٠٢، النباهى : المرقبة العليا، ص٩٤.

(٩٨) المقرى : نفح الطيب، المجلد الأول، ص٤٨٤.

(٩٩) ابن عذارى : البيان المغرب، حـ٣، ص١١٩-١٢٠.

(١٠٠) ابن عذارى : نفس المصدر والجزء، ص ١٢٢، ١٨٨، ابن الخطيب : أعمال الاعلام، ص١٥١.

(١٠١) ابن بسام : الذخيرة، القسم الثانى، المجلد الأول، ص١٥.

فى أول جمادى الأول عام ٤١٢هـ/١٠٢١م، وتلقب بالمستعلى[١٠٢]. يقول ابن حزم (خليفتان تصالحا وهو أمر لم يسمع بأذل منه ولا أدل على ادبار الامور-يحيى بن على بن حمود بقرطبة والقاسم بن حمود باشبيلية)[١٠٣]. وفى زحمة هذه الاحداث ضاعت رئاسة اشبيليه من القاضى ابن عباد.

لكن رئاسة اشبيليه ما لبثت أن عادت الى القاضى أبى القاسم محمد بن عباد حين اضطربت الاحوال مرة ثانية فى قرطبة، وخلع البربر يحيى بن حمود فى ذى القعدة عام ٤١٣هـ/١٠٢٢م، واستدعوا عمه القاسم من اشبيلية وجددوا له البيعة وفر يحيى الى مالقة. وعلى الرغم من أن القاسم بن حمود كان قد ترك ابنه محمدا على رئاسة اشبيليه فان القاضى أبا القاسم محمد بن عباد بادر بالتحرك لاستعادة الرئاسة فى المدينة وأزعجه كثيرا تعاقب الحموديين على ملك اشبيليه، فدبر أمره أهل الحل والعقد فى المدينة، واتفق الجميع على التخلص من سيطرة بنى حمود وحلفائهم البربر، واسناد الرئاسة الى القاضى أبى القاسم محمد بن عباد[١٠٤].

ثم ما لبثت الظروف أن خدمت القاضى أبا القاسم محمد بن عباد فى تحقيق هدفه بالثورة فى اشبيلية وطرح طاعة القاسم بن حمود، ذلك أن أهل قرطبة سرعان ما ثاروا على القاسم بن حمود وخلعوه فى ٢١ جمادى الآخرة عام ٤١٤هـ/١٠٢٣م، وحاصروه فى قصره أياما حتى أرغموه هو وحماته البربر على مغادرة ربض قرطبة الغربى، ثم أغلقوا دونه أبواب المدينة على مدى خمسين يوماً، واضطروا فى النهاية الى فتح الأبواب ومقاتلة البربر قتال الموت حتى هزموهم هزيمة شنعاء[١٠٥].

فلما يئس القاسم بن حمود من استعادة قرطبة فر هو وأصحابه تجاه اشبيليه وأرسل الى ابنه الذى كان يقيم بها يطلب إخلاء ألف وخمسمائه دار من دور اشبيلية لوجوه البربر. فلما بلغ ذلك أهل المدينه، عز عليهم، وأجمعوا على تفويض ثلاثة من أعيان المدينة هم : القاضى أبو القاسم محمد بن عباد وأبو عبد الملك

(١٠٢) ابن عذارى : البيان المغرب، حـ٣، ص١٣١.

(١٠٣) فى، ابن عذارى : البيان المغرب، حـ٣، ص١٣٢-١٣٣

(١٠٤) العذرى : ترصيع الاخبار، ص١٠٦، المقرى : نفح الطيب، حـ١، ص٤٣١-٤٣٢.

(١٠٥) ابن عذارى : البيان المغرب، حـ٣، ص١٣٣-١٣٤، المقرى : نفس المصدر والجزء، ص ص٤٣٢.

محمد بن محمد بن الحسن الزبيدى، والوزير أبو محمد عبد الله بن يريم الإلهانى فى حكم المدينة وضبط شئونها، فكانوا يحكمون فى النهار فى القصر، وتنفذ الكتب بأختامهم الثلاثة ومع ذلك فقد كان القاضى ابن عباد بمركزه ووفرة ثرائه، ووجاهته أقواهم سلطانا وأعلاهم يدا، فأجمعوا على اضعاف سلطة البربر فى المدنية وخلع سلطان القاسم بن حمود، واغلاق أبواب مدينتهم فى وجهه هو وجنده البربر، ولما أدركوا عدم مقدرتهم على ذلك تصالحوا معه على مال معلوم يؤدونه اليه، شريطة أن ينصرف عنهم، وعلى أن تكون له الخطبة والدعوة، وأن يقدم عليهم قائدا من قواده يجمعهم ويفصل بينهم فقبل منهم، وقدم عليهم القاضى محمد بن عباد، وكتب له عليهم كتاب الامراء وذلك فى شعبان عام ٤١٤هـ/١٠٢٣م[١٠٦]. وبعد أن تم هذا الاتفاق سارعوا باخراج ابن القاسم ابن حمود محمد والحسين من قصر اشبيليه ومن كان معهما من البربر[١٠٧].

ثم تلاحقت الأحداث فى صالح القاضى ابن عباد وواتته الفرصة للإنفراد بحكم اشبيليه ذلك أن القاسم بن حمود كان قد سار الى شريش (Jerez) واستولى عليها، غير أن ابن أخيه يحيى بن على بن حمود لم يتركه يهنأ بها فزحف اليه فى شريش واستولى على المدينة، وقبض على عمه، وحمله معه مقيدا الى مالقه، كانت هذه هى الفرصة المواتية لأبى القاسم محمد بن عباد لنقض الصلح والانفراد بحكم إشبيليه، فلم يتردد فى انتهازها، فدانت له المدينة وانفرد بحكمها.

ومن الأهمية بمكان هنا أن نشير الى أن الأندلس كان يتنازعها فى ذلك الوقت حزبان أخذا يتطلعان الى بلوغ الزعامة السياسة فيها : الحزب القومى الاندلسى، وكان يتزعمه بنو عباد فى اشبيليه، ويضم الى جانب الأسرات العربية، البربر البلديين والمولدين والصقالبة،وكان هدفه اقامة عصبية أندلسية خالصة. وأما الحزب الآخر فهو الحزب البربرى الذى يتزعمه بنو حمود فى مالقه[١٠٨].

وقد اندرج تحت راية الحزب القومى الاندلسى بنو صمادح فى المرية

---

(١٠٦) ابن عذارى : البيان المغرب، حـ٣، ص٣١٤-٣١٥.

(١٠٧) ابن عذارى : البيان المغرب : حـ٢، ص٣١٤-٣١٥، النباهى : المرقبه العليا، ص٩٤، ابن الابار : الحله حـ٢ص٣٧.

(108) Seco de Lucena (Luis) : Los Hammudies Senores de Malaga Y Algecrias. Malaga. 1955. p. 11.

(Almeria)، وسعيد بن رفيل صاحب شقوره (Segura)، وابن ابى قره صاحب رنده (Ronda)، وابن البرز الى صاحب قرمونه (Carmona)، وابن نوح صاحب مورو (Moron)، وابن خزرون صاحب أركش (Arcos)[١٠٩].

وكان بنو عباد وعلى رأسهم ذو الوزارتين أبو القاسم محمد قد حملوا راية مقاومة الحزب البربرى، وعملوا على توطيد سلطانهم فى اشبيليه، بل تطلعوا الى التوسع لاسيما فى ناحية غرب الاندلس، وفى سبيل تحقيق ذلك عمدوا الى شراء العبيد، وحشد الرجال، واقتناء السلاح، وإلى ممارسة سياسة تقوم على المداراة والخديعة[١١٠].

وقد أتت القاضى أبا القاسم محمد بن عباد الفرصة لتحقيق أطماعه ناحية غرب الاندلس، فانتهز قيام ثورة محلية فى قصبة باجه بين أهلها من العرب والمولديين تنافسا على السلطة فتطلع الى بسط نفوذه عليها، فى الوقت الذى طمع فيها ايضا ابن مسلمة المعروف بابن الافطس صاحب بطليوس (Badajoz)، وأخذ كل واحد منهما يعد عدته للاستيلاء على باجه، فابن عباد استظهر بحليفه أبى عبد الله محمد بن عبد الله صاحب قرمونه فأمده بقوة من الجند انضافت الى قوات اشبيلية بقيادة اسماعيل بن محمد بن عباد وسارت الحملة الى باجه، بينما سارع عبد الله بن الافطس صاحب بطليموس بانفاذ حملة بقيادة ابنه المظفر، وكان أن نجحت هذه الحملة فى أن تضع يدها على قصبة باجه، ولعل سر نجاح حملة ابن الافطس فى ذلك انما يرجع الى قرب باجه من حاضرته بطليوس ولأنها أكثر اتصالا بامارته من امارة ابن عباد، فى الوقت الذى وصلت فيه قوات اشبيليه متأخرة بقيادة اسماعيل بن عباد فاضطر الى مهاجمة المدينة وحاصر بها قوات ابن الافطس، وعاثت خيله ناحية يابره (Evora)، والغرب فأحرقت الزروع وخربت الديار، وبالرغم من نجدة ابن طيفور صاحب ميرتله Mertola للمظفر بن الافطس فانه لقى هزيمة بشعة من قوات ابن عباد، التى مزقت جيشه شر ممزق، وأسرت معظم جنده، وأرسلهم الى اشبيليه، وكان فى جملتهم أخ لابن طيفور صلب بها، كما أسر المظفر بن الافطس نفسه وسيق الى قرمونه حيث اعتقل لدى ابن

(١٠٩) ابن عذارى : البيان المغرب، حـ٣، ص٢١٩-٢٢٠.

(١١٠) ابن عذارى : نفس المصدر والجزء، ص١٩٦. وأنظر أيضا :
Seco de Lucena : op. cit., p. 12.

البرزالى[111]، حتى أطلق سراحه فى ربيع الأول عام ٤٢١هـ/١٠٣٠م، «فنفذ إلى أبيه يومئذ ببطليوس وقد هذبته محنته، وتمت أدواته وقويت حنكته، وكان مرجلا معقلا أديبا عالما، فرجع الى مقاومة ابن عباد»[112].

ويعزو ابن حيان المؤرخ المعاصر : سبب هذه الفتنة الى عبد الله البرزالى صاحب قرمونه، «فيصفه بقطب رحى الفتنة». وأنه كثيرا ما كان يحرض القاضى ابن عباد على الخروج الى امارة ابن الافطس وإلى قرطبة، بغرض «طمس رسم الخلافة من معانهــا بقرطبــة وتصييرها أسوة اشبيليه فى اسنادها الى رئيس من أهلها..، ابطالا للامامة ورسوخا فى الخارجية[113].

ويبدو أن ابن لافطس كان قد عقد العزم على الانتقام من القاضى ابن عباد، والأخذ بثأره منه للهزيمة الشنعاء التى لقيها ولده المظفر على يد قوات ابن عباد واعتقال المظفر فترة لدى البرزالى بقرمونه، ويذكر ابن حيان أن القاضى ابن عباد كان قد عزم فى عام ٤٢٥هـ/١٠٣٣م على ارسال حملة بقيادة ابنه اسماعيل للجهاد فى أرض العدو بجليقية، وأنه اتفق مع ابن الافطس على السماح بمرور الحملة فى أرضه «وابن الافطس مضمر الغدر به»،. فأعد عدته وجمع رجال ثغره وكمن لقوات ابن عباد يترصدها فى ممر ضيق على طريق عودتها، وهجم عليها ومزق جندها، فلم يجد اسماعيل مخرجا الا البادرة بالتسليم، «وكانت حادثة شنيعة بقيت بها عن عداوتها الى آخر وقتها»[114]، وتمكن اسماعيل فى النهاية من الفرار فى فل من جنده الى مدينة أشبونه (Lisbonne)، وتحصن بها فترة.

أما عن علاقة القاضى أبى القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد ببنى حمود فى مالقه فقد كان هؤلاء هم زعماء الحزب البربرى المنافسين له وعلى رأسهم يحيى بن على بن حمود الملقب بالمستعلى الذى أقام فى مالقه بعد فراره من قرطبة، وجعلها مقر ملكه، وبسط سلطانه على معظم قواعد الاندلس الغربية الجنوبية، والذى رأى فى القاضى ابن عباد منافسا خطيرا له، ولهذا رأى القاضى أبو القاسم محمد بن عباد ضرورة تعزيز مركزه لا سيما وهو على رأس الطائفة الاندلسية، واعطائه الصفة الشرعية، فسعى الى تنصيب خليفة الى جواره، يستمد

(١١١) ابن بسام : الذخيرة، القسم الثانى، المجلد الأول، ص ١٩-٢٠.

(١١٢) نفس المصدر والقسم والمجلد، ص٢١.

(١١٣) فى، ابن بسام : نفس المصدر والقسم والمجلد، ص٢٠-٢١١.

(١١٤) ابن عذارى : البيان المغرب، جـ٣، ص٢٠٣.

منه السلطان، فجاء بشخص فقير يشبه هشاما المؤيد يسمى «خلف الحصرى» كان يشتغل فى الحلفاء باحدى قرى اشبيليه وبايعه بالخلافة فى عام ٤٢٧هـ/١٠٣٥م[١١٥]، حجبه عن أعين الناس، وأرسل كتبه فى مبايعة هذا الخليفة الى عدد كبير من ملوك الطوائف منهم بنو المنصوربن أبن عامر أصحاب بلنسيه، وابن جهور صاحب قرطبة، ومجاهد العامرى صاحب دانيه، ولبيب صاحب طرطوشة عام ٤٢٩هـ/١٠٣٧م. ولم يتخلف عن مبايعته من الصقالبة العامريين سوى زهير صاحب المرية الذى رفض أن يعترف به خليفة فى اشبيليه[١١٦]، كذلك شارك باديس بن حبوس صاحب غرناطة زهيرا فى عدم مبايعة هشام المؤيد باشبيليه، وعندما علم الأخير-أى زهير-بعزم القاضى ابن عباد على محاربته واقدامه على ارسال جيش لمعاقبته أسرع بالالتجاء الى باديس بن حبوس وعقد تحالفا معه، وبفضل هذا التحالف اضطر القاضى ابن عباد الى العودة بعسكره الى اشبيلية «ولم يكن بين المعسكرين قتال»[١١٧].

ولاشك أن هذا التصرف من جانب القاضى ابن عباد قد أغضب يحيى بن على بن حمود لاسيما بعد تحالف القاضى ابن عباد مع ابن البرزالى صاحب قرمونه، لذلك سار يحيى بن على بن حمود فى قواته الى قرمونة وانتزعها من يد ابن البرزالى الذى استغاث بالقاضى ابن عباد، فبعث هذا بقوة عسكرية بقيادة ابنه اسماعيل، ودارت المعركة بين الطرفين ولقى فيها يحيى بن على مصرعه، واستردت قرمونه وأعيدت الى صاحبها ابن البرزالى فى المحرم عام ٤٢٧هـ/١٠٣٦م[١١٨].

ولم يلبث القاضى ابن عباد ان كشف عن اطماعه تجاه قرمونة حصن اشبيلية الأمنع، وأدرك أن وجودها بيد ابن البرزالى لا يحقق مآربه وخصوصا بعد أن ظهر طمع بنى حمود فى ضمها الى أملاكهم، ومن ثم تغير القاضى ابن عباد ضد

---

(١١٥) ابن بسام : الذخيرة، القسم الثانى، المجلد الأول، ص١٧-١٨، أن عذارى : البيان النغرب، حـ٣، ١٩٩-٢٠٠-، ابن الخطيب : أعمال الاعلام، ص١٥٤.

(١١٦) ابن عذارى : البيان المغرب، حـ٣، ص١٩٠، ابن الاثير : الكامل، حـ٧، ص٢٩١.

(١١٧) ابن لاثير : الكامل، حـ٧، ص٢٩١، وأنظر أيضا :
Dozy (R) : Historire des musalmans D'Espagne, t.10. Leyde, 1932, p. 17.

(١١٨) ابن عذارى : البيان المغرب، حـ٣، ص١٤٤، وانظر ايضا :
Seco de Lucena : op. cit., pp. 29-30.

حليفه القديم وكشف عن أطماعه، فلم يرع حلفا أو جوارا فى سبيل توسيع أملاكه. فسيرّ ابنه اسماعيل فى قوة من جنده فضلا عمن أجابه من قبائل البربر الى قرمونة فحاصرها، ثم أرسل بعض سراياه فاستولت على أشونة (Osuna) واستجه (Ecija) من أملاك ابن البرزالى، عندئذ استغاث ابن البرزالى بالبربر فأسرع كل من أدريس بن على بن حمود بمالقه وباديس بن حبوس صاحب غرناطة إلى نجدته، ودارت معارك شديدة انتهت بانتصار قوات ابن البرزالى وحليفيه الذين استطاعوا أن يخترقوا أراضى اشبيلية حتى قلعة جابر (Alcala de Guadaire) حصنها من الشرق، وهزيمة قوات ابن عباد، ومقتل قائدهم اسماعيل بن محمد بن عباد واسترداد قرمونه وذلك فى أوائل المحرم عام ٤٣١هـ/أواخرا ١٠٣٩م[١١٩].

وكان لتلك الهزيمة أسوأ الأثر فى نفس القاضى أبى القاسم محمد بن عباد، فأسند الى ولده الثانى عباد تدبير شئون دولته، وقيادة الجيش، فأبدى قوة وحزما، ولبث نحو عامين مضطلعا بمهمته، حتى توفى القاضى أبو القاسم محمد بن عباد فى نهاية جمادى الأول عام ٤٣٣هـ/يناير ١٠٤٢م[١٢٠].

تلك هى شخصية القاضى أبى القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد الثائر باشبيلية ضد سلطان البربر المتمثل فى شخصية القاسم بن حمود الذى بويع بالخلافة فى قرطبة مرتين وتلقب بالمأمون، فخلفه القاضى أبوالقاسم محمد بن عباد على اشبيلية ووطد سلطان بنى عباد فيها، فعلا مركزهم وأصبحوا يمثلون الحزب القومى الاندلسى الذى كان يهدف الى انشاء دولة أندلسية خالصة ضد الوجود البربرى الذى تركز بعد ذلك فى امارة مالقة على يد الحموديين، ولقد سلك القاضى أبو القاسم محمد بن عباد مختلف الطرق لتحقيق أهدافه لا سيما وأنه أتى بشبيه لهشام المؤيد ونصبه خليفة فى اشبيليه وبايعه وحذا حذوه مختلف امارات الأندلس ولم يبايعه الا امارات قليلة، ما صبغ وضع بنى عباد بصبغة شرعية، ولعل هذا يذكرنا بصراع العصبيات، العصبية العربية والعصبية البربرية. على أن هذا الصراع انتهى بانتصار العصبية العربية المتمثلة فى بنى عباد، فنعمت امارة اشبيلية فى ظل هذه الأسرة بمركز متميز بين امارات الاندلس، وكانت لهم الكلمة العليا فى عصر الطوائف الى أن دخلت امارة اشبيلية فى حوزة المرابطين عام ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م.

---

(١١٩) الحميدى : جذوة المقتبس، ص٣٠-٣١.

(١٢٠) ابن بسام : الذخيرة، القسم الثانى، المجلد الأول، ص٢٣، ابن الابار : الحلة السيراء، حـ٢، ص٣٨.

ثالثا : ثورة القاضى حمدين بن محمد فى قرطبة

(٥٣٩-٥٤٠هـ/١١٤٥-١١٤٦م)؟

هو أبو جعفر حمدين بن محمد بن على بن محمد بن عبد العزيز بن حمدين التغلبى، من بيت من أقدم البيوتات العربية، دخل جدهم الاندلس فى طالعة بلج بن بشر عام ١٢٤هـ/٧٤١م ونزل مع جند دمشق فى كورة البيرة (غرناطه)، واستقر فى باغه (Pego) من عملها[١٢١]، ثم تحولت أسرته بعد ذلك للاقامة فى الحاضرة قرطبة، وحظيت فيها بمكانة سامية، فاشتهرت بالعلم والنباهة والفضل والجلالة، وتداولت المناصب الهامة، يذكر ابن بشكوال أن جده عليا كان مشاورا فى الاحكام بقرطبة، ولان له مجلس بالمسجد الجامع بقرطبة يسمع الناس فيه[١٢٢]. وتولى والده أبو عبد الله محمد خطة القضاء بقرطبة، وكان من أهل الفن والعلم[١٢٣]، وبلغ منزلة كبيرة فى عهد الأمير على بن يوسف بن تاشفين المرابطى، حتى أن الأمير كان لا يقطع فى أمر من الأمور الا برأيه، كما أن أخاه أبا القاسم أحمد كان متوليا لاحكام القضاء بقرطبة، وشارك فقهاء الاندلس فى ذلك الوقت فى انكار الكثير من المسائل التى وردت فى كتاب «الاحياء» للامام الغزالى والتى زعموا أنها مخالفة للدين، بل أن أبا القاسم أحمد كان من أشدهم مبالغة فى ذلك حتى أنه قال «بتكفير» من قرأ كتاب «الاحياء» بل اشترك مع فقهاء قرطبة فى رفع الامر الى أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين وأجمعوا على وجوب مطاردة كتاب الاحياء واحراقه فأخذ على بن يوسف برأيهم[١٢٤].

فى هذه البيئة العلمية نشأ وتربى أبو جعفر حمدين، فسمع عن أبيه وعلماء

---

(١٢١) ابن الخطيب : أعمال الاعلام، ص٢٥٢، المقرى : نفح الطيب، حـ١، ص٢٣٧.

(١٢٢) ابن بشكوال : الصلة، القسم الثانى، ص٤٢٠ (ترجمة ٩٠٠).

(١٢٣) نفس المصدر والقسم، ص٥٧٠ (ترجمة ١٢٥٤).

(١٢٤) ابن القطان (أبو الحسن على بن محمد الكتامى) : جزء من كتاب نظم الجمان، تحقيق الدكتور محمود على مكى، المطبعة المهدية، تطوان ١٩٦٤، ص١٤-١٥، ابن عذارى : المصدرالسابق، حـ٤، ص٥٩، السلاوى (أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى) : الاستقصاء لاخبار دول المغرب الاقصى، حـ١، القاهرة، ١٨٩٤، ص١٢٩، ليفى بروفنسال : الاسلام فى المغرب والاندلس، ص٢٥٤-٢٥٣.

الاندلس فى عصره العلوم الدينية، ونال اجازة، فأكسبته أسرته وبيئته العلمية الى جانب المعارف المختلفة، الحكمة والشهامة وحرية إبداء الرأى، وقد برزت هذه الخصال فيما بعد فى سيرته. ففى شعبان عام ٥٢٩هـ/١١٣٤م تولى أبو جعفر حمدين خطة القضاء فى قرطبة عقب استشهاد القاضى أبى عبد الله محمد بن الحاج بخمسة أشهر[١٢٥]، وظل يشغلها حتى صرف عنها عام ٥٣٢هـ، وولى مكانه أبو القاسم أحمد بن رشد نحو عامين، ثم أعفاه أمير المسلمين على بن يوسف من منصبه دون أن يعين خلفا له، ويرجع السبب فى ذلك الى أن العامة فى قرطبة ثاروا ضد المرابطين، واستطالت ايديهم عليهم لضعف قاضى قرطبة آنذاك أبى القاسم أحمد بن رشد مما أضطر ابا جعفر حمدين الى الخروج إلى الثوار، وتمكن بوافر حكمته وشهامته من تسكين ثورتهم ضد المرابطين، غير أن الأمير على بن يوسف لم يعين فى قرطبة خلفا لقاضيها الذى أعفاه سخطا منه على أهلها، فكان من نتيجة ذلك أن تعطلت الأحكام بقرطبة لأكثر من عام[١٢٦]. ثم أذن الامير على ابن يوسف لأهلها أن يختاروا لهم قاضيا، فأجمعوا على اختيار أبى جعفر حمدين، فتولى القضاء للمرة الثانية فى عام ٥٣٦هـ/ ١١٤١م، واستمر فى منصبه حتى عام ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م[١٢٧].

وهكذا تولى أبو جعفر حمدين القضاء فى قرطبة باختيار أهلها، بينما كان على ولايتها من قبل المرابطين يحيى بن غانية منذ عام ٥٣٨هـ/ ١١٤٣م مضافا اليه الاشراف على شئون الاندلس وقيادة جيوش المرابطين به[١٢٨].

غير أن سلطان المرابطين فى الاندلس لم يلبث أن يضعف، بسبب ظهور شأن الموحدين فى المغرب وانتصاراتهم المتلاحقة على المرابطين مما أدى الى انهيار سلطانهم فى المغرب ولا سيما منذ عام ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م، فشجع من جديد على بروز فكرة العصبية الاندلسية التى ساعدت على ظهور روح الثورة فى الاندلس، تلك الروح التى كانت قد خمدت فترة نتيجة للانتصارات الكبرى التى حققها المرابطون فى الاندلس على الجيوش النصرانية من موقعة إقليش (Ucles)

(١٢٥) ابن القطان : نظم الجمان، ص٢١٧، النباهى : المرقبه، ص١٠٣-١٠٤.

(١٢٦) ابن القطان : المصدر السابق، ص٢٣٢، ابن الخطيب : أعمال الاعلام، ص٢٥٣.

(١٢٧) ابن الخطيب : نفس المصدر، ص٢٥٣، النباهى : المرقبة، ص١٠٣.

(128) Gaspar Remiro : Murcia musulmana. p. 160 : Huici Miranda (A) : Historia musulmana de valencia I. III. p. 102.

٥٠١هـ/ ١١٠٧م حتى موقعة إفراغه (Fraga) ٥٢٨هـ/ ١١٢٣م، لكن بريق هذه الانتصارات المرابطية فى نظر أهل الاندلس لم يلبث أن خبا، وحل محله اقتناع أندلسى بأن هذه الانتصارات لم تسفر الا عن سيطرة مرابطية على الاندلس، وجاء ذلك صدمة كبيرة لأهل الاندلس عبروا عنها بمقاومة المرابطين خلال فترات حكمهم وذلك بالثورة تلو الأخرى مثلما حدث فى ثورتى قرطبة عام ٥١٥هـ/ ١١٢١م، ٥٣٤هـ/ ١١٣٩م، الى أن لاحت الفرصة المناسبة للثورة على المرابطين فى منطقة غرب الاندلس عندما قام أبو القاسم أحمد بن الحسن بن قسى بثورته فى منطقة شلب (silves) والتى سرعان ما انتشرت فى ميرتلة (Mertola)ولبله (Niebla)وشملت أعمال غرب الاندلس بأسره، وسمى موالى ابن قسى بطائفة المريدين فى رمضان عام ٥٣٩هـ، وهو نفس العام الذى لاحت فيه بوادر نجاح الموحدين فى القضاء على دولة المرابطين والذى تمثل فى مصرع أميرهم تاشفين بن على فى وهران فى عام ٥٣٩هـ/١١٤٥م[١٢٩].

ولنا أن نتساءل، هل امتدت حقا شرارة هذه الثورة الى قرطبة، وهل كان لابن قسى موالون وأنصار فى قرطبة فجروا ثورتها، أم أن قاضى قرطبة أبا جعفر حمدين كان يتوق لتخليص بلده من سلطان المرابطين، وتحقيق أمل كل أندلسى فى الاستقلال؟

وواقع الأمر أنه كان لابن قسى بعض الموالين له فى ربض قرطبة الشرقى أمثال أبى الحسن بن مؤمن وغيره[١٣٠]، ولعل أخبار ثورة ابن قسى فى غرب الاندلس وانشغال القائد المرابطى يحيى بن غانية بالخروج اليه فى قواته لاخمادها، قد اتاحت الفرصة للقاضى أبى جعفر حمدين للتخلص من غيرهم، والأحداث تؤيد ذلك. فما كاد ابن غانية يغادر قرطبة فى قواته، حتى ثار أبو جعفر حمدين والعامة فى قرطبة على أبى عمر اللمتونى نائب ابن غانية على قرطبة فخلعوه، وطرحوا الولاء للمرابطين، وأقروا القاضى أبا جعفر حمدين رئيسا عليهم [١٣١].

---

(١٢٩) ابن الخطيب : أعمال الاعلام، ص٢٤٨، ص٢٥٠، وعن مصرع تاشفين ابن على، انظر : ابن عذارى (أبو العباس أحمد بن محمد) : البيان المغرب فى أخبار الاندلس والمغرب، القسم الثالث، تحقيق الاستاذ أوبيثى ميراندا وآخرون : تطوان، ١٩٦٠، ص١٦٦-١٧.

(١٣٠) ابن الابار : الحلة السيراء، حـ٢، ص٢٠٦.

(١٣١) ابن الخطيب : أعمال الاعلام، ص٢٥٣، وأنظر أيضا :
Huici Miranda : op. cit., t. III. P. 102.

أما تاريخ قيام أبى جعفر حمدين بثورته فى قرطبة فمختلف فيه، فالمصادر العربية تحدده بيوم ٥ رمضان عام ٥٣٩هـ/ مارس ١١٤٥م[١٣٢]. فى حين تحدده الحوليات الطليطلية Anales Toledanos بتاريخين فى شهر رجب عام ٥٣٩هـ ٢٨ ديسمبر ١١٤٢م الى ٢٦ يناير ١١٤٥م، والخامس من رمضان عام ٥٣٩هـ ماس ١١٤٥م[١٣٣]، وهذا يعنى أن القاضى أبا جعفر حمدين قد بويع مرتين فى قرطبة، المرة الأولى فى شهر رجب ٥٣٩هـ وهو مالم تذكره المصادر العربية، وفيها أقام أبو جعفر حمدين فترة الى أن اتصل بعض اعيان قرطبة بأحمد بن عبد الملك ابن هود الملقب بسيف الدولة والمعروف فى المدونات المسيحية بسفادولا Zafadola وتوسموا فيه خير ممثل للزعامة الاندلسية، فاستدعوه ليتولى إمارة قرطبة، فلبى سيف الدولة دعوتهم، وجاء الى قرطبة، ودخلها بممالأتهم، فبادر القاضى أبو جعفر حمدين الى الفرار من قرطبة ولجأ الى حصن فرنجولش (Hornachuelos) أحد حصون قرطبة واحتمى فيه، غير أن سيف الدولة بن هود لم يلبث طويلا فى قرطبة، فسرعان ما ثار شعبها المتقلب على رياسته واقتحموا قصر قرطبة وقتلوا وزيره ابن شماخ، فلما علم سيف الدولة ابن هود بما جرى فر عنها بعد اثنى عشر يوما من دخولها[١٣٤].

وفى نفس الوقت كان ابن قسى قد سمع بقيام أبى جعفر حمدين بثورته فى قرطبة، فطمع فى ضمها اليه، فأمر أبا الوليد محمد بن عمر بن المنذر ومحمد بن يحيى المعروف بابن القابلة كاتب ابن قسى وصاحبه بالمسير فى قواته الى قرطبة ليحاول دخولها وأرسل الى نفر من أنصاره كأبى الحسن بن مؤمن وغيره ليعملوا على بث دعوته، وترغيب أهلها فى قبول هذه الدعوة تمهيدا لدخول قواته، بيد أن أبا الوليد محمد بن عمر بن المنذر ومحمد بن يحيى ما كادا يقتربان من قرطبة حتى فوجئنا بوجود سيف الدولة بن هود بها وفرار أبى جعفر حمدين، فأيقنا

---

(١٣٢) ابن الخطيب : المصدر السابق، ص٢٥٣.

Los Anales Toledanos, apud. Codera (Francisco).

(133) Decadencia Y desaparicien Almoravides en Espana. 1899. pp. 56. 293-295.

(١٣٤) ابن الخطيب : أعمال الاعلام، ص٢٥٣، وأنظر أيضا :ابن الابار : الحلة، القسم الثانى، ص٢٥١،

Codera : Ibid, pp. 57, 295-297,

Gašpar Remiro : op. cit., pp. 169-170.

بفشل مهمتهما، وعادا أدراجهما الى غرب الاندلس[١٣٥].

أما عن صدى ثورة القاضى أبى جعفر حمدين فى قرطبة ضد ابن غانية والى المرابطين، فيذكر المؤرخون أن ابن غانية ما كاد يسمع بما حدث فى قرطبة حتى عاد من لبله الى اشبيلية، ولكنه اضطر الى الخروج منها ازاء ثورة أهلها والالتجاء هو وقواته الى حصن مرجانه القريب[١٣٦].

أما القاضى أبو جعفر حمدين فلم يكد يعلم بثورة قرطبة ضد سيف الدولة بن هود وفرار هذا منها، حتى عمل مسرعا على العودة الى قرطبة مرة ثانية، فترك جصن فرنجولش ومنه الى قرطبة فى الخامس من رمضان عام ٥٣٩هـ، فبايعه الخاصة والعامة، واستقر بقصر الخلافة وتسمى بأمير المسلمين وناصر الدين فى قول[١٣٧]، وأمير المسلمين المنصور بالله فى قول آخر[١٣٨]. وعمل على اعادة الاستقرار الى قرطبة، فدون الدواوين، وجند الاجناد، كما بعث الى بعض زملائه القضاه الثوار فى بعض قواعد الاندلس الاخرى يطلب منهم الاعتراف برياسته، فاستجاب لدعوته واعترف بها أبو جعفر عبد الرحمن بن جعفر بن ابراهيم المعروف بأبى محمد ابن الحاج اللورقى أياما من شهرى رمضان وشوال عام ٥٣٩هـ/ ١١٤م[١٣٩]. وأبو الحسن على بن عمر بن عمر أضحى الهمدانى فى غرناطة[١٤٠]، وأبو الغمر السائب بن عزون صاحب شريش وأركش[١٤١].

وهكذا اعتلى القاضى أبو جعفر حمدين رياسة قرطبة وظل بها أحد عشر شهرا، ينظم أمورها، ويعمل على توسيع منطقة نفوذه ليس فى قرطبة فحسب بل

---

(١٣٥) ابن الابار : الحلة، حـ٢، ص٢٠٦-٢٠٧.

(١٣٦) نفس المصدر والجزء، ص٢٠٦.

(١٣٧) ابن الخطيب : أعمال الاعلام، ص٢٥٣.

(١٣٨) الضبى : بغى الملتمس، ص٢٧٦ (ترجمة ٦٨٥)، ص٤٢، وهذا ما تؤكده قطع العملة التى عثر عليها ومنقوش عليها «المنصور بالله أمير المسلمين حمدين بن محمد»، راجع :
Antonio Vivesy Escudero : Monedas de las dinastias Arabigo-Espanoles, Madrid, 1893, N, 1906 y 1908.
Codera : op. cit., pp. 57-58, 389-390.

(١٣٩) ابن الابار : الحلة، حـ٢، ص٢٢٧.

(١٤٠) نفس المصدر والجزء، صفحات ٢١١، ٢١٢، ٢١٤

(١٤١) نفس المصدر والجزء، ص٢٤٢، ابن خلدون : العبر، حـ٤، ص٢٣٤.

في بعض قواعد الاندلس الاخرى، فيستفاد من رواية ابن الابار أن أهل مرسية بايعوا أبا جعفر عبد الرحمن بن حعفر بن ابراهيم المعروف بأبي محمد بن الحاج اللورقي، الذي دعا لابي جعفر حمدين أياما من شهري رمضان وشوال عام ٥٣٩هـ، ثم لم يلبث ان تبرم بالامارة ورغب في التخلي عن منصبه بسبب ما تعرض له من المتاعب[١٤٢]. عندئذ بعث ابن حمدين كما يذكر ابن صاحب الصلاة الى مرسية عبد الله الثغرى ليلي أمورها من قبله، فقدم الفقيه أبا جعفر بن أبي جعفر قاضيا وذلك في منتصف شوال عام ٥٣٩هـ فظهر من أبي جعفر حب الظهور والتعلق بالرياسة، وحشد الناس لقتال المرابطين في أوريوله وغدر بهم عند نزولهم على الأمان فقتلهم، وضم أوريوله الى عمله ثم عرض على أهل مرسية ان يقدموه للامارة، وان يقدم للقضاء أبا العباس بن الخلال ولقيادة الخيل عبد الله الثغرى، فوافقوه[١٤٣]. ولما عقدت له البيعة نبذ طاعة ابن حمدين ودعا لنفسه، وتلقب بالأمير الناصر لدين الله[١٤٤].

كما قام القاضي أبو جعفر حمدين باغاثة أبي الحسن بن أضحى في غرناطة ضد قوات المرابطين فأرسل اليه بعض قواته بقيادة ابن أخيه على بن أبي القاسم المعروف بابن أم العماد، ولما علم باستنجاد أهل غناطة بسيف الدولة بن هود وتأييد ابن أضحى لهم، انصرف ابن أم العماد خائبا الى قرطبة[١٤٥].

غير أن فريقا من أهل قرطبة الناقمين على رياسته كتبوا سرا لابن غانية يحرضونه على القدوم عليهم، واستعادة سلطانه على المدينة، فوجد طلبهم لديه استجابة خاصة بعد مقاومة أهل اشبيلية له، ورأى في ذلك فرصة سانحة لمحاولة اعادة سلطان المرابطين على قرطبة، فخرج من اشبيلية في قواته قاصدا قرطبة في جمادى الآخرة ٥٤٠هـ/ ١١٥٤م، ولما علم القاضي أبو جعفر حمدين بذلك خرج في قواته للقائه، فالتقيا بأحواز استجه Ecija جنوبي غربي قرطبه في معركة عنيفة، أسفرت عن هزيمة أبي جعفر حمدين، وفراره الى بطليوس Badajos

---

(١٤٢) ابن الابار : الحلة، حـ٢، ص٢٧٧، ٢٨٨.

(١٤٣) نفس المصدر والجزء، ص٢٢٩.

(١٤٤) نفس المصدر والجزء والصفحة.

(١٤٥) نفس المصدر والجزء، ص٢١٢.

ملتجئا بها فى حماية صاحبها عبد الله بن الصميل(١٤٦). ودخول ابن غانية قرطبة منتصرا فى ١٢ شعبان عام ٥٤٠هـ/ فبراير ١١٤٦م(١٤٧).

والغريب ان المصادر العربية تلتزم الصمت ازاء الاسباب التى دفعت أهل قرطبة للتحول عن القاضى أبى جعفر حمدين، والاستنجاد بابن غانية لاسترداد قرطبة، ولعل ذلك يرجع الى طبيعتهم الثائرة المتقلبة، فقد كان أهل قرطبة معروفين منذ أيام الامارة الأموية بالتقلب والولوع بالفتن والقلاقل، فهم الذين ثاروا على الأمير الأموى الحكم بن هشام فى عامى ١٨٠، ٢٠٢هـ، وهم الذين حركوا الفتنة التى انتهت بزوال رسم الخلافة نهائيا من الاندلس، وهم الذين انقلبوا على بنى جهور وأيدوا المعتمد بن عباد، ثم انقلبوا عليه بعد ذلك، ورحبوا بابن ذى النون ثم اعلنوا من جديد ولاءهم للمعتمد بن عباد، ثم رحبوا بالمرابطين ثم تغيروا، وهللوا برئاسة أبى جعفر حمدين ثم انقلبوا عليه، وكتبوا لابن غانية المرابطى لحكم قرطبة مرة أخرى(١٤٨).

وأياما كان الأمر، فان القاضى أبا جعفر حمدين لم يلبث أن غادر بطليوس، وتوجه فى جمع من انصاره الى حصن أندوجر (Andojar) الواقع شرقى قرطبة وتحصن به، وتمكن فى فترة قصيرة من أن يعيد فرض سلطانه على بعض البلاد المجاورة، عندئذ تحرك ابن غانية فى قواته معتزما قتاله، فحاصره فى أندوجر لمدة شهر، وأيقن أبو جعفر حمدين بخطورة الموقف فلم يتردد فى طلب حماية النصارى، فأرسل الى الفونسو السابع ملك قشتالة يطلب منه المساعدة، ويطمعه فى قرطبة، فلم يتردد فى اجابته، وبعث اليه بقوة قشتالية أسند رياستها الى الدوق فرناندو خوانس Fernando Juanez تمكنت من ارغام ابن غانية على رفع حصاره عن حصن اندوجر، بل والانسحاب صوب قرطبة، وفى اثره قوات قشتالة وبصحبتهم أبو جعفر حمدين فى قواته، فوصلوا الى احواز قرطبة وفرضوا عليها الحصار، فى الوقت الذى قام فيه ابن غانية بتنظيم قواته، ومدافعه القشتاليين فى صبر وجلد، ويبدو أن القوات القشتالية استطاعت اختراق المدينة من شرقها فى العاشر من ذى الحجة عام

---

(١٤٦) ابن الخطيب : أعمال الاعلام، ص٢٥٣.

(١٤٧) نفس المصدر والصفحة، وأنظر أيضا :

Codera : op. cit., p. 59.

(١٤٨) السيد عبد العزيز سالم : قرطبة حضارة الخلافة الاموية، ١٥، ص١٤٦.

٥٤٠هـ/ مايو ١١٤٥م[١٤٩]، بينما تحصن ابن غانية فى غرب المدينة، وقد أحدث دخول القوات القشتالية المدينة قدرا كبيرا من الفوضى، فضلا عما أقدم عليه النصارى من استباحه المسجد الجامع بها، يقول ابن غالب الأندلسى: «ودخلت النصارى هذا الجامع المكرم عند دخولها قرطبة سنة أربعين وخمسمائه عندما هاجت الفتنة الثانية، ثم من الله تعالى بخروجهم بعد تسعة أيام أو نحوها، وحملت التفافيح التى كانت فى المنار من الذهب والفضة، وحمل من المنبر نحو نصفه وبقى الباقى، ونهبت أوصاله وثريات الفضة عند دخولهم»[١٥٠]، يؤيد ذلك ما ذكره المراكشى عن عبثهم فى المسجد الجامع، وربط خيولهم فى أروقته، بل واقامتهم قداسا حافلا، وتناولهم بأيديهم المصحف العثمانى[١٥١].

وفى هذا الوقت كانت قوات الموحدين قد نجحت فى العبور الى الاندلس، واستولت على مدينة اشبيلية، فرأى ألفونسو السابع ملك قشتالة أن يهادن ابن غانية المرابطى وأن يتركه بقرطبة «وينصبه سدا فى وجه القوم»، فعقد معه هدنه، خرج بمقتضاها ابن غانية من القصبة، على ان يسدد له ابن غانية مبلغا سنويا ويتنازل له عن بعض الحصون[١٥٢].

ويهمنا هنا أمر ابى جعفر حمدين الذى يبدو أنه يئس من مناصرة النصارى له، فرجع معهم لكنه خرج الى حصن فرنجولش، وأقام به مدة يراقب الامور فى الاندلس وغزو الموحدين له، فلما أدرك أن سلطانهم سيشمل الاندلس، واتته الفكرة للعبور الى المغرب لمقابلة الخليفة الموحدى عبد المؤمن بن على أسوة بمن سار الى لقائه من زعماء الثورة فى الاندلس، فلقيه وهو على حصار مراكش فى أوائل عام ٥٤١هـ/ ١١٤٦م، فأحسن الخليفة استقباله[١٥٣]، ثم عاد القاضى أبو

---

(١٤٩) ابن الخطيب : أعمال الاعلام، ص٢٥٣-٢٥٤، وأنظر أيضا : Codera:op. cit., p.60.

(١٥٠) ابن غالب الاندلسى (محمد بن أيوب) : نص أندلسى جديد : قطعة من كتاب فرحة الانفس فى تاريخ الأندلس، تحقيق الدكتور لطفى عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ١٩٥٦، ص٣.

(١٥١) المراكشى (عبد الواحد) : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب، نشره الاستاذ محمد سعيد العريان، ومحمد العربى العلمى، القاهرة، ١٩٤٩.

(١٥٢) ابن الخطيب : أعمال الاعلام، ص٢٥٤، وأنظر أيضا : Codera : op, cit., p. 62.

(١٥٣) ابن عذارى : البيان المغرب، القسم الثالث، ص٢٣-٢٥، الزركشى (أبى عبد الله محمد بن ابراهيم) : تاريخ الدولتين الموحدية الحفصية، تحقيق محمد مأضور، تونس، ١٩٦٦، ص٨-٩، ابن الخطيب : أعمال الاعلام، ص٢٥٤.

جعفر حمدين الى الاندلس ونزل بمدينة مالقه فى كنف زميله وحليفه القاضى الحسين بن الحسين بن عبد الله بن الحسين بن حسون الثائر بها، لعله يستطيع أن يجد انصارا حوله لاستعادة مركزه مرة أخرى فى قرطبة بمعاونة الموحدين، ويذكر ابن الخطيب ان عبد المؤمن بن على أعطاه وعدا، لكن القاضى حمدين أخفق فى مسعاه، ربما لأن الموحدين لم يوفوا بما تعهدوا به من مناصرته ومساعدته(١٥٤)، فعاد الى مالقة وحرض قاضيها ابن حسون على مخالفة الموحدين، وأقام بها الى ان توفى فى التاسع عشر من شهر رجب عام ٥٤٦هـ/ نوفمبر ١١٥١م، ودفن بمسجدها الجامع(١٥٥).

ولم ينس الموحدون للقاضى حمدين ما أقدم عليه من مساعدة ابن حسون الثائر بمالقة ضدهم، فبعد أن استولوا عليها، نبشوا لحد القاضى حمدين وصلبوه مع اثنى عشر رجلا من مؤيديه(١٥٦).

وخلاصة القول ان القاضى حمدين بن محمد بن حمدين قد عبر بثورته فى قرطبة عن شعور أهلها المتمثل فى بعث العصبية الاندلسية المناهضة للبربر للتخلص من سلطان المرابطين من ناحية، وعن تطلع ابن حمدين شخصيا للسيطرة، ليس فقط على الحاضرة قرطبة، بل على بعض قواعد الاندلس الاخرى. ومع ان القاضى حمدين نجح فى تحقيق أهدافه من الثورة وفرض سيطرته على بعض الجهات، الا أن الظروف لم تمكنه من الاستمرار، ربما لوجود زعامة اندلسية اخرى متمثلة فى سيف الدولة بن هود الذى اعتبره فريق من الاندلسيين قائدا وزعيما فضلا عن ظهور دولة لموحدين وهى قوة جديدة ناشئة فى المغرب أخذت ترنو ببصرها الى السيطرة على الاندلس. لذلك نلمس فى شخصية القاضى حمدين فى هذه الفترة تغيرا يتسم بالتقلب وغلبة عنصر السيطرة والتفرد، يدلنا على ذلك استخدامه شتى الوسائل لتحقيق بغيته حتى ولو بالتحالف مع نصارى قشتاله أعداء مسلمى الاندلس، وعندما لمس منهم تحولا عنه اتصل بالموحدين فى المغرب لعله يجد عندهم ما فقده عند القشتاليين، لكنه فى النهاية فشل فى كلتا المحاولتين، وانتهت حياته بعيدا عن موطنه وبغيته قرطبة.

---

(١٥٤) ابن الخطيب : أعمال الاعلام، ص٢٥٤.

(١٥٥) نفس المصدر والصفحة، وأنظر أيضا : Codera : op. cit., pp. 62-63.

(١٥٦) النباهى : المرقبه، ص١٠٤، ابن الخطيب : أعمال الاعلام، ص٢٥٤.

ولكن على الرغم من ذلك، كان من أصداء ثورة القاضى حمدين فى قرطبة أن قامت فى نفس الوقت ثورات مماثلة: ففى غرناطة ثار قاضيها أبو الحسن على بن عمر ابن أضحى، وفى مالقه انقلب قاضيها الحسين بن الحسين بن عبد الله ابن الحسين الكلبى بن حسون الى تزعم الثورة بها ضد المرابطين، أما فى غرناطة فقد ثار أحمد بن محمد بن ملحان الطائى، كما ثار القاضى يوسف بن عبد الرحمن ابن جزى فى جيان وفى رنده قام بالثورة فيها أخيل بن أدريس الرندى، وثار ابن عزون فى شريش واركش،و ثار فى ثغر قادس على بن عيسى بن ميمون، وفى بطليوس ثار محمد بن على الحجام.

* * *

كانت هذه صفحات من تاريخ بعض القضاة الثوار فى الاندلس وأمثلة لرجال حاولوا تغيير الاوضاع السياسية والعسكرية فى بعض ربوعها رافعين راية الثورة، متخذين الكفاح المسلح طريقا لتغيير تلك الاوضاع، اقتناعا وايمانا بأن ذلك هو الاسلوب الامثل لتحقيق أهدافهم وتصحيح أوضاع بلادهم التى بدت فى نظرهم سيئة فى فترة عدت من أشد فترات تاريخ الاندلس حرجا وأعظمها تفتتا وانقساما بعد أن ران على تلك البلاد ضعف واضمحلال، وسيطرت على مقدارتها نزعات فردية انفصالية، وطمعت فيها القوى المختلفة من نصرانية واسلامية خارجية، وضربت الفوضى والانحلال بأطنابها فى البلاد.

ولعل أهم ما يتبينه الباحث فى هذه النماذج من ثورات القضاة فى الاندلس أن هؤلاء الثوار القضاة جمعتهم سمات واحدة بارزه وربطت بين ثوراتهم صفات مشتركة على الرغم من اندلاع هذه الثورات فى أماكن مختلفة ما بين بلنسية فى شرق الاندلس واشبيلية فى غرب الاندلس وقرطبة فى وسط الاندلس، ذلك ان هذه الثورات جاءت تعبيرا عن شعور متدفق بالعصبية الاندلسية فى مواجهة التيارات الاخرى، والاتجاهات المناصرة للقوى الخارجية، حتى تبدو لنا كأنها ومضات مضيئة فى سماء الاندلس الحالكة الظلمة فى ذلك الوقت، كما تبدو كمحاولات يائسة لعودة الروح الى العصبية الاندلسية فى بعض جهات الاندلس على الرغم من أن القائمين على تلك الثورات اضطروا أحيانا الى أن يسلكوا طرقا لا تستقيم مع هذا المعنى حين استنجدوا بالقوى المختلفة ومن بينها أحيانا قوى النصارى والقوى الاسلامية فى المغرب، وان أملوا أن يكون موقوتا يستعيدون بعده الزمام، ويهيمنون بعده على اقدار بلادهم، فجاء ذلك نقطة الضعف فى تلك الثورات، اذ لم تستطع

أن تصمد أمام مطامع تلك القوى فضلا عن آمال الاحزاب المناهضة فى بلادهم ذاتها والتى كانت تطمع فى التشبث بمواقعها وتحاول الحفاظ على مكانها من السلطة.

كما يستطيع الباحث أن يرى سمة أخرى مشتركة بين هذه الثورات وبين القضاة الثوار الذين فجروا هذه الثورات، ذلك أنهم جميعا اتخذوا العلم والفقه والورع مدخلا الى قلوب الرعايا وضمانا لحسن نواياهم ورغبتهم فى مستقبل أفضل لبلادهم فكانوا جميعا قضاة عدل وفقهاء مميزين وعلماء متفردين إلتف حولهم الناس وأملوا فيهم الخير وتطلعوا الى حسن قيادتهم، على الرغم من أن بعض هؤلاء القضاء لم يكن همه إلا الوصول الى السلطة والتفرد بها، وفى سبيلها ركب كل صعب ومن أجلها استنصر القاصى والدانى ولجأ الى مختلف الأحزاب والقوى، ولهذا وقعت هذه الثورات فى المحظور ولم تستطع تجنب ما قامت من أجل القضاء عليه، لأنه يبدو أن القضاء وبلوغ مراتب العلم والفقه والزهد لم تكن تكفى لصنع الحاكم الناجح فليست هذه هى كل ما يحتاج اليه الحاكم والقائد، فدون ذلك كثير من الصفات كالحصافة والحكمة والخبرة السياسية الى غير ذلك.

وثمة سمة أخرى مشتركة بين هذه الثورات، ذلك أن عمرها جاء قصيرا فى تاريخ تلك البلاد التى اندلعت فيها فلم تزد فى بعض الاحيان على بضع سنين بما لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة، ولعل السبب فى ذلك هو عدم وضوح الرؤية أمام القائمين على تلك الثورات من القضاة، وعدم وضوح الهدف الذى يمكن ان يتجهوا إليه وسط الانواء والعواصف السياسية التى عصفت بالبلاد حينئذ، ولهذا جاء أمر قيامها غريبا من ناحية، موقوتا بسنوات قليلة من ناحية أخرى إذ تكالبت عليها القوى الأخرى أحيانا بل ناءت فى أحيان تحت وطأة الأوضاع الداخلية فى تلك البلاد ذاتها، ذلك أن بعض هؤلاء القضاة قفزوا الى السلطة دون هدف واضح وهيمنوا على مصائر بلادهم دون خبرة أو إعداد أو أهلية للحكم والقيادة وأن ظنوا حينئذ أن مجرد اعادة تصحيح الأوضاع فى البلاد هو أهم الأهداف، وان كان تصحيحا من وجهة نظرهم هم، وبعض من ناصروهم وأيدوهم فى تلك الثورات، ومع ذلك لم يستطيع كل هذا ان يحفظ عليهم وضوح الرؤية فأفلت الزمام من أيديهم وخرجت الأمور عن مشيئتهم.

ولكن على الرغم من ذلك فإن ثمة نتيجة هامة يمكن أن يستبينها الباحث فى هذه الثورات التى تقدم ذكرها، فضلا عن ثورات أخرى لم يتسع المقام لذكرها

وهى أن بعض هؤلاء القضاة الثوار ترك أثرا عميقا فى البلاد التى رفع فيها راية الثورة والجهاد، ربما لم يكن هذا الأثر محسوسا فى حياة ذلك القاضى الثائر وربما لم يكن واضحا خلال ثورته ولكنه لم يلبث أن ظهر جليا عميقا بعد رحيله أو مقتله أو اغتياله أو غيابه عن مسرح الأحداث، فلا شك أن جهوده وأهدافه وما خرج من أجله ما لبثت أن وضحت أمام الرعايا والناس فتركت اثارها العميقة فى نفوسهم وحفزت هممهم وأثارت حميتهم فى مواجهة الأعداء فغير ذلك كثيرا فى أوضاع البلاد التى شهدت هذه الثورات، ولعل أصدق ما قيل فى ذلك هو قول المستشرق الاسبانى بيدال عن القاضى ابن جحاف الذى أعدمه السيد القمبيطور النصرانى إن هذا القاضى أصبح بعد إعدامه وانتهاء ثورته أشد خطرا على النصارى فى بلنسية مما كان فى حياته وأن استشهاده حفز المسلمين وأثار مشاعرهم واستنهض هممهم للخلاص من النصارى ومن هيمنتهم على اقدار بلنسية.

بقيت سمة أخرى من سمات هذه الثورات قبل أن نطوى الحديث عنها، وهى أن بعض هذه الثورات وإن لم يوفق فى الصمود والبقاء ورفع لواء العصبية الاندلسية فى مواجهة التيارات الأخرى الطارئة الا أنها كانت سببا فى بزوغ هذه النزعات العصبية فى مكان آخر، كما حدث فى ثورة القاضى ابن عباد الثائر باشبيلية، الذى كانت ثورته مقدمة لبروز إمارة مالقة على يد الحموديين ممثلة للحزب البربرى الاندلسى، نائية عن كل تيارات الأحزاب المناوئة غير الاندلسية، فقد أضفنا الى ذلك ان بنى عباد منحو إمارة اشبيلية مكانة ممتازة بين إمارات الاندلس فى عصر الطوائف ادركنا فى يسر وسهولة كيف كان ذلك انتصارا للعصبية البربرية وانتصارا لها على ما عداها ليس فى اشبيلية ذاتها وانما فى غيرها من الجهات، فاحتذت الثورة حذو الثورة الاخرى، ونهج قضاة المدن الصغرى نهج قضاة بلنسية واشبيلية وقرطبة، واندلعت الثورات فى بلاد الاندلس لتصبح سمة بازة من سمات النصف الأول من القرن السادس الهجرى فى تلك البلاد.

البحث الرابـــع

أضواء على العلاقات الحفصية الأرغونية

٦٢٨ - ٦٨٤ هـ / ١٢٣٠ - ١٢٨٥ م



تمهيد :

تعتبر ولاية الشيخ عبد الواحد بن أبي حفص[١] على افريقية تمهيدا لقيام دولة جديدة فى تونس، رغم أن الشيخ عبد الواحد بن أبى حفص لم يكن راغبا فى تلك الولاية لولا إلحاح الخليفة الناصر الموحدى[٢] عليه حتى يقبلها، فقبلها بشروط: أولها، أن يقيم الشيخ عبد الواحد واليا على افريقية ثلاث سنين ريثما تترتب الاحوال وتنقطع اطماع يحيى بن غانية عنها، وثانيها، أن يحكمه الناصر فيمن يبقيه معه من الجند ويرضاه من أهل الكفاية، وثالثها، أن الشيخ عبد الواحد إن فعل فعلا كائنا ما كان لا يسأل عنه ولا يعاقب، ورابعهما، أن لا يتعقب امره فى ولاية ولا عزل[٣]. ولا يستبعد أن يكون الحاح الناصر الموحدى على الشيخ عبد الواحد حتى يقبل ولاية افريقية دون بقية رجال الخلافة الموحدية – إستجابة لشيوخ الموحدين – كان مقصودا به إبعاد اقوى شخصية موحدية – بعد الخليفة – عن حاشية البلاط الموحدى حتى يخلو لها الجو، يؤيد ذلك ما اورده التجانى بقوله: «كأنهم ارادوا بعده عن الخلافة ليجدوا السبيل إلى اغراضهم»[٤].

شرع الشيخ عبد الواحد بن أبي حفص منذ بداية ولايته على افريقية فى ترتيب أمورها وتدبير شؤونها دون أن يظهر عليه ما يدل على رغبة فى الاستقلال أو شق عصا الطاعة فى وجه الخلافة الموحدية حتى وفاته فى غرة المحرم ٦١٨هـ (١٢١١م)، وخلفه ابنه عبد الرحمن ابا زيد الذى بايعه شيوخ الموحدين فى تونس واقسموا له يمين الولاء[٥]. وبعث إلى المستنصر فى مراكش يعلمه بما تم بشأنه فما كان من المستنصر إلا أن بعث بعزله عن الولاية بعد ثلاثة أشهر من توليها[٦]، وطلب منه القدوم إلى مراكش مع إخوانه، وعين بدلا منه أبا العلاء إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن الذى ظل على ولاية افريقية حتى وفاته فى شهر شعبان عام ٦٢٠هـ (١٢٢٣م)[٧]. فعين المستنصر بدلا منه ابا يحيى بن أبى عمران إلا أن المستنصر قتل قبل أن يصل الوالى الجديد إلى إفريقية، فتولى الخلافة بعده عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن المشهور بلقب المخلوع فأبطل ولاية ابن أبى عمران على افريقية وأبقى ابا زيد عبد الرحمن بن أبي العلاء ادريس عليها، فأساء السيرة فى الرعية «وبسط يده فى الناس بمكروهه، وتنكرت له الوجوه، وانحرف عنه الناس[٨]»، واشرفت افريقية على موجه من الاضطرابات زادها تفاقم الاوضاع الداخلية فى الخلافة الموحدية مما كان له ابلغ الاثر على اوضاع افريقية مستقبلا، من ثوة والى مرسيه أبى عبد الله محمد وإعلان نفسه خليفة وتلقبه بالعادل[٩]،

واقتحام جماعة من الموحدين بلاط الخليفة أبى محمد عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن وأرغموه على خلع نفسه عن الخلافة ومبايعة العادل فى شهر شعبان عام ٦٢١هـ (١٢٢٤م)[١٠]. ولم يكن الخليفة العادل بأحسن حظا من سلفه المخلوع إذ كانت نهايته على أبشع صورة، فقد خرج عليه أخوه ابو العلاء ادريس فى الاندلس مثلما فعل هو من قبل، واقتحم البلاد الموحدية وقتل الخليفة العادل وتلقب بلقب الخليفة المأمون فى شوال عام ٦٢٤هـ (١٢٢٦م)[١١].

انعكست هذه الاحداث على ولاية افريقية خاصة فى تعيين الولاه بها، فقد أقر الخليفة العادل تعيين أبى محمد عبد الله بن عبد الواحد بن أبى حفص المشهور بعبد الله عبو دون مشورة أهل الحل والعقد. وكان أول ما فعله الوالى الجديد ان بعث إلى ابن عمه موسى بن ابراهيم الحفصى بأن يتولى عنه تدبير شؤون افريقية ريثما يرتب هو شؤونه مع البلاط الموحدى ويقدم الى افريقية[١٢] وفعلا قدمها بعد ثمانية اشهر فى السابع والعشرين من ذى القعدة عام ٦٢٣هـ (١٢٢٥م) وكان فى استقباله أخوه ابو زكريا يحيى وبرفقته مختلف طبقات الناس، وتم التقاؤهم به فى مدينة سطيف[١٣]، ومنها توجهوا إلى تونس، وفيها قام عبد الله عبو بتعيين اخيه أبى زكريا على قابس وما والاها، وتعيين اخيه الآخر اسحاق على الواحات الغربية من بلاد الجريد.

غير أن الاوضاع ما لبث أن تغيرت فى جوف الخلافة الموحدية ذاتها وظهر ثائر جديد هو ابو العلاء ادريس بن يعقوب بن يوسف عبد المؤمن بن على الذى شق عصا الطاعة على اخيه العادل وهو بالاندلس وتلقب بلقب المأمون عام ٦٢٤ هـ(١٢٢٦م) وارسل يطلب من ولاته فى الامصار والاقاليم أن يبايعوه، ومنهم عبد الله عبو فامتنع هذا عن مبايعته لان الخليفة المقتول كان ولى نعمته، فبعث الخليفة المأمون إلى أبى زكريا وإلى قابس يطلب منه المبايعة مقابل توليته على افريقية كلها، فقبل ابو زكريا يحيى وبايع الخليفة الجديد وبالتالى ناصب اخاه عبد الله عبو العداء[١٤]. وكان من الطبيعى أن يحدث صدام بين الاخويين، إذ سار ابو زكريا يحيى إلى مدينة تونس والتف حوله عامة الناس وأعيانهم بينما انفضوا من حول أخيه عبد الله عبو فى القيروان وعاتبوه على مجابهة أخيه وعزلوه من ولاية افريقية، وبعثوا إلى أبى زكريا يعلمونه بذلك، فوصل إلى القيروان ودخلها فى الرابع والعشرين من رجب عام ٦٢٥هـ (١٢٢٧م)[١٥]، وأصبح ابو زكريا يحيى صاحب افريقية كلها.

لكن أبا زكريا لم يكن يرضى بمنصب الوالى التابع للخلافة الموحدية فقد كانت له آمال ومطامح فى بناء دولة حفصية مستقلة، وساعدته الظروف فى تحقيق مآربه فانتحل الاسباب للانفصال عن الخلافة الموحدية فى مراكش، ويفهم مما أورده العلامة ابن خلدون ان ابا زكريا يحيى استاء مما قام به المأمون الموحدى من قتل الموحدين بمراكش وخاصة من هنتاته وتينملل ومن بينهم أخوا المأمون أبو محمد عبد الله المخلوع وابراهيم.، ومن طعن لعصمة المهدى، وتغيير لرسوم الدعوة الموحدية[١٦]. واقتصر ابو زكريا يحيى على الدعاء للمهدى والخلفاء الراشدين «وكان ذلك أول درجة فى الاستبداد»[١٧].

وهكذا أعلن أبو زكريا يحيى الحفصى إنفصاله عن الخلافة الموحدية، وهم باسترجاع حدود افريقية إلى ما كانت عليه فى عهد الدولة الصنهاجية الموحدة، فحاصر قسنطينة مدة حتى استسلمت له وقبض على واليها الموحدى ابن أبى عبد الله بن يعقوب المنصور، ثم اتجه إلى بجاية وقبض على واليها الموحدى أبى عمران شقيق والى قسنطينه السابق[١٨]، واصطحب حفيدى يعقوب المنصور معه إلى تونس واسكنهما دارين جليلين بها وجعل لكل واحد منهما راتبا بالف دينار ذهبا[١٩]. وهذا السلوك ليس بمستغرب من أبى زكريا يحيى فى بداية تأسيس دولته فقد كان يعمل على «استجلاب محبة الناس بالمعاملة المشكورة والاحسان»[٢٠].

استقرت الأمور فى الدولة الحفصية على عهد الامير أبى زكريا يحيى الحفصى لاسيما بعد أن خمدت نهائيا حركة الثائر يحيى بن غانية بوفاته شريدا فى بلاد الزاب عام ٦٣١هـ (١٢٣٣م)[٢١]، وأصبح الامير ابو زكريا يحيى متوليا على افريقية دون منازع. وفى عهده امتدت دولته من مدينة الجزائر غربا إلى ما وراء طرابلس شرقا. كما أصبح محط الانظار وعقد الآمال من الرؤساء المتنافسين المتنازعين فى كل من المغرب والاندلس، فبعثوا اليه بالبيعة والتبعية[٢٢]، وطلبوا منه المعونه والنجدة ضد أعداء من الداخل والخارج على السواء.

هذا الوضع المتميز الجديد الذى عاشته الدولة الحفصية فى تونس واحتلالها هذه المكانة السياسية جعلنا نفكر فى دراسة جانب هام من جوانب علاقاتها السياسية مع القوى الاخرى. واخترنا فى هذه الصفحات مملكة أراغون لنتتبع مراحل العلاقات السياسية الحفصية مع هذه المملكة فى فترات زمنية مختلفة بغرض الوقوف على شكل هذه العلاقات السياسية وتقويمها سواء كانت علاقات سلمية أو حربية والدوافع التى حدت بالدولتين إلى إيثار التقارب حينا والتباعد احيانا أخرى.

*** العلاقات السياسية بين الدولتين فيما بين عامي ٦٢٨ - ٦٤٨هـ/ ١٢٣٠-١٢٥٠م.**

كان لقيام الدولة الحفصية كقوة ناشئة فى افريقية عقب اضمحلال دولة الموحدين بعد هزيمتهم فى موقعة العقاب ٦٠٩هـ (١٢١٢م) وانهيار نفوذهم فى المغرب من جهة، ونشاط حركة الاسترداد المسيحى الاسبانى(Reconquista) فى الاندلس لا سيما الارغونى فى شرق الاندلس والجزائر الشرقية (البليار) من جهة أخرى، عظيم الاثر فى تحديد شكل العلاقات السياسية بين السلطنه الحفصية ومملكة أراغون فى المجال السياسى.

فمنذ عام ٦٢٧هـ (١٢٢٩م) اتسمت العلاقات السياسية بين الدولتين بسمة عدائية لتزايد حركة الاسترداد المسيحى الأرغونى ضد دولة الاسلام فى الجزائر الشرقية وشرق الأندلس، ومحاولات السلطان الحفصى تقديم النجدة للمسلمين بها. ففى عام ٦٣١هـ (١٢٣٢م) أقدم السلطان الحفصى على الاستيلاء على بعض سفن جنويه وبيزيه فى موانيه بغرض الخروج لنجدة ميورقة كبرى الجزائر الشرقية من العدوان الارغونى عليها[٢٣]، وكان خايمه الاول ملك اراغون قد نجح فى فتح الجزيرة واستولى على حاضرتها «بالمة» فى ١٣ صفر ٦٢٧هـ (٣١ ديسمبر ١٢٢٩م)[٢٤]، غير أن جماعات من المسلمين بقيادة أبى حفص بن سيرى لم يستسلموا للامر الواقع ومثلوا مقاومة شعبية اسلامية، وخرجوا مع قائدهم إلى الجبل يتحيون الفرصة للهجوم على القوات الأرغونية وتبعتهم اعداد قدرت بستة عشر ألف مقاتل تعاهدوا على المقاومة حتى النهاية، وواتتهم الفرصة عندما غادر خايمه الاول الجزيرة فى نهاية شهر ذى الحجة ٦٢٧هـ/ اكتوبر ١٢٢٣م وترك نائبا عنه فيها يدعى الكونت برناردو، وعندئذ هبط أبو حفص بن سيرى على رأس قواته الاسلامية من الجبل وحاصر حاضرة الجزيرة فتحرج مركز الحامية الارغونية فيها مما اضطر الكونت برناردو إلى الاستنجاد بمليكه[٢٥] واستجاب خايمه الاول على الفور وأعد حملة بحرية جديدة لهذا الغرض خاصة وقد وصلته أنباء من التاجر القطلانى رامون دى بليجامانز بأن السلطان الحفصى يعد حملة كبيرة لاستعادة جزيرة ميورقة من أيدى الارغونيين[٢٦]. وعلى الرغم من أن المصادر الاسلامية صمتت عند ذكر هذه الحادثة إلا أننا لا نستبعد أن يكون أبو حفص بن سيرى قائد المقاومة الاسلامية فى جزيرة ميورقة قد طلب العون من السلطان الحفصى باعتباره أقوى شخصية إسلامية فى الغرب الاسلامى، وأن السلطان هب

لنجدته فأعد حملة بحرية لتخليص الجزيرة كان من بين سفنها سفن بيزيه وجنويه، ويؤكد ذلك الأخبار التى تلقاها خايمة الأول من رامون بليجامانز عن استعداد السلطان الحفصى للخروج لنجدة مسلمى ميورقة، فأسرع خايمة الاول بالخروج على رأس حملة بحرية لفك الحصار عن قواته حاضرة الجزيرة فى شهر صفر ٦٢٨هـ (يناير ١٢٣١م) رغم صعوبة الملاحة البحرية فى هذا الوقت من السنة. ونجح خايمة الاول فى فك الحصار والقضاء على المقاومة الاسلامية واستشهد عدد كبير من المسلمين من بينهم القائد أبو حفص بن سيرى فى العاشر من ربيع الآخر ٦٢٨هـ (١٣ فبراير ١٢٣١م)[٢٧]، ولم يبق غير نحو ألفى رجل اعتصموا بذرى الجبال. وقضى هذا النجاح الارغونى فى الاستيلاء على الجزيرة تماما على آمال الحفصيين فى انجادها واخراجها من محنتها، فقد قرر خايمة الأول العودة إلى مملكته فى شهر صفر ٦٢٨هـ (مايو ١٢٣١م) بعد أن أطمأن إلى هدوء الاحوال فى الجزيرة وبعد أن عين نائبا جديداً ينوب عنه فى جزيرة ميورقة هو الأمير بدرو البرتغالى ابن عمة والده[٢٨].

وعلى الرغم من أن المحاولات التى بذلها السلطان الحفصى لنجدة مسلمى جزيرة ميورقة لم يكتب لها النجاح إلا أنها أسفرت عن مواجهة عدائية بينه وبين العاهل الارغونى، الذى حاول تلافى هذا العداء حرصا على المصالح التجارية الارغونية فى افريقية. ولهذا ففى عام ٦٣٣هـ (١٢٣٥م) عهد خايمة الأول إلى أحد ضباطه المقربين وممثله فى مدينة برشلونه – ماريمون بلجامانس Marimon de plegamans بالذهاب إلى تونس فى مهمة لإزالة الجفوة بين الدولتين وإحلال السلام[٢٩]، لا سيما وأن جمهوريات بيزة وجنوه والبندقية كانت قد استغلت توتر العلاقات الحفصية الارغونية وعقدت معاهدات مع السلطان الحفصى بين سنوات ٦٣٠ – ٦٣٤هـ – ١٢٣٦م[٣٠]. لذلك استهدف العاهل الأرغونى الحفاظ على مكانة بلاده بالقرب من الايطاليين والبروفنسيين فى افريقية حرصا على المصالح التجارية.

غير أن مهمة ماريمون بلجامانس لم تكن كافية لإزالة الجفوة وإحلال السلام بين الدولتين، إذ سرعان ما توترت العلاقات السياسية بين الدولة الحفصية ومملكة أراغون عندما أقدم خايمة الاول على محاصرة بلنسية الاسلامية على اثر استجابة الامير الحفصى ابو زكريا لاستغاثة واليها، ففى سنة ٦٣٥هـ (١٢٣٨م) بعث الرئيس ابو جميل زيان والى بلنسية إلى الامير الحفصى أبو زكريا سفارة برئاسة

وزيره وكاتبه الشاعر المؤرخ أبى عبد الله محمد بن الله بن أبى بكر الابار القضاعى يحمل إلى اميرها بيعته وبيعة أهل بلنسية، ويطلب منه مساندته ضد التحالف القطلانى الارغونى، ولما وصل ابن الأبار إلى تونس مثل بين يدى اميرها أبى زكريا الحفصى فى حفل مشهود وألقى قصيدته السينية الرائعة[٣١]، التى ذاعت شهرتها فى التاريخ والتى يستصرخه فيها ويتوسل إليه أن ينصر الاندلس والمسلمين، فكان لها أبلغ الاثر فى نفس الامير الحفصى الذى بادر على الفور بتجهيز أسطول مكون من ثمانى عشرة سفينة من بينها اثنى عشر جاليرى شحنة بالسلاح والمؤن والاموال، بما تقدر قيمته بمائة ألف دينار، وعهد بقيادته إلى ابى يحيى بن الشهيد بن اسحق ابن أبى حص[٣٢]. غادر الاسطول إفريقية وظهر فى مياه بلنسيه ووصل إلى خليج جراو، لكن الارغونيين كانوا يحتلون المنطقة الممتدة ما بين الخليج والمدينة ولهذا لم يتيسر لرجال الاسطول الوصول إلى المدينة، كما أن أهل المدينة لم يتمكنوا من الاتصال بهم، فاضطر قائد الاسطول الحفصى إلى التوجه ناحية الشمال حتى ثغر بنشكله، لكن هذه المحاولة باءت ايضا بالفشل لظهور السفن الارغونية بقيادة فرنان بيرس دى بنيا Fernan Perez de Piña، ولهذا اتجه الاسطول التونسى جنوبا واضطر إلى إفراغ شحنته فى ثغر دانية بعيدا عن ثغر بلنسية المحاصر، ثم اقلع الاسطول عائدا إلى افريقية يحمل الأموال التى كان قد أرسلها الامير الحفصى إلى أهل بلنسية لعدم حضور أحد من قبل الأمير زيان لتسلمها[٣٣]. وعندما تأكد الارغونيون من عجز الأسطول الحفصى عن مساعدة أهل بلنسية وتأكدوا ايضا من عودته من حيث آتى، أخذوا فى التضييق على أهل المدينة حتى سلمت صلحا فى صفر ٦٣٦هـ (٢٨ سبتمبر ١٢٣٨م)[٣٤].

أدى فشل العاهل الحفصى فى نجدة مدينة بلنسية إلى ظهوره اكثر تحفظاً وميلا إلى السلام، مدركا مصلحة بلاده الاقتصادية وتجارتها مع القطلان فاختار طريق السلام للابقاء على العلاقات التجارية بين البلدين، ولقى هذا الاتجاه الرضى من الجانب الأرغونى مما سهل إلى حد ما عودة الصلات السياسية بينهما، اذ قام رجل أعمال قطلانى يدعى Ferrer de Niña بنقل بعض الأموال إلى تونس عام ٦٣٧هـ (١٢٣٩م)، وأصبح واحدا من صناع المفاوضات التى جرت بين البلدين فيما بين عامى ٦٣٨ - ٦٣٩هـ/ ١٢٤٠ - ١٢٤١م[٣٥]. كما وصلت إلى تونس سفارة أرغونية برئاسة كونت أمبورياش ليؤكد نية دولته فى إحلال سلام حقيقى بين الدولتين، وقد مهد لذلك بأن طلب من البابا إنوسنت الرابع

باسم الملك الأرغونى - حين كان يجرى فى فرنسا تجهيز حملة صليبية ضد مصر - طلب عدم تهديد هذه الحملة للدولة الحفصية فى تونس(٣٦).

وإن صحت هذه الرواية تكون مبادرة طيبة من العاهل الأرغونى، لاثبات حسن نيته فى احلال السلام مع الحفصيين، رغم ما يقال من أن البابا انوسنت الرابع رفض الاستجابة لهذا الطلب الذى بدا غريبا من ملك مسيحى(٣٧)، إلا أن الملك الارغونى ظهر حريصا على أمن إفريقية ضد مطامع الصليبيين الذين كانوا يحلمون بغزوها، ولهذا فقد فكر جديا فى تعزيز تأثيره الدبلوماسى فى تونس لاقرار السلام وتسهيل المعاملات التجارية.

*** العلاقات السياسية بين الدولتين فيما بين سنتى ٦٤٨ - ٦٧٥هـ/ ١٢٥٠-١٢٧٦م:**

تميزت هذه الفترة بجهود قطلانية متعددة تجاه افريقية، كنتيجة لما ساد بين الدولتين الحفصية والأرغونية من وئام، من منطلق الحفاظ على الصداقة والسلم، فوجدت هيئات قطلانية فى إفريقية. ففى عام ٦٥١هـ (١٢٥٣م) أقيم فندق وقنصلية قطلانية فى تونس(٣٨). كما وجدت فرقة عسكرية قطلانية فى إفريقية منذ عام ٦٥٤هـ (١٢٥٦م) تحت قيادة نبيل قطلانى الفارس جيوم دى مونكادا بموافقة العاهل الارغونى خايمه الأول لخدمة العاهل الحفصى(٣٩). أما عن الاسباب التى دفعت أبا عبد الله المستنصر لاستخدام هذه الفرقة المسيحية الأرغونية، فربما يرجع إلى تقليده لما كان يجرى فى بلاط الخلافة الموحدية فى مراكش(٤٠)، أو لعل الاوضاع الداخلية المعقدة التى كان عليها مجتمع إمارته فور توليه الامارة: وجود شخصيات موحدية وأندلسية وافدة فضلا على العلوج النصارى الذين جلبهم والده وألحقهم بجيشه وبلاطه(٤١)، لم يكن يجمع بينهما فى كثير من الاحيان هدف مشترك بل كانت اشتاتا متناثرة الاهواء والمطامع، فالموحدون كانوا يشعرون بضيق وضعف أمام أولئك الوافدين الاندلسيين، كما يشعر الوافدون الاندلسيون بضرورة زحزحة الموحدين عن مناصب القوة والسيطرة، وهكذا بدأت تظهر المتناقضات منذ الاشهر الاولى من تولية المستنصر بالله الامارة يؤيد ذلك ما ذكره العلامة ابن خلدون ان المستنصر الحفصى استوزر فى بداية إمارته أبا عبد الله بن محمد بن أبى مهدى الهنتاتى الذى كان له طموح، وذلك أن الامير الشاب الذى لم يتجاوز عمره العشرين كان يخضع فى سياسته وإدارته لسيطرة شخصيات أندلسية وافدة وبعض العلوج النصارى الذين زاحموا الوافدين الموحدين فى مراكزهم فى

الدولة[٤٢]، فعمل الوزير ابن ابى مهدى على إقصائهم بل عمل على زحزحة المستنصر نفسة عن إمارة افريقية[٤٣]، والاتفاق سرا مع أعمام المستنصر ابراهيم اسحاق وأبى عبد الله اللحيانى لكن مساعيه انتهت بالفشل، ونرى أن ما ذكره ابن خلدون يتمشى مع سير الاحداث فى بداية عهد المستنصر فقد واجه هذا الحاكم قلاقل ومؤامرات تنذر بزوال ملكه، لذلك اقدم على استغلال التقارب مع ارغونة وطلب من العاهل الارغونى إمداده بفرقة مسيحية ارغونية كحرس خاص له ويتحمل نفقاتها، فاستجاب العاهل الأرغونى لطلبه وأمر الفارس جيوم دى مونكادا بتكوين الفرقة والالتحاق بخدمة السلطان الحفصى، ولا شك أن العاهل الأرغونى كان يرمى – عند استجابته لهذا الطلب – إلى تحقيق غرضين فى وقت واحد: أولهما وجود نفوذ أرغونى غير رسمى فى بلاط الأمير الحفصى، وثانيهما، الاستفادة المادية التى يجنيها بحصوله على نسبة مئوية من رواتب الفرقة المسيحية الأرغونية[٤٤].

تجلت ايضا مظاهر المحافظة على السلم بين الدولتين عندما تعرض الساحل التونسى عام ٦٥٥هـ (١٢٥٧م) لهجوم سفن قرصنة طركونية معكرة لصفو السلام[٤٥]، إذ بادر العاهل الحفصى بارسال رسول من قبله إلى برشلونه لهذا الغرض[٤٦]، وكان رد فعل العاهل الأرغونى أن عهد إلى أحد معاونيه ويدعى برنجير دى فيش Berengeur de vich بمقابلة رئيس اساقفه طركونه وابلاغه عتاب الملك، لأنه سمح بتسليح سفن القرصنة التى هاجمت الساحل التونسى مخالفا لشروط السلام بين الدولتين[٤٧]. ولم يكتف العاهل الارغونى بذلك بل ارسل فى العام التالى ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) أرنو ايمرتش Arnau Aymerich سفيرا من قبله للدولة الحفصية مرتين لمحاولة إزالة أثر هذا العدوان[٤٨]، بل وبعث سكرتيره جيوم دى مونتجتش Jaume de Montjuch مبعوثاً شخصيا من قبله للعاهل الحفصى ومعه هدايا متنوعة: صقور وخيول وبغال وزينات للخوذات ، وأغطية للدواب ومربى للصقور[٤٩].

ومما لاشك فيه أن هذه السفارات المتبادلة سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) كانت تحاول تأكيد السلام والوصول إلى اتفاق يتعلق بالهيئات الارغونية الموجودة فى الدولة الحفصية، ومن الممكن استنتاج ما اتفق عليه بين الجانبين فى ضوء وثيقة مؤرخة فى اغسطس ١٢٥٧م (٦٥٥هـ) تلقى الضوء على نوعية التقارير السياسية العامة، ويستنتج أن العاهل الارغونى كان يملك سلطة كبيرة على رعاياه المقيمين

فى الاراضى الحفصية بالنسبة لرعاياه القاطنين فى ممالكه وكونتياته(٥٠)، وإذا أضفنا إلى ذلك أنه خلال هذه الفترة رحل أسقف كنيسية جيرونا ويدعى برنجير ايمرتش Beregeur Aymerich إلى تونس لإقامة الشعائر الدينية المسيحية فى القنصلية القطلانية بتونس، فضلا عن وجود عشرات من الجند المرتزقة من رعايا مملكة ارغوان(٥١)، فاننا نستنتج ايضا كفالة مزوالة الشعائر الدينية للمسيحيين فى سلطنة الحفصيين، فضلا عن أن الفرقة المسيحية القطلانية التى تخدم العاهل الحفصى كانت ضمن بنود هذا الاتفاق بين الدولة الحفصية والمملكة الارغونية.

ولقد ساعد على زيادة التقارب بين الدولتين، ما كان من أمر أخى المستنصر الحفصى ويدعى أبى اسحاق ابراهيم الذى كان كثيرا ما يشكو من سوء خلق أخيه المستنصر وسوء تصرفاته بصوت مسموع(٥٢)، مما جعل المستنصر يخشى جانبه، لهذا أمر بمراقبته مراقبة شديدة وتسجيل تصرفاته وحركاته لمدة عامين(٥٣). ولم يطق أبو اسحاق ابراهيم صبرا على ذلك، ففى عام ٦٥١هـ/ ١٢٥٣م فر أبو اسحاق لينزل أول الأمر عند الذواوده من قبيله رياح وتمكن بمساعدتهم الاستيلاء على مدينتى بسكره وقابس واجتمعت اليه الاعراب من كل مكان، فما كان من السلطان المستنصر إلا ان قبض على ابناء اخيه فى تونس وحبسهم فى سجن القصبة وشدد عليهم الحراسة(٥٤). ثم لجأ المستنصر إلى المكيدة وإعمال الحيلة واستطاع أن يوقع بين أبى اسحاق ابراهيم وبعض مناصريه، مما أدى إلى ضعف مركز ابى اسحاق فلم يستطع الصمود بمفرده، فانسحب إلى المغرب الاقصى، ومنه عبر مضيق الزقاق إلى مملكة غرناطة بالاندلس سنة ٦٥٣هـ (١٢٥٥م)، وأقام عند أميرها محمد بن الاحمر الذى اكرم وفادته «.... ورعى له عهد أبيه أبى زكريا وأسنى له الجراية»(٥٥)، واشترك أبو اسحاق مع ابن الاحمر فى نضاله مع القوى النصرانية فى الشمال الاسبانى وأبلى بلاء حسنا(٥٦).

إزاء هذا الوضع، خشى المستنصر الحفصى أن يتحالف أخوه مع ابن الاحمر فى غزو إفريقية، فاتبع المستنصر سياسة المسالمة والمهاداة مع ابن الاحمر، يقول صاحب الفارسية أنه «كان يوجه الهدايا الضخمة لابن الاحمر ويبعث الاموال الكثيرة ليمسك ابن الاحمر عنه أخاه، ويرسل المستنصر الارسال من كبار الموحدين وأعيان الطلبة فى السفارة عنه لابن الاحمر وفى طى ذلك الاطلاع على أحوال أخيه»(٥٧). ولما لم يستطيع أبو اسحاق ابراهيم حمل ابن الاحمر على تحقيق مآربه فى افريقية رحل إلى أرغون وبدأ فى طلب العون من العاهل الأرغونى، وكان

رد الفعل عند المستنصر الحفصى أن أرسل إلى العاهل الارغونى هدايا قيمة من بينها نقودا عينية[٥٨]، وتزايد النشاط الدبلوماسى بين الدولة الحفصية ومملكة اراغون بهدف تجميد نشاط أبى اسحق لاسيما وقد حضر إلى البلاط الارغونى وفد تونس بصحبة القطلانى بيرتران دى كاستيليت Bertran De Casteler لهذا الغرض، ولمتابعة تحقيق اتفاقيات ٦٥٤/ ٦٥٥هـ (١٢٥٦/ ١٢٥٧م) مع تقديم هدايا للعاهل الأرغونى[٥٩].

وفى إطار المحافظة على السلم بين الدولتين، وقف العاهل الأرغونى موقفا مناصراً للحفصيين ومعارضا لأى عدوان خارجى عليهم يتمثل ذلك فى موقفه من ألفونسو العاشر ملك قشتاله الذى كان يزمع تجهيز حملة صليبية ضد المغرب، وطلب من خايمه الأول أن يعطى أمراً لسفنه بالاشتراك فى هذه الحملة غير أن خايمه اشترط عليه عدم التعرض للحفصيين[٦٠]. هذا الموقف من جانب خايمه الاول تجاه الدولة الحفصية؛ يبرهن بلا شك على حرص أرغوان على السلام مع الدولة الحفصية والمحافظة على بقائها ومن ثم تحقيق المزيد من النشاط التجارى الأرغونى معها. فضلا عن وجود رعايا كثيرين من المملكة الأرغونية. ومن هذا المنطلق أصدر خايمه أوامره إلى ضباط الكونتية القطلانية فى أمبورياس باتخاذ كل الاحتياطات اللازمة لمنع استخدام موانئ الكونتية كقواعد لانطلاق القراصنة ضد الحفصيين فى افريقية ورعاياه الارغونيين بها[٦١].

غير ان العلاقات الساسية بين الدولتين سرعان ما عتراها الفتور خلال عام ٦٦١هـ (١٢٦٢م)، ذلك أن التراجونيين وسكان كونتية أمبورياس كانت تتملكهم دائما شهوة القرصنة من أجل الرغبة فى تحقيق الثراء، لدرجة أنهم كانوا يرتكبون أعمال القرصنة بسهولة وضد أى شخص دون مراعاة للاتفاقات الدولية بين المملكة الارغونية والدولة الحفصية، ورغم المحاولات المتكررة التى بذلها العاهل الارغونى لردع هؤلاء القراصنة وتنبيههم إلى ضرورة احترام السلام مع الحفصيين[٦٢].

إلى جانب ذلك، أقدم العاهل الارغونى خايمه الاول على مساعدة الفونسو العاشر ملك قشتالة فى إخضاع إمارة مرسية الاسلامية، فأسهم بحملة أرغونية قوية اتجهت جنوبا صوب مرسية، وتمكن من الاستيلاء على حصونها وقلاعها الأمامية: ألشElche ولقنت Alicanteوأوريوله Orihuela ، واتخذ من الأخيرة قاعدة لعملياته ضد مرسية[٦٣].

ثم تقدم في قواته وضرب الحصار حول مدينة مرسية وضيق عليها بمختلف السبل وقطع المعونات والامدادات التي قد تصلها من غرناطه، وطال الحصار بضعة اشهر قاسى المحاصرون فيها الكثير، مما اضطر اميرها الواثق ابا بكر محمد بن محمد بن يوسف بن هود – الذى رأى ألا مفر من التسليم بعد أن فقد الأمل في مساعدة ابن الاحمر، إلى مفاوضة خايمه الأول في التسليم، ودخلها خايمه الأول في شهر فبراير ١٢٦٦م(٦٦٤هـ)(٦٤)، وسلمها لألفونسو العاشر ملك قشتاله، هذه المساعدة التي قدمتها أراغون لقشتاله دون مراعاة لشعور الدولة الاسلامية الحفصية واستمرارا لدعم حركة الاسترداد المسيحي للاراضي الاسلامية في الاندلس، أثر بالتالي على مشاعر المسلمين وعلى الاخص في تونس ضد السياسة الارغونية ومصالحها في افريقية.

لذا لجأ العاهل الحفصي الذى كان يدرك تماما حرص أرغون على استمرار العلاقات التجارية معه إلى الاقتصار على دفع رواتب الفرقة المسيحية الأرغونية على المبلغ المخصص للفرسان والجند الذين كانوا يحتفظون به لأنفسهم دون سداد المبلغ المقرر من الخليفة للعاهل الارغوني، والعمل على ركود الحركة التجارية في الفندق الارغوني، وبذلك ضرب المصالح التجارية الارغونية في افريقية وأصابها بالشلل وهذا بدوره أثر بلا شك على الرأسمالية البرشلونية، الذين اندفعوا إلى رأب الصدع ومحاولة الاصلاح، وايقنوا أن إزدهار التجارة متوقف على السياسة، وأن توتر العلاقات السياسية بين الدولتين سيؤثر بالتالي على الاقتصاد وعلى مصالحهم التجارية.

وعلى الرغم من القطيعة السياسية الشاملة بين الدولتين إثر ذلك، فإن بعض المصالح الاقتصادية لم تتوقف بل استمرت بينهما الاتصالات التجارية، ففي فبراير ١٢٦٨م (٦٦٧هـ) وصل إلى تونس السفير فيران دى كيرالت Ferran de Queralt بصحبة عدد من التجار الأرغونيين وبضائعهم في مهمة ذات طبيعة اقتصادية(٦٥). وفي ابريل من نفس العالم عين قنصل أرغوني جديد في مدينة بجاية يدعى ريجيرس Reguers الذى استطاع أن يستعيد الحقوق المالية للمملكة الارغونية(٦٦).

وفي العام التالي ١٢٦٩ (٦٦٨هـ) وبعد تجاوز هذه الأزمة القصيرة بفضل التماسك التجارى ارتسمت من جديد السياسة العليا في افق العلاقات الحفصية الأرغونية، ذلك أن بدرو الثالث ولي العهد الارغوني كان قد تزوج عام ١٢٦٢ م

(٦٦١هـ) من الاميرة كنسطانس ابنه ما نفرد ملك صقلية ووريثته، وبذلك أصبح من حق بدور الثالث أن يطالب بإرث الهوهنشتاوفن فى نابلى وصقلية من شارل دى آنجو، لكن ما علاقة ذلك بالعلاقات الارغونية؟ للاجابة على هذا السؤال ينبغى أن نستعرض العلاقات الحفصية الصقلية على عهد كل من ابى زكريا الحفصى والامبرطور فردريك الثانى صاحب صقلية والامبراطورية الرومانية المقدسة، هذه العلاقة كانت بشكل عام طيبة رغم ان هذا الامبرطور قام بالحملة الصليبية السادسة والتى انتهت باسترجاع الصليبيين لبيب المقدس بعد ان تنازل السلطان الكامل الأيوبى عنها بموجب اتفاقية وقعت بينهما عام ٦٢٦هـ (١٢٢٩م)[٦٧].
فبعد عودة فردريك من حملته الصليبية هذه توطدت علاقته مع الحفصيين، وتوجت تلك العلاقات باتفاقية يدفع بموجبها ابو زكريا الحفصى جزية سنوية لفردريك الثانى تقدر بثلاثة آلاف قطعة ذهبية، على الارجح فى نظير حماية موانئ إفريقية التجارية من قراصنة جنوة وغيرها، فضلا عن ضمان حرية التعايش بين سكان صقلية والبقية من الجالية الاسلامية فى مدينة بلرم ونواحيها[٦٨]. لكن بعد وفاة فردريك الثانى – الذى كان متهما عند البابا بتعاطفه مع المسلمين لحبه للغة العربية والحضارة الاسلامية ولأنه من عائلة هوهنشتوفن الألمانية – خرجت البابوية منتصرة بعد نزاعها الطويل الذى استمر فترة طويلة مع أباطرة الدولة الرومانية المقدسة من هذه الاسرة. وبالتالى فقد اعتبرت البابورية نفسها وصية على أراضى هؤلاء الاباطرة فى جنوب ايطاليا وصقلية[٦٩]. ولما كان ما نفرد ملك صقلية أحد أعضاء البيت الامبراطورى المهزوم، فأنه رفض أن يعترف بمطالب البابوية، مما جعل البابا يعرض مملكة صقلية على أحد الأمراء الفرنسيين وهو شارل دى آنجو كونت بروفانس ليحكمها تابعا للبابا[٧٠] وقد ترتب على ذلك اندلاع الحرب بين ما نفريد وشارل دى آنجو.

أما المستنصر الحفصى فقد كان له دور بارز فى مساعدة خصوم شارل آنجو الجيبلانيين سواء فى قبوله لهم كلاجئين فى بلاده أو اعانتهم عسكريا، وتشجيع المتطوعين النصارى على الذهاب الى صقلية ليحاربوا ضد شارل دى آنجو وكان من بينهم أخوان لألفونسو العاشر ملك قشتله اللذان هربا عنه فالتجأ إلى المستنصر وشاركاه فى حروبه الداخلية[٧١]. وهكذا ألم يكن شارل دى آنجو وأخيه لويس التاسع ملك فرنسا محقين فى قلقهما من رؤية الدولة الحفصية تظهر كأرض ملاذ وكقاعدة لانطلاق أعدائهم؟ فمن تونس خرج اسطول به نحو خمسمائة رجل

بموافقة ومساعدة العاهل الحفصى فى أغسطس ١٢٦٨م/ ٦٦٧هـ حط فى صقلية ووضع تحت تصرف الجيبلانيين الثائرين ضد شارل دى آنجو، واستمر الصراع لمدة عام إلى أن استطاع شارل دى آنجو استعادة صقلية تماماً. وليس من شك أن العاهل الحفصى كان متعاطفا تماما مع خلفاء فردريك الثانى الذين برهنوا على حبهم للمسلمين وتحملهم الكثير خلال صراعهم ضد شارل دى آنجو، وكان المستنصر الحفصى قلقا من طموحات شارل دى آنجو الذى احتج بدوره على قطع المستنصر للضريبة السنوية التى كان يدفعها سلفه ابو زكريا الحفصى لفردريك الثانى بموتهما(٧٢).

وهكذا كان على شارل دى آنجو أن يدرك موقف الحفصيين منه، ويجعل اخاه لويس التاسع و الاساقفة يتفهمون دور الحفصيين فى مساعدة اعدائة، ذلك أن لويس التاسع كانت له احلام شرقية كبيرة قد تبعدة عن تونس، فلم يمكن يستطيع الرحيل إلى الشرق قبل أن يؤمن مؤخرته فى افريقية بافضل ما يمكن، خصوصاً وأن الحفصيين كانوا يهددون سيادة اخيه فى صقلية، ولن يعدم شارل دى آنجو التبريرات التى يعبر بها عن وجهة نظره، وهو الواقف على أحوال افريقية ومدى استعدادها لمقاومة حملة صليبية منظمة، فزيادة على المجاعة الحاصلة فى افريقية وكثرة الموتان فيها - كما يقول ابن خلدون - فإن مهاجمة من أصبح يحمل لقب الخلافة وإمارة المؤمنين» فيها ما يكسب تلك الحملة معنى القداسة وخدمة الدين(٧٣). وأن الانتصار على بنى حفص فى تونس يمهد السبيل للاستيلاء على مصر، هذا إلى جانب بعض التأويلات الأخرى منها: أن بعض التجار المرابين الفرنسيين أدعوا أنهم أقرضوا ما لا يقل عن ثلاثمائة دينار إلى اللحيانى، الموظف الكبير عند المستنصر الحفصى والذى انتهى أمره إلى القتل واستصفاء أمواله، فطالب اولئك المرابون بالديون التى لهم عليه بدون أن تكون لديهم حجج فى ذلك، فألغى طلبهم ولم تقع استجابته مما دعاهم إلى رفع شكواهم إلى لويس التاسع حتى اضطر المستنصر الحفصى إلى إرسال سفارة حفصية إلى فرنسا للتفاوض فى الموضوع(٧٤). وتشير بعض المصادر إلى أن الوفد الذى ارسله المستنصر الحفصى حضر حفلة تنصير أحد اليهود(٧٥).

ومهما يكن الأمر، فالأقرب إلى الصحة أن شارل دى آنجو تمكن من تحقيق غرضه ووجد الوسيلة التى تمكنه من مهاجمة عدوه الحفصى فى عقر داره بافريقية. ومن ثم تهيأت الدوافع والاسباب وتم الاستعداد للقيام بالحملة الصليبية لغزو تونس والنزول بقرطاجة.

والواقع أنه ليس من رسمنا هنا دراسة هذه الحملة الصليبية، لكن فقط التعرف على موقف مملكة اراغون من العدوان الصليبي على تونس. فليس من المستغرب ان نلاحظ تقاربا من الجيبلانيين والقطلان للجانب الحفصي عنهم من الجيش الصليبي الذى كان يبدو بالنسبة لهم جيشا انجوفيا اكثر من كونه جيشا مسيحياً، ففى تونس كان يعيش فدريكو لانثيا Federico Lancia ابن عم الملكة كونستانس دى هوهنشتاوفن زوجة بيدرو الثالث الأرغونى. وكذا الفرقة المسيحية الارغونية بجانب سلطان تونس والتى لم تعمل فقط على تدعيم الجيش الحفصى بل عمل قائدها الفارسى جونثاليو بيرس دى ألكوبا Gonzalvo Perez de Alcoba على اجتذاب جنود من أقاليم مملكة اراغون فى منتصف سبتمبر ١٢٧٠م (٦٦٩هـ) بموافقة العاهل الأرغونى خايمه الأول وعميد ماندرائية بلنسية[٧٦]. وإذا أضفنا إلى ذلك أن خايمه الأول إذا كان قد رفض الاشتراك فى مشروع لويس التاسع، أليس لأنه كان يعلم أن هذا الاخير سيتجه ضد تونس؟ ألم يكن قد سأل البابا عام ١٢٤٦م (٦٤٤هـ) أن لا تقترب الحملة الصليبية آنذاك من تونس؟ أليس هذا دليلا على موقف العاهل الأرغونى ضد أى غازى على تونس؟ هذا يفسر موقف خايمه الأول وولى عهده وزوجه فى كل مكان ضد الاميربالية الانجوبية [٧٨].

ويلاحظ أيضا أنه خلال تعرض تونس للحملة الصليبية فإن بعض التجار المسيحيين وعلى الاخص البيزيين تركوا إفريقية[٧٩]، غير أن التجار القطلان لم يتوقفوا عن التجارة، إذ استمر فندقهم وقنصليتهم فى تونس فى مزوالة نشاطهم[٨٠].

على أية حال فإن الحملة الصليبية تعرضت لخطر الطاعون الذى أفسدها وفشلت الحملة فى تحقيق اهدافها، ولم يتأخر شارل دى آنجو بعد وفاة أخيه لويس التاسع فى ٢٥ اغسطس ١٢٧٠م (٦٦٩هـ) عن وقف الحرب مع عقد هدنة بين الطرفين مدتها خمسة عشر عاما ابتداء من نوفمبر ١٢٧٠م (٦٦٩هـ) يدفع اثناءها المستنصر الحفصى غرامة مالية قدرها مائتان وعشرة آلاف اوقية ذهبا تدفع مقسطة وأن يؤدى المستنصر الحفصى إلى شارل دى آنجو ملك صقلية الغرامة التى كان يدفعها للامبراطور فردريك الثانى بما فى ذلك الخمس سنوات الماضية، واعتبار رهبان النصارى وقساوستهم الموجودين فى البلاد سكانا فيها يعطيهم السلطان الحفصى أراضى للبناء وإقامة الكنائس والمقابر، وأن يسمح لهم باقامة شعائرهم الدينية جهرا، واحترام رعايا الطرفين، وضمان المصالح التجارية وعدم الاعتداء على الاراضى التابعة للمستنصر الحفصى حاضرا ومستقبلا، كما نصت الاتفاقية أيضا على منع المخزن الحفصى من استضافة اعداء الامراء الصليبيين بطرد كل المسيحيين

الذين ساعدوا على الفتنة أو التمرد الصقلى ضد الملك شارل دى آنجو من تونس[٨١].

هذا البند الأخير من الاتفاقية أوضح باختصار المرقف ضد الجيبلان الذى كان من نتائج الحملة الصليبية. ولقد فوجئ فلول الهوهنشتاوفن وأنصارهم الأرغونيين والقشاليين بالمعاهدة التى فرضها شارل دى آنجو على العاهل الحفصى المستنصر. هل سيكون التأثير الانجوفينى من الآن فصاعدا متزايدا داخل تونس التى اصبحت تؤدى الجزية إلى صقلية؟ هل سيطرد فدريكو لانثيا ابن عم الملكة كونستانس من تونس؟ هل سيفقد القطلان دورهم المؤثر فى تونس؟ أو على العكس ستصمد الصداقة الحفصية الارغونية أمام التجربة؟ تلك التساؤلات التى فرضت نفسها فى نهاية عام ١٢٧٠م (٦٦٩هـ) عندما حان تنفيذ بنود الاتفاقية.

الواضح أن المستنصر الحفصى طلب السلام لكى يرى وفى اقرب وقت رحيل الجيش الصليبى عن بلاده، أما باقى بنود الاتفاقية فيبدو انها لم تشغله كما واجه المستنصر الحفصى الالتزامات المالية التى تعاقد عليها مع الفرنسيين والصقليين والتى تحملها رعاياه «فأعطوه طواعية ما يقال أنه عشرة أحمال من المال»[٨٢]، وأنه قام بسدادها بانتظام سواء تعويضات الحرب أو الضريبة خلال السنوانت التالية:

اما عن علاقة المستنصر الحفصى بخايمه الأول الارغونى، فقد أوضح سلطان تونس موقفه، وكان يعلم أن الهوهنشتاوفن والجيبلان والقطلان يكونون جانبا واحدا من الممكن ان يكون بالنسبة له حليفا طبيعيا ضد الأنجوفيين، لو أنهم فكروا يوما فى اتخاذ سياسة عدوانية، فأرسل المستنصر الحفصى سفيرا من قبله لبلاط خايمه الأول، كانت مهمته التمهيد لعقد معاهدة، وقعت فى بلنسية فى ١٤ فبراير ١٢٧١م (٦٦٩هـ) لمدة عشر سنوات بين الدولتين الحفصية والارغونية، وهى معاهدة تجارة وسلام تتعلق بالفنادق والقنصليات الارغونية فى الدولة الحفصية، وكل العلاقات الاقتصادية بينهما وعلى الاخص الضمان الأمنى للتجار فى البر والبحر فى البلدين[٨٣].

وهذا يؤكد أن الاتفاقات الحفصية الأرغونية كانت بعيدة عن أن تتأثر بأحداث عام ١٢٧٠م (٦٦٩هـ) وخرجت قوية. وهكذا كانت معاهدة فبراير ١٢٧١ (٦٦٩هـ) ردا قويا وسريعا لمعاهدة اكتوبر/ نوفمبر ١٢٧٠م (٦٦٩هـ).

ومن جهة اخرى فإن المستنصر الحفصى لم يفته فى هذا الوقت إرسال هدايا إلى العاهل الارغوانى فى شكل منح لا ترد[٨٤].

*** العلاقات السياسية بين الدولتين فيما بين سنتى ٦٧٥ - ٦٨٤هـ/ ١٢٧٦ - ١٢٨٥م:**

كان للسياسة المتوازنة التى اتبعها المستنصر الحفصى مع خايمه الأول ملك اراغون من جهة وشارل دى آنجو ملك صقلية من جهة اخرى عظيم الاثر فى استقرار الاوضاع فى ظل الدولة الحفصية إلى حين. ففى ايامه التى يعتبرها ابن خلدون أعز أيام الدولة الحفصية «عظمت حضارة تونس وكثر ترف سكانها وتأفق الناس فى المواكب والملابس والمبانى والماعون والآنية فاستجادوها، وتناغوا فى اتخاذها وإفشائها إلى أن بلغت غايتها ثم رجعت من بعده ادراجها»(٨٥). وتوفى المستنصر الحفصى يوم الأحد الرابع عشر من جمادى الآخرة عام ٦٧٥هـ (نوفمبر ١٢٧٦م) على أثر مرض ألم به(٨٦)، بعد حكم دام سبع وعشرين عاما.

وخلفه ابنه يحيى الذى بايعه الموحدون وسائر الناس على مختلف طبقاتهم فى نفس الليلة التى توفى فيها أبوه، ثم بايعه بقية الناس صباح الغد وتلقب بالواثق(٨٧). وكان المتولى لأخذ البيعة له عن الناس والقائم بأمره سعيد بن يوسف بن أبى الحسين لمكانته فى الدولة، ولا يستبعد أن تكون أعمال سعيد هذا تستهدف اغراضا شخصية أكثر مما تستهدف مصلحة الدولة لما كان يعرفه عن يحيى الواثق من ضعف الشخصية وقلة التدبير ووهن العزيمة(٨٨)، حتى تكون له نفس المنزلة كان يتمتع بها فى عهد سلفة المستنصر وهو العهد الذى تمكن فيه سعيد بن يوسف ابن ابى الحسين من نيل الخطوة الكبيرة واكتساب المال الكثير(٨٩).

أما فى الجانب الارغونى، فقد كان للجهود التى بذلها خايمة الأول ان أحسن خلفاؤه بنوع من الإطمئنان داخل المملكة الارغونية جعلهم يتفرغون لمشكلة صقلية وايطاليا.

فلما توفى خايمه الاول ملك أراغون فى عام ١٢٧٦م (٦٧٥هـ) خلفه على العرش ولده بيدرو الثالث، الذى تبدأ من عهده صفحة جديدة فى تاريخ أراغون حيث يمتد سلطان ارغونه فيما وراء البحر إلى صقلية وجنوبى ايطاليا (مملكة نابولى)، وذلك أن بيدور الثالث كان قد تزوج من الأميرة كونستانس ابنة مانفرد ملك صقلية ووريثه سليل بيت هوهنشتاوفن الامبراطورى، وكانت البابوية قد خرجت عندئذ ظافرة من نزاعها الطويل الذى استمر عدة قرون مع اباطرة الدولة الرومانية المقدسة من اسرة هوهنشتاوفن، وبالتالى فقد اعتبرت البابوية نفسها قيمة أو وصية على اراضى هؤلاء الاباطرة فى صقلية وجنوب ايطاليا. ولما كان ما نفرّيد

ملك صقلية احد اعضاء البيت الامبراطورى المهزوم، فإنه رفض أن يعترف بمطالب البابوية مما جعل البابا يعرض مملكة صقلية على أحد الأمراء الفرنسيين وهو شارل دى آنجو ليحكمها تابعا للبابا، وقد قبل شارل هذا عرض البابوية وغزا صقلية ليقتل ما نفريد ويحكم الجزيرة حكما تعسفيا جائرا. وبذلك أصبح من حق الملك بيدرو الثالث زوج الاميرة كونستانس ابنة مانفريد أن الهوهنشتاوفن فى مملكة نابلى وصقلية[٩٠]، لذا فكر جديا فى فتح صقلية لاعادة ما يسمى «شرعية الهوهنشتاوفن»، فهو بزاوجه من كونستانس أصبح الحامى والوريث، وأصبح استعادة صقلية هدفا أساسيا لمملكة اراغون انعكس على سياستها تجاه افريقية، ومن ثم تحددت علاقته مع الحفصيين على ضوء ذلك نظرا لموقع إفريقية الجغرافى من جزيرة صقلية، ولأن اعداء الانجوبيين تعودوا على استخدامها كقاعدة للوثب منها إلى جزيرة صقلية وايطاليا، وربما كان هذا مبرراً كافيا لكى يقرر بيدرو الثالث تقوية النفوذ القطلانى الارغونى فى الدولة الحفصية.

مهد بيدرو الثالث لسياسته الافريقية بمطالبة السلطان الحفصى يحيى الواثق فى سنتى ١٢٧٧/ ١٢٧٨م (٦٧٦ - ٦٧٧هـ) بدفع جزية بصفة منتظمة لمملكة اراغون، مدعياً أن هذه الجزية سبق أن اقرها وأكدها البلاط الحفصى زمن المستنصر، حقيقة أن العاهل الحفصى المستنصر كان يرسل هدايا فى مناسبات مختلفة للعاهل الارغونى خايمه الأول، فضلا عن تسهيلات معينة للعمليات التجارية القطلانية فى افريقية من أجل تدعيم اواصر الصداقة والسلم بين الدولتين، غير أن بيدرو الثالث كان يريد من يحيى الواثق خضوعا إجباريا لعادة زائلة. فى الوقت الذى التزم فيه يحيى الواثق بأقساط مالية منتظمة للأنجوفيين فى صقلية وليس للأرغونيين، وربما يفسر ذلك ايضا جذور الخلاف الدائم بين العاهلين الارغونى والحفصى.

ففى ابريل ١٢٧٨م (٦٧٧هـ) أرسل بيدور الثالث سفيراً من قبله يدعى كونراد لانثيا Conrad Lancia[٩١] إلى تونس وكانت سفارة لانثيا ترمى إلى تحقيق اهداف ثلاثة: أولها، إنماء مالية الحرب التى أخذ يستعد لها بيدرو الثالث لتحقيق طموحاته فى البحر المتوسط، وثانيها: إخضاع الدولة الحفصية وإرغامها على دفع الجزية لمملكة أرغوان، وثالثها: اتخاذ مسألة الجزية كذريعة للتدخل الأرغونى فى افريقية لاستخدامها كقاعدة للوثوب منها على صقلية وكأرض ملاذ لأعداء الأنجوفيين[٩٢].

غير أن سفارة لانثيا اخفقت فى حمل يحيى الواثق على أن يصبح دافع جزية أو فى الموافقة على تقديم تسهيلات حربية للقطلان، ورجع لانثيا اول صيف ١٢٧٨م خاوى الوفاض.

وفى الوقت الذى فشلت فيه سفاة كونراد لانثيا على حمل يحى الواثق على التسليم بسداد جزية سنوية لأراغن، كان يحيى الواثق على علاقات طيبة مع شارل دى آنجو ملك صقلية ودفع له الجزية الواجبة على تونس(٩٣).

كما استقبل الحفصيون فى يونية عام ١٢٧٨م (٦٧٧هـ) سفيرا ما يورقيا يدعى الفارس برنات دى أولمس Bernat d'Olms والذى تجددت بواسطته المعاهدة السابق ابرامها عام ١٢٧١م (٦٧٠هـ) فى بلنسية بين خايمة الفاتح والمستنصر لمدة خمس سنوات لتصبح بين العاهل الحفصى يحيى الواثق وملك ميورقة خايمة الثانى(٩٤).

وإذا علمنا أن العلاقات بين الأخوين بيدرو الثالث ملك أراغون وخايمة الثانى ملك ميورقة كانت عدائية وكانا فى حالة حرب، لأدركنا أن تجديد السلام بين السلطنة الحفصية ومملكة ميورقة سيكون له فعالية كبيرة، وقد إلتزم الميورقيون من جانبهم بأن يكونوا أصدقاء الحفصيين وأعداء لأعدائهم، فهو تحالف سياسى خطط له آنذاك وأراده الملك خايمة الثانى(٩٥).

ولا شك أن الصداقة بين السلطنة الحفصية وكل من مملكتى ميورقة وصقلية كانت لها أثر واضح فى فشل سفارة كونراد لانثيا الارغونية، لذلك قرر بيدرو الثالث قطع علاقاته السياسية مع الحفصيين فى افريقية وتحريم التجارة معها(٩٦)، وفى نفس الوقت اتخذ قرارا بمساعدة ابى اسحق الثائر منذ ايام المستنصر والموجود فى اسبانيا للوثوب على السلطة فى تونس ضد ابن اخيه يحيى الواثق(٩٧).

ويبدو أن يحيى الواثق أدرك مخاطر قطع العلاقات السياسية الارغونية معه فعمل على اعادة هذه العلاقات عن طريق احد الوسطاء البيزيين ويدعى ألبرتو رونشا Alberto Ronch فى ربيع ١٢٧٨م (٦٧٧هـ)، إلا أن مهمة رونشا لم تؤد إلى نتائج إيجابية من جانب أراغون، وبرهنت على أن يحيى الواثق كان راغبا فى اقرار السلم مع أراغون(٩٨).

غير أن تردى الأحوال فى السلطنة الحفصية نتيجة للصراع الشديد بين رجالها من الاندلسيين لا سيما بين سعيد بن ابى الحسين وبين يحيى بن عبد الملك

الغافقى المعروف بابن الحبير على منافسه وأصبح هو المسير الفعلى للدولة، وبلغ من تحكمه بالواثق والاستيلاء عليه مالم يبلغه أحد قبله «وأذل الموحدين بوقوفهم على بابه والتوسل اليه بحجابه»[99]. وبعث اخاه ابا على ادريس للاشراف على الاشغال والأموال ببجاية، فأساء هو ايضا السيرة وأخذ الأموال وأذل الرجال وكان من نتيجة ذلك أن اختلف مع والى بجاية محمد بن أبى هلال عياد بن محمد الهنتاتى الذى دبر له مؤامرة انتهت بقتله وخاف والى بجاية من الانتقام فكتب إلى الأمير أبى اسحاق ابراهيم يستنجد به ويبايعه، وكان ابو اسحاق منذ فراره من أخيه المستنصر مقيما فى اسبانيا، وعندما بلغه وفاة المستنصر فكر فى العودة إلى افريقية وانتزاع السلطة من يحيى الواثق، وقد شجعه على ذلك الحالة السياسية فى الدولة الحفصية من تفكك داخلى، وضعف يحيى الواثق، وتحول الموحدين عنه[100]، ومناصرة بيدو الثالث الارغونى له ضد يحيى الواثق، فقد قرر بيدرو الثالث التدخل لصالح ابى اسحاق بعد أن استقرت أموره داخل مملكته وعقد معاهدات سلام مع مملكة قشتاله، ومملكة بنى الاحمر فى غرناطة، وتصالح مع أخيه خايمه الثانى ملك ميورقة فى يناير ١٢٧٩م (٦٧٧هـ) فتفرغ تماما لتنفيذمخططاته فى حوض البحر المتوسط[101].

ففى الوقت الذى غادر فيه ابو اسحاق ابراهيم الاندلس متوجها إلى تلمسان حيث استقبله صاحبها يغموراسن بن زيان بكل حفاوة وترحيب لائقين به[102]، ثم جاءته بيعة والى بجاية ومشايخها فجهز جيشاً سار به إلى بجاية فدخلها آخر ذى الحجة ٦٧٧هـ (١٢٧٨م) فبايعه واليها والموحدون والملأ من أهلها[103]، وتذكر بعض المصادر الاوربية أن بيدرو الثالث الأرغونى قد أرسل أمير البحر كونراد لانثيا إلى افريقية ليس بصفته سفيرا لكن كقائد لحملة بحرية مكونة من عشر مراكب نزل بها فى خليج قابس وأخذ من هناك يتصل ببعض الثائرين ضد يحيى الواثق[104].

ومهما كان الأمر، فإن اسحاق ابراهيم نجح فى دخول تونس واعتلاء كرسى الامارة بها فى منتصف ربيع الثانى ٦٧٨هـ (اغسطس ١٢٧٩م). غير أنه أخلد إلى الراحة والملذات، ويصفه ابن القنفذ بأنه كان « ..... فيه غلظة وشجاعة وخفة وغيبة عن مجلسه فى لهوه وأنسه، وكان لا ينتظر فى عواقب الأمور»[105].

أما عن علاقة أبى اسحاق ببيدرو الثالث الأرغونى، فيدعى مونتانيرMuntaner أن كونراد لانثيا قبل مغادرة تونس حصل من الحفصيين على اعتراف بنوع من السيادة الأرغونية المطلقة[106]. ومن المرجح أن يكون أبو اسحق ابراهيم قد أعطى

بيدرو الثالث وعودا قبل مسيرة إلى إفريقية من أجل الحصول على مساعدة القطلان ولما تحقق له ما أراد طالبه أمير البحر الأرغوني كونراد لانثيا بتنفيذ تعهداته السابقة وأهمها الاقرار بدفع الجزية للملك أراغون لكن أبا اسحق امتنع عن الدفع(١٠٧).

عاد كونراد لانثيا إلى أراغون فى اكتوبر ١٢٧٩م (٦٧٨هـ) وأعلن نجاح أبو اسحاق فى اعتلاء كرسي الامارة فى تونس، عندئذ قرر بيدرو الثالث إرسال بعثة جديدة إلى تونس بغرض أخذ اعتراف من الحفصيين بسيادة أرغونية رسمية على القنصليتين الأرغونيتين فى مدينتى تونس وبجاية وإعادة طلب الجزية(١٠٨)، عهد بها إلى روجر دى لوريا Roger de Lauria صهر كونراد لانثيا فى اكتوبر ١٢٧٩م (٦٧٨هـ) الذى استعد للرحيل إلى تونس وبرفقته عدد من المسلمين فوضه الملك فى السماح لهم بالهجرة إلى افريقية، وكان جو التفاؤل يسود أراغون لوجود شخصية مواليه للبلاط الأرغونى على قمة السلطة فى تونس، وبلا شك ستكون هذه الشخصية شاكرة للجميل(١٠٩). كما نصح الملك الارغونى رعاياه البرشلونيين بالاستفادة من الامكانيات التجارية التى ستقدم لهم من جديد فى افريقية، وهذا يعنى عودة العلاقات السياسية والتجارية مع الحفصيين على عهد ابى اسحاق ابراهيم. فى نفس اللحظة، ربط بيدرو الثالث سياسته الخاصة بمسلمى بلنسية ورغبته فى مضاعفة الروابط الانسانية والتجارية بين افريقية وممالكه، فأشار على رعاياه المسلمين بالذهاب والاستقرار فى تونس او بجاية، ولتسهيل رحيل رعاياه المسيحيين منحهم حمايته وكذا المزايا التى كان قد قررها من قبل خايمه الأول لمن يرحل إلى افريقية(١١٠). وهكذا بدا للجانب الأرغونى أن الظواهر كلها كانت مشجعة وتدعو إلى التفاؤل.

وفى اغسطس ١٢٨٠م (٦٧٩هـ) قرر بيدرو الثالث بعثه اخرى إلى تونس لاعطاء وزن اكبر لمسعاه الجديد، فاستدعى هذه المرة شخصية مؤثرة نائبة فى مملكة بلنسية رودريجو خيمينث دى لونا Rodrigo Jimenez de Luna(١١١) ورغم أننا لا نعرف مادارمن مفاوضات بين أبى اسحاق وروجر دى لوريا أو بينه وبين رودريجو خيمينث دى لونا إلا أنه يمكن الافتراض أن هذه المحادثات مثل سابقاتها أهتم الارغونيون فيها ليس فقط بالحصول على مبالغ من الدنانير الذهبية لكن ايضا بوضع أقدامهم على سواحل افريقية للتحضير لغزوتهم المتوقعة على صقلية. لكن هذه الجهود الأرغونية كانت عقيمة فى سنة ١٢٨٠م ٦٧٩٠هـ) كما فى سنة ١٢٧٩م (٦٧٨هـ)، فعندما رحل رودريجو خيمينث دى لونا إلى تونس لم يكن لدى العاهل الارغونى ثقة كبيرة فى العاهل الحفصى الجديد، إذ نظر إل فشل

مساعى لانثينا ودى لوريا، فكان لتوجيه حاكم بلنسية وفى نفس الوقت نائبة عليها دلالة هامة وهى توجيه انذار نهائى عنيف لأبى اسحاق ابراهيم، ولكن ابا اسحاق ابراهيم لم يرهبه هذا الانذار، ولم يخضع ابداً لسيطرة اراغون، فقطع العلاقات السياسية مع مملكة اراغون عقب محادثاته مع دى لونا(١١٢).

كان لفشل سفارة دى لونا فى خريف ١٢٨٠م (٦٧٩هـ) أثر كبير لدى بيدرو الثالث الذى قرر أن يبحث من جديد عن معارض لأبى اسحاق، ولم يتأخر كثيرا فى اكتشافه فى شخص والى قسنطينة ابى بكر بن موسى بن عيسى الملقب بابن الوزير الثائر على ابى اسحاق(١١٣). وكانت الدولة الحفصية فى عهده قد وصلت إلى حالة ما يشبه الترهل والانحلال، فقد استولى الاعراب فى عهده بتونس «على القرى والمنازل ونهبوا الأموال والحريم..، وزاد فى العوائد ليجد الراحة فى لذاته، وقلت المجابى فى ايامه وكثر الاخراج والانفاق»(١١٤)، فضلا عما ابتليت به افريقية على عهد الحفصيين من علة التطاحن والتآمر والغدر حتى بالنسبة لمن اعانوه وساعدوه على الفوز بإمارته افريقية. فثور ابن الوزير عليه فى قسنطنية كانت بلاشك نتيجة لهذه الحالة السيئة، وقد وجد ابن الوزير فى شخص بيدرو الثالث حليفا ونصيرا له، فوعده بالمساعدة والتأييد انتقاما من ابى اسحاق ابراهيم، يقول ابن القنفذ أنه «كتب إلى النصارى يحصنهم على ملك قسنطينة وغيرها، فجهزوا الحركة اليها»(١١٥). ورغم فشل ثورة ابن الوزير لتأخر انجاد بيدرو الثالث له إلا أن الاسطول الارغونى نزل فى مرسى القل فرضة قسنطينة وجرت بينه وبين أهالى المنطقة عدة معارك ومناوشات، ولم يتقدم الجند الارغونيون داخل البلاد لأنهم كانوا يترقبون النجدة والمساعدة من البابا مارتن الرابع إلا أنه لم يستجب لرغبة الملك الأرغونى نظرا للخلاف القائم بين ملك أراغون بيدرو الثالث وبين ملك صقلية شارل دى آنجو، وهذا الاخير كانت له مع البابا علاقات طيبة بالاضافة إلى أن البابا كان فرنسى الأصل مثل شارل دى انجو، وهكذا إضطر الملك الأرغونى إلى الاقلاع عن مرسى القل فى النصف الثانى فى آغسطس ١٢٨٢م ٦٨١٠هـ) عائدا إلى بلاده دون ان يحقق ما كان يهدف اليه من تحالفه مع ابن الوزير ضد الأمير الحفصى ابى اسحاق ابراهيم(١١٦).

ثم انشغل بيدرو فى حروبه مع شارل دى آنجو وشهدت المرحلة الاخيرة من تلك الحروب الاشهر الاخيرة، من عهد أبى اسحاق ابراهيم وفترة الدعى ابن ابى عمارة، ونتج عن كل ذلك أن الامير الحفصى الجديد عمر بن أبى زكريا بن عبد

الواحد بن أبى حفص بعد هزيمته للدعى ابن أبى عمارة، وبيعته فى ٢٦ ربيع الثانى ٦٨٣هـ (١٢٨٤م) مستعيدا مجد آبائه الحفصيين[١١٧]، وجد نفسه وجها لوجه مع بيدرو الثالث الارغونى الذى انتصر فى حروبه على شارل دى آنجو وعلى الرغم مما بدا على بيدرو الثالث من إحجام عن غزو حقيقى لافريقية إلا أن ذلك لم يمنع من أن تصبح الامارة الحفصية عرضة لاعتداءات متكررة يقوم بها بحارة صقلية وقراصنتها.

ففى سبتمبر ١٢٨٤م (٦٨٣هـ) قام أمير البحر القطلانى روجر دى لوريا Roger de Lauria باحتلال جزيرة جربة وجزر قرقنة المجاورة للساحل التونسى[١١٨]. وذلك ليكون له قاعدة صلبة ذات موقع هام بمثابة سد يعوق اى حركات تنطلق صد الوجود الارغونى فى صقلية. وتتفق المصادر التاريخية على أن احتلال روجر دى لوريا جربة كان اقرب ما يكون إلى البادرة الشخصية منه إذ أنه لم يتلق أوامر باحتلالها من بيدرو الثالث، وإنما كان ذلك حسب اتفاق جرى بينه وبين احد أبناء بيدرو الثالث هو الامير خايمى حاكم مسينا[١١٩]. كما أن روجر دى لوريا لم يجد أى مقاومة من أهل جربة تذكر عند نزوله بها، وقد يفسر ذلك قول ابن خلدون من أن أهلها كانوا من الخوارج والنكارة[١٢٠]، مما يوهم بأن خلافهم المذهبى مع الامارة الحفصية كان هو السبب فى عدم مقاومتهم للغزو. بينما يجعل البعض الآخر بعد الجزيرة عن حاضرة الامارة من أسباب التعجيل والسهولة لاحتلالها[١٢١]، أو بسبب ضعف الامارة الحفصية فى الدفاع عن نفسها ورد المغيرين عنها فى عهد الأمير أبى حفص عمر[١٢٢].

ومهما يكن من أمر، فقد استقر الارغونيون فى جزيرة جربة اكثر من نصف قرن إذ لم يجر استرجاعها إلا فى اواخر الاربعين والسبعمائة، وقد صاحب ذلك الاحتلال التنكيل بالاهالى، والارهاق بالضرائب، يقول ابن خلدون: «ثم تغلبوا عليها (أى جربة) فانتهبوا أموالها، وحملوا اهلها أسرا وسبيا، فقيل: أنهم بلغوا ثمانية آلاف بعد أن رموا بالرضع فى الجيوب.....، ثم بنوا بساحلها حصنا واعتمروه وشحنوه حامية وسلاحا وفرض عليهم (ضريبة) مائة ألف دينار كل سنة»[١٢٣].

وفى ابريل ١٢٨٥م (٦٨٤هـ) تلقى بيدرو الثالث ملك اراغون شكاية اثنين من رعاياه كانا مقيمين فى تونس، يعلمانه فيها باستيلاء بعض موظفى الدولة الحفصية على أموالهما، فأمر الملك الأرغونى بالاستيلاء على أملاك الرعايا

الحفصيين والاتيان بها إلى قطلونية لتعويضهما عما لحقتهما من أضرار[١٢٤]، هذا الموقف كان مجحفا وأضر بلا شك بالتجارة الافريقية.

ويبدو أن الامير عمر الحفصى أدرك سوء العاقبة ورد الفعل الأرغونى لا سيما بعد أن أصبحت القوات الأرغونية متمركزة فى كل من جزيرة جربة وجزيرة صقلية فبادر بارسال سفارة إلى ملك أرغوان بيدرو الثالث مكونة من أربعة أشخاص للتفاوض معه وعقد معاهدة جديدة لمدة خمسة عشر عاما وقعت هذه المعاهدة فى Panizars فى الثانى من يونيو سنة ١٢٨٥م (٦٨٤هـ)، وكان أهم ما تضمنته تلك المعاهدة بالاضافة إلى النواحى التجارية والملاحة البحرية، أن يمارس المسيحيون شعائرهم الدينية بكل حرية فى الاراضى الحفصية وأن يسمح لهم بقرع اجراس كنائسهم، والسماح للصقليين والقطلونيين ببناء الفنادق والمتاجر فى أى مكان يختارونه، وحرية ملك أراغون فى تعيين من يراه من القناصل فى مختلف أنحاء الامارة الحفصية، وله أيضا حق تعيين قائد الفرقة العسكرية الارغونية التى تعمل فى البلاط الحفصى منذ القديم، وحق القناصل التابعين للملك الأرغونى فى مقابلة الأمير الحفصى مرة فى الشهر على الاقل مع إلتزام الامارة الحفصية بأداء ضريبة سنوية تدفعها لمملكة أرغون تبلغ حوالى ٣٣,٣٣٣,٣ بيزة وأن يعوض ملك صقلية وأراغون آل دى آنجو فى استخلاص الضريبة التى إلتزمت بها الدولة الحفصية لشارل دى آنجو بموجب المعاهدة التى عقدت إثر حملة لويس التاسع على تونس[١٢٥].

كانت هذه الاتفاقية آخر أعمال بيدرو الثالث ملك أرغوان والذى توفى فى الحادى عشر من نوفمبر ١٢٨٥م (٦٨٤هـ)[١٢٦]، تلك الاتفاقية التى أوضحت مدى الضعف الذى وصلت إليه السلطنة الحفصية والتى تعتبر بداية لتدخلات أرغونية جديدة.



هوامش البحث

١- ينتسب الحفصيون إلى الشيخ ابى حفص يحى بن عمرو الهنتاتى من هنتاته اعظم قبائل مصمود، و ويعتبر هذا الشيخ من مؤسسى دولة الموحدين، بما كان له من سابقة فى الجهاد مع الموحدين، فلما توفى تداول أبناءه الرياسة وتقلبوا فى الامارة فى الاندلس والمغرب وإفريقية، ولما افضت الخلافة للناصر عين بولاية افريقية الشيخ عبد الواحد نائبا عنه. انظر: ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد): كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، فى ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرها من ذوى السلطان الاكبر، الجزء السادس، بيروت، ١٩٧٩، ص ٢٧٥ وما بعدها، الزركشى (ابو عبد الله محمد بن ابراهيم): تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، تونس، ١٩٦٦، ص ٢١ - ٢٣، حسن حسنى عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس، الدار التونسية للنشر ١٩٨٣ - ص ١٢٦ - ١٢٨.

٢- ابن القنفد القسنطينى (ابو العباس احمد بن حسين بن على بن الخطيب): الفارسية فى مبادئ الدولة الحفصية، تقديم وتحقيق محمد الشاذلى النيفر وعبد المجيد التركى، الدار التونسية، ١٩٦٨، ص١٠٥.

٣- التجانى (أبو محمد عبد الله بن محمد): رحلة التجانى، نشر حسن حسنى عبد الوهاب، تونس، ١٩٥٨، ص٣٦٢.

٤- نفس المصدر، ص٣٦٠، وانظر ايضا: محمد العروسى المطوى: السلطنة الحفصية تاريخها السياسى ودورها فى المغرب العربى: دار الغرب الاسلامى، بيروت ١٩٨٦، ص٨٨.

٥- ابن خلدون: تاريخه، جـ٦، ص٢٧٩، ابن القنفذ: الفارسية، ص١٠٦.

٦- ابن خلدون: نفس المصدر والجزء، ص٢٨٠.

٧- ابن خلدون، نفس المصدر والجزء، ص٢٥٧، ابن القنفذ: الفارسية، ص١٠٦.

٨- ابن خلدون: نفس المصدر والجزء، ص ٢٥١.

٩- نفس المصدر والجزء، ص٢٥١.

١٠- ابن ابى زرع (أبو الحسن على بن عبد الله): الأنيس المطرب بروض القرطاس، تحقيق كارل يوحن تورنبرغ، أبساله، ١٨٤٣، ص ١٦٣ وما بعدها.

١١- ابن خلدون: المصدر السابق، جـ٦، ص ٢٥٢.

١٢ نفس المصدر والجزء والصفحة.

١٣- نفس المصدر والجزء، ص٢٥٣.

١٤- ابن القنفذ: الفارسية، ص١٠٧.

١٥- ابن القنفذ: الفارسية، ص١٠٧.

١٦- ابن خلدون: تاريخه، الجزء السادس، ص٢٥٣.

١٧- ابن القنفذ: المصدر السابق، ص١٠٨.

١٨- نفس المصدر والصفحة.

١٩- نفس المصدر والصفحة.

٢٠- نفس المصدر والصفحة.

٢١- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب فى العصر الاسلامى، مؤسسه شباب الجامعة، الاسكندرية، ص٨١٨.

٢٢- محمد العروسى المطوى: السابق، ص١٣٢.

23 - Dufourcq (charles - Emmanuel):L'Espagne Catalane et le Maghrib aux xiii et xiv siecie, Paris, 1966, p. 93.

٢٤- ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله): التكملة لكتاب الصلة، طبع بعناية كوديرة وزيدان، مجريط، ١٨٨٦، ترجمة رقم ٤٠٠، ٦٣١، الحميرى (ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم): صفة جزيرة الاندلس، منتخبة من كتاب الروض المعطار، تحقيق ليفى بروفنسال، القاهرة، ١٩٣٧، ص١٩١.

25 - Markham (clements): The story of Majorica and Minorica, London, 1908, pp. 37-38.

26- Ibid

٢٧- المقرى (شهاب الدين ابو العباس أحمد بن محمد): نفح الطيب من غصن أندلس الرطيب، جـ٦، تحقيق الاستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد، الطبعة الاولى، مطبعة السعادة، ١٩٤٩، ص٢١٤، وانظر ايضا:

ابن عبد الملك المراكشى (ابو عبد الله محمد): كتاب الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة، السفر الاول - القسم الاول، تحقيق محمد بن شريفه، دار الثقافة، بيروت، ص٣٤٥، ترجمة رقم ٤٣٦، وقارن، ابن الآبار: التكملة، السفر الثانى، ص٣٧٥، ترجمة رقم ٩٨٣.

28 - Alcover (Miguel): El conquistadory la isla de Mallorca, Palma de Mallorca, 1929 p. 117.

29- Vilar (p).: La catalogne dans L'Espagne moderne, T.I, Paris, 1962, pp. 443-446

30- Brunschvig (R.): La berbérie orientale sous Les Hafsides, Vol, I, Paris, 1940, pp. 27 - 29.

٣١- ومما جاء في هذه القصيدة:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا.

وهب لها من عزيز النصر ماالتمست فلم يزل منك عز النصر ملتمسا

في مخطوط زواهر الفكر وجواهر الفقر، لابن المرابط (أبو العلاء محمد بن علي)، ضمن مخطوط الاسكوريال رقم ٥٢٠، من لوحة ٨٢ إلى لوحة ٨٤، ابن الخطيب (لسان الدين): أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام، الجزء الخاص بتاريخ اسبانيا: نشر ليفي بروفنسال، بيروت، ١٩٥٦، ص ٣٧٢ - ٣٧٣، ابن خلدون: تاريخه، جـ٦، ص٢٨٣ ، ص ٢٨٥، المقرى: نفح الطيب، جـ٣، ص٣٤٧، وجـ٤، ص٢٨٢.

٣٢- ابن خلدون: المصدر السابق، جـ٦، ص٢٨٥، الزركشي: المصدر السابق، ص٢٧، ص٢٨.

٣٣- ابن خلدون: نفس المصدر والجزء والصفحة، الزركشي: نفس المصدر، ص٢٨، وانظر ايضا:

The chronicle of James I, King of Aragon surnamed the conqueror (Written by himself), Translated from the catalan by the Late John Forester Esq. Vol. I, London, 1883, pp. 377 - 380.

٣٤- ابن الابار (ابو عبد الله محمد بن عبد الله): الحلة السيراء، الجزء الثاني، نشر الدكتور حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٦٣، ص١٢٧، وانظر ايضا: ابن عذارى المراكشي (أبو العباس أحمد بن محمد): البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب، القسم الرابع، تحقيق أويثي ميراندا وآخرون، تطوان، ١٩٦٠، ص٣٤٥، ابن خلدون: تاريخه، جـ٦، ص٢٨٥.

35- Sayous : Les methodes Commerciales de Barcelona aux xiiie et xive siécles, 97, en (Revue Estudis Uiversitaris Catalans, T. 16, Barcelona, 1931, P. 198. Durourcq: Op. cit, p.98.

٣٦- منشوربابوى فى ٩ يوليو ١٢٤٦م، فى:

37- Berger (E): Les registres d'Innocent IV, Bibliotheques des Ecoles Française d'Athénes, Rome, (collection Paris), 1884 - 1911, T.I.P. 299; Dufourcg: Ibid.

38- Dufourcq : Ibid, p. 98.

39- Registres de chancellerie de L'Archivo Real de la Corona de Arqgon, 9, F 15, Alemany (J): Milicias Cristianas al Servicio de los sultanes musulamanes del . Almagreb en (Homeaje D. Francisco Codera en su Jubilacion del Profe sorado, Zargoza, (1904).

40- Alemany: Ibid, P. 160.

٤١- ابن خلدون: المصدر السابق والجزء، ص٢٨١.

٤٢- نفس المصدر والجزء والصفحة.

٤٣- نفس المصدر والجزء والصفحة.

٤٤- كان السلطان الحفصى يدفع شهريا لكل عضو فى الفرقة المسيحية مبلغ يتروام ما بين ٤٥ إلى ٩٠ دينار بيزنطى، أما قائد الفرقة فكان يتقاضى ما بين الفى وثلاثة آلاف بيزنطى شهريا، وكان الارغونى يحصل على جزء منها، ١٥ دينار بيزنطى تقريبا فى الشهر عن كل عضو فى الفرقة، والف دينار بيزنطى شهريا عن القائد، انظر:

Dufourcq : Op. cit, pp. 102 - 103.

45- Archivo de la corona de Àragon, Barcelona, ACA, Pergaminos de Jaime I No 1498.

46- ACA, Rg. 10, Fo . 16.

47- ACA, Pergaminos de Jaime I, No 1498

48- ACA, Rg. 9, Fo . 15.

49- ACA, Rg. 10, Fo . 16.

50- Dufourcq: Op. cit, p. 111.

51- Bofarully Broco: Historia de Cataluna T. III, Barcelona, 1876, p. 367.

٥٢- ابن خلدون: المصدر السابق والجزء، ص٢٨١.

٥٣- الزركشي: تاريخ الدولتين: ص١١٨.

٥٤- ابن خلدون: المصدر السابق والجزء، ص٢٨١.

٥٥- نفس المصدر والجزء والصفحة وانظر ايضا: ابن الخطيب (لسان الدين): الاحاطة فى أخبار غرناطة، جـ١ تحقيق محمد عبد الله عنان، القاهرة، ١٩٧٣، ص ٣١٦.

٥٦- ابن القنفذ: الفارسية، ص١١٨.

٥٧- نفس المصدر السابق والصفحة.

58- Brunschvig: La berbérie, t. I, pp. 41, 73.

59- Dufourcq: Op. cit, p. 112.

60- Ibid, pp. 24-25.

61- Ibid, p. 113.

62- Ibid, p.113

63- Fernando y. Gonzalez: Estado Socialy Politico des Los mudjares de Castille, Madrid, 1866, p. 166.

64- Gaspar Remiro (M.): Historia de Murcia Musulmana, Zaragoza, 1905, pp. 300 - 303 Dufourcq: op. cit, p.118.

65- Ibid, p. 119.

٦٦- وكان خايمى الاول ملك ارغون قد منح مجلس مدينة برشلونة حق تعيين القناصل بمرسوم أصدره عام ١٢٦٦، انظر:

SWIFT (F.D.) |: The Life and times of James the first the coqueror, Oxford, 1894, pp. 295 - 296.

٦٧- المقريزى (احمد بن على): السلوك لمعرفة دول الملوك، الجزء الاول، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٥٧، ص٢٣١.

68- Brunschvig, op; cit, T.I., p. 36.

٦٩- سعيد عبد الفتاح عاشور: أوربا العصور الوسطى، الجزء الاول، التاريخ السياسى، الطبعة العاشرة، الناشر مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٦، ص ٥٥٩.

70- Dutaillis (Charles petit): Saint Louis, in, (The cambridge Medieval History), Vol. VI, Chap. x Cambridge, 1968, p. 360.

71- Brunschvig, op. cit, p. 53.

72- Ibid, P. 54.

٧٣ -ابن خلدون: المصدر السابق والجزء، ص٢٩١، وانظر ايضا: محمد العروسى المطوى: المرجع السابق، ص٢٠٠.

٧٤ - ابن خلدون: نفس المصدر والجزء والصفحة.

75- Brunschvig: op. cit, p. 57.

76- Dufourcq: op. cit, p. 121.

77- Aguado Blaye: Manuel de Historia de Espana, t I Madrid, 1947, p. 729.

78- Ibid, pp. 734 - 735.

79- Mas Latrie: Traites de paix et de concernant les relations de chrériens avec les Arabes de L'Afrique Seprentrionale au moyen - âge, Paris, 1886.

80- Brunschvig: Op. cit, p. 51, No. I.

وثيقة بيزيه مؤرخة فى عام ١٢٧١م يستفاد منها أن خايمى الفاتح عين فى ٢٥ أغسطس ١٢٧٠م مسؤولان عن الفندق والقنصلية القطلانية فى تونس هما انظر:

Lorenzo oto, Pere Pascase

Mas - Latrie: op. cit, pp. 93 - 96;

81- Orton (previte): Italy, 120 - 1290, in (The Cambridge Medieval History, T. Vi Chap. 6), Cambridge, 1968, p. 191.

٨٢- ابن خلدون: المصدر السابق والجزء، ص٢٩٤.

83- Brunschvig: Op cit, pp. 63 - 64.

84- Dufourcq: op. cit, p. 124

٨٥- ابن خلدون: المصدر السابق، جـ٦، ص٢٩٦.

٨٦- الزركشي: المصدر السابق، ص ٤٠، ابن القنفذ: المصدر السابق، ص ١٣٤.

٨٧- ابن خلدون: المصدر السابق والجزء، ص٢٩٦، ابن القنفذ: المصدر السابق، ص١٣٤.

٨٨ - ابن القنفذ: نفس المصدر، ص١٣٥

٨٩- نفس المصدر والصفحة.

٩٠- سعيد عاشور: المرجع السابق، جـ١، ص٥٥٩ - ٥٦٠.

٩١ -كونراد لانشيا، ابن عم الملكة كونستانس زوج بيدرو الثالث ملك أراغون، وكان بحارا ايطالياً ممتازا، دخل فى خدمة مملكة أراغون، وأنعم عليه بيدرو الثالث بلقب اميرال السفن الارغونية، انظر:

Dufourcq: op. cit. p. 240.

92- Dufourcq: op. cit. p. 240.

93- Brunschvig: op. cit. pp. 74 - 75.

94- Mas - Latrie : op. cit, pp. 187 - 188.

95- Brunschvig: op. cit. pp. 75 - 77.

96- Dufourcq: op. cit, p. 242.

97- Ibid, p. 242.

98- Brunschvig op. cit. p. 76.

٩٩- ابن القنفذ: المصدر السابق، ص١٣٥.

١٠٠- ابن خلدون: المصدر السابق والجزء، ص٢٩٧.

101- Dufoucq: op. cit, p. 243.

١٠٢- ابن خلدون: المصدر السابق والجزء، ص٢٩٧.

١٠٣- نفس المصدر والجزء، ص٢٩٧، ابن القنفذ: المصدر السابق، ص١٣٦.

104- Dufoucq: op. cit, p. 243.

١٠٥ – ابن القنفذ: المصدر السابق، ص١٣٩ .

106- Dufoucq: op. cit, p. 243.

107- Ibid, p. 244.

108- Ibid, p. 245

109- Ibid.

110- Ibid.

111- Ibid, p. 246.

112- Ibid, p. 247.

١١٣ – ابن خلدون: المصدر السابق، والجزء والصفحة، وانظر ايضا:

Brunschvig: op. cit, pp. 80 - 83.

١١٤ – ابن القنفذ : المصدر السابق، ص ١٣٩ .

١١٥ – نفس المصدر والصفحة.

116-Prietoy Llovera (partricio): Politica Aragonesa en Africa, hasta la muerte de Fernando el catolico, en (Premio " Africa" de Litertura), 1951, Consejo Superior de investigaciones, Instituto de Estudios Africanos, Madrid, 1952 pp. 44 - 45.

١١٧ – ابن خلدون : المصدر السابق والجزء، ص ٣٠٥.

١١٨ – ابن القنفذ : المصدر السابق، ص ١٥٠، وانظر أيضا :

Brunschvig: op. cit, p. 93.

119- Ibid, p. 93.

١٢٠ – ابن خلدون : المصدر السابق والجزء السابق، ص ٣٠٥.

121- Brunschvig: op. cit, p. 93.

١٢٢ – محمد سعيد المطوى : المراجع السابق، ص ٢٧٣.

١٢٣ – ابن خلدون : المصدر السابق والجزء، ص ٣٠٦.

124- Brunschvig: op. cit, . 94.

125- Ibid, p. 94 - 95.

126- Dufourcq: op. cit, p. 247.

البحث الخامس

غزوة البيازنة والقطلان
لجزيرتي يابسة وميورقة الإسلاميتين
(٥٠٨ - ٥٠٩هـ / ١١١٤ - ١١١٦م)

١ - الموضوع ومصادره :

تمتع المغرب الإسلامى منذ النصف الثانى من القرب الخامس وأوائل السادس للهجرة بوحدة سياسية ودينية قوية فى ظل دولة المرابطين، التى أعادت لدولة الاسلام فى الأندلس وحدتها بعد تفكك سياسى وإجتماعى دام نحو ثلاثة أرباع القرن تحت حكم ملوك الطوائف، استهلتها بنصر حاسم فى موقعة الزلاقة على قوى النصرانية فى الأندلس، وأردفتها بالقضاء على دويلات الطوائف المتصارعة فيما بينها وضمها تحت رايتها فنعمت الأندلس من جديد بوحدة سياسية أهلتها لأن توقف - ولو إلى حين - حركة الاسترداد المسيحى.

غير أن جزءا هاما من دولة الإسلام فى الأندلس أعنى به الجزائر الشرقية (البليار) منورقة وميورقة ويابسة لم تشملها راية المرابطين بل قامت فيها إمارة مستقلة، وقدر لهذه الامارة منذ أوائل القرن السادس الهجرى أن تواجه فى يابسة وميورقة حملة صليبية ضارية شاركت فيها قوات بيزية وقطلانية وممالك أخرى استهدفت السيطرة عليهما وإسقاط الحكم الإسلامى فيها، فجرت وقائع وأحداث مثير ة صمد أمامها مسلمو الجزائر الشرقية، وأستشهد منهم من استشهد حتى تمكن المرابطون من استعادتها وضمها إلى دولتهم، فنعمت فى ظلهم بالأمن وغدت درعا واقيا لشرق الأندلس ضد أسبانيا المسيحية بعد أن لعبت دورها البارز خلال الحملة الصليبية المشار إليها والتى جرت فيما بين سنتى ٥٠٨ - ٥٠٩هـ/ ١١١٤ - ١١١٦م.

وكان البابا باسكال الثانى Paschal II قد بارك الحملة الصليبية للاستيلاء على الجزائر الشرقية ففى ٦ أغسطس ١١١٤م / ربيع الأول ٥٠٨هـ أقلعت الحملة من بيزا للاستيلاء على ميورقة كبرى الجزائر الشرقية ولكنها باءت بالفشل وعادت سفن المعتدين فى منتصف ابريل ١١١٦ م / ذى القعدة ٥٠٩ هـ خائبة- وبعد أيام قليلة - تمكن المرابطون من استرجاع الجزائر الشرقية.

والجدير بالذكر أن دولة الإسلام فى الأندلس لم تواجه منذ زمن مبكر ضغطا متصلا من الممالك الاسبانية المسيحية فقط، بل واجهت أيضاً الغرب المسيحى قاطبة الذى كان يسعى لانتزاع الأندلس من أيدى المسلمين. وعليه فقد تحمل الأمويون فى الاندلس عبء النضال والتصدى للمد النصرانى، الذى ما لبث أن زاد زمن الطوائف، وأسفر عن سقوط طليطلة فى يد القشتاليين عام ٤٧٨ هـ (١٠٨٥م)

ثم تصدى المرابطون فى المغرب بمعاونة بعض القوات الأندلسية للخطر النصرانى الذى توقف مؤقتا بعد أنتصار الزلاقة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦م)، فى الوقت الذى واجة فيه المشرق الاسلامى الخطر الصليبى أواخر القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) حيث بدأت الحروب الصليبية وسقط بيت المقدس عام ٤٩٢ هـ (١٠٩٨م)، وأستقر الصليبيون فى المشرق إلى حين.

وموضوع دراستنا هو غزوة البيازنة والقطلان على جزيرتى يابسة وميورقة الاسلاميتين، التى هى بمثابة حلقة فى سلسلة الاعتداءات الصليبية على دولة الإسلام فى المغرب الاسلامى، ولهذا فقد حرصنا على إلقاء الضوء على دوافع هذه الغزوة، والقوى المسيحية المشتركة فيها، وتتبع خط سيرها منذ إقلاع الاسطول الصليبى من بيزا حتى استيلائه على يابسه فحصاره لمدينة بلمه حاضرة جزيرة ميورقة كبرى الجزائر الشرقية، والمقاومة الباسلة التى أبداها مسلمو الجزائر الشرقية مع إبراز موقف المرابطين إزاء هذا العدوان الصليبى وأخيراً استعادة المرابطين لميورقة وباقى الجزائر الشرقية.

أما عن مصادر البحث، فالواقع أن المصادر الاسلامية صمتت تماما عن ذكر تفاصيل هذه الحملة الصليبية على جزيرتى يابسة وميورقة، وإن أوجزتها فى عبارات مقتضبة، مثلما جاء فى روايات ابن القطان فى كتابة نظم الجمان، وأبن خلدون فى تاريخه، والقلقشندى فى صبح الأعشى فى صناعة الانشا، والحميرى فى الروض المعطار فى خبر الاقطار فيما عدا ابن الكردبوس فى كتابة تاريخ الأندلس الذى انفرد بالحديث عن الحملة فى شئ من التفصيل. وإلى جانب هذه المصادر هناك مجموعة وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين – قام بنشرها الدكتور محمود على مكى فى صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد المجلد السابع والثامن – تلقى بعض الضوء على موقف المرابطين من مسلمى الجزائر الشرقية.

أما المصادر الأجنبية[١]، فتعتبر القصيدة البيزية عن الحرب البليارية من أهم المصادر اللاتينية لأن ناظمها كان شاهد عيان، وقد حفظت منها ثلاث نسخ مخطوطة :

الأولى ترجع إلى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى وأوائل القرن الرابع عشر الميلادى محفوظة فى مكتبة Laurenciana de Florencia المسماه Rediano نشرها Ughelli فى كتاب : .Italia Sacra, Tomo X.

أما النسخة الثانية فترجع إلى أواخر القرن الرابع عشر أو القرن الخامس عشر وهى محفوظة فى المتحف البريطانى فى لندن والمسماه Britanico وقد نسبت هاتان المخطوطتان إلى الشاعر المؤرخ لورنثو الفيرونى الذى يتفق المؤرخون على أنه كان رجل دين – شماسا أو قسيسا – فى الحملة الصليبية على مسلمى يابسة وميورقة وكان شاهد عيان لأحداثها، وقد نشر Alvaro Campaner Y Fuertes ملحقين عنهما فى كتابة :

Bosquejo Historico de La Dominacion Islamita en Las Baleares, Palma, 1888.

الأول (ملحق ٤) من ص ٢٦٤ – ٢٧٢ عن مدونة لاتينية قديمة تتعلق بفتح البيزيين لجزيرتى يابسة وميورقة نقلا عن نص لاتينى من كتاب فرديناند أوجيلى :

Ughelli (Ferd) : Italia Sacra, Tomo X, Venecia, Sebastian Colet, 1722.

والثانى (ملحق ٥)، من ص ٢٧٣ – ٢٩٠ بعنوان، مختصر من القصيدة اللاتينية للشاعر المؤرخ لورنثو الفيرونى عن فتح البيزيين لجزيرتى يابسة وميورقة مترجماً إلى اللغة الأسبانية عن الأصل اللاتينى بعنوان :

Laurentii Veronesis (Seu Vernsis) Petri Secondi Archihepiscopi Pisani Diachoni, Rcrum in Majorico Pisanorum ac de Corum Triumpho Pisis Habito Anno Salutis MCXIV.

وقد استفدنا فى كتابة البحث من هذين الملحقين، مع الأخذ فى الاعتبار أسلوب التقريظ والمديح الذى أضفاه مؤلفها على قادة الحملة، والمبالغة الزائدة فى وصف الأحداث.

أما النسخة الثالثة من المخطوط وهى الأكثر قدما وتسمى Pisano Roncioni لكونها حفظت فى الأرشيف الخاص بأسرة Roncioni العريقة، والتى نشرها معهد التاريخ الايطالى Instituto Historico Italiano عام ١٩٠٤ تحت عنوان : Liber Maiolichinus de gestis Pisanorum Illustribus, A Cura di Carlo Colisse, Roma,, 1904.

وبالرغم من كونة مصدراً تاريخياً غزير المعلومات، كقصيدة قصصية مليئة بالمديح والتقريظ للإنتصارات التى حققتها الحملة الصليبية إلا أن رواياته متنوعة

وكاملة عن حصار القوات الصليبية والحروب الدامية التى جرت فى جزيرة ميورقة كبرى الجزائر الشرقية. فالقصيدة – على ذلك – تعتبر كشفاً رائعاً ليس فقط عن الحرب البليارية، لكن أيضاً عن السياسة والحكم والاقتصاد والتجارة والعلاقات الدولية لجمهوريتى بيزا وقطالونيا ودويلات البرانس، فهى إذن بمثابة خزانة معلومات تعرف حينا باسم "El Maiolquino" وحينا آخر بالقصيدة البيزية "El Poema Pisano"، وقد اعتمد عليها المؤرخ الأسبانى Migual Alcover اعتماداً كبيراً ضمن مصادر أخرى فى كتابة - El Islam en Mallorca (707 - 1232) y La Cruzada Pisano - Catalane (1113 - 1115), Palma de Mallorca, 1930.

ومنها استفدنا أيضاً فى دراسة الحملة الصليبية وعلى الأخص فى التعرف على أماكن نزول القوات الصليبية المشتركة شرق جزيرة ميورقة، والكثير عن طبوغرافية حاضرتهاوتحصيناتها.

٢- أحوال الجزائر الشرقية قبيل وصول الحملة الصليبية :

كان لتغير ميزان القوى فى غرب البحر المتوسط خلال القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى)، واضمحلال البحرية الأندلسية عقب سقوط الخلافة الأموية وما ترتب على ذلك من تفتت الوحدة السياسية الأندلسية وتجزئها إلى دويلات مستقلة، واعتماد هذه الدويلات وخاصة المطلة على السواحل على أساطيل محلية صغيرة هى فى حقيقة الأمر قطع من الأسطول الأندلسى اقتسمته فيما بينها[٢]، كان لذلك كله أعظم الأثر فى أن تفقد القوى البحرية الأندلسية دورها البحرى البارز فى النصف الغربى من حوض البحر المتوسط باستثناء دولة مجاهد العامرى صاحب دانية والجزائر الشرقية الذى تجمع المصادر – سواء العربية أو الاجنبية – على أنه قام بغزوات بحرية هامة منها غزاته لجزيرة سردانية عام ٤٠٦ هـ (١٠١٥م) بأسطول تكون من مائة وعشرين سفينة، وتمكنه من اقتحام الجزيرة والسيطرة على أكثر من مواضعها[٣]، ومنها قيامه بغارة على سواحل إيطاليا الغربية ومهاجمته ثغر لونا Luni فى شمال غرب إيطاليا وما حواه من المناطق الساحلية[٤]، كما أغار على ثغر برشلونه ٤٠٩ هـ (١٠١٨م) وعلى ثغر أربونه Narbonne ٤١٠ هـ (١٠١٩ هـ)[٥]، وهذه الإغارات البحرية لم تكن فى الأغلب إلا محاولات لاستعادة الدور البحرى الهام الذى كان للدولة الأموية خلال القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى).

هذا فى الوقت الذى نمت فيه قوى بحرية جديدة معادية مثل جنوة وبيزا وساحل إيطاليا الشمالى الغربى، وأقبلت هذه القوى الجديدة على الملاحة فى مياة البحر المتوسط وذلك فى أعقاب نجاح الكونت وليام حاكم بروفانس فى عام ٣٦٥هـ (٩٧٥م) فى طرد مجاهدى البحر الأندلسيين من قاعدة فراكسنيت البحرية Fraxinet فى جبل القلال[٦]، ولم يأت عام ٤٠٦ هـ (١٠١٥م) إلا وقد أصبحت جنوه وبيزا قوتين بحريتين عظيمتين تمكنتا من ايقاع الهزيمة بأسطول مجاهد العامرى فى مياه سردانية[٧]، وتمكنت أساطيلهما بعد ذلك من السيطرة على البحر المتوسط وتجارته، وكانت بمثابة حلقة الوصل فى الميدان التجارى بين كل من المشرق العربى وبيزانطة من جهة وبين الغرب من جهة أخرى[٨].

وكان يتولى الجزائر الشرقية ولاة من قبل مجاهد العامرى أمير دانية والجزائر الشرقية وولده على إقبال الدولة من بعده، وهذا الأخير أولى الجزائر الشرقية عناية فائقة إذ كان يعتبرها من أفضل أجزاء مملكته، فاهتم بتقوية أساطيلها ودفاعاتها وعهد بإدارتها لولاة عرفوا بشجاعتهم وتمرسهم فى شئون البحر، فساهموا بدور بارز فى الجهاد البحرى فى حوض البحر المتوسط الغربى من جهة وتأمين وتنشيط حركة التجارة من جهة أخرى[٩].

وعندما استولى المقتدر بن هود أمير سرقسطة على دانيه فى شعبان عام ٤٦٨هـ / أبريل ١٠٧٦م، أعلن عبد الله المرتضى والى الجزائر استقلاله فيها حتى وفاته عام ٤٨٦ هـ (١٠٩٣م)، ثم خلفه بعد موته مولاه مبشر بن سليمان[١٠]. ويفهم من رواية ابن الكرديوس أن مبشرا كان أصله من قلعة الحمير Castelldasens من أعمال لارده Lerida، وأسره النصارى فى صباه وجبّوه وعاش فى برشلونه حتى تعّرف عليه سفير المرتضى أمير الجزائر الشرقية الذى كان مبعوثا إلى كونت برشلونه برنجير، فأعجب السفير بمواهب مبشر وافتداه من الأسر وقدم به على المرتضى فسر به وقربه وأولاه ثقته، واستعان به فى تصريف شئون الحكم وأبدى مهارة وإخلاصا حتى وفاة المرتضى فخلفه فى الإمارة وتلقب بناصر الدولة[١١].

اهتم مبشر بن سليمان ناصر الدولة بضبط شئون إمارته فبنى العديد من السفن وشيد القلاع والحصون، وقد جاء فى كتاب "El Mailichinus" أن ناصر الدولة شيد الربض الجديد بمدينة ميورقة وجدد أسوارها[١٢] وكان له دور بارز فى الجهاد البحرى، فقد أغار أسطوله على شواطئ قطلونية وبروفانس وليجوريا، كما نجحت

تحصيناته الدفاعية في صد هجمات قطلانية ونورماندية على الجزائر الشرقية. وحدث أن سيجوارد الأول Siguard I ملك النرويج كان متوجها على رأس أسطوله إلى المشرق لمسانده القوات الصليبية تلبيه لنداء الباب أوربان الثانى Urban II . فأغار على شواطئ غرب الأندلس ٥٠٢ هـ (١١٠٧م)، ثم عبر مضيق جبل طارق وسار إلى الجزائر الشرقية، وهاجم جزيرة فورمنتيره Formentera الصغيرة، وأضرم فيها النار وقتل حاميتها واستولى على ما فيها من أموال وذخائر ثم غادرها إلى جزيرة منورقة، غير أنه أجبر على تركها إلى صقلية بعد أن رأى منعه دفاعاتها وعنف مقاومة حاميتها الاسلامية[١٣].

٣- مسلمو الجزائر الشرقية ودورهم فى مواجهة غزوة البيازنة والقطلان على جزيرتى يابسة وميورقة :

أبدى الأسطول البحرى الميورقى نشاطا ملحوظاً حين أغار على سواحل قطلونيه وبلاد الفرنجة وإيطاليا واليونان وجزائر البحر المتوسط - قورسقة وسردانية وصقلية، واستولى على عدد من السفن المسيحية التى صادفها فى سيره، فضلا عما استولى عليه من غنائم كثيرة بينها أعداد كبيرة من الأسرى[١٤] - وكان لذلك كله رد فعل لدى أهل بيزا وغيرها من مدن توسكانا Toscana الذين اشتعلت حماستهم الدينية للقيام بعمل رادع ضد مبشر بن سليمان ناصر الدولة أمير الجزائر الشرقية، الذى يغالى المؤرخ الإيطالى Ughelli فى وصفة بأنه : «كان طاغية، قاسى القلب، يعامل الأسرى المسيحيين بقسوة بالغة، حتى أن عدداً كبيراً منهم كانوا مودعين فى غياهب سجونه، يرسفون فى الأغلال ويتعرضون لأشد أنواع التعذيب»[١٥]. ويصور المؤرخ الشاعر لورنثو الفيرونى ما أحدثته غارات مسلمى الجزائر الشرقية بقوله : «أن مسلمى البليار فى إغاراتهم على الشواطئ الإيطالية واليونانية وجزيرة صقلية أضرموا النار فى القرى والحصون والكنائس وحملوا معهم إلى ميورقة - ضمن ما غنموه - عدداً كبيراً من الأسرى عاملوهم معامله سيئه لا رحمه فيها[١٦]. وتقدر الرواية الأسبانية عدد الأسرى النصارى فى سجون ميورقة بثلاثين ألف أسير يئنون تحت نير العبودية[١٧].

والغريب هنا أن جمهورية بيزا هى التى أبدت حماسة متقدة دون غيرها من الدول المسيحية إذ قام بدور رئيس أساقفتها وخطب فى الجماهير البيزية المحتشدة فى كاتدرائية بيزا قائلاً : «إخوانكم مأسورين فى ميورقة، مكبلون بالأغلال، ويتعرضون للعذاب والإغراء للارتداد عن دينهم المسيحى»[١٨]. ثم ترأس وفدا من إثنتى عشرة

شخصية بيزية وسار لمقابلة البابا باسكال الثانى يلتمس موافقته على إعداد حمله صليبية ضد مسلمى الجزائر الشرقية، فبارك البابا هذه الفكرة، ومنحهم إمتيازات الحرب الصليبية مع غفران كامل للذين سيشاركون فى الحرب المقدسه، وعين بدرو رئيس الأساقفة قائداً أعلى للحملة(١٩).

ونتساءل هنا عن الدوافع الرئيسية التى حملت جمهورية بيزا على تبنى مشروع الحملة الصليبية على مسلمى الجزائر الشرقية. وللإجابة على هذا التساؤل ينبغى أن نبادر بالاشارة إلى أن جمهورية بيزا كانت تتطلع إلى السيطرة على الملاحة فى البحر المتوسط والتحكم فى طرق التجارة البحرية فيه سواء فى حوضه الشرقى أو الغربى(٢٠)، لأن تجارتها البحرية كانت قد تأثرت كثيراً نتيجة للغارات البحرية التى كان يقوم مسلمو الجزائر الشرقية بها على سواحل أوربا الجنوبية وجزر البحر المتوسط، فاستغلت جمهورية بيزا نقمة الشعوب المسيحية على مسلمى الجزائر وحولتها لمصلحتها الخاصة، وتبنى رئيس أساقفتها الفكرة ليس من أجل تحرير الأسرى النصارى من سجون ميورقة كما أدعى فحسب بل من أجل القضاء على منافس تجارى خطير وعدو رهيب طالما تعرض للأساطيل البيزية وأوقع بها الخسائر الفادحة.

وليس أدل على ذلك من أنه عندما طلب البابا باسكال الثانى من جمهورية جنوة المشاركة فى الحملة وهى المتضررة – أيضاً – تعللت بأنه يلزمها عاما كاملاً للإعداد للحملة، وقد عبر عن ذلك المؤرخ الأسبانى خوان داميتو Juan Damieto بقوله أن الجنويين لم يرفضوا صراحة المشاركة فى الحملة ضد مسلمى الجزائر الشرقية حتى لا يغضبوا البابوية، ولكنهم طلبوا مهلة سنة كاملة للإعداد والتجهيز، وهذا يعد فى حد ذاته تسويفا لا رفضا واقتصرت مشاركتهم فى الحملة على التمنيات الطيبة(٢١). فى حين أن المصادر العربية نصت صراحة على اشتراك جنوه فى هذه الحملة، فابن خلدون يذكر : «أنه فى سنة تسع وخمسمائه تغلب أهل جنوة على ميورقة»(٢٢). أما ابن الكردبوس، فيقول : «فى سنة ثمان وخمسمائة اجتمع أهل بيشة (بيزا) وجنوة وعمروا ثلاثمائة مركب، وخرجوا إلى جزيرة يابسة من عمل ميورقة ...»(٢٣). ويبدو أن الجنويين لم يشتركوا فى الحملة كدولة ممثله، وإنما شارك فيها أفراد منهم، ويؤيد ذلك أن المؤرخ الشاعر لورنثو الفيرونى يذكر أن ألبرتو الجنوى الذى كان عدوا للبيزيين وصديقاً للمسلمين انضم إلى الحملة الصليبية بعد وصولها إلى الشاطئ القطلانى بعد أن ارتاب فيه المسلمون وردوه فى

جفاء[٢٤]، ولهذا كانت مشاركة ألبرتو الجنوى فى الواقع مشاركة فردية، فربما اختلط الأمر على المؤرخين المسلمين ففهموه على أنه مشاركة جماعية. وربما يرجع امتناع جنوه عن المشاركة فى هذه الحملة إلى التنافس التقليدى بين الجمهوريتين الإيطاليتين جنوه وبيزا فى حوض البحر المتوسط والصراع القائم بينهما للهيمنه على تجارته.

ومهما يكن الأمر، فإن البيزيين لم يترددوا فى الإعداد للحملة البحرية، فبنوا عددا كبيراً من السفن ذات الأحجام المختلفة والأغراض المتنوعة، وخصصوا قطعاً منها لحمل مؤنة الأسطول وأزواده، وقطعاً لنقل الجنود وعتادهم، وكذلك لحمل الدواب، كما ألحقوا بالأسطول عدداً من القطع الصغيرة بمثابة قوارب نجاة إلى جانب صنع أدوات الحصار والهجوم كالأبراج الخشبية والجسور والسلالم والمجانيق والكباش والسلاسل الحديدية اللازمة لشد السفن والدروع والبيضات والتروس والأسلحة من سيوف وسهام ونبال وأقواس وغيرها[٢٥]. وتقدر الرواية العربية عدد قطع الأسطول البيزى بثلاثمائه مركب[٢٦].

وفى يوم عيد القديس سكستو San Sixto ٦ أغسطس ١١١٤ م (ربيع الأول ٥٠٨هـ)، وهو اليوم الذى كان البيزيون يحتفلون فيه بانتصاراتهم الحربية، أبحر الأسطول البيزى من ميناء أرنو Arno فى ثلاثمائة قطعة بحرية فى اتجاه شواطئ جزيرة قورسقة Corecga وعبر مضيق بونيفاشيو Bonifacio، ووصل إلى لانجونا Langona ثم رسا فى ميناء سانتا ريبارانا Santa Reparata، انتظاراً لوصول مزيد من السفن الأخرى، ثم توجه الأسطول بعد ذلك إلى جزيرة سردانية حيث رسا فى ميناء الرأس الأبيض Capalbi، وانضم إليه قائدان من سردانية مع جنودهما[٢٧].

وفى ميناء الرأس الأبيض بجزيرة سردانية دب الخلاف بين قادة الحملة البيزيين وظهر تباين أهوائهم، فتدخل نفر منهم للقضاء على الخلافات وتوحيد الصفوف قبل الإبحار، ونجحوا فى ذلك إذ وافق قادة الحملة على اختيار أميرين لقيادة الأسطول، وعلى هذا أبحر الأسطول البيزى فى اتجاه جزيرة ميورقة. غير أن بعض قادة الحملة البيزية لم يلتزموا بما اتفق عليه وإطاعة أميرى الأسطول مما أدى إلى حدوث بعض الفوضى وترتب على ذلك اختلال خط السير وانفصال بعض السفن عن الأسطول وتدخلت الطبيعة أيضاً لتزيد الأمر تعقيداً ففى الليلة الثالثة من إبحار الأسطول من ميناء الرأس الأبيض هبت عاصفة قوية مصحوبة ببرق ورعد

أفقدت الأسطول المسار الصحيح، ورسا الأسطول خطأ فى – اليوم التالى – أى فى غرة سبتمبر على سواحل ظنوها سواحل جزيرة ميورقة، ونزلت القوات الصليبية إلى الشاطئ وهاجمت الأهالى، ولكنهم أدركوا أنهم فى أرض مسيحية تتبع كونتية برشلونة التى كان يحكمها آنذاك الكونت رامون برنجير الثالث وأن الشاطئ الذى رسوا عليه هو شاطئ بلانيس Blanes القطلانى الذى يقع على بعد ستة أميال من سانت فيليو دى جيشولز Sant Felieu de Guixols وعندئذ أصابهم إحباط شديد(٢٨).

لكن البيزيين عرفوا كيف يستفيدون من هذه الحادثة، ويستثمرون هذا الوضع الجديد لتحقيق مشروع حملتهم، فأرسلوا على الفور سفيراً من قبلهم يدعى إيليد براندو أورلاندى Ilde Brando Orlandi أحد القادة الاثنى عشر للحملة إلى الكونت رامون برنجير الثالث ببرشلونة، لتبرير الحادثة وتوضيح هدف الحملة ووجهتها وفي نفس الوقت معرفة إمكانية اشتراكه فيها، وعندما مثل السفير البيزى فى حضره الكونت رامون برنجير حياه قائلا: «أيها الكونت صاحب الشهرة العظيمة: إن الأمة البيزية تحيى في حب المسيح الأمة القطلانية، وإذا وافقتم على زيادة الأسطول البيزى فستجدون أن جيشنا يأمل فى تحالفكم معنا وصحبتكم لنا ويشرفه تبعيته لكم»، وأضاف السفير البيزى قائلا: «ونحن معكم نحارب العدو اللدود، ونقضى على أطماع الطاغية البليارى المرعب الذى ذاعت شهرته فى الآفاق وأزعجت أعماله العدوانية كل شعوب إيطاليا واليونان»، فاستجاب الكونت رامون برنجير الثالث لما طلبه السفير ورد عليه قائلا: لينصر الله قضيتنا، فيستسلم العدو لنا، ولنحتشد – جميعا – للدفاع عن قضيتنا المقدسة ونعمل من أجلها وفى سبيل العدالة المطلقة أحمل سلاحى»، ثم حمل الكونت بشدة على مسلمى الجزائر الشرقية لإغاراتهم المتكررة على سواحل كونتيته ولما أحدثوه من أضرار وتخريب لأسوار وكنائس بلانيس Blanes التى كانت تزدان قبل اغاراتهم بزخارفها الرائعة، ولتطليخهم مذابح الكنائس بدم الرهبان والقساوسة،ولوقوع عدد من الباونات فى قبضتهم أصبحوا يعانون من نير الأسر يرسفون فى الأغلال بسجون ميورقة، ويقاسون من الجوع والعطش لأنهم لم يقبلوا الارتداد عن دين المسيح، وختم الكونت كلامه بقوله: «أن جيوشنا ستحارب من أجل القضية المقدسة، صفا واحدا لتحطيم عدونا الذى لا يرحم»(٢٩).

بهذه الكلمات الحماسية أجاب الكونت رامون برنجير الثالث على السفير البيزى، وكان هذا الرد يمثل كل ما كان يتمناه البيزيون، الذين استطاعوا أن يكسبوا إلى جانبهم حليفا قويا، خبيرا بمواقع الجزائر الشرقية، عليما بقوتها ومواطن الضعف فيها، وهكذا أصبح الاتفاق بين البيزيين والقطلانيين أمرا وشيكاً، مما زاد الحملة عددا وعدة، وغدت آمالهم أقرب إلى التحقيق.

وفى يوم ٧ سبتمبر عام ١١١٤م (ربيع الآخر ٥٠٨هـ)، وصل الكونت رامون برنجيز الثالث إلى ميناء سان فيليو دى جيشولز - حيث تجمع الأسطول - وفى صحبته الأساقفة: رامون Ramon من برشلونه، وبرنجير من جرندة Gerona ، ونوخيلاريو Nogelario من سان روفو، San Rufoوحضر الاجتماع إلى جانب القادة البيزيين الاثنى عشر بدرو المندوب البابوى للحملة رئيس أساقفة بيزا، وبرناردو جيرمو Bernardo Guillermoكونت سردانية والفيكونت أرنالدو Arnaldo وجوفريدو من ثِرْبيا Gaufredo de Cerviaوفرسان آخرون، وعقدت بين البيزيين والقطلانيين اتفاقية تحالف وصداقة، ونشرت نصوص هذه الاتفاقية - التى عرفت باتفاقية سان فيليو دى جيشولز - بيفرر Piferrer فى شئ من التفصيل، ومما جاء بها:

«اتفاقية تحالف وصداقة وقعها كونت برشلونه رامون برنجير الثالث مع قادة الجيش البيزى، الذى سيتوجه إلى ميورقة لتحرير الأسرى المسحيين، يلتزم فيها البيزيون بمساعدة القطلانيين فى كل الحروب التى تجرى مع مسلمى الأندلس، ويعترفون للكونت البرشلونى بحمل الراية البابوية الكبرى فى كل العمليات العسكرية، ويلتزم الكونت من جانبه بالتعهد بضمان حماية وأمن نفوس وأموال البيزيين فى جميع الأراضى التابعة للكونتية، كما وعد الكونت بإعفاء البيزيين من أى رسوم أو مكوس واستثنى سفنهم من قانون الغرق»(٣٠). ويضيف المؤرخ والشاعر لورنثو الفيرونى أن الكونت البرشلونى وافق على المساهمة فى الحملة بمائتى فارس ومائة سفينة قطلانية(٣١).

ألهب وصول الأسطول البيزى واتفاق سان فيليو دى جيشولز الحماسة ليس فقط فى أرجاء إمارة قطلونية بل وفى الإمارات الفرنجية فيما وراء البرينية، فانضم إلى الحملة كل من: جيوم كونت مونبلية بمائة فارس وجند مشاه وصلوا فى عشرين سفينة، واميركو فيكونت نربونه بعشرين سفينة، وسيد آرل ريموند بسبع سفن مليئة بمحاربى أشداء، وانضم إليهم قيم كنيسة آرل، وفرسان من روسيللعون

وبيثرس Beziers ونيمه Nimes وبروفنس[٣٢]، كما انضم الى الحملة كونت أمبورياس Ampurias ورامون دى باس Ramon de Bas ، وتوجت القوات المشتركة فى الحملة الصليبية إلى ميناء سالو Salou حيث بقيت هناك فترة طويلة فى انتظار الإبحار لغزو جزيرة ميورقة[٣٣].

وفى يوم ٢٤ سبتمبر (ربيع آخر ٥٠٨هـ)، أقلع الأسطول الصليبى المشترك من ميناء سالو إلى ثغر سان ماتيو San Mateo بقيادة فرانكاردو Francardo وسيد البرنيية أميرى الأسطول فى طريقه إلى الجزائر الشرقية، غير أن سوء الأحوال الجوية واضطراب البحر أجبرته على الإتجاه نحو مياه دانية بساحل شرق الأندلس حيث كانت تحت حكم المرابطين، مما اضطر قادة الحملة إلى إصدار أوامرهم بالعودة ثانيا إلى ثغز سالو، وفيه نزل الجند طلبا للمؤن والماء، ثم قرروا العودة إلى ثغر برشلونه وقضاء فصل الشتاء هناك، وفى الطريق اليها فقد الأسطول عددا كبيرا من السفن والرجال راحوا ضحية اضطراب البحر وارتفاع الأمواج[٣٤].

وهكذا تدخلت العوامل الطبيعية فى فشل المحاولة الثانية للأسطول الصليبى للإغارة على الجزائر الشرقية، وفقد الأسطول عددا كبيرا من قطعة واضطر إلى قضاء الشتاء فى ميناء برشلونه لإصلاح ما عطب من قطعه وانتظارا لمدد جديد من بيزا – حيث أقلعت ثلاثون سفينة – ولطلب المزيد من الامدادات العاجلة. على أن وجود عدد كبير من الفرسان والجنود المشاة والبحارة من القوات المشتركة فى ميناء برشلونه أدى إلى نقص فى الأقوات والمؤن فعمت المجاعة أرجاء قطلونية، وعمل البيزيون – أصحاب المصلحة الأولى فى هذه الحملة الصليبية – على تخفيف حدة هذه المجاعة بتقديم مقادير كبيرة من مخزون أسطولهم، ليس بصفة الهبة المجانية ولكن عن طريق البيع أو المقايضة على بعض السلع والمتاجر[٣٥]. وكان لهذه الظروف السيئة التى واجهت الحملة الصليبية أثر واضح فى تبرم بعض القوى المشاركة فيها، فانسحب بعضهم من الحملة وهمّ بذلك جند لوكا Luca مع عدد غير قليل من البيزيين أنفسهم[٣٦].

وفى تلك الأثناء كان مبشر بن سليمان ناصر الدولة أمير الجزائر الشرقية يرقب سير الحوادث حذرا متأهبا، وكانت بعض قطع أسطوله ترصد تحركات الأسطول الصليبى والإستعدادات التى يقوم بها البيزيون والقطلانيون على ساحل قطلونية، وأدرك ناصر الدولة عظم الخطر الذى يحدق بإمارته فطلب الإجتماع بمستشاريه وقواده وعرض عليهم الموقف وطلب الرأى منهم، فقرروا جميعا التصدى للقوات

الصليبية ومقاومتها على أن يقوم ناصر الدولة بمناورة دبلوماسية لصرف نظر قادة الحملة المشتركة عن مهاجمة الجزائر الشرقية بأن يعرض على قادة الحملة الصليبية تسليم ما لديه من أسرى المسيحيين وتعويض قادة الحملة عما تكبدوه من نفقات وإمدادهم بما يلزمهم من المؤن فى نظير التخلى عن مشروع الحملة، وبالفعل أرسل ناصر الدولة سفارة تحمل رسالة تتضمن هذه المقترحات، لكن القادة الصليبيين رفضوا تماما مقترحات السلم، مذكرين إياه بالحملات التى شنها مجاهد العامرى على سردانية وسواحل إيطاليا واليونان قبل ذلك[٣٧].

ومع ذلك فإن ناصر الدولة لم يأل جهدا فى حراسة سواحل جزره ودرء الخطر عنها، لا سيما وأن بعض قطع الأسطول الصليبى كانت قد انتهزت فرصة تحسن الأحوال الجوية أوائل شهر مارس عام ١١١٥ واتجهت للإغارة على جزيرة يابسه، لكن مسلمى الجزيرة اشتبكوا فى قتال عنيف مع الطلائع الأولى للجند الصليبى الذين نزلوا على سواحل الجزيرة وأبادوهم عن آخرهم، مما اضطر قطع الأسطول الصليبى إلى التحول إلى مهاجمة جزيرة فورمنتيره وأسر عدد من سكانها والاستيلاء على أعداد من الماشية، ثم أعادوا الكرة مرة أخرى على جزيرة يابسه وتجدد القتال واستبسل مسلمو الجزيرة فى الدفاع عن الجزيرة غير أنهم اضطروا إلى التحصن داخل أسوارها، وتمكن الصليبيون من الاستحواذ على عدد كبير من الأسرى والغنائم[٣٨].

وفى منتصف ابريل عام ١١١٥م وصلت سفينتان بيزيتان إلى ميناء بورتوبى Porto - pi فى ميورقة، فرصدتها سرايا الحراسة الاسلامية فى الجزيرة، وابلغت ناصر الدولة على الفور الذى أرسل يدعو القائد البيزى للمثول بين يديه باسطا له ولجنده الأمان، لكن القائد البيزى اعتذر عن قبول دعوته والتمس مقابلته على ظهر سفينته، غير أن الأمير عرض عليه كحل وسط أن يتفاوضا عن طريق رسائل مكتوبة، فأجابه القائد البيزى أنه سيفكر فى هذا العرض، وفجأة أقلع البيزى خارجا من ميناء بورتوبى!![٣٩]. والرواية المسيحية التى تروى هذه الواقعة لم تشر إلى دوافع أو نتائج هذه الزيارة الغريبة -، ولعل هذه الزيارة المفاجئة كانت مرتبطة بالعرض الذى قدمه ناصر الدولة قبل ذلك للقادة الصليبيين، الذين أرسلوا يبلغونه برفضهم لمقترحات السلام التى قدمها، وأن تبَسَّط أمير الجزائر مع القائد البيزى ومحاولة الالتقاء به ربما لشرح وجهة نظرة ومحاولة إقناعة بفرض السلام، لكن كما رأينا فإن القائد البيزى أقلع فجأة دون أن يجيب أمير الجزائر الشرقية إلى طلبه.

وعلى أية حال، فقد انضمت السفينتان فى عرض البحر إلى بعض قطع الأسطول الصليبى واتجهت إلى جزيرة قبريرة Cabrira الصخرية الصغيرة، فرست فى مينائها، وفى اليوم التالى، أقلعت فى اتجاه ميناء بولانسه Pollensa شمال جزيرة ميورقة، بغرض السلب والنهب لكن سكان هذه الناحية لم يمكنوهم من ذلك فهربوا إلى داخل الجزيرة بماشيتهم، ثم توجه القائد البيزى إلى جزيرة منورقة ونزل جنوده إلى الساحل لكن فرسان المسلمين ومشاتهم هاجموهم وأرغموهم على الارتداد إلى سفنهم، عندئذ قرر القائد البيزى العودة إلى برشلونه(٤٠).

ومن المؤسف أن أخبار هذه الإغارات الأخيرة على الجزائر الشرقية استقيناها من الروايات المسيحية لأن المصادر العربية لم تشر إليها ولهذا كان علينا أن نعتمد على هذه المصادر المعادية على الرغم من أنه يمكن القول فيما يتعلق بأهداف الإغارة الأخيرة هذه أنها كانت ترمى إلى تحقيق هدفين: أولهما، الحصول على الأقوات والمؤن للقوات الصليبية المشتركة المقيمة فى ميناء برشلونه والتى كانت تعانى من نقص كبير فى المؤن وهذا ما تؤكده الرواية المسيحية نفسها، وثانيها، الاستطلاع والتعرف على تحصينات ودفاعات الجزائر الشرقية تمهيدا لتنفيذ مشروع الغزو الكبير.

وعلى أية حال، فبعد فترة قليلة من توقف الغارات على الجزائر الشرقية وصلت سفينتان بيزيتان إلى ميناء برشلونه تبشر بقرب وصول الامدادات والمؤن من بيزا، كما وصل الكاردينال بوسون Boson القاصد الرسولى للبابا باسكال الثانى، وفى أوائل الربيع وصلت ثمانون سفينة تحمل مددا من الرجال بجانب الأقوات والمؤن، ووصل القنصلان دودون Dodon وآتو Ato ومعهما توصية بابوية إلى قادة الحملة الصليبية بأن يعملا على إطلاق سراح الرعايا المسيحيين الأسرى فى سجون ميورقة، وهى المهمة التى سلم البابا من أجلها لقادة الحملة رايته وشعاره(٤١).

ويجدر بنا أن نتساءل، أين كان المرابطون من هذه الأحداث؟ ولماذا لم يسارعوا لإنقاذ الجزائر الشرقية من مصير مؤلم قد تتعرض له أو على الأقل لماذا لم يسارعوا إلى ضم الجزائر الشرقية إلى دولتهم؟ وللإجابة على هذه التساؤلات، ينبغى القول أن المرابطين بعد أن اسقطوا ملوك الطوئف الجنوبية والغربية الأندلسية الذين أثبتوا عجزهم وضعفهم وتخاذلهم، لم يتعرضوا بسوء لمبشربن سليمان ناصر الدولة أمير الجزائر الشرقية، ولعل أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اتبع فى علاقاته مع إمارة الجزائر الشرقية المستقلة نفس السياسة التى انتهجها مع بنى هود أمراء سرقسطة

والثغر الأعلى الأندلسى، إذ رأى أمير المسلمين أن كلتا الإمارتين تقوم حائلا بين ممالك النصارى وما يليها من بلاد المسلمين، ثم أن امراءهما لم يحالفوا النصارى المتاخمين لهم ضد جيوش المرابطين ولم يقفوا من الدولة الإسلامية موقف الخيانة والتقاعس الذى وقفه غيرهم من ملوك الطوائف(٤٢). فضلا عن أن المرابطين كانوا يعتبرون الجزائر الشرقية الدرع الواقى لشرق الأندلس يقيه من أى خطر يتعرض له، فما إن أحس المرابطون بتحركات الحملة الصليبية المشتركة على الساحل القطلانى واتفاق كونت برشلونة رامون برنجير الثالث وتحالفه مع البيزيين للإغارة على الجزائر الشرقية حتى انطلقت حملة مرابطية فى محاولة للضغط على أميرها للإنسحاب من تحالفه مع البيزيين وقاد هذه الحملة سنة ٥٠٨ هـ (١١١٤م)، القائدان المرابطيان محمد بن الحاج ومحمد بن عائشة إلى أرض برشلونة، وقد بدأت غزوتهما الجريئة بداية طيبة إذا أصابا كثيرا من الغنائم، غير أن ابن الحاج عند رجوعه اتخذ طريقا جبليا صيقا غير الذى سلكه فى ذهابه، وما كاد يتوسطه حتى أطبق عليه كمين من النصارى فقاتلهم قتال من أيقن الشهادة واستشهد فى هذه المعركة فعلا وهى الموقعة التى يعرفها مؤرخو النصارى باسم كونجست دى مارتوريل Congost de Martorell ونجا ابن عائشة بصعوبة بالغة(٤٣).

ثم بدأت الاستعدادات لتنفيذ مشروع الحملة الصليبية المشتركة على الجزائر الشرقية بأسطول مكون من خمسمائة سفينة، ساهمت جمهورية بيزا بثلاثمائة سفينة، وقطلونية بمائة وثلاثين سفينة، وقدم المشاركون الآخرون سبعين سفينة، وبلغ عدد القوات المشاركة فى الحملة خمسا وسبعين ألفا مابين فارس وراجل، منهم سبعة وثلاثون ألفا من البيزيين وخمس وعشرون ألفا من القطلان، واثنى عشر ألفا وخمسمائه من عناصر مسيحية أخرى(٤٤).

أقلع الأسطول الصليبى من ميناء برشلونة إلى ميناء سالو، حيث تجمعت هناك القوات الصليبية برئاسة بدور رئيس أساقفة بيزا يرافقه القاصد الرسولى بوسون وكبار القادة الصليبيين الذين جددوا العهد على التحالف، وأقلع الأسطول من سالو فى يوم عيد القديس يوحنا المعمدان San Juan Bautista ١٠ يوليو ١١١٥م (صفر ٥٠٩م) فى ظروف جوية ملائمة متوجها إلى جزيرة يابسة فدار حول رأس لينترسكا Capo de Llentrisca الواقع بين جزيرتى فورمنتيره ويابسه ثم رسا فى ميناء يابسة أمام عاصمة الجزيرة التى تحمل اسمها، وهى مدينة حصينة مشيدة على ربوة عالية تدور حولها الاسوار الحصينة وعليها أبراج مراقبة مشحونة بالرجال تحيط بها

خنادق عميقة تزيدها منعة، وعندما عاين قادة الحملة الصليبية منعة المدينة، أمروا قواتهم بالنزول إلى البر وعسكروا فى منطقة سهلية أمامها، ومن ثم بدأوا محاولاتهم الأولى للهجوم على الأسوار التى استغرقت طوال اليوم وسقط فيها عدد ليس بالقليل من القتلى والجرحى. وفى اليوم التالى شرع الصليبيون فى إعداد آلات الحصار من أبراج خشبية ومجانيق وكباش فهاجموا أعلى السور بالأبراج الخشبية وأسفله بالكباش ونجحوا فى إحداث ثلمة فى السور الأول للمدينة نفذوا منها غير أنهم قوبلوا بمقاومة باسله من مسلمى يابسه واستمرت الإشتباكات ثمانية أيام حاولت خلالها القوات الصليبية دك السور الثانى للمدينة حتى تمكنوا فى اليوم الثامن من إحداث ثلمات فى السور الثانى(٤٥). فانسحبت حامية المدينة إلى القلعة التى كان يحيط بها سور قائم بذاته، وأخذت الحامية الإسلامية فى قذف القوات الصليبية بوابل من الأحجار من أعلى السور، غير أن القوات الصليبية نجحت بما توفر لها من آلات حربية متنوعة فى أن تشن هجوما بوابل من القذائف على القلعة الداخلية فأصابت – من بين ما أصابت أبا المنذر والى المدينة بحربة اخترقت حنجرته وجرى نقله بعيدا عن مواضع القتال، وكان أبو المنذر يراقب الموقف بعين حذره وخبيرة وعاين ما أحدثته القوات الصليبية من أضرار جسيمة، فأدرك ألافائدة من المقاومة، وعرض تسليم المدينة على أن يؤمن سكانها من المسلمين على أرواحهم، فقبل قادة الحملة عرضه، وفى يوم عيد القديس لورنثو San Lorezo ١٠ أغسطس ١١١٥م (ربيع الأول ٥٠٩م) تم تسليم المدينة، ورفع قادة الحملة الصليبية أعلام النصر، وشرعوا على الفور فى دك التحصينات والأبراج والأسوار وسووها بالأرض، فى الوقت الذى انتشرت فيه قواتهم تسلب وتنهب كل ما يقع فى أيديهم، وأمر قادة الحملة الصليبية بتجميع هذه الغنائم فى مكان آمن نظرا لحدوث خلافات خطيرة بين الجند الذين سرعان ما طالبوا بأنصبتهم من الغنائم(٤٦).

هذه هى الرواية اللاتينية عن غزو جزيرة يابسه، وبالرغم من سمات المبالغة، وما ورد فيها من تضخيم وإبراز للدور الكبير الذى لعبته القوات الصليبية فى الاستيلاء على المدينة إلا أنها فى الوقت نفسه اعترفت بالدور البطولى الذى لعبته حامية الجزيرة المسلمة فى مقاومة الغزو الصليبى.

أما المصادر العربية فلم تشر كما سبق أن أشرنا من قريب أو بعيد لهذه الغزوة باستثناء ابن الكردبوس الذى يقول فى اختصار شديد: «اجتمع أهل بيشة (بيزا)

وجنوه، وعمروا ثلاثمائة مركب، وخرجوا إلى جزيرة يابسه من عمل ميورقة، فغلبوها وسبوها وانتهبوها»(٤٧).

وعندما وصلت أخبار استيلاء الصليبيين على جزيرة يابسه وتخريبها ونهبها إلى ميورقة حاضرة الجزائر الشرقية، كان لها رنة حزن وأسى ونذير خطر لدى ناصر الدولة أمير الجزائر الشرقية الذى أيقن أن الوجهة التالية للحملة هى جزيرة ميورقة كبرى الجزائر الشرقية، فشرع ناصر الدولة فى التأهب للغزاة والتصدى لجحافلهم عمد بادئ ذى بدء إلى التأكد من حصانة حاضرته واعداد قواته ومراقبة مياة الجزيرة.

ترك الصليبيون فى حاضرة يابسه قوة كبيرة، ثم أقلع الأسطول الصليبى فى ٢١ أغسطس متجها إلى جزرية ميورقة فدار حول رأس كالا فيجييراCapo de Cala Figuera، ثم رسا فى إليتيس Illetes على طول الشاطئ الشرقى للجزيرة من رأس بوراسا Capo de Porassa حتى القلعة العظمى La Cala Major بعيدا – إلى حد ما – عن مدينة ميورقة(٤٨)، التى تقع على خليج يتخذ شكل قوس، وفى منتصف لسان يحمى الميناء، وفى جانبه الأيمن تمتد المدينة فى لسان طبيعى وفى شمال الخليج وفى طرفه تنساب أرباض المدينة، أما قسمها الآخر فى الوسط ويمتد من البحر شمالا فيقع معظمه فوق مرتفع من الأرض يمتد صاعدا حتى يستوى فى نهاية المدينة(٤٩).

ونزلت القوات الصليبية المشتركة فى سهل فسيح غير مستو تتخلله المرتفعات ويمتد جهة الشرق بمسافة كافية نحو ستة أميال عن مدينة ميورقة يسمى الرملة Arenal، تكسوه أشجار الصنوبر ويشرف على ساحل البحر، وفى هذا الساحل مرفآن يصلحان ملجأين أمنين للأسطول الصليبى(٥٠).

على أن ناصر الدولة أمير الجزائر الشرقية لم يقف مكتوف اليدين أمام نزول القوات الصليبية على الجزيرة، فقد آثر التحصن فى حاضرته وتعزيز الجبهة الشرقية منها، ومراقبة تحركات القوات الصليبية، فخرجت فرقة فرسان إسلامية لاستطلاع الأمر ومراقبة العدو وعدد قواته والآلات الحربية المصاحبة له، ومن جهة أخرى أعد ناصر الدولة خطة عسكرية لإجهاض الهجوم الصليبى، فقرر الخروج بجيشه من الباب الأيمن للمدينة المسمى باب البلد Bab - al Belet، ليعسكر فى الموضع الذى يقع بين محلة الرملات السبعة Los Set Arenes وطريق ماناكور Manacor

الواقع على بعد خمسمائة متر من الأسوار الشرقية للمدينة ليقطع بذلك الطريق الذى يؤدى إلى Portitxol والطريق القديم Lluch Mayor، وكانت قوات الحملة الصليبية المشتركة قد نزلت بين وادى جروس وميتخانسر Mitjanser، وعهد القادة والصليبيون إلى الكونت البرشلونى رامون برنجيز الثالث بالقيادة العليا، فبعد أن رتب قواته للقتال، هاجم قلب الجيش الإسلامى فى الوقت الذى ضغطت قواته على جناحى الجيش الإسلامى فى محاولة لتحطيم مقاومتها العنيدة، غير أن الجيش الإسلامى صمد للهجوم ونجح فى إرغام القوات الصليبية المشتركة على الانسحاب والتخلى مؤقتا عن ميدان المعركة[٥١].

وعاودت القوات الصليبية المشتركة الهجوم مرة أخرى، فهاجم جناحها الأيسر بقيادة كونت أمبورياس الجناح الأيمن للجيش الإسلامى المرابط جهة البحر وأجبروه على التخلى عن مواقعه ومن ثم تقدمت القوات الصليبية حتى اقتربت من باب الكنيسة، والتحم الفريقان فى قتال عنيف تخللته قذائف النبال والسهام والرماح ونجح بعض الفرسان الصليبيين فى الوصول إلى الأبواب الشرقية للمدينة وقتل بعض أفراد الحامية الإسلامية واضطر الباقون الى التراجع واغلاق أبواب المدينة الحصينة خلفهم والاحتماء داخلها[٥٢].

رأى ناصر الدولة أن خير وسيلة للدفاع هى الهجوم، فنظم قواته إلى قلب وميمنه وميسره وتولى هو قيادة القلب وحمل الراية واندفع خارجا من باب البلد تتقدمه الطبول والأبواق لإثارة حماسة قواته وإدخال الرعب فى قلوب أعدائه، وانقض بحماسة شديدة على القوات الصليبية، فى الوقت الذى جال فيه القائد القطلانى رامون برنجير الثالث بين قواته يحثهم ويحمسهم على لقاء العدو، والتحم الجيشان فى قتال مرير أشادت به الرواية اللاتينية، فأبرزت الدور البطولى الذى قام به الصليبيون وخصوصا فرسان أمبورياس وروسيلون الذين نجحا فى إحداث أضرار بالغة فى الجيش الإسلامى، وأعاقوا هجومه وأربكوا خطوطه بل وأجبروه على التقهقر تجاه أسوار المدينة واستولوا على عدد كبير من خيولهم وأسلحتهم[٥٣].

أخذ الصليبيون فى تشديد الحصار على مدينة ميورقة برا وبحرا، فانتشرت قواتهم حول أسوار المدينة، وجابت بعض قطع أسطولهم مياه جزيرة ميورقة لمنع أى إمتدادات قد تصلها من شرق الأندلس ورأى ناصر الدولة ضرورة كسر الحصار المحكم على مدينته وفى محاولة جريئة خرج بقواته من فرسان ورجّاله وحمل على القوات الصليبية حملة قوية، غير أنه قوبل بمقاومة عنيفة من رجّاله بيزا الذين

نجحوا فى إعاقة هجومه، فاضطر الى الانسحاب تلاحقه النبال والسهام، فى الوقت الذى حاولت فرقه فرسان صليبية الاستيلاء على أحد الأبراج، ولكنهم صدموا بعمق الخندق المزدوج الذى يحيط بالسور الشرقى، ووفقوا على شئ مختلف تماما عما سمعوه من تحصينات هائلة، فتملكهم اليأس، واعتراهم الخوف، وفقدوا الأمل وارتابوا فى قدرة القوات الصليبة على الاستيلاء على مدينة ميورقة الحصينة، فقد كانت المدنية تشتمل على ثلاثة أقسام عرفت باسم ميورقة، ومع ذلك فان كل قسم له تسمية خاصة الأولى تسمى الربض الجديد (المدينة الجديدة) التى شيدها مبشر بن سليمان ناصر الدولة محاطة بخمسين برجا حتى باب الجديد وهو اسم المدينة الثانية يدور عليها سور يصل حتى ساحل البحر ويتصل بالمدينة وهى النواة الأولى العمرانية لمدينة ميورقة والتى تحوى أبراجا ضخمة عالية يدور عليها سور ومحاطة ببرجين آخرين وتطوق ميدانا مساحته عشرة آلاف قدم يدور حوله مائة وثلاثة وستون برجاً، ويفصل الربض الجديد عن المدينة والباب الجديد مجرى مائى يسمى عين المدينة Fuente de la villa عليه خمسة جسور للعبور[٥٤].

أيقن قادة الحملة الصليبية بعد أن عاينوا حصانه مدينة ميورقة أن حصارها سيطول فقاموا ببعض الإجراءات فبدأوا فى سحب قطع الأسطول إلى الشاطئ بعد أن تركوا قطعا أخرى لمراقبة سواحل الجزيرة، ثم قاموا بتخطيط معسكرهم، فخصصوا محلات للقائد القطلانى وقائد فرسان روسيلون وأمبورياس وقوات بيزا وغيرها، ثم خرجت فرقة كبيرة أخذت تجوب أنحاء الجزيرة بحثا عن الغلال وقطعان الماشية لتوفير المؤن لقوات الحملة[٥٥].

وخلال الحصار قامت قوات بيزية وقطلانية وبروفنسية بالهجوم على أسوار المدينة الشرقية، فقربوا أبواجهم الخشبية منها وحركوا آلات حصارهم نحوها وألقوا قذائفهم عليها بغية إحداث فجوة فيها ينفذون منها إلى داخل الباب الجديد، وتمكنوا من فتح ثغرة لكنها كانت غير كافية لتحقيق الغرض، فتكررت محاولاتهم طوال يومين تمكنوا خلالها من توسيعها، ولم تكن القوات الإسلامية بغافلة عن محاولاتهم، فتصدت لمقاومتهم واضطرتهم إلى الإنسحاب إلى محلاتهم[٥٦].

و إزاء الحصار البرى والبحرى على جزيرة ميورقة رأى المرابطون أن يضغطوا على كونتيه برشلونه لإجبار أميرها على العودة بقواته من حصار ميورقة، وللإنتقام من هزيتهم فى موقعة كونجست دى مارتوريل Congost de Martorell، فاخترقت قوات المرابطين أراضى الكونتية وعسكرت فى مونجيوش Monhuich بأرض برشلونه

وحاصرت المدينة طوال يومين انتسفت خلالهما أريافها، لكن كونت أرجل Urgel وفوسان جرندة Gerona تمكنوا من الترصد لقوات الموابطين، وأحدثوا بهم ضررا بالغا عند وادى سالو، وعنموا منهم غنائم كثيرة، وعندما علم الكونت البرشلونى بغارة المرابطين على كونتيته حاول العودة بسرعة، لكنه اضطر ازاء ضغط حلفائه أن يبقى معهم على حصار مدينة ميورقة حتى النهاية(٥٧).

واقترب فصل الشتاء ومضى أعضاء الحملة المشتركة يعملون بدأب على ترميم آلات الحصار، والاستعداد لمواجهة أيام الشتاء القاسية، فى الوقت الذى شددوا فيه الحصار على مدينة ميورقة برا وبحرا للحيلولة دون وصول المؤن إليها، فساءت حال مسلمى ميورقة، واضطر واليها ناصر الدولة فى محاولة منه لإنقاذ مدينته - التى أرهقها الحصار والقتال المتواصل - إلى ارسال مقترحات جديدة للقادة الصليبين للتفاوض على أساسها وإقرار السلم لم توضح المصادر طبيعتها ويبدو أن مقترحاته لم تجد آذانا صاغية، فزاد ذلك فى إصرار ناصر الدولة على المقاومة بل وتكثيف غاراته على المعسكر الصليبى، وتذكر الرواية اللاتينية أن فرقة إسلامية خرجت فى إحدى الليالى وفاجأت الرماة البيزيين الذين كانوا يحرسون دبابة حصار وهم فى حالة سكر واسترخاء، فقذفتهم الفرقة الإسلامية بكتل من المواد المشتعلة فى أركان الدبابة الخشبية فالتهمتها النار وأحالتها رمادا، وسط صيحات فرح المسلمين وصراخ الصليبين الذين شرعوا فى الحال فى بناء برجين خشبيين جديدين(٥٨).

وكان ناصر الدولة قد كتب خلال الحصار إلى أمير المسلمين المرابطى يستصرخه ويستنصره ووجه كتابه مع القائد أبى عبد الله بن ميمون، وكان إذ ذاك عنده غراب بين يديه، «فلم يشعر العدو حتى خرج الغراب معمرا ليلا من دار الصناعة عليه، فانطلق فى الحين يقفو أثره، واتبعه نحو عشرة أميال والظلام قد ستره، فلما قطع يأسه فى الظفر به، رجع خاسئا على عقبه، فوصل ابن ميمون بالكتاب إلى أمير المسلمين، فأمر فى الحين بتعمير ثلاثمائة قطعة وأن تلقى بعد شهر دفعة...»(٥٩)، ويؤيد ابن خلدون هذه الرواية غير أنه يقول: «فلم يوافهم الاسطول بالمدد إلا بعد إستيلاء العدو عليها»(٦٠). أما الرواية اللاتينية فتذكر أن أمير دانية المرابطى كان قد جهز لناصر الدولة أسطولا مزودا بالرجال والعدة ومستعدا للإبحار فى أقرب وقت، ففرح مسلمو ميورقة بهذه الاخبار، ويضيف أن الصليبين اعاقوا قوات النجدة المرابطية من دانية وساقوا سفينتين إلى المعسكر الصليبى من بينها

مركب دانية الذى حمل جواب أميرها والذى تسميه الرواية اللاتينية بوطلحه Butale[٦١].

استمر حصار المدينة أربعة أشهر، عانى فيها المسلمون من نقص المؤن، فانتشرت المجاعة بين أهلها مما اضطر أميرها ناصر الدولة إلى أن يبعث بسفارة إلى المعسكر الصليبى مجددا طلب الهدنه، فأحدث طلبه انقساما فى الرأى داخل المعسكر ففريق يمثله الكونتات القطلانيون يرون الاكتفاء بتخليص الأسرى النصارى من سجونهم وألا يطمعوا فى أكثر من ذلك، بينما يرفض هذا الرأى فريق يمثله القادة البيزيون بل ويتهمون القطلانيين بالتخاذل، وعندما علموا بعزم والى دانية المرابطى على إرسال قوات لمساندة مسلمى الجزيرة تناسوا اتهاماتهم وسعوا لعقد هدنه مع والى ميورقة فقاموا بإرسال سفارة إليه، أحسن الوالى استقبالها ووعد أعضاء السفارة بأن يحمل إلى قادة الحملة قدرا كبيرا من ماله الخاص ومن خراج الجزيرة، وتسوق المصادر اللاتينية رواية غريبة مفادها أن والى الجزائر الشرقية رغب فى أن تكون بلاده بمثابة إقطاع بابو ى!! غير أن أعضاء السفارة الذين قبلوا بما عرضه عليهم لم يكادوا يذهبون للبحث عن أسراهم فى سجون مدينة ميورقة من النبلاء حتى غير والى الجزائر رأيه بقوله: أنه بعد أن استشار شيوخ إمارته ورجال الرأى تبين له أن شريعته الإسلاميه لا تبيح له أن تكون إمارته إقطاعا للمسيحيين وأنه لا يجوز أن يدفع الجزية لهم، ويعبر أوجلى عما أسفرت عنه المفاوضات بقوله: «بشفاعة الرب، فشلت المفاوضات التى كان كونت برشلونة يحاول اجراءها مع أمير ميورقة المسلم من أجل توقيع معاهدة صلح»[٦٢].

فلقد كان رجال الدين المشاركين فى الحملة وعلى رأسهم بدرو المندوب البابورى رئيس أساقفة بيزا غير متحمسين لعقد هدنة بل فضلوا مواصلة الحصار والقتال، فعرضوا خمس قطع فضية لكل جندى صليبى يقتل جنديا من مشاة المسلمين، وقطعتين ذهبيتين لكل من يقتل أجد فرسانهم، وأصدروا أوامرهم بشن هجوم عات على المدينة فأمطروها بوابل من القذائف المشتعلة، فاشتعلت الحرائق فى المدينة وسقط الكثير منهم صرعى وارتفعت خسائر المسلمين بشكل ملحوظ[٦٣].

وفى منتصف سبتمبر ازدادت حدة العمليات العسكرية الصليبية، فشدد الصليبيون حصارهم حول أسوار المدينة، وقاموا بشن غارات متواصلة داخل الجزيرة، فانتشر فيها الموت والخراب والحرائق. وفى هذه الأثناء مرض مبشر بن سليمان ناصر

الدولة أمير الجزائر الشرقية الذى يقال أنه تقيأ دما ومات بعد بضعة أيام تاركا حكم الجزيرة إلى أبى الربيع سليمان بن لبون الذى تسميه الرواية اللاتينية Burabe فى شهر رجب ٥٠٩هـ/ ديسمبر ١١١٥م (٦٤).

استهل أبو الربيع سليمان ولايته للجزائر الشرقية بطلب النجدة من والى دانية المرابطى، ومحاولة النفاذ من الحصار المحكم حول مدينته لا سيما من جهتها الشمالية الغربية، فأرسل فرقة إسلامية عن طريق باب ساركولا Sarcula لكن قوة صليبية بقيادة القائد القطلانى رامون برنجير الثالث كانت كامنة لهم فى الوادى فاجأتهم واشتبكت معهم فى قتال عنيف بالقرب من الطريق المؤدى الى بورتوبى Portopi ونجح أحد رماة المسلمين من قذف حربة من أعلى الأسوار مزقت ذراع القائد القطلانى فاضطرت القوة الصليبية الى التراجع وسط صيحات فرح المسلمين (٦٥).

ولما كانت الخنادق تمثل مانعا دفاعيا يحول دون تقدم العدو إلى الأسوار فقد عمل الصليبيون على ملئها بما توفر لديهم من قطع الأشجاروفروع الأغصان والحجارة حتى تستوى بأرض السهل وتيسر اقتراب أبراج الحصار، فاختاروا مكانا استراتيجيا للهجوم على أسوار المدينة الغربية على مقربة من باب البحر Puerta de La Marina وتمكنوا من إحداث تصدع بالأسوار وإحداث ثلاث ثغرات بها، ثم أقاموا جسرا على الخندق عبرت منه قوة من البروفنسين خلال الثغرة الأولى إلى الربض الجديد وذلك فى فبراير ١١١٦م / رمضان ٥٠٩هـ، فى الوقت الذى سارت فيه قوة صليبية أخرى بازاء الأسوارلتغطية اقتحام القوة الأولى للربض واشتبكت مع الحامية الإسلامية للأسوار التى أظهرت مقاومة شديدة، بينما سارت قوة صليبية ثالثة تتقدمها الفرسان إلى الميادين الواسعة داخل الربض لكن مسلمى الربض تصدوا لها بكل شجاعة، فأمطروهم من فوق أسطح المنازل بوابل من الحجارة والحراب الصغيرة، وأرغموهم على الانسحاب خارج الربض، وأشعلوا النار فى الجسر، وفشل البروفنسيون فى إخماد النيران وهكذا صمد المسلمون للقوة البروفنسية وأوقعوا بها خسار فادحة (٦٦). ومع ذلك لم يفقدالصليبيون الأمل فى اقتحام المدينة عن طريق الثغرات فتكررت محاولاتهم هذه عشر مرات متوالية إلا أنها باءت بالفشل، وأخيرا تمكن الفيكونت أوجون Ugon بمحاولة فردية من اقتحام المدينة من جديد فى عدد قليل من رجاله ثم تبعه سائر أفراد الحملة الذين قوبلوا بمقاومة مسلمى الربض فدافعوا عنه بكل شجاعة وبسالة اعترف بها المؤرخ الشاعر

لورنثو الفيرونى فقال :

«لقد روى البيزيون بدمائهم طريق الفتح قبل أن يتمكنوا من زحزحة مسلمى ميورقة عن مواقعهم التى كانوا يدافعون عنها ببسالة فائقة»[٦٧].

وبعد أن اقتحم الصليبيون الربض الجديد انتشروا فى أرجائه ينهبون ويسلبون ويخربون، وأعملوا القتل فى أهله حتى أنهم طاردوا بعضهم الى داخل المساجد وقتلوهم حتى امتلأت المساجد بجثثهم غير مراعين لحرمة أماكن العبادة، وفر البعض الآخر للاحتماء بقصبة المدينة.

تابعت القوات الصليبية خطتها فى الاستيلاء على باقى أقسام المدينة، فتوجهت إلى المدينة وقربت برجين من أبراج الحصار بجوار الباب الجديد واخرين ازاء أسوار المدينة «قصبة المدينة»، وقذفوا بالمجانيق أسوارها التى كانت مزودة بسبعة أبراج، وقد دافع المسلمون عن القصبة بكل شجاعة وسقط عدد كبير من القتلى والجرحى من الجانبين، وأسفر القصف المتواصل عن هدم تحصينات المدينة الأمامية فى ٢٢ فبراير ١١١٦م/ شوال ٥٠٩هـ، فتمكنت القوات الصليبية من اقتحام المدينة واشتبكت مع حاميتها الإسلامية التى أبدت مقاومة شديدة وسقط الكثير منها قتلى،وانتشرت القوات الصليبية فى أرجاء المدينة تنهب دورها وقصورها وتستولى على مقادير كبيرة من الغنائم والكنوز من ذهب وفضة وأحجار كريمة وخلع ثمينة من رفيع النسيج من كتان وحرير وديباج، ثم اتجهت القوات الصليبية بعد ذلك لتخليص الأسرى المسيحيين من سجون المدينة[٦٨].

وفى رواية غريبة للمؤرخ الشاعر لورنثو الفيرونى يذكر أن كونت البرانس رامون برنجير الثالث بسط حمايته على ما كان بميورقة من يهود[٦٩]، وأغلب الظن أن هؤلاء اليهود كانوا بمثابة عيون للحملة الصليبية تدلهم على عورات المدينة، وربما دلوهم بالفعل عليها نظرا لتحول الهجوم الصليبى من الجهة الشرقية للمدينة إلى جهتها الغربية ونجاحهم فى ذلك، وهذا أمر ليس بمستغرب على اليهود الذين درجوا على ذلك كثيرا فى كل العصور.

شرع الصليبيون بعد ذلك فى الهجوم على القلعة الكبرى التى تحمى قصر الإمارة، فقربوا آلات حصارهم إلى أسوارها وشرعوا فى دكها وتدميرها، وعندما وقفت الحامية الاسلامية للقلعة على خطورة الموقف وعقم المقاومة طلبت التسليم، لا سيما وأن قوات الصليبيين كانت قد تمكنت من هدم جانب من السور ونفذت

منه، فى الوقت الذى اضطرت الحامية إلى اللجوء والاحتماء داخل القلعة المنيعة الحصينة التى تحيط بها - كما سبق القول - سبعة أبراجٍ ضخمة كانت هدفا للقوات الصليبية التى عملت بكل قواها على مهاجمتها بالأبراج والدبابات، فى محاولات متكررة، تمكنوا خلالها من تدمير ركن بعد آخر، وتوالى سقوط القتلى من الجانبين. ولم يتبق إلا برج حصين طوقته بكل آلات الحصار، واستبسلت القوة الاسلامية المدافعة عنه فى مقاومة أسطورية وسالت دماء غزيرة من الجانبين. ورأى والى الجزائر أبو الربيع سليمان عقم المقاومة، فحاول الهرب فى نفر من أعوانه عن طريق البحر إلا أن قطع الأسطول الصليبى التى تحاصر سواحل الجزيرة تمكنت من القبض عليه وسيق مع أصحابه إلى المعسكر الصليبى(٧٠).

اختار مسلمو ميورقة أميرا آخر تسميه المدونات المسيحية ألنتى Alante ، وتذكر أنه لم يصمد للمقاومة وأنه حاول الهرب عن طريق البحر ونجح فى محاولته، رغم أن هذا الرجل سبق وأن قام بدور بطولى هام أيام ناصر الدولة فى الدفاع عن المدينة، فهل كان هروبه لطلب نجدة مرابطية من والى دانية، ربما كان ذلك رغم أن المصادر العربية لا تسعفنا بالاجابة عن هذا التساؤل.

واصل الصليبيون دك أسوار قصر الإمارة، واستطاعوا إحداث فجوات فيه، كما قام بعض أجنادهم بملء الخندق المحيط بالأسوار بالحجارة والأغصان. فى الوقت الذى قاومت حامية القصر وصمدت فى الدفاع عنه وألقت شعل النار على الأبراج الخشبية فاحترق بعضها، وبادلتها القوات الصليبية القذف فاشتعلت الحرائق داخل قصر الإمارة، وتمكن الصليبيون عن طريق قذف خطاطيف قوية أعلى الأبراج ثم شدها من هدم الكثير منها، مما اضطر حامية القصر إلى الانسحاب حتى تخمد الحرائق فى الوقت الذى أقام الصليبيون جسرين كبيرين عبروا عليهما إلى قصر الإمارة، وجرت اشتباكات عنيفة بين الجانبين، سقط فيها عدد كبير من قتلى وجرحى، وأخيرا تمكنت القوات الصليبية من اقتحام القلعة عنوة، وقاموا على الفور بتهديم الأسوار والتحصينات مثلما فعلوا بجزيرة يابسة - حتى سووا معظمها بالأرض، وانتشرت قواتهم تجوب جميع أنحاء المدينة تسلب وتنهب وتحرق، فأسروا رجالها وغنموا ما وجدوه، وعادوا مثقلين بالغنائم والأسرى وكان قد حل عيد الفصح فى ٦ أبريل ١١١٦ م/ ذو القعدة ٥٠٩هـ فاحتفلوا به احتفالا كبيرا «لما حققوه من نصر بفضل شفاعة القديسيين وبركات الحبر الأعظم البابا باسكال الثانى»(٧١).

وعلى الرغم أن الرواية العربية لم تشر إلى تفاصيل استيلاء الصليبيين على مدينة ميورقة، إلا أنها وصفت سقوط هذه المدينة فى يد العدو وصفا موجزا بليغا يعبر عن عظم المقاومة التى أبداها مسلمو ميورقة الذين بذلوا أرواحهم دفاعا عنها فسقطوا شهداء فى ميدان المعركة، فالحميرى يعبر عن هذا المعنى بقوله: «وتغلب عليها «أى ميورقة» العدو البرشلونى وخربها وهى المرة الأولى، ودخل المدينة فلم يجد سوى العيال والأطفال والشيخ الفانى فأحال السيف فيهم»(٧٢).

أما ابن القطان فإنه يقول: «وقتلهم من فيها (أى ميورقة) وسبيهم أهلها واحتواؤهم على جميع من فيها بعد حصار طويل شديد»(٧٣).

ويكرر القلقشندى رواية ابن القطان، فيقول: «وقتلوا رجالها وسبوا ذراريها ونساءها بعد حصار طويل»(٧٤).

تأخر وصول الأسطول المرابطى لإنقاذ ميورقة، والثابت من الرواية العربية واللاتينية أنه لم يصل إلى ميورقة إلا بعد مغادرة الحملة الصليبية المشتركة الجزيرة: ففى ٣ أبريل ١١١٦م/ ذو القعدة ٥٠٩ هـ عاد الكونت البرشلونى رامون برنجير الثالث بقواته الى بلاده، وبعد أربعة أيام عادت القوات البيزية بعد أن شحنت سفنها بكل ما غنمته إلى بلادهم راضين بما حققوه، وحملوا معهم أمير الجزائر أبا الربيع أسيرا، حيث ظلوا يعرضونه فى ميادينهم افتخارا وزهوا بنصرهم الخالد، أما باقى القوات المشتركة فى الحملة فقد عادت أيضا إلى أوطانها(٧٥)، وفى أثناء عودة العدو إلى أوطانه «هبت عليه ريح ببحار طامية فحملت منه أربع قطائع إلى ناحية دانية، فعمر إليها قائد البحر أبو السداد، ففرت أمامه، وغرقت واحدة منها قدامه، وعكس الثلاث» (أى جعلها مراكب اسلامية)(٧٦).

ثم أقلع الأسطول المرابطى متوجها إلى جزيرة يابسة ولكن بعد إقلاع الأسطول الصليبى من مياهها، فهل كان ذلك بسبب الحصار الشديد الذى فرضه الأسطول الصليبى على مياه ميورقة، ونجاح الحامية الصليبية الكبيرة فى جزيرة يابسة فى إعاقة أى نجدة مرابطية عاجلة لإنقاذ مدينة ميورقة. أم أن القوات المرابطية اكتفت بالاغارة على أملاك الكونت البرشلونى رامون برنجر الثالث فى كونتيته للضغط عليه من أجل التخلى عن دوره فى الحملة، أم أنه كانت آنذاك بالمغرب مشاكل داخلية حادة واجهت المرابطين فيها وصرفتهم عن نجدة مسلمى ميورقة فى الوقت المناسب. للأسف تصمت المصادر العربية تماما عن ذكر سبب تأخر الأسطول

المرابطى فى إنجاد مسلمى ميورقة، وإنما تكتفى بالقول أن الأسطول المرابطى أقلع أواخر ذى القعدة سنة ٥٠٩هـ/ منتصف ابريل ١١١٦م فى ثلاثمائة قطعة بحرية بقيادة أمير الأسطول تافرطاس «ولما شعر العدو بخروجه أخلى وصدر عن الجزيرة وعينه بما احتمل من السبى قريره»(٧٧). فهل كان لإقلاع الأسطول المرابطى على عجل بعد أن وصلت الأخبارباستيلاء الصليبين على مدينة ميورقة، يرجع إلى خشية المرابطين أن تغدو جزيرة ميورقة قاعدة لمهاجمة أملاك المرابطين فى شرق الأندلس والشمال الافريقى، كما يعتقد أشباخ؟(٧٨).

على أية حال، عندما وصل الأسطول المرابطى إلى مياه ميورقة «وجد المدينة خاوية على عروشها محترقة سوداء مظلمة، منطبقة، فعمرها قائد الاسطول المرابطى بمن معه من المرابطين والمجاهدين، وأصناف الناس، وجلب إليها من كان فر عنها إلى الجبال، فاستوطنوها وعمروها وسكنوها»(٧٩).

وعادت الجزائر الشرقية إلى دولة الاسلام وأصبحت ولاية تابعة لدولة المرابطين يحكمها ولاة من قبلهم، واستأنفت دورها الجهادى درعا يقى شرق الأندلس والمغرب ضد نصارى الشمال الأسبانى.



هوامش البحث

١ - أنظر : Miguel Alcover : El Islam en Mallorca (707-1233) y La cruzada pisano-Catalana (1113-1115), Palma de Mallorca, 1930. P. 13-21.

أما عن المراجع الأسبانية التى تناولت بعض جوانب هذاالبحث فهى :

Codera (Francisco) : Decadencia y desaparacion de los Almoravides en Espana, Zaragoza. 1899: Huici Miranda (A): Historia de Valencia y su region, 3tomo, Valencia, 1969;

Aguado Bleye ; Manual de Historia de Espana, tomo I, Madrid, 1957;

فضلا عن عدد من المراجع العربية والمعربة التى أشارت إلى تاريخ الجزائر الشرقية فى العصر الاسلامى :

محمد عبد الله عنان : دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى، الطبعة الثانية، مكتبة الخانجى، القاهرة، ١٩٦٩ ،يوسف أشباخ : تاريخ الاندلس فى عهد المرابطين والموحدين، ترجمة الاستاذ محمد عبد الله عنان، القاهرة، ١٩٥٨، السيد عبد العزيز سالم (بالاشتراك مع أحمد مختار العبادى) : تاريخ البحرية الاسلامية فى حوض البحر الابيض المتوسط، الجزء الثانى،مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية (بدون تاريخ)، عصام سالم سيسالم : جزر الاندلس المنسية والتاريخ الاسلامى لجزر البليار، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٤ .

2 - Henri Perés : La Poésie andalouse en Arabe Classique aux XIE Siécle, Paris, 1937, p. 214.

٣ - ابن الخطيب (لسان الدين محمد) : كتاب أعمال الأعلام، القسم الأندلسى، تحقيق ليفى بروفنسال، بيروت : ١٩٥٦، ص٢١٩، أنظر أيضا :

Campaner y Fuertes : Bosquejo Historico de la Dominaction Islamita en las Baleares, Palma, 1888, P. 71;

جوزيف رينو : الفتوحات الاسلامية فى فرنسا وإيطاليا وسويسرا فى القرن الثامن والتاسع والعاشر الميلادى، تعريب اسماعيل العربى، الطبعة الاولى، دار الحداثة بالتعاون مع ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر، ١٩٨٤، ص٢٠٠.

٤ - أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط، القاهرة، ١٩٦٠، ص٣١٤، السيد عبد العزيز سالم (بالاشتراك مع أحمد مختار العبادى) : المرجع السابق، الجزء الثانى، ص٢٠٣، محمد عبدالله عنان : المرجع السابق، ص ١٩٢. Campanery Fuertes : Ibid, p. 73

٥ – ابن خلدون (عبد الرحمن) : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، الجزء الرابع، مؤسسة الأعلمى، بيروت، ص١٦٥، ارشيبالد لويس : المرجع السابق، ص٣١٤.

٦ – شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، بيروت، ١٩٦٦، ص٢٤١–٢٤٦، حسين مؤنس : المسلمون فى حوض البحر المتوسط، المجلة التاريخية، المجلد الرابع، العدد الأول، مايو ١٩٥١، ص١٣١، كليليا سارنلى تشركو : مجاهد العامرى، قائد الأسطول العربى فى غربى البحر لمتوسط فى القرن الخامس الهجرى، الطبعة الأولى، لجنة البيان العربى، القاهرة، ١٩٦١، ص١٩٩، أرشالبيد لويس : نفس المرجع، ص ٣١٤.

٧ – ابن الخطيب : أعمال الأعلام، ص٢٢٠، الجميرى (محمد بن عبد المنعم) الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، لبنان، بيروت ١٩٧٥، ص٥٦٧، محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص١٩١.

٨ – جوزيف نسيم يوسف : تاريخ العصور الوسطى الأوربية وحضارتها، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ١٩٨٤، ص٣٦٤،كما يذكر أن النشاط الذى دب فى المدن الايطالية فى القرن الحادى عشر يعتبر بمثابة انقلاب اقتصادى كبير، كان من نتائجه التوسع فى نظام الأجر النقدى وابتداع العملات بدلا من نظم الخدمة الاقطاعية التى كانت سائدة حتى ذلك الحين (نفس المرجع والصفحة)

٩ – ابن خلدون : المصدر السابق، حـ٤، ص١٦٤–١٦٥، أرشيبالد لويس : المرجع السابق، ص٣١٧، محمد عبد الله عنان : المرجع السابق، ص٢٠٤

١٠– ابن الكردبوس : تاريخ الاندلس، تحقيق أحمد مختار العبادى، معهد الدراسات الاسلامية، مدريد، ١٩٧١، ص١٢٢–١٢٣، ابن سعيد المغربى : المغرب فى حلى المغرب، الجزء الثانى تحقيق شوقى ضيف، دار المعارف بمصر، ١٩٥٣، ص٤٦٦–٤٦٧،وانظر أيضا :

Campaner y Fuertes : Op. Cit, p. 91.

١١ – ابن الكردبوس : نفس المصدر، ص١٢٢–١٢٣، محمد عبد الله عنان : المرجع السابق، ص٢١٠، ومن شعر ابن اللبانة يخاطب ناصر الدولة،

وغمرت بالإحسان أرض ميورقة   وبينت مالم بينه الاسكندر

ومن شعره أيضا فى مدحه

ملك بروعك فى حلى ريعانه   راقت برونقه صفات رمانه

فى، المقرى (أحمد على محمد) : نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب، تحقيق إحسان

عباس، الجزء الأول، بيروت ١٩٦٨، ص١٦٩، والجزء الرابع ص٢٦٠، كما يصف صاحب الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة مدينة ميورقة حاضرة الجزائر الشرقية أيام ناصر الدولة بقوله : «باهية الجمال، عاطره الصبّا والشمال، تفيد النواظر بهجتها، وتتيه بندى ملكها على لجتها (ابن بسام الشنتريني : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، القسم الثالث، المجلد الثانى، تحقيق إحسان عباس، الطبعة الثانية، دارالثقافة، بيروت ١٩٧٩، ص٧٠٢.

12- Alcover : Op. Cit.,, p. 44

13 - Campaner y Fuertes, Op. Cit., p. 96.

14- Alcover : Op. Cit., pp. 23-24

15-Ughelli (Ferd) : Italia Sacra, tomo X, Apendice titulados : Anecdote Ughelliana, Gesta triuphalia per Pisano Facto, Traducido á Castillana, Apendice No. IV, En, Campaner y Fuertes : Op. Cit, P. 264.

وسوف نشير اليه بعد ذلك كالآتى : (Ughelli, Apendice IV)

16- Lorenzo De Verona, Extracto del poema Latino sobre la conquista de Ibiza y Mallorce Por los pisanos, Apendice No. v (Libre I), PP. 283-274, En Campaner y Fuertes, Op. Cit.

وسوف نشير اليه بعد ذلك كالآتى : (Lorenzo De Verona, Apendice, No. V)

17-Alcover : Op. Cit., PP. 23-24.

18- Ibid.

19- Ibid

٢٠- مؤلف مجهول : أعمال الفرنجة وحجاج بين المقدس، ترجمة وتقديم حسن حبشى، دار الفكر العربى، المملكة العربية السعودية، ١٩٥٨، ص٦ من مقدمة المترجم

21- Campaner y Fuertes : Op. Cit, PP. 102-103 y Note Bo. I.

٢٢- ابن خلدون : المصدر السابق، الجزء السادس، ص١٨٨

٢٣- ابن الكردبوس : المصدر السابق، ١٢٢.

24- Lorenzo De Verone : Apendice No. V. (Libro2), PP. 275-276.

25- Alcover : Op. Cit, P. 26.

٢٦- ابن الكردبوس : المصدر السابق، ص١٢٢.

27- Alcover : Op. Cit, PP. 26-27.

28- Ibid. PP. 27-28.

29- Ibid, PP. 30-31.

30- Ibid, PP. 34-35.

وقد نسر هذه الاتفاقات Pablo Piferre فى كتاب بعنوان :

Recuerdos Y Bellezas de Espana, tomo Mallorca

وأنظر أيضا عصام سالم سيسالم : المرجع السابق، ص٢٢٧

31-Lorenze De verona, Apendice, No. V, (Libro 1,2), PP. 274-276.

32- Alcover : Op. Cit., P. 37.

33- Ughelli : Apendice IV, PP. 265-266.

34- Lorenzo De Verona : Apendice, No. V, (Libro I), P. 275.

35- Ibid. (Libro 2), P. 276.

36- Alcover : Op. Cit, P. 40.

37- Campanaer y Fuertes : Op. Cit., PP. 106-107.

38- Alcover : Op. Cit, P. 47.

39- Ibid.

40- Lorenzo De Verona : Apendice No. V, (Libro 2), P. 275.

41- Ibid, (Libro 3). PP. 277-278.

٤٢- محمود على مكى : وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية، المجلد السابع والثامن، مدريد ١٩٥٩-١٩٦٠، ص١٥٨، أحمد مختار العبادى: دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس،الاسكندرية، ١٩٦٨، ص٣٢٣.

٤٣ - محمود على مكى : نفس المصدر، ص١٢٨-١٢٩، وعن موقعة ألبرت أو Congost de Martorell، أنظر :

ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعى) : التكملة لكتاب الصلة، حـ١، القاهرة،

١٩٥٦، ص١٢٩ ،ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار لاندلس والمغرب، الجزء الرابع، بيروت، ص٦١، حسين مؤنس : الثغر الأعلى الأندلس فى عصر المرابطين،مجلة كلية الاداب جامعة القاهرة، المجلد الحادى عشر، حـ٢،، ١٩٤٩، ص١١٢ وما بعدها، محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس، القاهرة، ١٩٦٤، ص ٧٥ وما بعدها. Codera (Francisco) : Op. Cit, P. 20 Y Note (16), PP. 272-278; Gaspar Remiro (Mariano). Historia de Murcia Musulmana, Zaragoza, 1905, P. 149, Huici Miranda : Op. Cit, Tomo III, PP. 37042.

44- Alcover : Op, Cit., P. 57.

٤٥- نستدل من ذلك على أن سور هذه المدينة كان يتألف من سور أساسى مرتفع يتقدمه سور أمامى منخفض (حزام برانى) على غرار أسوار مدينة اشبلية ولبلة وقرطبة وقاصرش، ولمزيد من التفاصيل عن هذا النوع من الأسوار، انظر:

السيد عبد العزيز سالم : المساجد والقصور فى الاندلس،مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ولنفس المؤلف : المغرب الكبير،مؤسسة شباب الجامعة الاسكندرية.

46- Ughelli, Apendice, IV, P. 278.

٤٧- ابن الكردبوس : المصدر السابق، ص١٢٢.

48- Alcover : Op. Cit, PP. 69-70

٤٩- محمد عبدالله عنان : الاثار الاندلسية الباقية فى أسبانيا والبرتغال، الطبعة الثانية، الخانجى، القاهرة ١٩٦١، ص١٢٤-١٢٥.

50- Alcover : Op. Cit, P. 75.

51- Ibid, P. 78

52- Ibid,PP. 80-81

53- Ibid, PP. 88-82

والذى يضيف أن مبشر ناصر الدولة عهد بقيادة الميمنة إلى قائد مسلم يسمية ألنتى Alante

54- En, Alcover, Ibid, PP. 15-16

55- Lorenzo De Verona, Apendica No. V, (Libro, 6), P. 281.

-56- Ibid, P. 282, Alcover : Op. Cit, P,.99.

٥٧- محمد عبد الله عنان : دول الطوائف، ص٢١٢

58- Lorenzo De Verona, Apendice, No. V. (Libro, 6), PP. 282-283.

٥٩- ابن الكرديوس : المصدر السابق، ص١٢٣ ، كان ابن ميمون قائدا بحريا مشهورا لعب دورا بارزا في قيادة الأساطيل البحرية في عصر المرابطين وكانت قاعدته مدينة قادس.

٦٠- ابن خلدون : المرجع السابق، حـ٤ ، ص١٦٥ .

61- Alcover : Op. Cit., P. 108.

62- Ughelli, Apendice, IV, P. 269.

63- Lorenzo De Verona, apendice No. V. (Libro, 6), P. 284.

64- Ibid, (Libro, 6), P. 285; Ughelli., Apendice, IV, P. 271.

65- Ibid, (Libro, 7), P. 285

66- Alcover : Op. Cit, P. 119.

67- Lorenzo De Verona, apendica, No. V. (Libro, 1), P. 286

68- Ibid,P. 286.

69- Ibid.

70- Ibid

71- Ibid, PP. 288-289; Ughelli, Apendice, No, IV, P. 222.

٧٢- الروض المعطار، ص ٥٦٧.

٧٣- نظم الجمان في أخبار الزمان، نشر وتحقيق محمود على مكى، الرباط ١٩٦٤ ، ص٢٠ .

٧٤- القلقشندى (زبو العابس أحمد) : صبح الأعشى فى صناعة الانشا، الجزء الخامس، المؤسسة المصرية العامة للكتاب،القاهرة، ١٩٦٣ ، ص٢٥٦ .

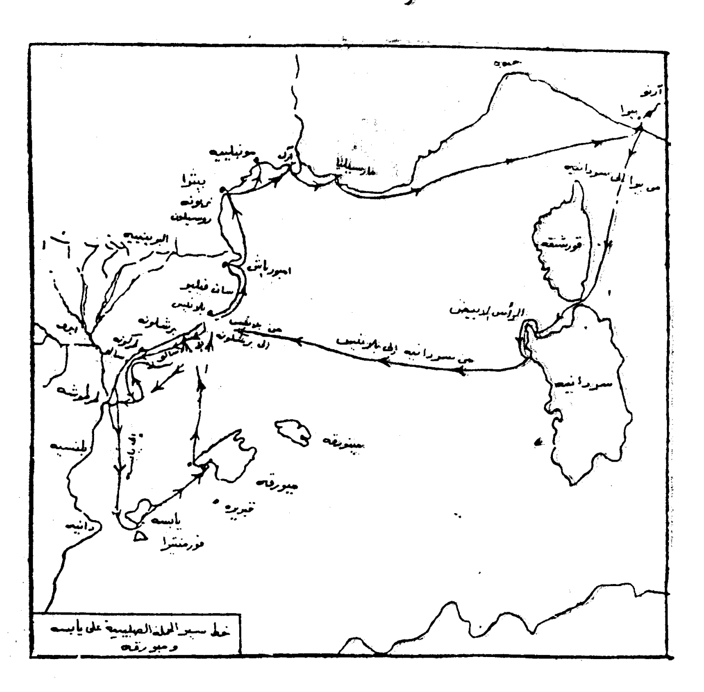
75- Lorenzo Deverona : Op. Cit, P. 290.

٧٦- ابن الكردبوس : المصدر السابق، ص١٢٤ وحاشية رقم ٣.

٧٧- نفس المصدر والصفحة.

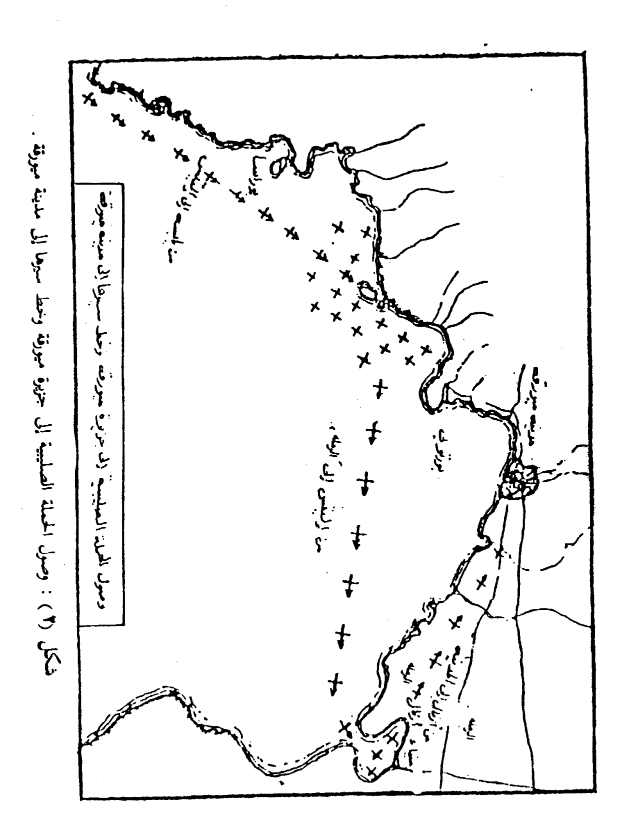
٧٨- أشباح: المرجع السابق، ص١٤٢ .

٧٩- ابن الكردبوس : المرجع السابق، ص١٢٤ .



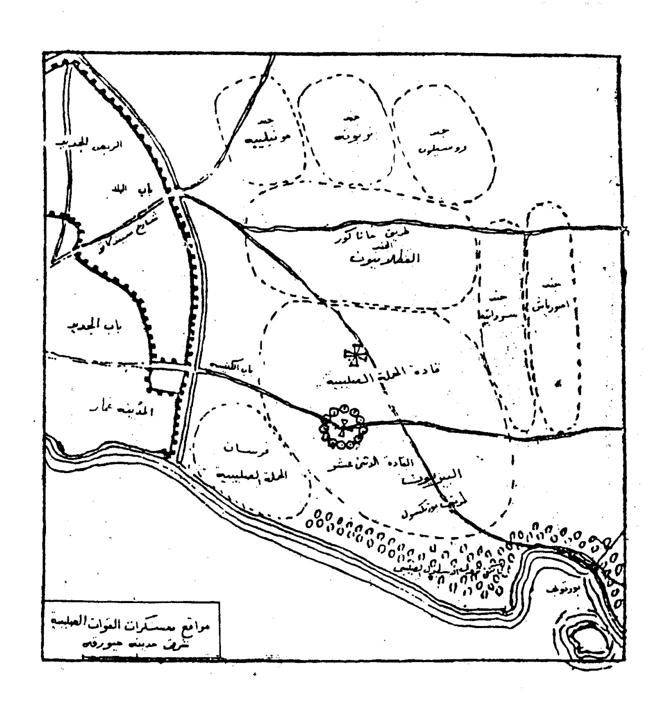
شكل (١)

خط سير الحملة الصليبية على يابسة وميورقة



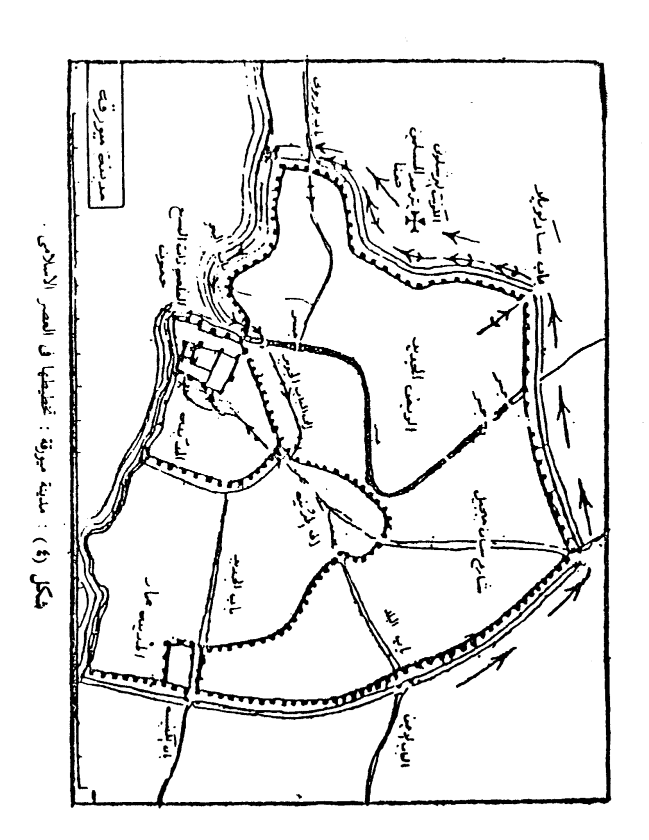
شكل (٢)

وصول الحملة الصليبية إلى جزيرة ميورقة وخط سيرها إلى مدينة ميورقة



شكل (٣)

مواقع معسكرات القوات الصليبية شرقى مدينة ميورقة



شكل (٤)

مدينة ميورقة: تخطيطها فى العصر الاسلامى

البحث السادس

الحملة النصرانية على مدينة المرية الإسلامية وسيادة القشتاليين عليها

٥٤٢ - ٥٥٢ هـ / ١١٤٧ - ١١٥٧م



١ - الموضوع ومصادره :

في الوقت الذى كان المرابطون يواصلون فيه جهادهم ضد ممالك إسبانيا المسيحية ويبذلون قصارى جهدهم فى توحيد المغرب والأندلس، تفجرت فى المغرب الإسلامى ثورة عاتية أشعل جذوتها محمد بن تومرت مؤسس دعوة الموحدين فأثر ذلك فى سياسة المرابطين العسكرية وتسبب فى اضطراب نشاطهم ضد قوى المسيحية لأنهم أصبحوا يقاتلون فى أكثر من ساحة مما فتت قواهم واستنفذ جهودهم فى الاندلس، فبدأت الهزائم تتوالى عليهم واضطروا إلى سحب بعض قواتهم من الاندلس لمواجهة الدعوة الموحدية فى المغرب الأقصى. والواقع أن المعارك المتواصلة التى خاضها المرابطون فى الأندلس، وبالذات فى شرقه وفى الثغر الأعلى هى التى إستنزفت الجانب الأعظم من قواهم، وقضت على كل مواردهم، فى الوقت الذى تنكر فيه الأندلسيون لهم وتحولوا عنهم، يؤكد ذلك ماذكره المقرى فى «نفح الطيب» من أن يوسف بن تاشفين كتب إلى أهل المرية يطالبهم بالمعونة، فرد عليه قاضيها أبو عبد الله بن الفراء بكتاب رفض فيه أن يمده بالمال وطلب منه أن يدخل الجامع بمراكش فيقسم أمام الملأ بأنه ليس عنده درهم ولا فى بيت مال المسلمين أسوة بما فعله الرسولﷺ والخليفة عمر بن الخطاب، ثم وعده فى النهاية بالنظر فى معاونته إذا ثبت ذلك [١].

فلما تعرضت الأندلس لغزو ألفونسو الأول المحارب سنة ٥١٩هـ / ١١٢٥م إضطر المرابطون إلى فرض ضريبة على أهل المرية وغيرها من مدن الاندلس الهامة تعرف بالتعتيب أو التعطيب يخصص دخلها لإقامة أسوار جديدة وترميم الأسوار القديمة[٢]، وتم على هذا النحو ترميم أسوار غرناطة والمرية وقرطبة واشبيلية وغيرها من مدن الأندلس.

ولما توفى على بن يوسف بن تاشفين فى سنة ٥٢٣هـ / ١١٣٩م وخلفه إبنه تاشفين توالت عليه الهزائم فى المغرب الأقصى على أيدى الموحدين، فانتهز أهل الأندلس هذه الفرصة وأعلنوا العصيان وفجروا الثورات فى الأندلس، وكان أول من أذكى نار الثورة فيها جماعة الصوفية أو المريدين وعميدهم الشيخ أبو القاسم أحمد بن الحسين بن قسى بشلب - أحد تلامذة الفقيه أبى العباس أحمد بن محمد بن موسى بن عطالله المرى المعروف بابن العريف - الذى أشعل نار الثورة ضد المرابطين بادئ ذى بدء فى مرتلة ، ومنها إنتشرت الثورة إلى يابرة وباجة وشلب ولبلة وقرطبة ومالقة وشرق الأندلس.

وتتابعت الوقائع فى بلاد الأندلس لاسيما بعد أن لقى تاشفين بن على مصرعه فى وهران فى ٥٣٩هـ / ١١٤٤م، وتمزقت الأندلس من جديد إلى دويلات للطوائف أكثر مما كانت قبل قرن ونصف وقبل أن يوحدها عبد الرحمن بن محمد (الناصر لدين والله). وفى الفترة من سنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٤م إلى ٥٤١هـ / ١١٤٦م أعلنت أكثر من ثلاثين مدينة أندلسية طرحها لطاعة المرابطين وأعلنت إستقلالها، ومن بين هؤلاء الثوار : ابن وزير أبو محمد سدراى الثائر بيابرة ويوسف البطروجى ولبيد بن عبد الله بشنترين وأبو القمر بن عزون بشريش وابن عياض بشرق الأندلس وعلى بن عيسى بن ميمون بقادس، ومحمد بن على بن الحجام بيطليوس، ومحمد بن عمر بن المنذر المولد بشلب، والقاضى أبو جعفر حمدين بن محمد بن على بن حمدين التغلبى بقرطبة، والقاضى أبو الحكم بن حسون بمالقة، والقاضى أبو مروان عبد الملك بن عبد العزيز ببلنسية، ثم خلفه عبد الرحمن بن عياض، فمحمد بن سعد الجذامى المعروف بابن مردنيش الذى ضم إليه مرسية، والقاضى أبو أمية أحمد بن عاصم بأريولة، والقاضى يوسف بن عبد الرحمن بن جزى بجيان وأحمد بن ملحان بوادى أش(٣).

أما المرية فقد طرحت الطاعة أيضا للمرابطين، ودخلت فى فلك دولة الموحدين، وتولى أمر جيوش الموحدين بها عبد الله بن سليمان الذى قتله البحريون رجالةالقطائع(٤).

وكان أول ولاة الموحدين بها يوسف بن مخلوف، الذى لم يلبث أن خلعه أهل المرية وقتلوه، وعرضوا على أمير البحر أبى عبد الله محمد بن ميمون الرئاسة، فرفضها، وقال : «إنما أنا رجل منكم ووظيفتى البحر وبه عرفت، فكل عدو جاءكم من جهة البحر فأنا لكم به، فقدموا على أنفسكم من شئتم غيرى»، فقدموا على أنفسهم رجلا منهم إسمه عبد الله بن محمد، يعرف بابن الرميمى(٥)، فلم يزل عليها إلى أن إستولى عليها ألفونسو السابع ريموند الملقب عند مؤرخى العرب بالسليطين ملك قشتالة(٦) سنة ٥٤٢هـ / ١١٤٧م.

وموضوع البحث يعالج تفاصيل الحملة الجنوية القشتالية القطلانية على مدينة المرية الإسلامية عام ٥٤٢هـ / ١١٤٧م وتبعيتها لمملكة قشتالة حتى إستعادها الموحدون عام ٥٥٢ هـ / ١١٥٧م، وهذه الفترة القصيرة من تاريخ المرية لا زال يكتنفها الغموض، لأن الباحثين المحدثين مروا عليها مرور الكرام دون أن يتعمقوا فى تفاصيلها، فى الوقت الذى إلتزمت فيه المصادر العربية الصمت حيال هذه الفترة

من السيطرة القشتالية على المرية ولهذا فقد ظلت هذه السنوات العشر من تاريخ المرية الإسلامية فترة مجهولة تمثل فجوة فى تاريخ المدينة تحتاج إلى ما يسدها من الحقائق إستكمالاً لتاريخ المدينة فى العصر الإسلامى وربما كان ذلك من دوافع إختيارى لهذا الموضوع رغم صعوبته بأمل التوصل إلى حقائق قد تتيح إزالة ما إكتنفت هذه الفترة من الغموض.

وإن كانت المصادر الإسلامية قد أسهبت فى الحديث عن أهمية المرية الإقتصادية قبل سقوطها فى أيدى النصارى سنة ٥٤٢هـ / ١١٤٧م فقد تجنبت ذكر الوقائع والأحداث التى تعرضت لها المدينة حتى إستيلاء النصارى عليها، فبعضها يحدد تاريخ سقوط المرية، والبعض الآخر يروى الحادث بطريقة مختصرة أو يضيف روايات أقل أهمية، مثلما جاء فى روايات عبد الواحد المراكشى فى «المعجب فى تلخيص أخبار المغرب»[٧]، وإبن الأثير فى «الكامل فى التاريخ»[٨]، وإبن الأبار فى «التكملة لكتاب الصلة»[٩]، وإبن خلكان فى «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان»[١٠]، وإبن أبى زرع فى «الأنيس المطرب بروض القرطاس»[١١]، والإدريسى فى «المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس»[١٢]، وإبن خلدون فى «العرب وديوان المبتدأ والخبر»[١٣]، وإبن عذارى فى «البيان المغرب»[١٤]، والنويرى فى «نهاية الأرب»[١٥].

أما المصادر الأجنبية، فيتعتبر كتابى :

- Los Annales Genuenses ab anno Mc,

- De Captione Almeria et Tottuosa,

للمؤرخ الجوى كافارو Caffaro من أهم المصادر اللاتينية لأن مؤلفهما كان شاهد عيان لهذا الحادث إذ صاحب الحملة الجنوية الأولى على المرية فى عام ١١٤٦م، وأسهم فى عام ١١٤٧م فى إعداد حملة أخرى على المرية، ومن المحتمل أنه لم يشترك فى هذه الحملة الأخيرة، وإنما استقى أخبارها من القناصل الذين شاركوا فيها فى ذلك العام. فهو فى روايته لوقائع سقوط المرية فى أيدى النصارى يرويها كشاهد عيان وإن كان يؤخذ عليه تحيزه الواضح لأبناء جنسه الجنويين، ووصفه الحملة كمشروع جنوى خالص[١٦].

وهناك مصدر جنوى آخر كتب بعد ثلاثة قرون من وقائع حملة المرية للمؤرخ جستنيانو Giustiniano وهو:

- Annali della republica di Geno,

إعتمد فيه جستنيانو كلية على روايات كافارو، وإن أضاف إليها بعض الروايات التاريخية[١٧].

أما المصادر البيزية فلدينا مصنف لمؤلف مجهول عنوانه:

- El Libro Maiolichinus

ويضيف هذا المصدر روايات تؤكد إشتراك بيزه فى مشروع الهجوم على المرية[١٨].

أما المصادر القشتالية المعاصرة لوقائع غزو المرية فمنها كتاب [١٩].

- Anonimo : Chroniaa Adefonsi Imperatoris,

وكتاب :

- El Poema de Almeria

فالمصدر الأول يتعلق بتاريخ الإمبراطور ألفونسو السابع، والثانى هو قصيدة المرية التى تشير إلى استجابة فرسان الفرنجة وجليقية وأشتوريش وليون وقشتالة واسترامادوره لنداء الإمبراطور بالاشتراك فى الحملة الصليبة المؤتلفة على المرية عام ٥٤٢هـ / ١١٤٧م.

وقد أهتم المؤرخون القشتاليون والأرغونيون والقطلان والفرنسيون بوقائع إستيلاء النصارى على المرية، فتناولوا بالدراسة الأخبار التى أوردها كافارو وجستنيانو، وكذا الموجودة فى المصادر القشتالية والقطلانية، وطوعوها لميولهم، ومالوا بما كتبوه مع هواهم، كل يرد أن ينسب الفضل فى سقوط المرية لوطنه، ومن هؤلاء المؤرخين: مارمول، وساندوفال. وثوريتا وبوتييه، وبوخادس وبلاجيروفايست [٢٠].

٢ - النشاط البحرى للمرية قبيل إستيلاء النصارى عليها فى المجالين الحربى والأقتصادى:

أ - جهود أبى عبد الله محمد بن ميمون قائد أسطول المرية المرابطى فى الحوض الغربى للبحر المتوسط.

قامت الأساطيل المرابطية التى وصل عدد سفنها ما يقرب من مائة وحدة بحرية فى مختلف ثغور الأندلس والمغرب الأقصى وجزر البليار والقواعد البحرية للمرابطين بدور هام ضد قوى المسيحية فى حوض البحر المتوسط [٢١]. ومن الجدير

بالذكر أن أبرز الأسرات البحرية التى لمعت فى الجهاد البحرى فى عصر دولة المرابطين أسرة بنى ميمون (٢٢)، وأصل هذه الأسرة غير معروف على وجه الدقة، وأغلب الظن أنهم من العرب الذين مكنوا الأمير عبد الرحمن الداخل من الثائر حيوة بن ملامس، ومن تأبش معه من البربر (٢٣). وقد ينتسب بنو ميمون إلى بنى عبد الدار الذين إستقروا بقرطبة، ومنهم أبو بكر محمد بن عبد الله بن ميمون بن إدريس بن محمد بن عبد الله العبدرى (ت ٥٦٧هـ / ١١٧٢م) (٢٤). ويبدو أن جماعة منهم إستقروا بثغر دانية بشرق الأندلس، ثم انتقلوا منها إلى المرية (٢٥)، بينما استقرت جماعة منهم فى جزيرة قادس.

على أن أعظم من أنجبته هذه الأسرة وذاعت شهرته فى الجهاد البحرى هو أبوعبد الله محمد بن ميمون (٢٦)، الذى كان فى مطلع شبابه قائد «غراب» فى فترة الحصار الصليبى على مدينة ميورقة، وانطلق فى غرابة من دار الصناعة ليلا لنقل رسالة إستغاثة من أمير الجزائر الشرقية إلى أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين، الذى ألحقه بالأسطول المرابطى إعجابا بشجاعته وتقديرا لبسالته (٢٧).

وفى عام ٥١٠هـ / ١١١٦م أصبح محمد بن ميمون أحد كبار القادة فى أساطيل دولة المرابطين، يقول إبن عذارى «وفى عام ٥١٠هـ قدم أمير المسلمين (على بن يوسف)، محمد بن ميمون قائد الأسطول البحرى، وكان له غزوات مشهورة وأمور مذكورة» (٢٨).

ومن المرجح أنه كان يتخذ من المرية قاعدة لأسطوله (٢٩)، يؤيد ذلك ما قاله الشقندى «وفيها (أى المرية) كان إبن ميمون القائد الذى قهر النصارى فى البحر، وقطع سفرهم فيه، وضرب على بلاد الرمانية، فقتل وسبى، وملأ صدور أهلها رعبا» (٣٠).

وأول إشارة فى المصادر الإسلامية إلى حملات أبى عبد الله محمد بن ميمون البحرية ما ذكره إبن عذارى فى حوادث عام ٥١١هـ / ١١١٧م يقول : ««وفيها نقذ عهد أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين إلى أبى عبد الله بن ميمون قائد الأسطول بتعمير حملة لغزو بلاد الروم.... فعمر (ابن ميمون) خمسة وعشرون مركبا من ذوى الدربة والنجدة، فاستفتح مدينة قطرون» (٣١)، وعاد إلى المرية سالما غانما. وتشير المصادر القشتالية إلى إحدى الغارات البحرية التى قام بها ابن ميمون على ساحل قطلونية، فيقول: «وقد أسر أحد النبلاء المسيحيين من أعضاء مجلس بلدية برشلونة العشرة، وكان يدعى بالربرتير فى حملة من الحملات

البحرية التى كان يقوم بها محمد بن ميمون أمير البحر المرابطى على سواحل إمارة قطلونية، فحمله إلى بلاد المغرب، حيث أسند إليه على بن يوسف بن تاشفين قيادة فرقة المرتزقة النصارى فى الجيش المرابطى التى أسهمت بدور هام فى النشاط الحربى فى نهاية عده المرابطين» (٣٢). ويذكر محمد الزهرى أن أساطيل المرابطين بقيادة أمير الأسطول محمد ابن ميمون أغارت على بلاد الرمانية، فيقول: وفى غربى رومة بلاد الرمانية وقد بلغت غارات المسلمين فى البحر من بلاد الأندلس إلى هذه البلاد. «وكان يومئذ على الأسطول محمد بن ميمون من مدينة المرية، وغزاها من بعده من أشبيلية عيسى بن ميمون» (٣٣)، وذلك لما خرج محمد بن ميمون فى أسطوله إلى جزيزة صقلية لغزو نقوطرة بساحل بلاد قلورية (كلابريا) من عمل رجار (روجر) الثانى، ففتحها وسبى نساءها وأطفالها، تلبية لصريخ أمير افريقية الحسن بن على بن يحيى بن تميم بأمير المسلمين على بن يوسف بن تاشقين لردع رجار الثانى ملك صقلية النورمندى من القيام بأى عدوان على ثغور إفريقية(٣٤). يقول «ابن عذارى» وفى سنة ٥١٦ هـ ١١٢٢م غزا أبو عبد الله بن ميمون قائد على بن يوسف ملك البرين (المغرب والأندلس) جزيرة صقلية، وافتتح بها مدينة نقوطرة من عمل رجار (روجر الثانى) صاحب صقلية وسبى نساءها وأطفالها وقتل شيوخها وسلب جميع ماوجده فيها» (٣٥).ويلاحظ أن ابن خلدون فى روايته عن غزو جزيرة صقلية يرسم أمير أسطول المرابطين حينا باسم أحمد بن ميمون، و حينا آخر باسم محمد ابن ميمون، وافتتح قرية منها فسباها وقتل أهلها سنة ٥١٦ هـ / ١١٢٢م (٣٦). ويروى التجانى رواية أخرى عن هذه الغارة المرابطية يقول فيها: «ولما مات على بن يحيى وولى بعده إبنه الحسن، كان أمير المسلمين بالغرب على بن يوسف بن تاشفين، فقام بإرسال أسطوله بقيادة قائدة على بن ميمون إلى بلاد رجار (روجر الثانى)، فاستفتح بها حصونا وسبى سبايا كثيرة» (٣٧).

وأيا كان إسم أمير الأسطول المرابطى الذى قاد الحملة إلى صقلية وكلابريا فيمكن القول أن هذا يدل على التعاون الوثيق بين أسطول المرية بقيادة محمد بن ميمون وعلى بن ميمون قائد أسطول قادس فى الإغارة على جزيرة صقلية وقلورية. وهكذا إستطاعت الأساطيل المرابطية أن تقوم بغارات بحرية رادعة على إمارة قطلونية وعلى السواحل الجنوبية لبلاد الفرنجة، وساحل إيطاليا الغربى وقلورية (كلابريا) وجزيرة صقلية النورمندية.

ظل أبو عبد الله محمد بن ميمون مواليا للمرابطين، فلما حاصر الموحدون

أمير المسلمين تاشفين بن على فى حصنه بمشارف وهران (٣٨) وكان أمير المسلمين تاشفين بن على قد أرسل إلى محمد بن ميمون أمير أسطول المرية يطلب منه أن «يجهز له عشرة أجفان غزوية تكون بمرسى هذا الحصن، معدة لحادث يحدث عليه، وإن ألجاته ضرورة إلى الجواز إلى الأندلس جاز» (٣٩)، فلما أحدث الموحدون مجزرة دامية بالمرابطين من حرس تاشفين فى ليلة السابع والعشرين من رمضان عام ٥٣٩ هـ / ٢٥ مارس ١١٤٢م، وتمكن الأمير تاشقين وبعض أصحابه من إقتحام الحصار المضروب عليه وأخذ طريقه إلى سفن أسطول المرية الراسية فى ثغر وهران بقيادة محمد بن ميمون سقط به حصانه من حافة صخرية مما أدى إلى وفاته فى ٢٧ رمضان عام ٥٣٩ هـ / ١١٤٢م، وإذا كان لم يقدر لابن ميمون أن ينقذ أميره المرابطى تاشفين فإنه تمكن من إنقاذ من استطاع أن يصل إليه من حاشية تاشفين وحرسه (٤٠).

ب - الأهمية الإقتصادية للمرية فى العصر المرابطى:

كانت مدينة المرية فى عصر المرابطين كما يصفها الإدريسى «مدينة السلام» (٤١)، لدورها الهام فى المجالين الصناعى والتجارى، ولكونها ثغر الأندلس الأول الذى كانت تقصده المراكب من مختلف الدول المطلة على البحر المتوسط، ويعبر عن هذا بقوله: «وكانت المرية إليها تقصد مراكب البحر من الاسكندرية والشام كله، ولم يكن بالأندلس أيسر من أهلها مالا، ولا أنجز منهم فى الصناعات، وأصناف التجارات تصريفا وإدخاراً... والمدينة فى ذاتها كبيرة، كثيرة التجارات، والمسافرون إليها كثيرون، وكان أهلها مياسير، ولم يكن فى بلاد الأندلس أحضر من أهلها نقدا ولا أوسع منهم أحوالا» (٤٢).

وقد حظيت مدينة المرية باهتمام ولاة المرابطين، الذين اهتموا بدور الطراز ودور الصناعة بها، كما عنوا بالمرافق التجارية الهامة بها من فنادق وأسواق، يذكر الإدريسى أن عدد دور الطراز بالمرية فى أيام المرابطين بلغ ثمانمائة طرز (٤٣)، لنسج الحرير. ومن أمثلة منسوجاتها: الديباج الموشى والسقلاطون والأصبهانى والجرجانى والعتابى المموج (٤٤)، والثياب المعينة أى التى تزدان بنقط صغيرة تشبه عيون الوحش أو بزخرفة هندسية على هيئة العين (٤٥)، وإذا أضفنا إلى ذلك شهرة المرية فى صناعة آلات النحاس والرصاص والحديد والسفن بجميع أنواعها فى دار صناعة المرية (٤٦).

أما من الناحية التجارية، فقد كانت المرية المركز التجارى العالمى فى شرق الأندلس، فقد كانت محطا للسفن القادمة من شرق البحر المتوسط من الشام ومصر، ومن السواحل النصرانية من جنوة وبيزة والبندقية وقطالونيا وأراغون، وإليها كانت سفنهم تحمل بضاعتهم لتوزع من المرية إلى سائر أنحاء الأندلس، ثم تشحن بالبضائع والمتاجر الأندلسية إلى سائر دول حوض البحر المتوسط (٤٧).

٣ – إستيلاء النصارى على المرية:

– الأسباب والدوافع لغزو المرية:

عندما ندرس إستيلاء النصارى على المرية والجيوش المؤتلفة التى اجتمعت على حصار المرية الإسلامية بغية الإستيلاء عليها، نجد أنها كانت تضم الجنويين والقطلان والقشتاليين، ونقف على الوسائل السياسية والدبلوماسية التى اصطنعوها لتوحيد الجهود، والشعراء الوافدين الذين اصطحبوهم لتحميس الفرسان الفرنجة، والدافع الإقتصادى الذى حركهم وجعلهم يتفقون على الإشتراك فى توجيه حملة صليبية على المرية، ينبغى إذن أن نبحث عن الأسباب والدوافع الحقيقية من خلال مدوناتهم المعاصرة والقريبة من المعاصرة جنوية كانت أو قطلانية أو قشتالية لكى نقترب من الحقيقة ونصل إلى تفسير منطقى لها. لذلك سوف نتناول بالدراسة الدوافع والتفسيرات التى أدلت بها المصادر الأجنبية:

أ – عن الدوافع الدينية الأنسانية:

يقول القنصل الجنوى كافارو الذى قاد حملة جنوية عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م على المرية والذى أعد وجهز الأسطول الجنوى فى العام التالى للاشتراك فى الحملة المؤتلفة على المرية ٥٤٢هـ / ١١٤٧م:

«معلوما لدى كل العالم تقريبا أن مسلمى المرية منذ سنوات سابقة شنوا غارات برية وبحرية طويلة وواسعة على النصارى فى بلاد متعددة، فأسروا بعض أهلها وقتلوا البعض الآخر، وأودعوا الكثيرين فى السجون وعذبوهم فمات الكثير منهم، وأقدم بعض النصارى خوفا من التعذيب على الإرتداد عن دينهم وإعتناق عقيدة الإسلام، لذلك لن يسمح الرب أن يظلوا دون إنتقام وإراقة دماء» (٤٨). ويضيف كافارو فى مكان آخر بقوله: الجنويون، الذين إستجابوا لاستدعاء الرب بواسطة المقر البابوى، حضروا من أجل شن حملة صليبية ضد المرية» (٤٩). ويردد هذا القول الأسقف الجنوى جستنيانو بعد ثلاثة قرون، حيث نهل من حوليات كارو، فيقول:

« فى ذلك الوقت كانت المدينة (أى المرية) قوية بحريا، وسكانها كانوا من المسلمين، الذين سببوا مضايقات لاتحصى للمسيحيين، وأنهم انتحلوا رئاسة القرصنة البحرية وسادوا كل البحر، خصوصا ضد النصارى مبرهنين على الإضطهاد الدينى» [٥٠].

ويستفاد من روايتى كفارو وجستنيانو أن الجنويين كانوا المحرضين الرئيسيين، والأكثر تمسكا وفعالية لتحقيق مشروع الهجوم على المرية، مدفوعين فى ذلك بدافع دينى وإنسانى على حد قولهما، بهدف القضاء نهائيا على نشاطات القرصنة التى يمارسها أسطول المرابطين بقيادة ابن ميمون، الذى اتخذ من ثغر المرية قاعدة لأسطوله. هذا وينسب المؤرخ مارمول Marmol إلى البابا يوجنيوس الثالث Eugenio III (١١٤٧ - ١١٥٣م) أنه المحرض والمشجع على الحملة الصليبية ضد المرية، وكذلك الممول للأسطول الجنوى [٥١].

أما المدونات القطلانية والقشتالية فتذكر نفس الدوافع، فمصنف «حياة القديس أوْليجاريو، أسقف برشلونة» "La vida de san Oleggrio, Obisp de Barcelona" يقول أن : قراصنة المرية مدوا غاراتهم على كل الشواطئ المسيحية للبحر المتوسط» [٥٢]. ويضيف مؤلف كتاب»

"La Historia Compostelana "

«أن مسلمى المرية وصلوا إلى شواطئ جليقة وأحرقوا ودمروا الكنائس وقتلوا وأسروا الرجال والنساء والأطفال، واضطر باقى السكان بسبب الغارات البحرية إلى هجر سواحلهم، والإنتقال إلى المناطق الداخلية» [٥٣]. بينما يقول بالنشيا فى هذا الصدد : «أن مسلمى المرية حققوا غارات مفاجئة على شواطئ بلنسبة وبرشلونة، وعلى إمتداد البحر المحيط أبعد من جبل طارق حيث أننا لانستطيع أن نحصرها على الأقل جزئيا، فهى نشاطات مداها عظيم» [٥٤]. بينما تقول مدونة ألفونسو السابع، وهى شاهد معاصر قشتالى لتلك الوقائع، أنه عندما حضرت سفارة جنوبية فى خريف ١١٤٦م لمقابلة ألفونسو السابع عند حصاره لمدينة قرطبة، وذلك من أجل التحضير لمشروع هجوم محتمل على المرية، فإن السبب فى تجمعهم أن مدينة المرية كانت: «مقرا للصوص البحر الذين يمارسون نشاطهم فى كل البحار، فهاجموا شواطئ بارى Bari وأسكلون Ascalon والقسطنطينة وجزيرة صقلية وجنوة وبيزه وفرنسا والبرتغال وجليقية وأشتوريش ، ووسقوا مراكبهم بالأسرى

المسيحيين (٥٥). ومن المؤرخين النصارى الحديثين لدينا روايتان إحداهما قطلانية والأخرى قشتالية أجمعتا على الدافع الذى تذرع به النصارى للهجوم على المرية، الرواية الأولى للمورخ القطلانى بوخارس الذى يقول: أن مسلمى المرية رأوا وراثة الاقطاع الذى أخذه قديما Tiriosy Rodos فى البحر المتوسط .... ولهذا، ليس فقط على ملك قشتالة، لكن وجب على كل المسيحيين وعلى وجه الخصوص قطالونية منع هذه المحلة (أى المرية) من السلاح وكف قدرة أهلها البحرية، وتحطيم قواتهم، وقد أنجز ذلك مرة ما أخبر به» (٥٦). بينما يقول القشتالى ساندوفال، «كانت المرية وكرا للقراصنة حيث يعودون إليه ويخرجون منه للسلب» (٥٧).

ومما لاشك فيه أن مسلمى المرية كانوا يحسون بالزهو لجسارة قائدهم ابن ميمون وجرأته فى مهاجمة سفن المسيحيين فى البحر ونشر الرعب فى قلوب النصارى، يعبر عن ذلك الشقندى بقوله: «وفيها (أى المرية) كان ابن ميمون القائد الذى قهر النصارى فى البحر، وقطع سفرهم فيه، وضرب على بلاد الرمانية، فقتل وسبى، وملأ صدور أهلها رعبا» (٥٨). هذه النشاطات البحرية لابن ميمون ضد النصارى يبدو أنها كما ظنت المصادر المسيحية السبب والدافع الأساسى لمشروع الهجوم ضد المرية، والحقيقة أن هذا السبب الذى إتخذه النصارى ذريعة للهجوم على المرية وللقضاء على وكر القرصنة – على حد قولهم – غير كاف للأهتمام بالإعداد وتجهيز الحملة، ذلك لأنه فى عالم العصر الوسيط وبدايات العصر الحديث كانوا قد خصصوا وقت فراغهم للإبحار للقرصنة ولم يكن لديهم أى تكلف فى بيع الأسرى الذى كانوا يقعون فى أيديهم عند كل غارة يشنونها على سواحل أعدائهم أو عند هجماتهم المعادية، إسلامية كانت أو مسيحية. ففى رواية الأوربانيخا يقول أن «بعض القراصنة القطلان نهبوا الشواطئ الأندلسية، فى الوقت الذى كان فيه مسلمو المرية معتبرين شياطين البحر المتوسط، وعند عودتهم إلى موطنهم محملين بالغنائم خرج قراصنة المرية ودانية وبلنسية فى أثرهم وأوقعوهم فى مأزق كبير، فابتهلوا إلى القديس القطلانى لإنجادهم» (٥٩).

ب – الدوافع الإقتصادية:

يبدو منطقيا أن دولا ساحلية مثل برشلونة وجنوة وبيشة (بيزه) لم تكن تنعم بالاستقرار بسبب الغارات الجريئة التى كان يشنها أبو عبد الله محمد بن ميمون قائد أسطول المرية كل عام تقريبا من فصل الربيع إلى فصل الخريف مهددان سواحلها وطرقها التجارية، لذلك لايمكننا إستبعاد الإفتراض أن هذه الدولة البحرية

ذات القوة البحرية كانت هى أيضا تحاول إبعاد ابن ميمون أشد المنافسين لها والذى يحظى بخبرات بحرية واسعة من مواصلة تجارته مع موانئ الشمال الإفريقى ثم موانى شرقى حوض البحر المتوسط بعد ذلك.

فلقد كانت العلاقة التجارية بين المرية وإفريقية والمغرب وكذا المشرق الإسلامى قد توطدت، ولاشك أن ذلك كان له أثره فى تعويق نشاط الدول البحرية المسيحية ووقفه بالقوة. فلقد استغرقت كل من برشلونة وعلى الأخص جنوة قرنا تأملان فى الحصول على منتجات المنسوجات اليدوية من الحرير والكتان التى كانت قد نمت وازدهرت فى مدينة المرية وضواحيها، والتى اضطلعت بهذه الصناعة حيث أصبحت المصدر الرئيسى لثروة أهلها، والذى جعلها أهم صناعة لها أسواقها الخارجية فى الدول الأخرى وذلك بسبب دقة منسوجاتها الحريرية المتقنة للغاية نتيجة لتوفر المواد الأولية التى ينتجها إقليمها مثل الحرير والكتان لتبادلها مع الحبوب والمنتوجات الإفريقية الأخرى والمنتجات الأخرى التى تقاربها فى الأسواق فى المشرق الإسلامى، وإرسال باقى هذه المنتوجات المستوردة بعد ذلك إلى الأندلس والدول الاوربية.

اعتقد الجنويون والقطلان أنه من الضرورى إبعاد المرية المنافس التجارى الخطر عن طرق التجارة البحرية بتدمير المصدر الأساسى لثروتها، وبهذا الدافع أعدوا حملة للإستيلاء على المرية وتخريبها لمدة عشر سنوات، ومع أن المرية استعادت حريتها ونشاطها الصناعى بعد ذلك على أيدى الموحدين إلا أنها أصبحت غير منافسة تجاريا، واضطر أهلها إلى بيع الحرير للنصارى لتعذر صناعته بسبب نقص الأنوال التى دمرها النصارى عند إستيلائهم عليها، ووقوع عدد كبير من الصناع أسرى فى أيديهم.

لهذا لم تستطع المرية أن تسترجع إزدهارها القديم، وإن كانت قد أصبحت منذ بداية القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى الميناء التجارى الأول فى الأندلس، الذى يتعامل مع الدول النصرانية، فقد كانت تصلها السفن من الجمهوريات الإيطالية وأراغون وأقطار أخرى محملة بالبضائع، فتفرغها فى المرية، وتحمل بضائع أخرى أندلسية[٦٠]، يؤكد ذلك ما ذكره الشقندى بقوله: «وبها (أى المرية) كان محط مراكب النصارى، ومجتمع ديوانهم، ومنها كانت تسفّر لسائر البلاد بضائعهم، ومنها كانوا يوسقون جميع البضائع التى تصلح لهم، وقصد بضبط ذلك بها حصر ما يجتمع فى أعشارهم ولم يوجد لهذا الشأن مثلها، لكونها متوسطة، ومتسعة، قائمة بالوارد والصادر»[٦١].

جـ - دوافع سياسية وإستراتيجية:

كان للقشتاليين وجهة نظر مختلفة جدا عن القطلان والجنويين فالقشتاليون لم يستعجلوا النصر المباشر على قراصنة المرية فلم يكن لديهم شعور عدائي ديني ضدهم. وكانت الدوافع لدى ألفونسو السابع ذات أهمية سياسية تتعلق بسمعته، فمنذ أن توج إمبراطورا في ليون وهو يعمل على إسترداد مواضع أندلسية كثيرة، منتهزا فرصة ضعف دولة المرابطين. إذ كان إضمحلال سلطان المرابطين في المغرب، وتفوق قوى الأندلس عند إتحادها، والعون الذى كان يلقاه ثوار الغرب من ملك البرتغال، بالإضافة إلى إحتمال إنتقال الموحدين إلى الأندلس؛ كل ذلك حمل ابن غانية القائد المرابطي - الذى ترك دون عون من إفريقية - على أن يسعى للحصول على مساعدة النصارى، وقد حصل عليها من ألفونسو السابع أعظم ملوك أسبانيا المسيحية، وبذل في سبيلها بلاشك وعودا ضخمة، وبعد أن قاتل النصارى بالتعاقب مع حزب سيف الدولة بن هود، ثم عبد الله الطغرائي، ثم أحمد بن قسى تحالفوا عندئذ مع المرابطين ألد أعدائهم من قبل، وسارت القوى المتحالفة معا صوب أندوجار وبياسة وقرطبة(٦٢). فدخل ابن غانية ومعه فرقة من النصارى قرطبة في ١٢ شعبان عام ٥٤٠هـ، وعاث النصارى في مسجدها الجامع، وربطوا خيولهم في أروقته، وأقاموا قداسا حافلا وتناولوا بأيديهم المصحف العثماني(٦٣)، فأثاروا بذلك غضب أهل قرطبة. ويبدو أن السبب في ذلك أن ألفونسو السابع طالب ابن غانية بمدينة قرطبة كتعويض لمساعدته له ولكن ابن غانية صالحة على أن يعطيه بياسة وتحفا كثيرة(٦٤).

وقد لقى ألفونسو السابع معاونة صادقة من محمد بن سعد بن مردنيش وابراهيم بن همشك، وهذان الرجلان مسؤولان إلى حد بعيد عما أصاب الإسلام في شرق الأندلس في أواخر العصر المرابطي وخلال العصر الموحدى، وأصبح ألفونسو السابع امبراطورا لوسط إسبانيا، وأقدمت جيوشه على الإغارة على مدن الأندلس، غير أن الإنتشار الأرغوني في شرق الأندلس، وكذا الوجود النشط للأسطول الجنوى في الحوض الغربي للبحر المتوسط أقلقه بشكل خاص. ولاشك أن هذا قد دفع ألفونسو السابع للموافقة على الإشتراك في مشروع الهجوم على المرية، ليس لإحتلالها ومواجهة قوى الموحدين بالمغرب الطامعة في ضم الأندلس، ولكن لكبح جماح الأطماع القطلانية والجنوية. وفي نفس الوقت لكي يتخذ ألفونسو السابع من مدينة المرية قاعدة متقدمة كحد فاصل بين الأطماع الأرغونية والقشتالية في شرق الأندلس.

المحاولة الأولى: الحملة الجنوية على المرية عام ٥٤١هـ/ ١١٤٦م

خلال فصلى الصيف والخريف لعام ٥٤١هـ/ ١١٤٦م أعد الجنويون حملة على جزيرة منورقة وثغر المرية[٦٥]. ولم يذكر القنصل الجنوى الذى قاد هذه الحملة ضد المرية تاريخا محددا لها، بينما يقول ابن أبى زرع باختصار: فى عام ٥٤٠هـ نزل العدو المرية بثمانين جفنا، فأحرق أرباضها وانصرف عنها[٦٦].

وأعد الجنويون أسطولا يتألف من إثنين وعشرين سفينة شراعية وست قوارب مزودة بالمجاذيف، وشحنوا هذه السفن بأدوات الحرب، كما أبحر مع الحملة مائة فارس بعتادهم من السلاح والبياذق، وتولى قيادة الحملة القنصل الجنوى كافارو الذى أوبرتو تورى‌س Oberto Turre بالمشاركة فى القيادة، ووصل هذا الأسطول أولا إلى مياة جزيرة مينورقة إحدى جزر البليار، ففاجأ مسلمى الجزيرة ونهب قراها، واشتبك فى معارك طاحنة مع أهلها، وساق معه بعض الأسرى[٦٧]. ومن مينورقة أبحر الأسطول الجنوى رأسا إلى المرية حيث صادف فى مينائها مراكب تجارية محملة بالبضائع، فاستولى عليها ووسقها فى مراكبه، ثم نزل الجنويون إلى الشاطئ حيث شرعوا فى إقامة معسكر لهم بالقرب من أسوار المدينة، ونصبوا مجانيقهم، ولم يجد مسلمو المرية بدا من طلب هدنة وعرضوا على الجنويين مبلغ ١١٣,٠٠٠ دينار مرابطى فى مقابل إنسحابهم من المدينة دون أن يلحقوا بها أضرار، وقد أجاب كافارو ومعاونه بأنهما لا يستطيعان عقد هدنه سلام معهم إلا إذا سلم أهل المرية المبلغ المعروض كله، وأخيرا توصل الطرفان إلى إتفاق يقضى بأن يدفع أهل المرية خمسا وعشرين ألف دينار مرابطى فى الحال، على أن يسدوا باقى المبلغ المتفق عليه خلال ثمانية أيام[٦٨].

احتفل القناصل الجنويون مساء ذلك اليوم بهذه المناسبة، ووزعوا المبلغ الذى دفعه مسلمو المرية على قادة الأسطول. أما أهل المرية فقد خلعوا يوسف بن مخلوف عامل الموحدين عليهم، لفشله فى رد هجوم الجنويين، وعرضوا رئاستهم على قائد أسطولهم ابن ميمون فرفضها فولوا عليهم أبا يحيى بن الرميمى[٦٩]. ويرجح أويثى ميراندا أن المرية شهدت خلال حكمه قيام إمارة مستقلة حتى إستيلاء النصارى عليها[٧٠]. على أية حال فان ابن الرميمى أرسل للجنويين يبلغهم بما حدث ويقر إتفاقهم مع الوالى السابق، وتعهد بتقديم الأموال المتبقية خلال المدة المحددة.

ولما أنقضت المهلة المحددة ولم يقدم أهل المرية الأموال المتبقية أشتد غضب الجنويون، وصمموا على مواصلة حصارهم للمدينة فأقاموا عليها نحو أثنين وعشرين يوما، أحرقوا خلالها زروعها، وأحدثوا أضرارا كبيرة فى أسوارها، وإضطروا إلى رفع الحصار عنها لحلول فصل الشتاء(٧١).

وكان الجنويون خلال حصارهم لمدينة المرية قد أدركوا إستحالة تجاوز دفاعاتها، وفى الوقت نفسه أنكر أهل المرية دفع ما سبق أن اتفقوا عليه، لذلك صمم الجنويون على الإستيلاء على المدينة بالقوة، ولهذا السبب اتصلوا بألفونسو السابع حيث كان على رأس جيشه على حصار مدينة قرطبة فى النصف الثانى من سبتمبر عام ١١٤٦م، وخرجت سفارة جنوبية من ضواحى المرية برئاسة القنصل كافارو، وتوجهت حيث كان الامبراطور، فوصلت فى أواخر شهر سبتمبر، وساعده على الوصول ما كانت تموج به الأندلس من اضطرابات بسبب إضمحلال النفوذ المرابطى به(٧٢). فالتمس الجنويون من ألفونسو السابع أن يأخذ دوره القيادى فى مشروع الإستيلاء على المرية وتخريبها فى العام التالى ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م، فوافق على العرض وأقر تفصيلات المشروع، وتعهد بأن يحاول إشتراك بعض امراء اسبانيا النصرانية وسادة وسط فرنسا فى مشروع الحملة(٧٣).

عاد الامبراطور ألفونسو السابع فجأة إلى قشتالة فى نوفمبر ١١٤٦م واستطاع أن يوفق بين مملكتى نافارا وأراغون، وأن يعقد نوعا من السلام العام بين الممالك الاسبانية بغرض تجهيز حملة على المرية(٧٤). يقول ساندوفال أن ملكى نافارا وأراغون إتفقا بينهما. وعقدا حلفا للعام التالى ١١٤٧م، الذى جاء بنتيجة طيبة من لقاءاتهما(٧٥).

ثم عاد كل عاهل إلى مملكته للإعداد للحملة على المرية، واضعين نصب أعينهم شارة الصليب لمهاجمة مسلمى المرية ومعاقبتهم على الجرائم الخطيرة التى إرتكبها قراصنتهم، ودعا دون أونالدو أسقف استرقه Astorga سادة وسط فرنسا وقناصل الجمهوريات الإيطالية باسم الامبراطور ألفونسو السابع «لخلاص أرواحهم» وإتفقوا على شهر أغسطس لتدمير وكر القراصنة(٧٦).

المحاولة الثانية للهجوم على المرية:

- القوات المؤتلفة فى مشروع الهجوم على المرية:

كانت القوات المؤتلفة التى اشتركت فى مشروع الهجوم على المرية هى:

ألفونسو السابع امبرطور قشتالة وجارثيا راميرث ملك نافار، ورامون برنجير الرابع كونت برشلونة وأمير أرغون، والكونت جيرمو دى مونتيلية والقنصلان الجنويان أنسالدو Ansaldoوبلدوين دى أوريا Balduino de oria وأمراء الأسطول البيزى(٧٧).

عبأ الامبرطور ألفونسو السابع لهذا المشروع كل قواته البرية وربما شارك أسطوله فى خليج كانتبريا فى الحملة(٧٨). كما شاركت مع الامبراطور قوات أخرى جليقية بقيادة الكونت فرناندث بيرس دى ترابا Fernandez Perez de Traba أحد الشخصيات الهامة فى مملكة ليون، وكان قد شارك فى فتوح أوريخا Oreja وقورية Coria وقرطبة(٧٩). كما اشتركت قوات من مدينة ليون تحت قيادة الكونت راميرو فلوريث دى جوثمان Ramiro Folrez de Gozman (٨٠)وقوات من اشتوريش قادها بدور ألفونسو Pedro Alfoso(٨١) وقوات من ليون قادها الكونت بدور بونث دى مينرفا Pedro ponce de Minerva(٨٢).

كما اشتركت قوات من الفرسان من مقاطعة ليميا Limia بمحافظة أورينسا Orensa بقيادة نبيل جليقى يدعى فرناند خوانيسFernando Juanes (٨٣). أما قوات طليطلة فقد تولى قيادتها حاكمهم ألفارو رودريجسAlvaro Rodriguez(٨٤). أما رامون برنجيز كونت برشلونة الذى استجاب لدعوة الامبراطور ألفونسو السابع للأشتراك فى مشروع الهجوم على المرية، فقد تكونت قواته الأساسية - كما يقول كافارو - من خمسمائة وثلاثين فارسا بمعداتهم(٨٥). ووضع لخدمتهم حوالى ألفين وخمسمائة رجل وخصص لكل فارس جوادين، فضلا عن المشاة والنوتية لتسيير السفن، ومن المحتمل أن عدد قطع الأسطول القطلانى كان يتراوح ما بين خمس وعشرين وثلاثين سفينة.

والغريب أن كابمانى Capmany يجعل من رامون برنجير الرابع المحرض الرئيسى على مشروع الهجوم على المرية، فيقول ان رامون برنجير دعا الجنويين وكونتات برشلونة إلى عقد حلف قوى أكد فيه مساعدته لهم فى مشروع الهجوم على المرية نظير الوفاء بحصة مؤكدة لكل منهم(٨٦). ومما لا شك فيه أن هذه الرواية غير صحيحة، فقد سبق أن ذكرنا أن كافارو (القنصل الجنوى) كان قد أكد مشروع الهجوم على المرية مع ألفونسو السابع، وترك له العمل لمحاولة إشراك أمراء اسبانيا النصرانية فى المشروع، وهذا يعنى أن رامون برنجيز الرابع كان نصيراً لألفونسو السابع والجنويين.

أما جنوة، فقد شاركت بأسطول مكون من ثلاث وستين سفينة ومائة وثلاث وستين مركباً من أنواع مختلفة، وأشترك فى الحملة بعض القناصل وذلك فى عام ١١٤٧م. ورافقهم مجموعة من النبلاء (٨٧). ويفترض بعض المؤرخين اشتراك القنصل الجنوى كافارو فى هذه الحملة مستندين على ما جاء فى كتابة "De Captione Almerie y Tortuisa" لكن ذلك لا ينهض دليلاً مؤكداً، لأن المعلومات التى يحتويها الكتاب استقاها كافارو من قناصل هذا العام الذين عاونوا وأداروا المشروع.

أما بيزه، فهناك ما يشير إلى اشتراكها بقائد أسطولها أمير البحر يوجو فسكونت كورنولو Ugo Visconti Cornolo دون ذكر لعدد قطع أسطولها، ولا لأى نشاط لها فى الحصار فى الهجوم على المرية(٨٨).

ومن فرنسا، اشترك أحد النبلاء الفرنسيين ويدعى جيوم السادس Guillemo VI سيد مونتبلييه احدى مقاطعات لانجدوك (٨٩). وهناك إشارة إلى اشتراك ثلاثة من فرسان المعبد فى الهجوم على المرية وهم : جيلهم هيك Guilhem Hek، وفرانسيس جوفرى Francis Jouffory، ورودلف ترنش Rodolph Trench، إذ عهد إليهم بحراسة حصن كان قائماً على مرتفع سان كريستوبال San Cristobal الواقع بين سور المرية ومنطقة هويا القديمة La Hoya Vieja، وهو المكان المعروف عند الكتاب المسلمين بالعرقوب(٩٠).

حصار مدينة المرية وسقوطها فى أيدى النصارى وتبعيتها لقشتالة:

وفى العام التالى، اجتمعت فى ميناء برشلونة الأساطيل القطلانية والجنوية والبيزية المشاركة فى مشروع الهجوم على المرية، ثم اتجهت هذه الأساطيل إلى ثغر المرية، فوصل إلى شواطئ خليج القبطة الكونت البرشلونى رامون برنجير فى أسطوله يرافقه خمسمائه وثلاثون فارسا عدا المشاة(٩١)، ثم تابعه الأسطول الجنوى الذى كان متحرقا للاستيلاء على المرية وتخريبها، فلم ينتظر وصول الامبراطور ألفونسو السابع بقواته البرية لمحاصرة المرية بحرا وبرا، بل شرع فى الهجوم بقواته على اسوار المدينة، وقد أعد الهجوم هذه المرة بدقة، فعند الفجر حضر بلدوين فى خمسة وعشرين مركبا فى اتجاه المدينة Almedina وأمر بعض جنده بالنزول إلى الشاطئ ليوهم مسلمى المرية بأنهم يشرعون فى القتال، وفى الوقت نفسه كان الكونت البرشلونى مستعدا أيضا للمعركة متواريا مع جنده عن الانظار فى أحراش بحيرة

بويار بالقرب من مصب النهر، وأخفى بها خمسا وعشرين مركبا، وأبقى واحدة منها بارزة فى نفس البقعة من النهر لتحذير المراكب الاخرى عند خروج المسلمين من المدينة للقتال، يقول كافارو أن مسلمى المرية عندما شاهدوا نزول الجند من المراكب الخمس عشرة إلى الشاطئ وهم على أهبة القتال، خشوا أن يكون النصارى قد أعدوا لهم قوات أخرى، لهذا أرسل المسلمون فارسين أحدهما أبيض والآخر أسود ارتقيا مرتفع سان كريستوبال لمراقبة ما حوله، ولأن الفارسين لم يلاحظا الفرسان النصارى الذين استتروا، أعطيا إشارات بالرايات لكى يخرج مسلمى المرية ويهاجموهم[٩٢].

وهكذا خرج مسلمو المرية عندما شاهدوا الإشارة من سور المدينة جهة باب البحر، مجهزين تماما للقتال، يقول كافارو أن عددهم كان أربعين ألفا[٩٣]، ولا شك أن هذا الرقم مبالغ فيه، لأن عدد سكان المرية كلهم بحساب الشيوخ والنساء والأطفال يكاد يقارب هذا الرقم، ولهذا فإن المشاركين فى القتال لابد أنهم كانوا أقل من ذلك بكثير.

والتحم مسلمو المرية والجنويون الذين نزلوا إلى الشاطئ، وتمكن المسلمون من ردهم وقتلوا منهم ثمانية وأجبروا الآخرين على الهرب إلى مراكبهم، حينئذ أعطى القنصل الجنوى أنسالدو دى أوريا الإشارة المتفق عليها، وكانت متأخرة كثيرا، إلى الكونت البرشلونى والمراكب المتوارية فى النهر، فتركت الخمس وعشرون مركبا والفرسان القطلان تجاه المدينة، وعادت مراكب بلدوين إلى إنزال جنودها على شواطئ المرية، وأيضا نزل إلى الشاطئ قوات أنسالدو دى أوربا. وألقى القطلان والجنويون بأنفسهم فى القتال بحماس ضد مسلمى المرية، الذين قاتلوا ببسالة غير أنهم لم يجدوا مناصا من الإرتداد إلى المدينة والاحتماء خلف أسوارها تاركين وراءهم – كما يقول كافارو – خمسة آلاف قتيل، وهذا رقم مبالغ فيه جدا، والدليل على مبالغة وتعصب كافارو ضد المسلمين روايته التى يقول فيها أن جندى جنوى أصيل، يدعى جيرمو بيلس Guillermo Pellis، أسرع دون تصريح من قادته، واشتبك من الصفوف الاولى ضد مسلمى المرية، فقتل وقطع بسيفه رأس أكثر من مائة من المسلمين على الشاطئ!![٩٣].

وهكذا فشل الهجوم الجنوى القطلانى على أسوار مدينة المرية، وأيقن قادة الحملة المؤتلفة بعد أن عاينوا قوة تحصينات أسوار المرية أن حصارها سيطول فقاموا ببعض الترتيبات، فأمروا قطع أساطيلهم بالاقتراب من الشاطئ، ثم قاموا بتخطيط

معسكرهم وأحاطوه بسياج متين بعد أن أنزلوا آلات الحرب والاخشاب من أجل إقامة حصون صغيرة لمهاجمة الأسوار، وأثناء إنشغالهم فى إقامة معسكرهم وفى نصب المجانيق، كان مسلمو المرية يخرجون فى محاولات لكسر الحصار المحكم على مدينتهم ويحملون على القوات النصرانية ويعودون إلى التحصن داخل الأسوار(٩٤).

وكان ألفونسو السابع منذ شهر مايو ١١٤٧م قد أعد كل قواته فى قلعة رباح، واحتشدت قواته بها وكانت تتألف من قوات جليقية واشتوريش وقشتالة وأرغون ونافارا، وكل منها يقوده أمير أو كبير منهم، ويتولى ألفونسو السابع نفسه القيادة العليا للجيش(٩٥).

هذا وقد قرن كافاو وصول ألفونسو السابع وجيشه إلى المرية بالوقت الذى انتهى فيه الجنويون والقطلان من إقامة المعسكر(٩٦).

ويصف مورخ عربى الحملة ضد المرية، فيقول: ملأ النصارى السهل بجيوشهم الضخمة، وخربوا الحقول، واستاقوا الماشية، وساروا نحو المرية، وكان يقود النصارى ملكهم اذفنش، ويتألف جيشه من صفوف لا تحصى من الفرسان والمشاه، وقد ملأوا الجبال والسهول، ولم تكف مياه العيون الانهار لإرواء ظمئهم، ولا الحشائش والنبات لتغذيتهم، وكانت الجبال ترتج بوقع حوافز خيولهم وصوت أقدامهم، وتردد صداها، وكان من بين قادة الجيش فردلند ملك جليقية والقمط رذمير ارمنجودى، وغيرهم من أمراء الفرنج وأمم النصرانية المجاورة، وجاء القمط رمند من البحر فى سفائن عديدة، وطوق مدينة المرية من البر والبحر، حتى أصبح من المتعذر أن يدخلها أحد سوى النسور، ونفذت المؤن بسرعة، ورأى المسلمون أن لا أمل لهم فى النجدة، فخرجوا مرارا لمقاتلة النصارى، وفقدوا خيرة فرسانهم(٩٦).

أما الرواية الجنوية فتقول أن: القوات المؤتلفة قامت على الفور بنصب المجانيق على أسوار المدينة، وكمنوا فى أماكن ملائمة إستعداداً للهجوم وبدء القتال ليل نهار، فى الوقت الذى اتخذ فيه مسلمو المرية إستعدادتهم لمحاولة كسر الحصار حولهم وذلك بقذف كرات من اللهب من أعلى الأسوار لحرق حصون النصارى المتقدمة، والقيام بغارات متوالية أسفرت عن تدمير بعض المنجنيقات، كما اشتبكوا بفدائية مع قوات النصارى حتى سقط من الطرفين عدد كبير من القتلى ولجأ النصارى إلى اختبار مقاومة المسلمين، فركزوا هجومهم بالمجانيق على الأسوار فى مكان معين، وتمكنوا من فتح ثلمة فى السور طولها ثمانية عشر قدما واستولوا على

برجين[٩٧] . يقول بوخاديس pujades أن مسلمى المرية فقدوا الأمل من رفع الحصار، فى الوقت الذى أصر فيه النصارى على عدم الرحيل من هناك إلا بالموت او النصر. وأمر القادة أمراء الأسطول بسحب قطع أسطولهم إلى الشاطئ[٩٨] .

انصرم معظم شهر سبتمبر فى أعمال الحصار، وفى النصف الاول من شهر اكتوبر قرر مسلمو المرية طلب السلام من ملك قشتالة الذى أرسل – خفية عن الجنويين – مبعوثين لإبلاغ ملك نافارا وكونت أرخل أن أهل المرية عرضوا دفع مائة ألف دينار مرابطى، يدفعون على الفور رهنا عبارة عن مقدار من الذهب فى مقابل أن ينسحب ألفونسو السابع وجارثيا راميرث ويتركوا الجنويين والقطلان وحدهم على الشاطئ، آملين أن هؤلاء سوف لا يستطيعون الإستمرار فى الحصار وقتا اكبر لنقص الازواد وقرب حلول فصل الشتاء، ويعتقد بوخاديس أن الامبراطور وملك نافارا كانا يميلان للموافقه على عرض أهل المرية[٩٩] .

كرر أهل المرية المحاولة مع الجنويين، لكن الجنويين لم يتركوا لهم الفرصة لخداعهم مرة أخرى، يقول كافارو أن القناصل الجنويين تدخلوا فى الإتفاقات السرية بين القشتالين ومسلمى المرية بغرض إفشالها، وصمموا على إستمرار حصار المدينة حتى الإستيلاء عليها بالقوة، وفى فجر يوم ١٧ اكتوبر ١١٤٧م/٢٠ جمادى الاولى ٥٤٢هـ، أمروا قادة الحملة بالاستعداد للهجوم، وأعدوا نحو اثنى عشرة فرقة، كل فرقة تتكون من ألف رجل تتقدمهم الرايات، واستخدموا على الساقتين كتائب من الفرسان، وأمروهم بعدم التقدم تجاه أسوار المدينة إلا بعد سماع الإشارة المتفق عليها بدق الطبول، وأن يكون تقدمهم دون إثارة ضجة، ويكمنوا لمسلمى المرية، فعندما يخرجون للإغارة على المعسكر، يشتبكوا معهم فى قتال دون أن تصدر منهم صيحات، وفى صباح اليوم التالى توسلوا مرات عديدة إلى ألفونسو السابع والكونت رامون برنجير أن يصدرا الاوامر لقواتهما بالاستعداد واتخاذ أهبة الاستعداد للقتال، وطلبوا منهما الاقتراب من أسوار المرية لمعاينة الفرق الجنوية المستعدة للهجوم، وهكذا عندما دقت الطبول، تقدم الجنويون تجاه أسوار مدينة المرية، واستعدوا للهجوم من خلال عشرة مواضع مختلفة[١٠٠] .

أما فيما يتعلق بالهجوم على الأسوار، فيذكر كافارو روايتين يختلفان فقط فى تفسير التوقيت، ففى مؤلفه De captione يقول، «وفى أقل من ثلاث ساعات من صباح اليوم، وبرعاية الرب، قتلوا الكثير من المسلمين بسيوفهم، واحتلوا كل المدينة حتى القصبة»[١٠١] . والرواية الاخرى فى مؤلفه Los Annales . حيث يقول: كان

القناصل قد أمروا جندهم عندما يسمعون قرع الطبول بالتقدم للهجوم على المدينة دون صياح وفي هدوء تام، وهكذا فعلوا وتلاهم الفرسان في الساعات الثلاث الاولى من اليوم، أنجدهم الرب وأعانهم، وأراقت سيوف الجنويين دماء كثيرة من مسلمي المرية، واستولوا على كل المدينة حتى La subda[١٠٢].

وقد لاحظ جستنيانو أن الهجوم بدأ عند بزوغ الفجر، واستغرق ثلاث ساعات[١٠٣].

وفي رواية بوخاديس عن الهجوم يذكر أن كل القوات المؤتلفة أخذت مكانها في الواقعة، وقد رتبت في احدى عشرة كردوسا كل كردوس يتكون من ألف رجل، واختير الجنود من كل القوات المؤتلفة، ثم أحاطوا بالمدينة، وواصلوا زحفهم ببطء تجاه الاسوار، وكان في المؤخرة ملكا قشتالة ونافارا مع جنودهم، ومع بزوغ الفجر، أعطوا الإشارة للهجوم فبدأ القطلان الهجوم بشدة وقسوة، ذلك الهجوم الذى لم يستغرق أكثر من ثلاث ساعات، وبعدها أدركوا ضعف الحامية الإسلامية، وقوة القطلان، الذين ساندهم الرب وساعدهم المسيح في تحقيق النصر الذى عملوا له ... النصر ... النصر، هاجموا بثبات، وخضعت المدينة كلها حتى المدينة ونهبوها[١٠٤].

وهذا يعني أن مدينة المرية أخذا عنوة، وهو ما يؤكده ابن الاثير والمقرى، فابن الاثير يقول: في هذه السنة (٥٤٣هـ) في جمادى الاولى حصر الفرنج مدينة المرية من الأندلس وضيقوا عليها برا وبحرا فملكوها عنوة. واكثروا القتل بها والنهب[١٠٥].

وأما المقرى فيقول: «أن العدو دخل مدينة المرية يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الاولى سنة اثنى وأربعين وخمسمائة، عنوة»[١٠٦]، وهو ما يتعارض مع الرواية العربية التي أوردها أشباخ والتي تقول أن مسلمي المرية بدأوا المفاوضة مع النصارى وسلموا المدينة للأذفنش بعد حصار دام ثلاثة اشهر على أن يؤمنوا في أنفسهم، وكان ذلك في أواخر عام ٥٤٣هـ[١٠٧].

والواقع اننا ينبغي أن نوافق على أن المرية فتحت عنوة، وأن سقوطها كان نتيجة مباشرة للاختلافات التي نشبت بين قادة القوات المؤتلفة في الساعة الاخيرة، فالمفاوضات التي دارت سرا بين أهل المرية والقشتاليين كانت قد أثمرت بالموافقة على رفع الحصار من جانب القشتاليين والنفاريين، ولكن ارتياب الجنويين فيما كان

يجرى سرا بين أهل المرية والقشتاليين من جهة، والقشتاليين والنفاريين من جهة أخرى، دفعهم إلى عقد العزم منذ البداية على الإستيلاء على المرية بالقوة وتخريبها وهى الميناء المنافس لنشاطاتهم التجارية، وقد تابعهم فى ذلك القطلان الذين قاسوا مثلهم غارات المسلمين البحرية والمنافسة التجارية. لهذا نعتقد أن رواية بوخاديس أقل مبالغة عند وصفه لترتيب القوات المؤتلفه وإعدادها لتكون على أهبه القتال فوضع الكتائب المهاجمة جنوية وقطلانية فى المقدمة، بينما ترك فى المؤخرة القوات القشتاليةوالنفارية.

على أى حال، فقد استشهد عند دخول النصارى المدينة عدد كبير من المسلمين، يقول المقرى: «أنه كان منهم الامام المشهور ابو محمد عبد الله بن على ابن عبد الله بن على بن خلف بن أحمد بن عمر، اللخمى الرشاطى المرى»[١٠٨]. وينقل المقرى رواية أخرى عن ابى القاسم الامام الحافظ عبد الرحمن بن الانصارى المشهور بابن حبيش آخر الحفاظ بالأندلس الذى قال: «كنت فى قلعة المرية لما وقع الإستيلاء عليها أعادها الله تعالى للإسلام، فتقدمت إلى زعيم الروم السليطين، وهو ابن بنت الاذفونش، وقلت له: أنى احفظ نسبك منك إلى هرقل، فقال لى: قل، فذكرت له، فقال لى: اخرج أنت وأهلك ومن معك طلقاء بلا شئ»[١٠٩].

كما حصل الكونت ريموند على معظم الاسرى[١١٠]. ويقول المقرى أنه «قد أحصى عدد من سبى من أبكارها فكان أربعة عشر ألفا»[١١١]. وهذا رقم مبالغ فيه.

والغريب هنا أننا لا نجد أى نص تاريخى يشير إلى تلقى مسلمى المرية أى معونة خارجية سواء من مسلمى الأندلس أو المغرب، فابن مردنيش الامير المسلم المسيطر على بلنسية ومرسية لم يحاول التدخل عسكريا ضد القوات النصرانية المتحالفة، التى كان يرتبط معها برباط من الصداقة وثيق، فلم يشأ أن يتعرض لها حتى لا تنهار صلاته الودية التى يرتبط بها معهم سيما وأنه كان فى مواجهة خطر يتمثل فى قوة الموحدين. وكان على يقين أن المواجهة بينه وبينهم أصبحت وشيكة، وأن اليوم الذى سيلاقيهم فيه بات وشيكا، وهذا ما جعله يرتضى هذا الموقف المتخاذل، موقف المتفرج على الاحداث، وإن كان فى نفس الوقت يعتبر نفسه حاميا للرعايا المسلمين فى طرطوشه والمرية، فعندما عقد معاهدة الصداقة مع الجنويين اشترط عليهم أن يتعهدوا بألا يوقعوا أضراراً برعاياه فى طرطوشه والمرية ولا

سيما أن جنوة كانت من بين الممالك المسيحية التى اشتركت فى افتتاح المرية وطرطوشة(١١٢).

أما الموحدون فلم يقدموا لفترة على التدخل عسكريا لنجدة المرية أو إستعادتها نظرا لمشاغلهم الكبيرة فى بسط سيطرتهم على كل المغرب، وتأكيد نفوذهم على قواعد الأندلس الاخرى، فلما استقرت أوضاعهم السياسية فى العدوتين، أعدوا العدة لإستعادة المرية ولكن ذلك لم يتم إلا بعد مضى عشر سنوات من استيلاء النصارى عليها.

٤- السيادة القشتاليةعلى المرية:

تؤكد الروايات النصرانية أن المرية أصبحت تحت سلطة العاهل القشتالى ألفونسو السابع، وتقول أن «مدينة المرية وقعت فى قبضته، حيث أن رجاله العظام استولوا عليها، ودخلها الامبراطور بعد تحقيق النصر»(١١٣). ويضيف كافارو «أن الجنويين تركوا فرقة مكونة من ألف جندى بقيادة أوتون دى بونفيلا للمشاركة فى حماية مدينة المرية ..... لكن ينبغى القول أن السيادة على المدينة خلال الفترة من (٥٤٢هـ/ ١١٤٧م - ٥٥٣هـ / ١١٥٧) كانت قشتالية»(١١٤).

وعند إقتراب شتاء عام ٥٤٣هـ/ ١١٤٧م عاد كل فريق إلى بلاده بالغنائم والاسرى، فأقلعت الأساطيل الجنوية والأرجونية إلى برشلونة، حيث مكث الجنويون يعملون فى إصلاح سفنهم، إنتظارا لهجوم آخر مع القطلان على طرطوشه، وذلك بعد أرسل الجنويون بعض قطع أسطولهم إلى جنوة محملة بالغنائم والاموال وبعض الاسرى(١١٥).

بينما عاد ألفونسو السابع إلى قشتالة، بعد أن اختار من قبله حاكما على المرية، وأصبحت المرية منذ ذلك الحين تحت السيادة القشتالية، ودخلت رسميا فى أملاك الامبراطور ألفونسو السابع الذى تسمى بملك جليقية وليون وقشتالة ونافارا وسرقسطة والمرية وبياسة وأندوجار(١١٦).

٥- استعادة الموحدين للمرية:

منذ عبر الموحدون إلى الأندلس واستقروا فى قرطبة، وامتد نفوذهم فى أواسط الأندلس وجنوبها، أظهروا حرصا على استعادة ثغر المرية الهام، لاسيما وأن وجوده تحت سيطرة القشتاليين كان يهدد مواصلاتهم البحرية شرقى مضيق جبل طارق فيما بين سواحل المغرب الاوسط والسواحل الجنوبية للأندلس، فلما تم لهم

دخول غرناطة، شعروا أن الفرصة قد سنحت لتحقيق هذا المشروع الذى كان الخليفة عبد المؤمن بن على يولية عنايته واهتمامه، يؤيد ذلك رسالته إلى الطلبة وأشياخ الموحدين ببجانه والتى يقول فيها أنه رأى «أمر لمرية – حرسها الله – من أهم الامور وأكدها فى هذا الغرض المبرور، والأمل الميسور لكونها ناظمة بين الجهات الشرقية والغربية ورابطة بين البلاد البرية والبحرية»[117].

فحشد السيد أبو سعيد والى غرناطة قواته، وبعث إلى المرية بادئ ذى بدء حملة استطلاعية «ليستطلع أحوال النصارى»[118]، وذلك بالوقوف على دفاعات المرية، والاستعلام عن عدد قوات حاميتها. ويبدو أن هذه الفرقة الاستطلاعية أخذت طريق البشرات، وسلكت جبل جادور ثم وصلت إلى أسوار المرية، يقول ابن عذارى، أن عسكر الموحدين، كمن على مقربة منها (أى المرية) إلى نصف النهار، ثم خرج وأغاروا على باب المرية وقتلوا من النصارى عددا كثيرا، ورجعوا من غارتهم إلى حصن برجة[119]، وهذا الحصن يقع شمال غربى المرية، وفى الحصن علم قائد فرقة الموحدين الاستطلاعية من أهله أن النصارى بقلعة المرية فى عدد قليل، فخاطب قائد الفرقة الموحدية السيد أبا سعيد بغرناطة بما قاله أهل برجة[120].

سار السيد أبو سعيد على رأس الجيش الموحدى من غرناطة، ومعه قوة أندلسية بقيادة ابن ملحان صاحب وادى آش السابق، فهاجموا النصارى الذين انتشروا ظاهرها على الربى والبطاح وتغلبوا عليهم، ففروا داخل المدينة وتبعتهم جيوش الموحدين، واقتحمت عليهم أبواب المرية واستولوا عليها[121]. ولاذ النصارى بالقصبة وتحصنوا فيها، فحاصرها الموحدون حصارا محكما، ونصبوا مجانيقهم[122]. واقامت عساكر الموحدين بظاهر المرتفع، وعسكرت على الجبل الذى يطل على القصبة[123]. وتذكر الروايات العربية أن السيد أبا سعيد ابتنى فوق الجبل إزاء المدينة سورا يمتد إلى البحر، وحفر خندقا حوله بحيث يحدق بالقصبة والمدينة فى آن واحد[124]. غير أن اويثى ميراندا يشكك فى هذه الرواية، فيقول أنه يبدو غريبا بناء الحائط مع خندق من مرتفع سان كريستوبال حتى البحر، ولو صح هذا، فمن المستحيل إنجاز هذا العمل الكبير فى مدة قصيرة، وذلك لأول وهلة من دراسة طبوغرافية المرية والقصبة وضواحيها[125].

وأياما كان الأمر، فإن النصارى بالقصبة شعروا منذ البداية بخطورة الموقف، وتوقعوا امتداد فترة الحصار، فأرسلوا فى طلب النجدة من حليفهم ابن مردنيش

صاحب مرسيه وبلنسية الذى نبه ألفونسو السابع أو السليطين بخطورة الموقف الذى تواجهه حاميته القشتالية فى قصبة المرية، فأقبل ألفونسو السابع على رأس جيش يتألف من أثنى عشرة ألف مقاتل، وانضم إليه حليفه ابن مردنيش فى قوة قوامها ستة آلاف[١٢٦]، وتضافرت جموعهم البائدة، وجنودهم الحائدة، على المرية - حرسها الله - فى أحفل عدد، وأوفر مدد، فلم يزد الموحدون ذلك إلا شهامة وصرامة، ولا تعرفوا بنزول الكفرة إلا عدة وكرامة[١٢٧].

وحدث اثناء الحصار بين ملحان وبين عبد الله بن سليمان نزاع «فأنف من ذلك (ابن ملحان) وارتد إلى ابن مردنيش وإلى اذفونش ولحق بعسكرها[١٢٨]، ليشاطر ابن مردنيش خزى موقفه.

حاول ألفونسو السابع وحليفه ابن مردنيش إجبار القوات الموحدية على رفع الحصار والتراجع عن مرتفع سان كريستوبال ولكن دون جدوى، وكان السيد أبو سعيد قد طلب مددا من الخليفة الموحدى لتعزيز الحصار على النصارى فوجه إليه القائد الكاتب أبا جعفر بن عطية صحبة ابنه الامير أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن باشبيليه، وكان قائدا فى جيوش الموحدين من الرجالة، كما كان معروفا بتفوقه فى الرماية[١٢٩]. وعندما علم ابن مردنيش بوصول المدد الموحدى «رأى العار على نفسه فى قتالهم مع كونهم يقاتلون النصارى، فارتحل، فقال النصارى ما رحل ابن مردنيش إلا وقد جاءهم مدد[١٣٠]. يقول ابن عذارى ولما عجز اذفونش وابن مردنيش عن نصر النصارى أقلعا وافترقا ولم يجتمعا أبدا ولا ارتفقا[١٣١].

وهكذا انسحب ألفونسو السابع عندما أيقن بعدم جدوى نصرته لحاميتها القشتالية، فأمر برفع معسكره، وأخذ طريقه إلى غرناطة آملا أن يستطيع مفاجآتها فى غيبة حاميتها الموحدية المشاركة فى حصار المرية، لكن غرناطة كان بها حامية للدفاع عنها، ففشلت محاولة ألفونسو السابع الذى أمر بحرق مجانيقة وآلات الحرب، وفرق جيوشه واتجه إلى قشتالة، فعبر جبال مورينا عن طريق باب مورادال ووصل إلى فرسنيدا Fresneda، حيث مات فى ٢١ أغسطس ١١٥٧م[١٣٢].

لم يصمد النصارى فى القصبة بعد انسحاب ألفونسو السابع وحليفه ابن مردنيش غير شهر، إذ ساءت أحوالهم بسبب نقص المؤن، وطلبو التسليم على الأمان، وتدبير سفن لنقلهم إلى حليفهم ابن مردنيش فى شرق الأندلس، وكان الوسيط فى المحادثات الوزير ابو جعفر بن عطية[١٣٣]، فوافق السيد أبو سعيد عثمان

على مطلبهم، وعاد النصارى عن طريق البحر إلى شواطئ مرسيه ومن هناك عادوا إلى قشتالة[١٣٤].

ودخل الموحدون المرية فى ذى القعدة أو ذى الحجة عام ٥٥٢هـ أواخر عام ١١٥٧م[١٣٥]، بعد حصار دام سبعة أشهر، وعادت مدينة المرية إلى ديار الإسلام بعد أن احتلها القشتاليون زهاء عشرة أعوام[١٣٦].



هوامش البحث

١ – المقرى (أحمد بن محمد) : نفح الطيب من غصن أندلس الرطيب، جـ١ ، تحقيق الدكتور احسان عباس، دار صادر، بيروت، ص١٦١م، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية الاسلامية، قاعدة اسطول الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية. ١٩٨٤، ص٩٠.

٢ – الادريسى (الشريف محمد بن عبد العزيز) : صفة المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، نظره دى غويه ودوزى، ليدن، ١٨٦٦، ص٢٠٠.

ولمزيد من المعلومات عن التعتيب فى غرناطة والمرية وقرطبة واشبيلية ارجع الى ابن عذارى المراكشى، نشر وتحقيق د. أحسان عباس، جـ٤ بيروت ١٩٦٧، ص٧٣ وما يليها. وعن غزوة ابن رذمير أو ألفونسو المحارب، راجع ابن عذارى، حـ٤ ص٦٩، الحلل الموشية ص٦٦–ابن الاثير حـ٨ ص٣١٩.

٣ – السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية، ص٩٣.

٤ – انظر، البيذق (ابو بكر الصنهاجى) : كتاب أخبار المهدى بن تومرت وابتداء دولة الموحدين، تحقيق الاستاذ ليفى بروفنسال، باريس، ١٩٢٨، ص١٢٦، السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق، ص٩٣.

٥ – المراكشى (عبدالواحد) : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب، الطبعة السابعة، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربى العلمى، الدار البيضاء، ١٩٧٨، ص٣٠٧.

٦ – مجموع رسائل موحدية من كتاب الدولة المؤمنية : نشرها الاستاذ ليفى بروفنسال، الرباط، ١٩٤١، ص٧٥، المقرى : نفح الطيب حـ٤، ص٤٦٣.

٧ – المراكشى : بيانات هذا المصدر جاءت فى هامش رقم (٥).

٨ – ابن الاثير (محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى) : الكامل فى التاريخ، الجزء التاسع، دار الفجر، بيروت ١٩٧٨.

٩ – ابن الأبار (أبو عبد الله محمد القضاعى) : التكملة لكتاب الصلة، تحقيق كوديرة، مدريد، ١٨٨٦.

١٠– ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد) : وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٦٨–١٩٧٢

١١– ابن أبى زرع (أبو الحسن على بن عبد الله) : الانيس المطرب بروض القرطاس، تحقيق كارل يوحن تورنبرغ، أبساله، ١٨٤٣

١٢- الادريسى : بيانات هذا المصدر جاءت فى هامش رقم (٢)

١٣- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، بولاق. ١٢٨٤هـ.

١٤- ابن عذارى المراكشى (أبو العباس أحمد بن محمد) : البيان المغرب فى أخبار الاندلس والمغرب، الجزء الأول والثالث وقطعة خاصة بالمرابطين، بيروت ١٩٦٧٨، والقسم الثالث الخاص بالموحدين، تحقيق الاستاذ اويثى ميراندا وآخرون، تطوان، ١٩٦٠.

١٥- النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) : نهاية الارب فى فنون الادب، حـ٢٢، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة.

١٦- أنظر :

- Tapia Garrido (J.A) : Almeria Musulmana T. III (711-1147), Almeria, 1976, p. 368.

17,18- Ibid, PP. 367-368.

19- Anonimo, Chronica Adefonsi Imperatoris, Ed. de Sanchez Belda, Madrid, 1950.

- El Poema de Almeria, En H. Salvador Martinez.

20- Marmol (L.), Historia del rebelion Y castigo de Los moriscos del reino de Granada, 1946, PP. 123.365.

-Sandoval (P.) Historia de Alfonos VII, Madrid, 1792, Zurita (J.), Anales de la Córona de Aragon, Zaragoza, MOCLXIX. Beuter (P.A.), Cronica general de toda Espana y especialmente de Valencia, Valencia, 1604, Pujades (J.), Crónica Universal del principado de Cataluna, Barcelona, 1832, Balaguer y Cirera, Bellezas de la Historia de Cataluna. Barcelona, 1853, Vaissete (J.J.), Histoire generales de languedoc, Paris, : 1733.

٢١- ابن خلدون : المقدمة، دار الكتاب اللبنانى-بيروت الطبعة الثالثة، ١٩٦٧، ص٤٥١-٤٥٢، وتعنى كلمة أسطول التى وردت فى رواية ابن خلدون مجموعة من السفن، انظر حول هذه الكلمة، أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ص٣٢٢-٣٢٣.

٢٢- ابن خلدون : المقدمة، ص٤٥٢.

٢٣- مؤلف مجهول : اخبار مجموعة، تحقيق أميليو لافونتى الكنترا، صورة عن طبعة مجريط ١٨٦٧، مكتبة المثنى ببغداد، ص١٠٧-١٠٨.

٢٤- ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة، ص٧٥١، ابن صاحب الصلاة (عبدالملك بن محمد) : تاريخ المن بالامامة على المستضعفين، تحقيق عبد الهادى التازى، بيروت، ١٩٦٤، ص٢٢٦.

٢٥- عبد الواحد المراكشى : المصدر السابق، ص٣٠٧.

٢٦- التجانى (أبو محمد عبد الله بن محمد) : رحلة التجانى، تقديم الاستاذ حسنى عبد الوهاب، المطبعة الرستمية، تونس، ١٩٥٨، ص٣٣٩، الذى يرسمه فى موضع آخر على بن ميمون نفس المصدر، ص ٣٣٥.

٢٧- ابن الكردبوس (أبو مروان عبد الملك) : قطعة من كتاب الاكتفاء فى أخبار الخلفاء، تحقيق أحمد مختار العبادى، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، مجلد ١٣، ١٩٦٥-١٩٦٦، ص١٢٣-١٢٤.

٢٨- ابن عذارى : البيان المغرب، حـ٤، ص٦٢.

٢٩- المقرى : نفح الطيب، حـ٣، ص٢٢٠.

٣٠- ابن عذارى : البيان المغرب، حـ٤، ص٦٦.

٣١- نفس المصدر والجزء والصفحة.

32- Alfred Bel : LesBanou Ghania, Paris, 1903, P. 28.

٣٣- الزهرى (محمد بن ابى بكر أبو عبد الله) : كتاب الجغرافيا، تحقيق محمد حاج صادق، دمشق، ١٩٦٨، ص٧٥-٧٦.

٣٤- ابن ابى دينار (أبو عبد الله محمد بن أبى القاسم الرعينى القيروانى) : المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس، تحقيق محمد شمام، تونس ١٩٦٧، ص٩١، ابن خلدون : العبر، حـ٦، ص٣٣٠-٣٣١، رحلة التجانى، ص٣٣٤، السراج (الوزير محمد بن محمد الاندلسى) : الحلل السندسية فى الاخبار التونسية، تحقيق محمد الحبيب السهيلة، حـ٢، الدار التونسية، ١٩٧٠، ص٣٥٧.

٣٥- ابن عذارى : البيان المغرب، حـ١، ص٣٠٧-٣٠٨، حـ٤، ص٦٧

٣٦ - ابن خلدون : العبر، حـ٦، ص٣٣٠

٣٧ - رحلة التجانى · ص٣٣٤.

٣٨ - ابن عذارى : البيان المغرب، حـ٤، ص١٠٤.

٣٩- مجهول : الحلل الموشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، الدار البيضاء، ١٩٧٩، ص١٣٢

٤٠ - مجهول : مفاخر البربر، تحقيق الاستاذ ليفى بروفنسال، الرباط، ١٩٣٤، ص٥٩، ابن عذارى: البيان لمغرب، حـ٤، ص١٠٤، ابن الخطيب (لسان الدين) : أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام، القسم الاندلسى، تحقيق الاستاذ ليفى بروفنسال، دار المكشوف، بيروت ١٩٥٦، ص٢٤٧-٢٤٨، وله أيضا، الاحاطه فى أخبار غرناطة، حـ١. تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجى، ١٩٧٣، ص٤٥٤.

٤١ - الادريسى : المصدر السابق، ص١٩١م، وانظر ايضا :

Salem (E.A) : Algunos aspectos del Florecimiento economico de Almeria islamica durante el periodo de los taifas y de los almoravides, Revista Del Instituto Egipcio De Estudios Islamicos en Madrid, V.XX, 1979-1980, PP. 21-22.

٤٢ - الادريسى : نفس المصدر، ص١٩٧ وما بعدها.

٤٣ - نفس المصدر : ص١٩٧، وأنظر، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية، ص٨٨.

٤٤ - الادريسى : المصدر السابق، ص١٩٧.

٤٥ - عبد العزيز مرزوق : الفنون الزخرفية الإسلامية فى المغرب والاندلس، بيروت، ١٩٧٢، ص٢٤.

46- Enrique Santoyo (E.) : Cronica de la provincia de Almeria, Madrid, 1869, P. 45.

47- Ibid.

وانظر السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية الاسلامية، ص٨٩.

Salem, op. cit, PP. 8-9.

48- Caffaro : Annales Genuensis, Lib lo, En Muratori, VI, P. 285; Tapia Garrido, OP, cit, t.II P. 390.

49- Caffaro : De captione Almerie et Tortuosa 1973, P. 21; Tapia Garrido : op. cit, P 390.

50 - Giustiniani, Annali della republica di Genoa, 1937, Fols, 31-40; Tapia Garrido ; Ibid, P. 391.

51- Marmol : Descripcion de Africa, apud, Tapia Garrido, Ibid, P. 425.

52 - En. Tapia Garrido, Ibid, P. 391.

53 - En, Tapia Garrido : op. cit, P. 391.

54 - Palancia (A..), Guerre de Granada 1909, PP. 445-448.

55 - Chronica, Adefonsi Imperatoris, P. 202.

56 - Pujades : op. cit , CAPS 14 Y 15.

57 - Sandoval : op. cit, P. 269.

٥٨ - المقرى : نفح الطيب، حـ٣، ص٢٢٠.

59 - Orbanejo (G.P.) : Vida de San Indalecio, parte, I, P. 65; Tapia Garrido, op. cit, P. 393.

60 - Torres Balbas, Almeria Islamica, al-Andalus, Vol XXII, 1957, P. 421.

٦١ - فى، المقرى : نفح الطيب، حـ٣ ص٢٢٠، وانظر ايضا : السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية، ص٩٨-٩٩.

٦٢ - يوسف اشباخ : تاريخ المرابطين والموحدين، ترجمة محمد عبد الله عنان، الطبعة الثانية، مطبعة الخانجى، القاهرة، ١٩٥٨، ص٢٢٠.

٦٣ - السيد عبدالعزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة فى الاندلس، الجزء الأول، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ١٩٨٤، ص١٤٨.

٦٤ - نفس المرجع والصفحة.

65 - Caffaro : De captione, P. 17.

٦٦ - ابن ابى زرع، ص١٧٦.

67 - Caffaro : DE captione, P. 17.

68 - Ibid, P. 18.

٦٩ - المقرى : نفح الطيب، حـ٣، ص٥٣٣.

70 - Huici Miranda : Historia de Valencia y su region, t. III, P.120.

71- Caffaro : Decaptione, P. 18.

72 - Chronica Adefonsi, P. 160.

73 - Ibid.

٧٤ - اشباخ : المرجع السابق، ص٢٢٣.

75 - Sandoval : op. cit, P. 261, Tapia Garrido, op. cit, P. 407.

76 - Chronica Adefonsi, P. 161.

77 - Zurita, Annales, Lib, II, Tapia Garrido, op. cit, P. 407.

78- Tapia Garrido : Ibid, P. 408.

79 - En, El Poema de Almeria, Vrs, 51-64, Tapia Garrido, P. 409.

80 - Sanchez Albornoz : Estampas de la vida en leon, 1934, P. 91-100.

81- En, el Poema de Almeria, vrs, 66-100, Tapia Garrido, P. 411.

82 - Tapia Garrido : op. cit, P. 413.

83 - En, El Poema de Almeria, Vrs, 1860204.

84 - Sandoval : op. cit, P. 261-262.

85 - Caffaro : Annales ... P. 286.

86 - Capmany (A.) : Memorias historicas, t, ll, 1779, P. 92.

87 - Caffaro : De Cptione, PP. 21-22.

88 - Tapia Garrido : op. cit, p. 423.

89 - Vaissete : op. cit, P. 146.

90 - Tapia Garrido : op. cit, P. 423.

91 - Caffaro : Los Annales, P. 287.

92 - Caffaro : de Captione, P. 24

93 - Ibid.

94 - Ibid.

٩٥ - اشباخ : المرجع السابق، ص٢٢٤-٢٢٥.

٩٦ – فى، أشباخ : نفس المرجع، ص٥٢٢، وانظر أيضا :

Caffaro : De Captione, PP. 26-27.

97 - Ibid, P. 27.

98 - Pujades : op. cit, Cap. 14; Tapia Farrido op. cit, P. 448.

99 - Pujados : Ibid, Tapia Garrido ; Ibid, P. 449.

100- Ibid.

101- Caffaro : De Captione, P. 28.

102- Caffaro : Los Annales.

103- Giustiniano : op. cit., Fol, 40; Tapia
Garrido : op. cit, P. 450.

104- Pujados : op. cit, Tapia Garrido, op. cit, p. 450.

١٠٥– ابن الاثير : الكامل فى التاريخ، حـ٩، ص١٧.

١٠٦–و المقرى، نفح البطيب، حظ٤، ص٤٦٢.

١٠٧– فى، اشباخ : المرجع السابق، ص٢٢٥.

١٠٨– المقرى : نفحَ الطيب، حـ٤، ص٤٦٢.

١٠٩– نفس المصدر والجزء : ص٤٦٣.

١١٠– اشباخ : المرجع السابق، ص٢٢٦.

١١– المقرى : نفح الطيب، حـ٤، ص٤٦٣.

112- Codera (Francisco) : Decadencia y desaparicion de Los Almoravides en Espana, Zaragoza, 1899, PP. 122-128.

113- Primera Cronia general de Espana, que mando campaner Alfonso El Sabio y se continuaba bajo, sancho IV, en 1289,II Publicada por Ramon Menendez Pidal, Madrid, 1955, P. 661.

114- Caffaro : De Captione, PP. 29-30.

115- Tapia Garrido : op. cit,P. 456.

١١٦– اشباخ : المرجع السابق، ص٢٣١.

١١٧- مجموعة رسائل موحدية : ص٧٣-٧٤، ابن الاثير : الكامل، حـ٩، ص٥٥.

١١٨- ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب، القسم الثالث الخاص بالموحدين، ص٣٣.

١١٩- نفس المصدر ; ص٣٣.

١٢٠- نفس المصدر و الصفحة

١٢١- مجموع رسائل موحدية : ص٧٤.

١٢٢- ابن الخطيب : الاحاطة، حـ١، ص٢٧٩.

١٢٣- مجموع رسائل موحدية : ص٧٥.

١٢٤- النويرى : نهاية الارب، حـ٢٢، ص٢٠٤،السلاوى (أحمد بن خالد الناصرى) : الاستقصاء لاخبار دول المغرب الاقصى، حـ١ القاهرة، ١٣١٠-١٣١٢هـ، ص١٤٩،

Codera : op. cit, P. 137.

125- Huici Miranda : Un nuevo manscrito del Al-Bayan al-Mugrib, en AL-Andalus,XXIV, 1959, p.77.

١٢٦- ابن الاثير : الكامل، حـ٩، ص٥٦، Codera : op. cit P., 137.

١٢٧- مجموع رسائل موحدية : ص٧٥.

١٢٨- ابن الاثير : الكامل، حـ٩، ص٥٦،ابن عذارى : البيان المغرب، القسم الخاص بالموحدين، ص٣٣.

١٢٩- ابن الخطيب : الاحاطة، حـ١، ص٢٧٣.

١٣٠- المقرى : نفح الطيب، حـ٤، ص٤٦٣.

١٣١- ابن عذارى : المصدر السابق، ص٣٣

132- Primera Cronica genera;l, P. 661.

١٣٣- ابن ابى زرع : الانيس المطرب، ص١٢٦.

134- Huici Miranda : op. cit, P. 80.

١٣٥- ابن الخطيب : الاحاطة، حـ١، ص٢٧٩.

Codera : op. cit, P. 138.

١٣٦- ابن الاثير : الكامل، حـ٩، ص٥٦.

القسم الثانى
دراسات فى الحضارة للاندلسية

البحث الأول

التأثيرات الشامية فى حضارة الأندلس
على عهد الأمير عبد الرحمن الداخل*
١٣٨ - ١٧٢ هـ / ٧٥٦ - ٧٨٨ م



كان الفتح الاسلامى لاسبانيا حدثا سياسيا وحضاريا هاما، إذ أصبحت إسبانيا إقليما إسلاميا تابعا للخلافة الأموية، وانسلخت عن أوربا المسيحية. وطبع الاسلام إسبانيا بطابع مميز زاده ما اكتسبته من امتزاج حضارتها السابقة بحضارة الاسلام، فنتج عن هذا الامتزا ج فيما بعد حضارة اندلسية اسلامية.

فالمعروف أن الاندلس أصبحت منذ الفتح الاسلامى حتى سنة ١٣٢هـ / ٧٥١م ولاية اسلامية تابعة لخلافة المشرق، ولهذا فقد تأثرت الأندلس بالحضارة الشامية وسارت على نهجها. ومنذ قيام الامارة الاموية بالاندلس أخذ طابع الاستقلال السياسى عن المشرق يقوى فيها وإن استمرت الامارة الاندلسية تتلقى التأثيرات الحضارية من المشرق.

وعند اعتلاء عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل ١٣٨ - ١٧٢ هـ / ٧٥٦ - ٧٨٨م كرسى الامارة فى الأندلس عمل أولا على توحيد أقاليمها وإحلال الأمن والاستقرار بها، واستطاع أن يقضى على عناصر الفوضى ونزعات الانفصال المتمثلة فيما اقتطعه العرب والبربر من النواحى التى تطلعوا إلى الاستقلال بها، فأخذهم عبد الرحمن الداخل بالشدة والحزم فدخلوا فى طاعته. وعلى ذلك أعاد «الداخل» هيبة الأمويين وأحاط نفسه بهالة من فخامة الملوك وأبهة الخلفاء، ولكنه لم يتلقب بلقب الخليفة بل اكتفى بأن أضاف الى اسمه لقب «ابن الخلائف»، وهو اللقب الذى استمر فى خلفائه من بعده حتى سنة ٣١٦هـ / ٩٢٨م عندما تلقب عبد الرحمن بن محمد بلقب الخلافة. واستمرت الاندلس على عهد عبد الرحمن الداخل تتلقى مؤثرات الحضارة الشامية فى شتى المجالات العمرانية والاقتصادية والادبية والدينية.

ففى مجال العمران، يرجع الفضل الأول فى تمصير قرطبة وتجميلها وتنظيم شئونها الى الأمير عبد الرحمن الداخل، فزودها بروائع المنشآت والعمائر، وقامت فيها حركة معمارية وعمرانية لم تشهد لها نظيرا من قبل فاتخذت قرطبة منذ ذلك الحين مظهر المدن الكبيره، وأصبحت جديرة بأن تكون عاصمة للامارة الأموية، ويعبر المقرى عن ذلك فى «نفحه»، فيقول : «لما تمهد ملكه (أى عبد الرحمن الداخل) شرع فى تعظيم قرطبة، فجدد مغانيها وشيد مبانيها ، وحصنها بالسور، وابتنى قصر الامارة والمسجد الجامع، ووسع فناءه، وأصلح مساجد الكور[1].

فأقام الداخل المنية المعروفة بالرصافة الى الشمال الغربى من قرطبة لنزهه وسكناه أكثر أوقاته، فى أول سنى حكمه، وذلك تشبها بما كان يفعله أجداده فى المشرق

من تشييد القصور خارج مدينة دمشق حاضرة خلافتهم، ربما للتمتع بهدوء الصحراء بعيداً عن عيون رعاياهم أو لقضاء الشتاء فى البوادى[٢]. وعلى ذلك فإن معظم قصور الأمويين فى المشرق أقيمت فى أودية الأردن مثل قصير عمره فى عصر الوليد ابن عبد الملك وقصر المشتى والطوبة فى عصر الوليد الثانى[٣]، وقصر الحير الغربى الذى يقع جنوب غرب تدمر،وقصر الحير الشرقى الذى يقع شمال شرقى تدمر فى عصر هشام بن عبد الملك[٤]، فحاكى عبد الرحمن الداخل ببناء الرصافة قصر جده هشام بن عبد الملك الذى بناه هو الآخر خارج دمشق سنة ١١٠هـ / ٧٢٨م وسماه بهذا الاسم أيضا[٥]. وقد أوضح المقرى ذلك فى قوله: «فاتخذ بها قصرا حسنا، ودحا جنانا واسعة، ونقل إليها غرائب الغروس وأكارم الشجر من كل ناحية، وأودعها ما كان استجلبه يزيد وسفر رسولاه الى الشام من النوى المختار والحبوب الغريبة[٦].

كما شيد عبد الرحمن الداخل قصرا آخر بقرطبة أورده مؤرخو العرب عُرف بقصر الدمشق وظهر فيه بوضوح التقليد الشامى، اتخذه بنوه بعد ذلك «ميدان مراحهم ومضمار أفراحهم»[٧]، وحاكوا به قصرهم بالشام وقد شيد عبد الرحمن الداخل هذا القصر بالصفائح والعمد، وأبدع بناءه، ونمق ساحاته، فكسى سقفه بالزخارف المذهبة والمفضضة، وأحاط رياضه وحدائقه وجداوله فى ساحاته وأفنيته بأرضيات مرخمة[٨]. أما عن عمارة المسجد الجامع بقرطبة فقد أوضح المقرى : «أنه لما افتتح المسلمون الأندلس، امتثلوا ما فعله أبوعبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد عن رأى عمر رضى الله تعالى عنه بالشام من مشاطرة الروم فى كنائسهم مثل كنيسة دمشق وغيرها مما أخذوه صلحا، فشاطر المسلمون أعاجم قرطبة كينستهم العظمى التى كانت داخل مدينتها تحت السور، وكانوا يسمونها بشنت بنجنت، وابتنوا فى ذلك الشطر مسجدا جامعا، وبقى الشطر الثانى بايدى النصارى، وهدمت عليهم سائر الكنائس بحضرة قرطبة، واقتنع المسلمون بما فى أيديهم، إلى أن كثروا وتزيدت عمارة قرطبة ، ونزلها أمراء العرب. فضاق عنهم ذلك المسجد، وجعلوا يعلقون منه سقيفه بعد سقيفة يستكنون بها، حتى كان الناس ينالون فى الوصول الى داخل المجلس الأعظم مشقة لتلاصق تلك السقائف، وقصر أبوابها وتطامن سقفها، حتى ما يمكن اكثرهم القيام على اعتدال، لتقارب سقفها من الأرض. ولم يزل المسجد على هذه الصفة الى ان دخل الامير عبد الرحمن بن معاوية المروانى الى الاندلس، واستولى على امارتها، وسكن دار سلطانها قرطبة، وتمدنت

به، فنظر فى أمر الجامع، وذهب الى توسعته ، واتقان بنيانه، فأحضر أعاظم النصارى وسامهم بيع ما بقى بأيديهم من كنيستهم لصق الجامع ليدخله فيه، وأوسع لهم البذل، وفاء بالعهد الذى صولحوا عليه، فأبوا من بيع ما بأيديهم، وسألوا بعد الجد بهم أن يباحوا بناء كنيستهم التى هدمت عليهم بخارج المدينة على أن يتخلوا للمسلمين عن هذا الشطر الذى طولبوا به، فتم الأمر على ذلك، وكان ذلك ثمان وستين ومائة، فابتنى عند ذلك عبد الرحمن المسجد الجامع على صفة ذكرها لاحاجة الى تفسير الزيادة فيه، وإنما الحاجة فى وصفه بكماله، وفى بنائه لهذه الزيادة، قال: «وكمل سنة سبعين ومائة»[٩]. ونخرج من هذا النص بالمعلومات التالية: ان المسلمين كانوا يشاطرون الروم فى كنائسهم مثل كنيسة يوحنا المعمدان بدمشق وغيرها مما أخذوه صلحا بناء على رأى الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وأنهم امتثلوا بما حدث فى الشام فشاطروا أعاجم قرطبة كنيستهم العظمى شنت بنجنت Sant Vincent وابتنوا مسجدهم الجامع، وأن عبد الرحمن الداخل عندما استولى على امارة الاندلس، وأبقى على قرطبة حاضرة لامارته نظر فى أمر شراء ما بقى من كنيسة شنت بنجنت ففاوض أعاظم النصارى بالترغيب تارة والترهيب تارة اخرى حتى وافقوا بشرط أن يسمح لهم ببناء كنيسة لهم خارج المدينة بدل التى هدمت عليهم، وأن عبد الرحمن الداخل ابتنى المسجد الجامع سنة ١٦٨ هـ / ٧٨٤م وأكمله سنة ١٧٠ هـ / ٧٨٦م.

غير أننا نرتاب فى أن المسلمين قاموا بمشاطرة الروم فى كنائسهم مثل كنيسة يوحنا المعمدان بدمشق وغيرها بناءً عن رأى الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فهذا الأمر يتعارض مع ما كفله الاسلام من حرية دينية لأهل الكتاب وممارسة شعائرهم وطقوسهم دون تدخل من الادارة الاسلامية وَفْقَ القاعدة الاساسية فى قوله تعالى «لا إكراه فى الدين». ولعل المقصود هنا بتقسيم كنيسة يوحنا المعمدان بدمشق بين النصارى والمسلمين، هو مشاطره المسلمين لهم فى السياج الخارجى فقط دون الكنيسة نفسها، يؤيد ذلك العالم الأثرى كريزويل والذى يضيف بأن هذه الكنيسة ظلت قائمة وفى حالة سليمة حتى عهد الوليد بن عبد الملك فهدمها[١٠]. أما عن اختيار المسلمين لموضع كنيسة يوحنا المعمدان فربما يرجع الى أن هذه الكنيسة كانت تقع فى وسط المدينة وهذا يتوافق مع حرص المسلمين على أن تكون مساجدهم الجامعة فى مركز المدينة.

وأما عن مشاطرة مسلمى الأندلس أعاجم قرطبة كنيستهم العظمى المسماة بشنت بنجنت وتأسيس مسجدهم الجامع، فإن المسلمين فى الأندلس احتذوا ما فعله مسلموا الشام فلم يقتسموا كنيسة شنت بنجنت مع أعاجم قرطبة، لكنهم بنوا مسجدهم الجامع فى الأرض الفضاء الملحقة بالكنيسة والتى كانت تضم مرافق مختلفة: كصلايات ومعمودية ودار أسقفية وفناء. وأن الكنيسة الفعلية بمذبحها وأروقتها ظلت من نصيب النصارى[١٢]. ومن الغريب أن فلوريث Florez فى دراسته التى أعدها عن قائمة الكنائس القرطبية السابقة على الفتح الإسلامى لم يورد ذكر كنيسة باسم Sant Vincent[١٣]. وهذا يحملنا على الاعتقاد بأن كنيسة شنت بنجنت كانت مهجورة قبل الفتح الاسلامى، وأن المسلمين تفاوضوا مع نصارى قرطبة فى شراء نصف الأرض المحيطة بالكنيسة لاقامة مسجدهم الأول.

ولعل فيما يُذْهبْ إليه من أن الامير عبد الرحمن الداخل نظر فى شراء ما بقى من كنيسة شنت بنجنت، فهذا لايتعارض مع التسامح الدينى مع مستعربى الأندلس إذ كان فى وسع أمير الأندلس أن يستولى بالقوة عليها ولكنه أثر التفاوض بل ووافق على إعادة بناء كنيستهم التى هدمت خارج سور قرطبة والمسماه بكنيسة شنت أجلح[١٤].

بقى أن نشير إلى أنه ثمة اختلافا فى تاريخ بناء المسجد الجامع بين روايتى المقرى وابن عذارى ذلك أن الأول يحدد بناءه فى سنة ١٦٨ هـ / ٧٨٤م وانتهاءه فى سنة ١٦٩ هـ / ٧٨٥م دون الاشارة الى تاريخ انتهائه[١٥]. ويرجح العالم الأثرى الاسبانى توريس بالباس أن البناء لم يستكمل نهائيا فى سنة ١٧٠هـ/ ٧٨٦م على عهد عبد الرحمن الداخل، وقام خلفه هشام باستكمال بعض عناصره كالصومعة وسقائف النساء والميضأة[١٧]، فإننا على الأقل نرى أن المسجد الجامع كان صالحا لاستخدامه فى الصلاة.

وهكذا قام الأمير عبد الرحمن الداخل ببناء المسجد الجامع فى قرطبة مقلدا ما أتبع فى الشام، وقد أورد الادريسى وصفا لهذا المسجد الجامع يفهم منه أنه كان ينقسم قسمين : قسم مسقوف هو رواق القبلة ببلاطاته وأعمدته، وقسم مكشوف هو الفناء أو الصحن[١٨]. أما رواق القبلة، فكان يتكون من احدى عشر بلاطة تسير كلها ببائكاتها فى اتجاه عمودى على جدار القبلة ممتدة على اثنى عشر قوسا فى كل بلاط، وتقوم عقوده على عمد من الرخام جلبها المسلمون من بقايا الكنائس الخربة، وكان البلاط الأوسط أكثر اتساعا من البلاطات الجانبية (شكل١) وهو فى

هذا يشبه المسجد الأقصى الذى شيده الخليفة المهدى العباسى في عام ١٦٣ هـ / ٧٨٠م والذى كان رواق القبلة فيه ينقسم الى بلاطات عددها خمسة عشر بلاطة تتجه كلها عمودية على جدار القبلة، وكان الرواق الأوسط أكثر اتساعا من البلاطات الجانبية (شكل٢) أما صحن المسجد الجامع بقرطبة فقد كان مغروسا بأشجار، فقد عهد الامير عبد الرحمن الداخل الى عبد الله بن صعصعه بن سلام (ت : ١٩٢هـ / ٨٠٧م) صاحب الصلاة بقرطبة أن يغرس صحن المسجد بأشجار الليمون والنارنج[١٩]، وهذا تأثيرا شامى عن مذهب الإمام الأوزاعى .

وقد ساد اعتقاد بين بعض الأثريين أن عمارة المسجد الجامع بقرطبة تأثرت بالنظام المتراكب للعقود المعمول به فى جامع دمشق، ويعللون ذلك بأن تدرج الأرض نحو الارتفاع فى شمال المسجد كان له عظيم الأثر فى الأقتداء بهذا النظام، فطبقة فى قرطبة ولكن بمعالجة مختلفة وبطريقة أكثر أصالة، فبعد أن رفع السقف إلى ضعف ارتفاعه باستخدام الدعائم فوق العمد، اخذت العقود القرطبية صورة جديدة مبتكرة ساعد على ذلك توافر عناصر البناء ومواده وطبيعة الأرض والحاجة إلى زيادة ارتفاع سقف المسجد الجامع[٢٠]. غير أننا نرى أنه ليس هناك أى وجه شبه بين فكرة ازدواج العقود بالمسجد الجامع بقرطبة والمسجد الاموى الجامع بدمشق، ذلك أن النظام المعمول به فى المسجد الجامع بدمشق يهدف إلى تخفيف الثقل على العقود بعمل فتحات فى حين يرى البعض الآخر أن اصل فكرة ازدواج العقود بالمسجد بقرطبة، ترجع إلى عقود الجسور الرومانية التى تقوم على طابقين أو ثلاثة وذلك بمقارنة نظام عقود جامع قرطبة بعقود الجسر الرومانى بماردة وهو الجسر المعروف بجسر المعجزات Los Milagros ، فزعموا أن عقود الجسر المذكور تقوم بنفس الوظيفة البنائية التى تقوم بها العقود بجامع قرطبة وهى الربط بين الدعائم المرتفعة تفاديا لانهيارها[٢١]. وقد ناقش هذه المشكلةالعالم الاثرى كريزويل فقال: «لقد قيل إن هذا النظام القرطبى استلهمه مهندس الجامع من العقود المزدوجة بالجسور الرومانية مثل الجسر المعروف بلوس ميلاجروس بماردة، ولكن العقود القرطبية هنا ليست مثلها، ولذلك فإننا يجب أن نعطى مهندس الجامع ما يستحقه من الأصالة لتوفيقه إلى هذا الحل البارع الذى لا يوجد له نظير فى أى مكان[٢٢]، وقد أيده فى ذلك العالم الأثرى المغفور له الدكتور احمد فكرى الذى بين أن فكرة العقود المتراكبة فى المسجد الجامع بقرطبة ابتداع فريد فى تاريخ العمارة[٢٣].

كما يتجلى مظهر آخر من مظاهر التأثير الشامى فى المسجد الجامع بقرطبة فى تناوب الصنجات الحجرية مع الصنجات المتخذة من قوالب الآجر بالعقود، مثل نظيرتها فى عقود المسجد الجامع الأموى فى دمسق، وبعض العقود بجامع حماه وبعض القصور الأموية مثل حصن الحلابات حيث تتناوب صنجات رخامية مع أخرى من البازلت[٢٤]. وهى فكرة انتشرت بعد ذلك لبناء جدران العمائر وسماها المؤرخون العرب «الأبلق» حيث كان يتناوب استخدام الحجر الفاتح اللون والحجر الداكن أو البازلت، وهذا الاسلوب انتشر فى الشام حيث يتوافر الحجر الجيرى وحجر البازلت[٢٤] (شكل ٤).

وفى المجال الاقتصادى، فإن النشاط الزراعى فى إمارة الاندلس كان يمثل الركيزة الأساسية فى هذا المجال، وعلى ذلك اهتم عبد الرحمن الداخل بالنشاط الزراعى وتنوعه. كان عبد الرحمن الداخل يرسل عملاءه إلى المشرق لجلب الفاكهة من الشام والحبوب الغذائية التى لم تزرع فى إمارة الأندلس، من قبل، وكان لاهتمامه ورعايته فى هذا المجال عظيم الأثر إذ سرعان ما نجحت زراعتها وعم انتشارها بأرض الأندلس الخصيبة واكتسبت شهرة واسعة لما لها من مذاق طيب لم يعرفه الأندلسيون عن هذه الأنواع الجديدة من الفاكهة الشرقية من قبل[٢٥]. ولقد عدد ابن سعيد المغربى أصناف هذه الفاكهة ومنها الرمان السفرى ووصفه «بالفضيلة المقدم على أجناس الرمان بعذوبة الطعم ورقة الحجم، وغزارة الماء، وحسن الصورة»[٢٦].

والغريب هنا أن عبد الرحمن الداخل كان يعرض رمانه على خواصه بفخر وزهو، ويقال فى سبب انتشار غرسه بأرض الأندلس أن الذى استجلبه الى الاندلس احد اجناد الأردن وهو سفر بن يزيد الكلاعى، واعطى عبد الرحمن بعضا من ذلك الرمان له، فراق حسنه وخبره فسار سفر به إلى قرية بكورة ريه، وتفنن فى غرسه واستنباطه بها، فأثمر وفاق السامى فى حلاوته وشكله، وعندما أيقن من نجاح غرسه حمل بعض ثمراته الى الامير عبد الرحمن، فوجد أنه لا يختلف عن الرمان الرصافى الشامى، فسأله الامير عن مصدره فأخبره سفر بحيلته فى استنباطه، فأعجب الامير به وأمر فاغترس منه بمنية الرصافة وبغيرها من بساتينه، وهكذا انتشرت زراعة الرومان وعرف بالرمان السفرى الى ايام ابن سعيد المغربى[٢٧]، ولا يزال هذا النوع من الرمان معروفا فى اسبانيا بحلاوته وصغر حجمه ويسمى بنفس الاسم أيضا[٢٨].

أما من الناحية الأدبية، فقد كانت هى الأخرى متأثرة بالتقاليد الشامية، وهذا أمر طبيعى بل يكاد يكون ضروريا لأسباب منها: ازدهار العلوم النقلية والعقلية فى المشرق فى الوقت الذى كان الأندلسيون أحوج الى التزود بهذه العلوم، لذا مثرت رحلاتهم العلمية والدينية الى المشرق الاسلامى رغبة وحبا فى التزود بالعلم والايمان وأداء فريضة الحج. وقد خصص المقرى اجزاء من «نفحه» لذكر من سافر من الاندلسيين إلى المشرق فى طلب العلم واداء فريضة الحج، مما اسفر عن تعرفهم على الحركة الأدبية المشرقية فساروا على نهجها وأسرفوا فى تقليدها[٢٩]. وقد لاحظ ذلك ابن بسام الشنترينى، فعبر عن ذلك فى مقدمة ذخيرته: «إلا أن أهل هذا الأفق (أى الأندلس) أبوا إلا متابعة أهل الشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب، لجثوا على هذا صنما، وتلوا ذلك كتابا محكما، واخبارهم الباهرة وأشعارهم السائرة مرمى القصية ومناخ الرذية، لا يعمر بها جنان ولا خلد، ولا يصرف فيها لسان ولا يد»[٣٠].

ومهما يكن من شئ فإن المشرق كان بصفة عامة والشام بصفة خاصة قبلة لطلاب العلم الأندلسيين نقلوا عنه وتأثروا به، وضح ذلك فيما بعد فى الأدب الأندلسى شعره ونثره على عهد الامير عبد الرحمن الداخل وخلفائه من بعده، فالشعر الأندلسى فى هذه الفترة كان يحاكى شعر المشرق، غير أن جمال طبيعة قرطبة بنهرها الوادى الكبير، وسهولها الخضراء، وغياضها الملتفة، كان له أكبر الأثر فى إسراف شعرائها فى تعلقهم بها، فوصفوا رياضها وبساتينها ومنازهها، وأدى ارتباط فن الشعر بفنون الغناء والطرب إلى استكثار أهل قرطبة من مجالس الأنس والشراب، وممن برز من الشعراء فى عصر عبد الرحمن الداخل، الشاعر عاصم بن يزيد التيميى المعروف بأبى المخشى[٣١]. وكان الامير عبد الرحمن الداخل نفسه شاعرا وهذه الشاعرية ليست غريبة عليه لأنها موهبة متوارثة فى بنى أمية ورثها ابناؤه من بعده، ومن شعره الذى يصف فيه نخلة أثارت شجونه[٣٢]، يتبين لنا مدى تعلق هذا الامير بمسقط رأسه الشام، فلا نستغرب بعد ذلك اهتمامه بنقل كل ما هو شامى ليعوض به بعده عن وطنه ويحس كأنه لم يغادره.

أما الحياة الدينية فى الاندلس على عهد الامير عبد الرحمن الداخل، فكانت هى الأخرى متأثرة بالشام، فقد اعتنق الأندلسيون مذهب عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى إمام الشام ٨٨ - ١٥٧هـ/ ٧٠٧ - ٧٧٤م[٣٣]، بحكم الرابطة

المتينة بين الأندلس وبلاد الشام، ولتجدد الدولة الأموية فى الأندلس، ولتوافق ما ذهب اليه هذا الفقية وخاصة فى التشريعات الحربية وأحكام الحرب والجهاد[٣٤]، مع ما كان يسود الأندلس فى هذه الفترة من عدم استقرار واضطراب، فقد عالج الاوزاعى الاحكام العامة المتعلقة بالحرب وأفاض فيها وعرض لجزئياتها عرضا دقيقا، فمن الاحكام العامة أحكام الجهاد والمبارزة، وتحريق المشركين ورميهم بالمنجنيق، والتحريق والتخريب في بلاد العدو، وأحكام المهادنة، والمهادنة المسلمين أهل الحرب (الصلح المؤقت) وأسرى الحرب من المشركين، والمفاداة، وأحكام الغنائم، وأحكام عقد الذمة، والصلح الدائم وغير ذلك من القضايا الكبرى[٣٥].

وعلى سبيل المثال، فمن الاحكام التفصيلية التى عرضها الامام الاوزاعى، جهاد الولد وهل يتوقف على اذن أبوية، ونقل نساء المسلمين والذرية الى الثغور، وحكم قتال المشركين اذا تترسوا بنسائهم أو بصبيانهم أو بأطفال المسلمين أو بأسراهم. وحكم رمى الحصن وفيه أسرى المسلمين، وعقوبة الأسير، وأمان الأسير، وأمان المستأمن والحربى إذا اسلما، وأموال من أسلم فى دار الحرب، وأسر الزوجين معا، وأسر أحد الزوجين، والطفل السبى مع أبوية، وحكم الاستعانة بالمشركين فى القتال، وحكم أموال المسلمين المستردة من دار لحرب وغير ذلك كثير، وهى أحكام مستمدة من شريعة الاسلام، موثقة بآية من الكتاب العزيز أو أثر من السنة الشريفة أو قائمة على اجتهاد أو قياس على احكام شرعية إسلامية[٣٦].

يذكر بان الفرضى أن أول من نقل هذا المذهب إلى الاندلس هو القاضى الالبيرى أسد بن عبد الرحمن السبيء (كان حيا سنة ١٥٠هـ/ ٧٦٩م[٣٧]، وانتشر على يد صعصعة بن سلام الشامى (ت: ١٩٢هـ/ ٨٠٧م)[٣٨].

وهكذا سيطر المذهب الأوزاعى على الاندلس خلال القرن الثانى الهجرى، وكانت الاحكام تصدر وفقا لما تنص عليه. وعلى الرغم من انتشار المذهب المالكى فى الاندلس فى عصر خلفه هشام إلا أن الأندلسيين احتفظوا بعادة غرس الشجر فى المساجد وهى من مذهب الأوزاعى[٣٩].

من هذا العرض الموجز يتبين لنا كيف ان الاندلس قد تأثرت على عهد الامير عبد الرحمن الداخل بالتقاليد الشامية فى شتى المجالات العمرانية والاقتصادية والأدبية والدينية، فكان التيار الحضارى الشامى واحدا من تيارات حضارية اخرى حجازية وبغدادية أثرت حضارة الاندلس والتى ظهرت منابتها الاولى على عهد الامير عبد الرحمن الاوسط.

هوامش البحث

* ألقى هذا البحث فى «الندوة الدولية من الشام الى الاندلس» بمناسبة مرور اثنى عشر قرنا على انتقال عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس قادما من الشام وبناء جامع قرطبة الكبير، دمشق، ابريل ١٩٨٦ .

١ – المقرى (احمد بن محمد): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المجلد الأول، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت (١٩٦٨)، ص٥٤٥.

٢ – السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة فى الاندلس، الجزء مؤسسة شباب الجامعة (١٩٨٤)، ص٤٨، ٤٩ .

٣ – زكى محمد حسن: القصور الأموية فى شرق الأردن،. مجلة الكتاب، (ديسمبر ١٩٤٥)، ص١٥٨ .

٤ – دانيال شلو مبرجة: قصر الحير الغربى، ترجمة إلياس أبو شبكة، بيروت، ١٩٤٥ .

٥ – المقرىٌ: المصدر السابق، المجلد الأول، ص٤٦٧ .

٦ – نفس المصدر والجزء والصفحة.

٧ – نفس المصدر والجزء، ص ٤٦٨ .

٨ – نفس المصدر والجزء والصفحة.

٩ – نفس المصدر والجزء، ص٥٦٠ – ٥٦١ .

10- Creswell (K. A. C): Early Muslim Architectuer, Umayyads, Early Abbassids and Tulunids, Vol. I, Oxford, (1938), pp. 102- 103.

11- Al Sayyid Salem: Cronologia de la Mezquita de Cordoba Levantado por abd el - Rahman I, Al -Andalus, 1954, P.6, Ocana Jemenez, la Basilica de San Vicente Y la Gran mezquita de Cordoba, - Al - Andalus, (1942), P. 349.

١٢ – السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة، جـ١ ، ص٢٨٦ .

13- In, Creswell: Op. Cit, Vol. II, pp. 138 - 139.

١٤- تقع كنيسة شنت أجلح (San Acisclo) خارج باب اشبيلية - احد ابواب مدينة قرطبة فى العصر الاسلامى المعروفة أيام العرب باسم باب العطارين: انظر (ابن عذارى البيان المغرب فى اخبار الاندلس والمغرب، جـ٢، ص١٠، المقرى: المصدر السابق، المجلد الاول، ص٢٦٣،محمد احمد ابو الفضل: مغيث الرومى وبنوه دورهم السياسى والحضارى فى المغرب والأندلس، بحث منشور فى مجلة كلية الآداب - جامعة الاسكندرية، العدد ٣٠ لسنة ١٩٨١، ص٢٠٨، ٢٠٩.

١٥- المقرى: المصدر السابق، المجلد الأول، ص٥٦٠ - ٥٦١، ابن عذارى المراكشى: نفس المصدر والجزء والصفحة.

16- Torres Balbas (Leopoldo): Art Hispao Musulman Hasta la Caida del Califate de Cordoba, En Historia de Espana, dirigida por Don Ramon Menedez - Pidal, T. V. Madrid, 1957, pp. 345.

١٧- المقرى: المصدر السابق، المجلد الأول، ص٥٦١.

١٨- الادريسى (الشريف): وصف المسجد الجامع بقرطبة من كتاب نزهة المشتاق، نشر ألفريد ديسيه لامار، الجزائر، (١٩٤٩)، ص٢، وانظر أيضا، الحميرى: صفة حزيرة الاندلس، منتخبة من كتاب الروض المعطار فى خبر الاقطار، نشره ليفى بروفنسال، القاهرة، (١٩٣٧)، ص١٥٣، السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة، الجزء الأول، ص٣١٦.

١٩- ابن الفرضى (ابو الوليد بن محمد بن يوسف الأزدى): تاريخ علماء الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة (١٩٦٦)، ص٧٤، النباهى (ابو الحسن بن عبد الله بن الحسن): كتاب المرقبة العليا فين يستحق القضاد والفتيا، نشر ليفى بروفنسال، دار الكاتب المصرى، القاهرة (١٩٤٨)، ص٥١.

20- Creswell (K. A. C): Ashort Ashort Account of Early muslim Architecture, Penguin Senies (1958), P222.

21- Torres Balbas: op. cit, p. 228.

٢٢- Creswell: Ashort Account, p. 228 ؛ وراجع ايضا: الترجمة العربية بعنوان، الآثار الاسلامية الأولى، نقله إلى العربية عبد الهادى عبله، وعلق على نصوصه احمد غسان سبانو، دار قبيه، دمشق، (١٩٨٤)، ص٣٠٣.

٢٣ - احمد فكرى: المدخل الى مساجد القاهرة ومدارسها، الاسكندرية، (١٩٦١)، ص١٤.

24 - Sauvaget : La mosque Omeyyede de Medina, e'tude sur les Origines architecturales de la mosque er la basilique, Paris , 1947, p. 105.

٢٤أ- على حين شاع استخدام اسلوب آخر وهو الحجر الفاتح اللون مع لون آخر قد يكون أحمر أو غير ذلك، أطلقت عليه الوثائق الأثرية مصطلح المشهر.

٢٥- فى، المقرى: نفح الطيب، المجلد الأول، ص٤٦٧.

٢٦- نفس المصدر والمجلد والصفحة.

٢٧- فى، المقرى: نفس المصدر والمجلد، ص٤٦٨.

٢٨- أحمد مختار العبادى وآخرون: دراسات فى تاريخ الحضارة العربية الاسلامية، منشورات دار السلاسل، الكويت (١٩٨٥)، ص٣٩٢.

٢٩- احسان عباس: تاريخ الأدب الاندلسى، الطبعة الثانية، دار الثقافة بيروت (١٩٦٩)، ص١٢٧ - ١٢٨.

٣٠- ابن بسام الشنترينى: الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، المجلد الأول، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ص٢.

٣١- ابن القوطية: المصدر السابق، ص٣٥.

٣٢- ومن شعر عبد الرحمن الداخل:

تبـدت لنا وسـط الرصافة نخـلة ... تناءت بأرض الغرب عن بلد النخـل

فقلت شبيهى فى التغرب والنوى ... وطـول التنائى من بنى وعن أهـــلى

نشـأت بأرض أنت فيـها غريبـة ... فمثلك فى الاقصـــاء والمنتأى مثـلى.

(فى، ابن عذارى: البيان المغرب، جـ٢، ص٩٠، ابن الأبار (ابو الوليد عبد الله محمد بن عبد الله): الحلة السيراء، الجزء الثانى، تحقيق د. حسين مؤنس، القاهرة، (١٩٦٣)، ص٣٧، ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبد الله محمد): كتاب أعمال الاعلام، القسم الاندلسى، تحقيق ليفى بروفنسال، بروت، (١٩٥٦)، ص١٠.

٣٣- هو أبو عمرو عبد الرجمن بن عمرو بن محمد الاوزاعى، ولد بمدينة بعلبك بالشام سنة ٨٨هـ/ ٧٠٧م، وأصله من عرب اليمن، أخذ عن عطاء بن رباح مفتى مكة

المتوفى فى سنة ١١٥هـ/ ٧٣٣م، والزهرى المتوفى سنة ١٢٤هـ/ ٧٤٢م وغيرهما، كما اخذ عنه سيفان الثورى ومالك بن أنس عالم دار الهجرة، وبعد أن جال فى البلاد فى طلب العلم عاد الى قرطبة واقام فى بيروت ومات فيها سنة ١٥٧هـ/ ٧٧٤م، ومن مصنفاته كتاب السير الذى يتناول احكام الجهاد والقتال، انظر ترجمته: كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربى، الجزء الثالث، مصر،)١٩٦٩(، ص٣٠٧ - ٣٠٨ والمصادر التى وردت به.

34- Mahmud Makki: Ensayo Sobre Los Aportaciones Orientales, en La Espana Musulmana, en Revista del Estudios Islamicos en Madrid, V. IX - X, Madrid, (1961), pp. 129 - 154.

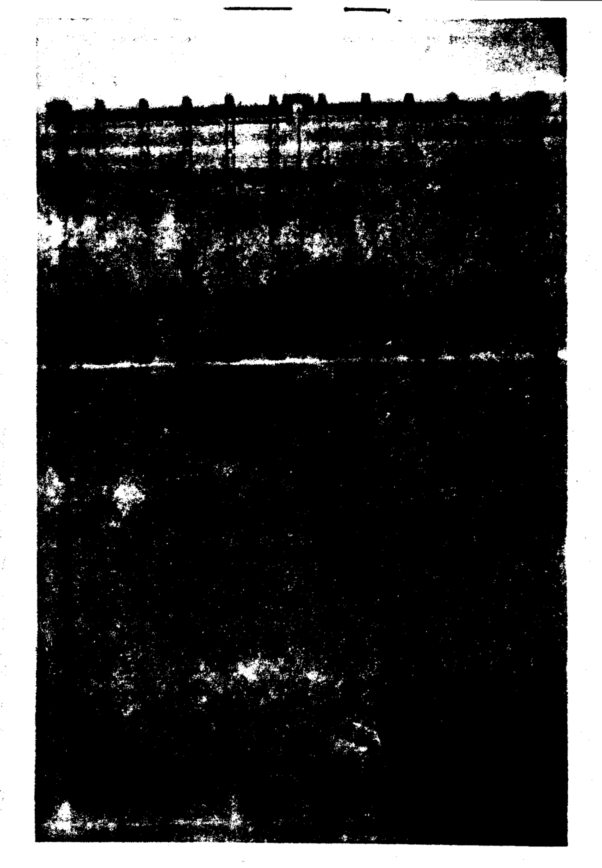
٣٥- مصطفى الشكعة، مواقف المستشرقين من الحضارة الاسلامية فى الاندلس، مسئله من مناهج المستشرقين فى الداسات العربية الاسلامية، الجزء الثانى، الرياض (١٩٨٥)، ص٣١١.

٣٦- نفس المرجع، ص٣١١ - ٣١٢.

٣٧- ابن الفرضى: تاريخ علماء الأندلس، ص٧٤.

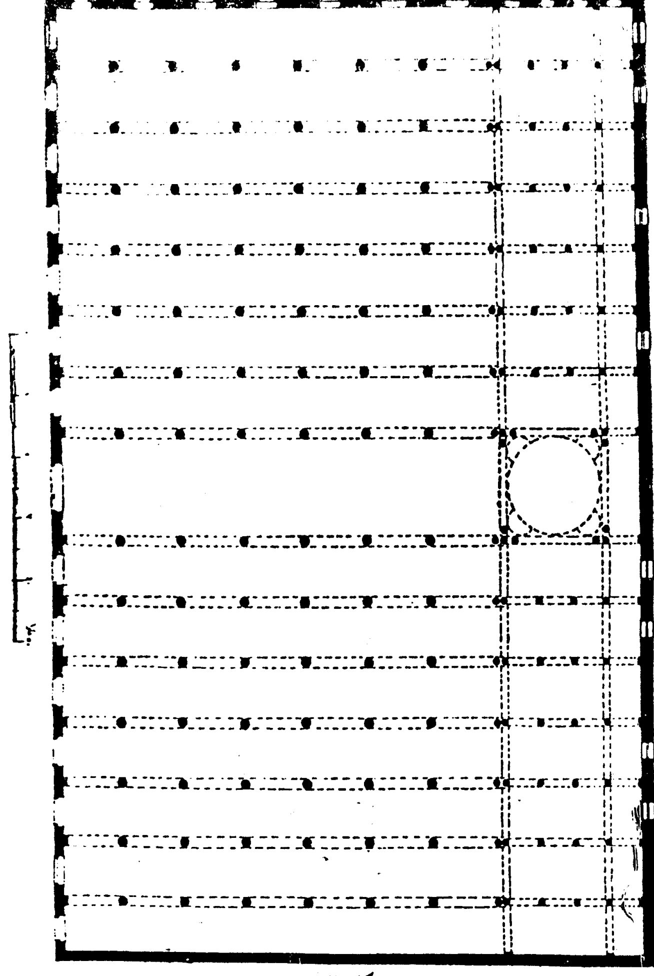
38- Mahmud Makki: Op. Cit, P. 130.

٣٩- النباهى: المرقبة العليا نشر ليفى بروفنسال، دار الكاتب المصرى، القاهرة، ١٩٤٨، ص٥١ وانظر ايضا: Mohmud Makki: Ibid. pp. 227 - 231، وكذا، محمد احمد ابو الفضل: قضاة ثوار فى الاندلس، بحث منشور فى مجلة ندوة التاريخ الاسلامى والوسيط، العدد الثالث، دار المعارف بمصر، (١٩٨٥) ص٢٦١، ٢٦٢.



شكل (١) : مسقط راسي للمسجد الأموي بقرطبة

شكل (١)
مسقط رأسى للمسجد الأموى بقرطبة



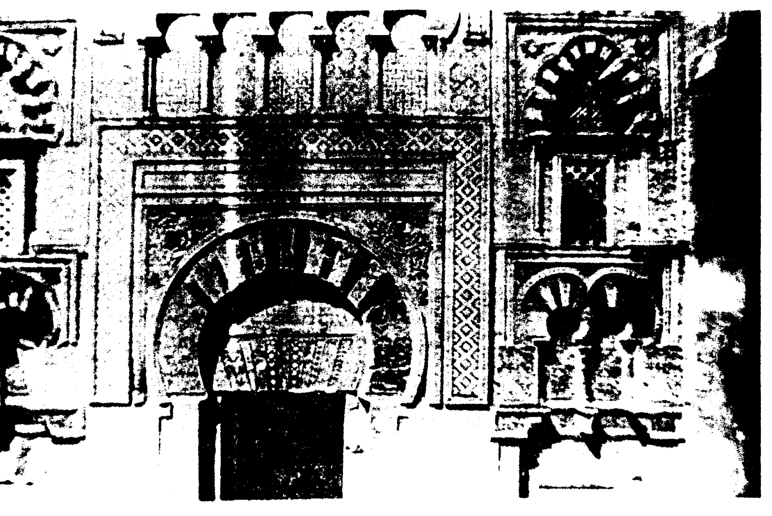
شكل (٢)

مسقط رأسى للمسجد الأقصى بالقدس

شكل (٣) : المسجد الأموي بقرطبة

شكل (٣)

المسجد الأموى بقرطبة



شكل (٤) : احد الابواب الخارجية للمسجد الجامع بقرطبة
ويظهر فيه تناوب الحجر الفاتح اللون والحجر الداكن (المُشهر)

البحث الثانى

قضاة الجماعة بالأندلس فى عصر الإمارة الأموية

١٣٨ - ٣٠٠ هـ / ٧٥٦ - ٩٢٩ م



قضاة الجماعة بالأندلس
في عصر الإمارة الأموية
١٣٨ - ٣٠٠ هـ / ٧٥٦ - ٩٢٩ م

تعتبر خطة القضاء من أعظم الخطط قدرا وأجلها خطرا في الدولة الإسلامية ، فهي تأتي بعد الخلافة في الأهمية ، يقول النباهي : " فلا شرف في الدنيا بعد الخلافة أشرف من القضاء (١) ، لذلك اعتبر العلامة ابن خلدون القضاء من الوظائف الداخلة تحت الخلافة أي أن الأصل أن يتولى الخليفة القضاء بنفسه (٢) ، فيقول . " وأما القضاء فهو من الوظائف الداخلة تحت الخلافة لأنه منصب الفصل بين الناس في الخصومات حسما للتداعي وقطعا للتنازع إلا أنه بالأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة فكان لذلك من وظائف الخلافة ومندرجا في عمومها (٣) . كما يشير الخشني إلى أهمية متولي القضاء بقوله : " القاضي أعظم الولاة خطرا بعد الإمام جعله الله زماما للدين وقواما للدنيا ، لما يتقلده القاضي من تنفيذ القضايا، وتخليد الأحكام في الدماء والفروج والأموال والأعراض وما يتصل بذلك من ضروب المنافع ووجوه المضار " (٤) . ولهذا حرص بنو أمية في الأندلس على أن يحفظوا لمنصب القضاء في دولتهم أهميته وجلاله .

وأول مناصب القضاء في عصر الإمارة الأموية في الأندلس منصب قاضي الجند أو قاضي العسكر ، ثم منصب قاضي الجماعة، ووظيفة صاحب هذا اللقب الأخير تعدل وظيفة قاضي القضاة في المشرق الذي ظهر في خلافة هارون الرشيد . ومن المعروف أن أول من تلقب بقاضي الجماعة في الأندلس هو يحيى ابن يزيد التجيبي ، يقول الخشني : " أن عبد الرحمن بن معاوية الإمام دخل قرطبة، وقام بالإمامة والقاضي حينئذ يحيى بن يزيد التجيبي ، فأثبته على القضاء ولم يعزله ، وكان من قبل ذلك يقال له ، وللقضاة قبله : فلان قاضي الجند

فلما امتنع الفهري بغرناطة ، واضطره الأمير عبد الرحمن رحمه الله إلى النزول واشترط حضور القاضي يحيى ، فحضر، وكتب في كتاب المقاضاة، وذلك بمحضر يحيى بن يزيد قاضي الجماعة " (٥) . ومنذ ذلك الحين أصبح قاضي الجند يسمى " بقاضي الجماعة " وهو اسم محدث لم يكن في القديم " (٦) ولعله من أصل أندلسي .

وقد حاول النباهي المالقي أن يفسر لنا سبب هذه التسمية فذكر : " والظاهر أن المراد بالجماعة جماعة القضاة، إذ كانت ولايتهم قبل اليوم غالبا من قبل القاضي بالحضرة السلطانية كائنا من كان فبقى الرسم كذلك " (٧) .

ومع ذلك يجب أن نؤكد هنا أن تسمية قاضي الجماعة لم تبطل استعمال التسمية الأولى فقد استمر استعمال لقب قاضي الجند لعدد من السنوات ، بدليل ما يذكره النباهي في رواية منسوبة إلى محمد بن حارث ، يقول فيها : " رأيت سجلا عقده سعيد بن محمد بن بشير بقرطبة، يقول فيه : حكم محمد بن بشير قاضي الجند بقرطبة " (٨) ، لذا نرجح أن قضاء الجند انتهى العمل به بعد وفاة محمد بن بشير في سنة ١٩٨هـ ٨١٣م بدليل خلو المصادر من الإشارة إلى هذا اللقب بعد ذلك وعلى هذا يمكن القول أن لقب قاضي الجماعة أخذ يستعمل دون غيره ابتداء من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، حيث صار صاحب هذا اللقب في قرطبة حاضرة الإمارة الأموية بالأندلس يحظى بمكانة أعظم سموا من بقية القضاة لأن الأمير كان يستشيره في كافة الشئون القضائية .

والباحث في موضوع قضاة الجماعة في عصر الإمارة الأموية في الأندلس سوف يلاحظ بوضوح أن هذا الموضوع لم يحظ إلا بالنزر القليل من اهتمام الباحثين ولازال في حاجة ماسة إلى دراسات متعمقة " يمكن أن تسلط مزيدا من الضوء على قضاء الجماعة في الأندلس وقد أمدتنا كتب طبقات القضاة مثل " كتاب قضاة قرطبة " . للخشني (٩) ، " وكتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا " ، للنباهي المالقي (١٠) ، وكتب التراجم لعلماء الأندلس ومنها " كتاب تاريخ علماء الأندلس ، لابن الفرضي (١١) ، وكتاب جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ، للحميدي (١٢) ، وكتاب بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس " ، للضبي (١٣) ، فضلا على المصادر التاريخية مثل " كتاب المقتبس من أبناء أهل الأندلس ، للمؤرخ القرطبي الكبير ابن حيان (١٤) ، و" كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب . ، لابن عذارى المراكشي (١٥) ، ومقدمة ابن خلدون (١٦) ، و " كتاب المغرب في حلى المغرب " ، لابن سعيد المغربي (١٧) ، و" كتاب نفح الطيب من غصن أندلس الرطيب " ، للمقرى التلمساني (١٨) ، وكذا المراجع

الأجنبية مثل :

Levi - provencal : Histoire de l'Espagne musulmane, Tome III, Paris , 1953 ;

Mahmud Makki : Ensayo Sobre Los aportaciones orientales en La Espana Musulmana , en ' Revista del Instituto de Estudios Eslamicos en Madrid , V. IX .. X , Madrid , 1961.

أمدتنا هذه المصادر والدراسات الحديثة بنتف من أخبار من تولوا هذه الوظيفة في عصر الإمارة الأموية ١٣٨ - ٣٠٠هـ / ٧٥٦ - ٩٢٩م . لذلك أخذنا على عاتقنا أن تخصص هذه الدراسة لوظيفة قاضي الجماعة نظرا لأهميتها، وسوف تتضمن دراستنا لهذا الموضوع نقطتين أساسيتين :

أولاهما ، ثبت موثق بأسماء قضاة الجماعة بالأندلس في الفترة من ١٣٨ - ٣٠٠ هـ / ٧٥٦ - ٩٢٩ م وسوف نتبع فيه الترتيب التاريخي لأنه في رأينا أنسب من الترتيب الأبجدي (١٩) ، وسوف نصنف كل شخصية على النحو التالي : -

١- الإسم ، إسم الأب ، إسم الجد ثم اللقب فالنسبة والكنية .

٢- تاريخ الوفاة كلما أمكن ذلك من خلال المصادر التي بين أيدينا .

٣- تاريخ التولية والعزل كلما أمكن ذلك .

٤- درجة القرابة بين هؤلاء القضاة إن وجدت .

أما النقطة الثانية ، فسوف نضمنها لدراسة تحليلية عن قضاة الجماعة في الأندلس من خلال هذا الثبت التاريخي .

ثبت قضاه الجماعة في الأندلس
في عصر الإمارة الأموية
في عهد الأمير
عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك
١٣٨ - ١٧٢هـ / ٧٥٦ - ٧٨٨ م

١- يحيى بن يزيد التجيبي .

تاريخ الوفاة : ١٤٢هـ /٧٥٩ م

تاريخ التولية : ١٣٨هـ / ٧٥٦م

توفى قاضيا غير معزول

(انظر في ترجمته : الخشني : قضاة قرطبة ، ص ٤٧ - ٤٩ ؛ ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص ١٧٧ (١٥٥٢) ، ابن عذاري : البيان المغرب ، حـ٢ ، ص ٤٨؛ النباهي : المرقبة العليا ، ص ٢١) .

٢- معاوية بن أبي صالح بن عثمان الحضرمي ، أبو عمرو (٢٠)

تاريخ الوفـاة : ١٦٨هـ / ٧٨٤م

تاريخ التولية الأولى : ١٤٢هـ / ٧٥٩م

تاريخ العــزل : ١٤٣هـ / ٧٦٠م

(انظر في ترجمة : الخشني : قضاة قرطبة ، ص ٥٠-٥٥؛ الحميري : جذوة المقتبس ، ص ٣٩٩ (٧٩٦)، الضبي : بغية الملتمس ، ص ٤٤٣، (١٣٣٨) ، الذهبي : تذكرة الحفاظ ، حـ١ ، ص ١٦٦ - ١٦٧؛ ابن حجر : تهذيب التهذيب ،

حـ١٠ ، ص ٢٠٩ - ٢١٢ ، ابن سعيد المغربي : المغرب في حلى المغرب ، حـ١ ، ص ١٠٢ - ١٠٣ ؛ ابن عذارى : البيان المغرب ، حـ٢، ص ٤٨ ؛ النباهي ، المرقبة العليا ، ص ٤٣) .

٣- عمر بن شراحيل المعافري ، أبو حفص (٢١)

تاريخ الوفاة : غير معروف .

تاريخ التولية الأولى : ١٤٣هـ / ٧٦٠م

تاريخ العزل : ١٤٤هـ/ ٧٦١م

(انظر في ترجمته : الخشني : قضاة قرطبة ، ص ٥٠ - ٥٥ ؛ ابن عذارى : البيان المغرب ، حـ٢ ص ٤٨) .

٤- معاوية بن أبي صالح بن عثمان الحضرمي ، ابو عمرو

تاريخ التولية الثانية : ١٤٤هـ / ٧٦١م

تاريخ العزل : ١٤٥هـ / ٧٦٢م

(انظر ، الخشني : قضاة قرطبة ، ص ٦١) .

٥- عمر بن شراحيل المعافري ، أبو حفص

تاريخ التولية الثانية : ١٤٥هـ / ٧٦٢م

تاريخ العزل : ١٤٦هـ / ٧٦٣م

(انظر : الخشني : قضاة قرطبة ، ص ٦١).

٦- عبد الرحمن بن طريف اليحصبي (٢٢)

تاريخ الوفاة : ١٧٢ هـ / ٧٨٨م .

تاريخ التولية : غير معروف

تاريخ العزل : غير معروف .

(انظر في ترجمته ، الخشني : قضاة قرطبة ، ص ٦٤ ؛ ابن عذارى : البيان المغرب ، حـ٢ ، ص ٤٨ ؛ النباهي : المرقبة العليا ، ص ٤٤ ؛ المقرى : نفح الطيب ، حـ ٣ ، ص ٤٦) .

في عهد الأمير
هشام بن عبد الرحمن بن معاوية
١٧٢ - ١٨٠هـ /٧٨٨ - ٧٩٦م

٧- المصعب بن عمران بن شفى بن كعب بن زيد بن عمرو بن امرئ القيس بن زيد الهمداني (٢٣)

تاريخ الوفاة : غير معروف .

تاريخ التولية : ١٧٢هـ ٧٨٨م

توفى قاضيا غير معزول .

(انظر في ترجمته : الخشني : قضاة قرطبة ، ص ٦٧ - ٧٢ ؛ ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، حـ١، ص ١٤٤ ابن عذارى : البيان المغرب ، حـ٢ ، صفحات ٤٨ ،٦١، ٦٨ ؛ النباهي : المرقبة العليا ، ص ٤٥ - ٤٧).

في عهد الأمير الحكم بن هشام
١٨٠-٢٠٦هـ / ٧٩٦-٨٢٢م

٨- محمد بن بشير بن شراحيل المعافري ، أبو بكر (٢٤)

تاريخ الوفاة : ١٩٨ هـ / ٨١٣م

تاريخ التولية : غير معروف

تاريخ العزل : غير معروف

درجة القرابة : والد رقم (٩) ورقم (١٧) .

(انظر في ترجمته : الخشني : قضاة قرطبة ، ص ٨٣-٨٨؛ الضبي . بغية الملتمس ، ص ٥١ - ٥٣ (٦٩) ؛ مؤلف مجهول أخبار مجموعه، ص ١٢٧ ؛ ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة ، ص ٩٠ ؛ ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، حـ١ ، ص ١٤٤ - ١٤٥ ابن عذارى : البيان المغرب ، حـ٢ ، ص ٦٨ ؛ النباهي : المرقبة العليا ، ص ٤٧ - ٥٣؛ المقري : نفح الطيب ، حـ٢ ، ص ١٤٣ - ١٤٩).

٩- سعيد بن محمد بن بشير بن شراحيل المعافري

تاريخ الوفاة : ٢١٠هـ / ٨٢٥م

تاريخ التولية الأولى : غير معروف .

تاريخ العزل : ١٩٨ هـ / ٨١٣م

درجة القرابة : ابن رقم (٨) وأخو رقم (١٧) .

(انظر في ترجمته : الخشني : قضاة قرطبة ، ص ٨٩ - ٩٢ ؛ ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص ١٦٠ (٤٧٣) ؛ ابن حيان : المقتبس بتحقيق الدكتور محمود على مكي ، ص ٧٨ ؛ ابن عذارى : البيان المغرب ، حـ٢ ، ص ٨٠) .

١٠- الفرج بن كنانة بن نزار بن عتبان بن مالك الكفاني ، أبو القاسم .

تاريخ الوفاة : ٢١٣ هـ / ٨٢٨م

تاريخ التولية : ١٩٨هـ / ٨١٣م

تاريخ العزل : ٢٠٠هـ / ٨١٥م

(انظر من ترجمته ، الخشني : قضاة قرطبة ، ص ٩٣ - ٩٨ ، ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص ٣٤٩ (١٠٣٠)؛ الحميدي : جذوة المقتبس ، ص ٣٢٨ (٧٦٢)؛ ابن سعيد : المغرب ، حـ١، ص ١٤٦؛ ابن عذارى : البيان المغرب ، حـ٢ ، ص ٦٨ ؛ النباهي : المرقبة العليا ، ص ٥٣ - ٥٤) .

١١- قطن بن جزء بن اللجلاج بن سعيد بن سعيد بن محمد بن عطارد بن حاجب بن زراره التميمي :

تاريخ الوفاة : غير معروف

تاريخ التولية : ٢٠٠هـ / ٨١٥م

تاريخ العزل : غير معروف

درجة القرابة : والد رقم (١٢)

(انظر في ترجمته : الخشني : قضاة قرطبة ، ص ٩٩) .

١٢) بشر بن قطن

تاريخ الوفاة : غير معروف

تاريخ التولية : أخر سنة ٢٠٠ هـ / ٨١٦م

تاريخ العزل : ٢٠١هـ / ٨١٦م

درجة القرابة : ابن رقم (١١) .

(انظر في ترجمته ، الخشني : قضاة قرطبة ، ص ٩٩ ؛ ابن عذارى : البيان المغرب ، حـ٢ ، ص ٦٨) .

١٣- عبيد الله بن موسى بن إبراهيم بن مسلم بن عبد الله بن مسلم بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن عمار بن عبيد الغافقي ، أبو مروان .

تاريخ الوفاة : ٢٠٤هـ / ٨١٩م

تاريخ التولية : ٢٠١ هـ / ٨١٦م

توفى قاضيا غير معزول

(انظر في ترجمته ، الخشني : قضاة قرطبة ، ص ١٠٠ ؛ ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص ٢٥ (٧٦٢) ؛ ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب حـ١، ص ١٤٦ ؛ ابن عذارى : البيان المغرب ، حـ٢، ص ٦٨).

١٤- محمد تليد بن حامد بن محمد الرعيني ، أبو محمد

تاريخ الوفاة : ٢٠٧هـ / ٨٢٢ م

تاريخ التولية : ٢٠٤هـ / ٨١٩م

تاريخ العزل : غير معروف .

(انظر في ترجمته : الخشني : قضاة قرطبة ، ص ١٠٠؛ ابن الفرضي : تاريخ

علماء الأندلس ، ص ١٠٥ (٣٢٨) ؛ الحميدي : جذوة المقتبس ، ص ٤٥ (٣١) ؛ ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، حـ١ ، ص ١٤٦ ، ابن عذارى : البيان المغرب حـ٢، ص٦٨)

١٥- حامد بن عبد اللطيف الرُّعيني (٢٥)

تاريخ الوفاة : غير معروف .

تاريخ التولية : غير معروف .

تاريخ العزل : غير معروف .

(انظر في ترجمته : الخشني : قضاة قرطبة ، ص ١٠١ ؛ ابن عذارى : البيان المغرب ، حـ٢، ص ٦٨) .

١٦- سعيد بن محمد بن بشير بن شراحيل المعافري .

تاريخ التولية الثانية : غير معروف .

تاريخ العزل : ٢٠٧هـ / ٨٢٢م

(انظر : الخشني : قضاة قرطبة ، ص ٢٩-٣٠ ، ابن حيان : المقتبس ، بتحقيق د. مكي ص ٧٨).

في عهد الأمير عبد الرحمن بن الحكم بن هشام
٢٠٦-٢٣٨هـ/٨٢٢-٨٥٢م

١٧- مسرور بن محمد بن سعيد بن بشير بن شراحيل المعافري ، أبو نجيح (٢٦)

تاريخ الوفاة : ٢٣٨هـ /٨٥٢م

تاريخ التولية : ٢٠٧هـ / ٨٢٢م

تاريخ العزل : ٢٠٨هـ / ٨٢٣م

درجة القرابة : ابن رقم (٨) وأخو رقم ٩ .١٦).

(انظر في ترجمته : الخشني : قضاة قرطبة ، ص ١٠٢ ، ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص ١٣٣ (١٤٣٠) ؛ ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، حـ١، ص ١٤٦-١٤٧ ؛ ابن عذارى : البيان المغرب ، حـ٢ ؛ ص ٨٠) .

١٨- سعيد بن سليمان بن حبيب الغافقي ، أبو خالد .

تاريخ الوفاة : ٢٢٧هـ / ٨٤١م

تاريخ التولية الأولى : ٢٠٨ هـ / ٨٢٣م

تاريخ العزل : ٢٠٩هـ /٨٢٤م

درجة القرابة : عم رقم (٣٢) .

(انظر في ترجمته : الخشني : قضاة قرطبة ، ص ١٣٥ ؛ ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص ١٦٢ (٤٧٧) ؛ ابن حيان : المقتبس بتحقيق الدكتور محمود على مكي ، ص ١٧ ، ص ٣٩-٤٠ ؛ ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، حـ١، ص ١٤٧).

١٩- يحيى بن معمر بن عمران بن منير بن عبيد بن أنيف الالهانى ، أبو بكر

تاريخ الوفاة : ٢٢٩هـ / ٨٤٣م

تاريخ التولية الأولى : ٢٠٩هـ / ٨٢٤م

تاريخ العزل : أخر سنة ٢٠٩هـ / ٨٢٥م

(انظر في ترجمته ، الخشني : قضاة قرطبة ، ص ١٠٣ - ١٠٩ ؛ ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص ١٧٨ - ١٩٠ (١٥٥٥)؛ ابن حيان : المقتبس ، بتحقيق الدكتور محمود على مكي ، ص ٣٩ - ٤٠ ؛ الحميدي ، جذوة المقتبس ، ص ٣٧٩ (٩٠٥) ؛ الضبي : بغية الملتمس ، ص ٤٩٢ (١٤٩١) ؛ ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب، حـ١، ص ١٤٧ ؛ ابن عذارى ، البيان المغرب ، ح٢ ، ص ٨٠ ؛ النباهي : المرقبة العليا ، ص ٤٤).

٢٠- الأسوار بن عقبة بن حسان بن عبدالله النصري ، أبو عقبة .

تاريخ الوفاة : ٢١٣ هـ /٨٢٨م

تاريخ التولية : ٢١٠هـ /٨٢٥م

توفي قاضيا غير معزول .

(انظر في ترجمته : الخشني : قضاة قرطبة ، ص ١١٠-١١١، ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص ٨٨ - ٨٩ (٢٧٩)؛ ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، حـ١، ص ١٤٨).

٢١- ابراهيم بن العباس بن عيسى بن الوليد بن عبد الملك بن مروان ، أبو إسحاق

تاريخ الوفاة : غير معروف

تاريخ التولية الأولى ٢١٣هـ /٨٢٨م

تاريخ العزل : آخر ٢١٣هـ /٨٢٩م

(انظر في ترجمته : الخشني : قضاة قرطبة ، ص ١١٦ - ١٢٠؛ ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، حـ١، ص ١٤٨ ؛ النباهي : المرقبة العليا ، ص ١٥) .

٢٢- محمد بن سعيد الدلبيري

تاريخ الوفاة : غير معروف .

تاريخ التولية : ٢١٤هـ/٨٢٩م

تاريخ العزل : ٢٢٠هـ /٨٣٥م

(انظر في ترجمته : ابن حيان : المقتبس ، بتحقيق د. مكي ، ص ٦٢ ، ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، حـ١، ص ١٤٩ .

٢٣- يخامر بن عثمان بن حسان بن يخامر بن عبيد بن أقنان بن ودان بن عمرو الشعباني .

تاريخ الوفاة : ٢٢٧هـ / ٨٤١م

تاريخ التولية : ٢٢٠هـ /٨٣٥م

تاريخ العزل : ٢٢١هـ /٨٣٦م

(انظر في ترجمته : الخشني : قضاة قرطبة ، ص١٢١-١٢٣؛ ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص ٢١٠ (١٦٤٦) ؛ ابن حيان : المقتبس ، بتحقيق

الدكتور محمود على مكي ، ص ٤٠ ؛ ابن سعيد المغربي : المغرب في حلى المغرب ، حـ١، ص ١٤٩ -١٥٠) .

٢٤- سعيد بن سليمان بن حبيب الغافقي ، أبو خالد

تاريخ التولية الثانية : ٢٢١هـ /٨٣٦م

تاريخ العزل : ٢٢٢هـ / ٨٣٧م

(انظر : ابن حيان : المقتبس ، بتحقيق الدكتور محمود على مكي ، ص ٥٤)

٢٥- يحيى بن معمر بن عمران بن منير بن عبيد بن أنيف الألهاني ، أبو بكر .

تاريخ التولية الثانية : ٢٢٢هـ /٨٣٧م

تاريخ العزل : ٢٢٣هـ /٨٣٨م

(انظر : ابن حيان : المقتبس ، بتحقيق الدكتور محمود على مكي ، ص ٥٧).

٢٦- إبراهيم بن العباس بن عيسى بن الوليد بن عبد الملك بن مروان ، أبو إسحاق

تاريخ التولية الثانية : ٢٢٣هـ /٨٣٨م

تاريخ العزل : ٢٢٧هـ / ٨٤١م

(انظر : الخشني : قضاة قرطبة ، ص ١١٨) .

٢٧- على بن أبي بكر بن عبيد بن على الكلابي ، أبو الحسن .

تاريخ الوفاة : ٢٣١هـ /٨٤٥م .

تاريخ التولية : ٢٢٧هـ /٨٤١م .

تاريخ العزل : ٢٣٢هـ /٨٤٦م .

(انظر في ترجمته : الخشني : قضاة قرطبة ، ص ١٢٤ ؛ ابن حيان : المقتبس ، بتحقيق الدكتور محمود على مكي ، ص ٦٨ ؛ ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، حـ١ ، ص ١٥٠) .

٢٨- معاذ بن عثمان الشعباني .

تاريخ الوفاة : ٢٣٤هـ /٨٤٨م

تاريخ التولية : ٢٣٢هـ /٨٤٦م

درجة القرابة : أخو رقم (٢٣)

توفى قاضيا غير معزول .

(انظر في ترجمته : الخشني : قضاة قرطبة ، ص ١٢٥ - ١٢٧ ؛ ابن حيان : المقتبس ، بتحقيق الدكتور محمود على مكي ، ص ٣ ؛ ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، حـ١، ص ١٥٠ ؛ النباهي : المرقبة العليا ، ص ٥٥) .

٢٩- محمد بن زياد بن عبد الرحمن بن زهير بن ناشره بن لوذان بن حبس ابن حاطب بن حارثة بن راشدة بن زيد حارثة بن جزيلة بن لخم بن عدي ، أبو عبد الله .

تاريخ الوفاة : ٢٣٧هـ /٨٥١م

تاريخ التولية : ٢٣٤هـ ٨٤٨م

درجة القرابة : والد رقم (٤١) ، وأخو رقم (٣٠) .

توفى قاضيا غير معزول .

(انظر في ترجمته : الخشني : قضاة قرطبة ، ص ١٢٨ - ١٣٤؛ ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص ١١ (١١٢١) ؛ الحميدي : جذوة المقتبس ، ص ٥٦ (٥٥) ؛ ابن حيان : المقتبس ، بتحقيق الدكتور محمود على مكي ، ص ١٠ ؛ الضبي : بغية الملتمس ، ص ٦٦ -٦٧ (١٢٠) ؛ النباهي : المرقبة العليا ، ص ٥٥) .

في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن
٢٣٨-٢٧٣هـ/٨٥٢-٨٨٦م

٣٠- أحمد بن زياد بن عبد الرحمن اللخمي

تاريخ الوفاة : ٢٥٠هـ /٨٦٤م

تاريخ التولية : ٢٣٧هـ / ٨٥١م

تاريخ العزل : ٢٤٠-٢٤١هـ ٨٥٤-٨٥٥م

درجة القرابة : أخو رقم (٢٩)

(انظر في ترجمته : الخشني : قضاة قرطبة ، ص ١٤٢ - ١٤٥ ؛ ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص ٢٣ (٥٦) ؛ ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، حـ١، ص ١٥١؛ ابن عذارى : البيان المغرب ، حـ٢، ص ٩٤) .

٣١- عمرو بن عبد الله بن ليث المعروف بالقبعة ، أبو عبد الله .

تاريخ الوفاة : ٢٧٣هـ / ٨٨٦م .

تاريخ التولية الأولى : ٢٤١هـ /٨٥٥م

تاريخ العزل : ٢٤١هـ /٨٥٥م

(انظر في ترجمته : الخشني : قضاة قرطبة ، ص ١٤٦ - ١٥٤؛ ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص ٣١٩ (٩٣٨) ؛ ابن عذارى : البيان المغرب ، حـ٢، ص ٩٤).

٣٢- سليمان بن أسود بن يعيش بن جشيب الغافقي ، أبو أيوب .

تاريخ الوفاة : ٢٧٣ هـ /٨٨٦م .

تاريخ التولية الأولى : ٢٤١هـ /٨٥٥ م

تاريخ العزل : ٢٦١هـ /٨٧٤م

درجة القرابة : ابن أخ رقم (١٨)

(انظر في ترجمته : الخشني : قضاة قرطبة ، ص ١٥٥ -١٦٩ ؛ ابن الفرضي تاريخ علماء الأندلس ، ص ١٨٥ (٥٤٩) ؛ ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، حـ١، ص ١٥٤؛ ابن عذارى : البيان المغرب ، حـ٢، ص ٩٤ ابن النباهي : المرقبة العليا ، ص ٥٦ - ٥٩) .

٣٣- عمرو بن عبد الله بن ليث المعروف بالقبعة ، أبو عبد الله .

تاريخ التولية الثانية : ٢٦١هـ /٨٧٤م

تاريخ العزل : ٢٦٣هـ /٨٧٦م

(انظر : الخشني : قضاة قرطبة ، ص ١٧٠) .

٣٤- سليمان بن أسود بن يعيش بن جشيب الغافقي ، أبو أيوب

تاريخ التولية الثانية : ٢٦٣هـ /٨٧٦م

تاريخ العزل : ٢٧٣هـ / ٨٨٦م .

(انظر : الخشني : قضاة قرطبة ، ص ١٧٣).

في عهد الأمير المنذر بن محمد
٢٧٣-٢٧٥هـ/٨٨٦-٨٨٨م

٣٥- عامر بن معاوية بن عبد المسلم بن زياد بن عبد الرحمن بن زهير بن ناشزه بن لوذان اللخمي ، أبو معاوية .

تاريخ الوفاة : غير معروف .

تاريخ التولية : ٢٧٣هـ /٨٨٦م

تاريخ العزل : ٢٧٥هـ /٨٨٨م

(انظر في ترجمته : الخشني : قضاة قرطبة ، ص ١٨٢ - ١٨٥؛ ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص ٢١٠-٢١١ (٦٣٠) ؛ ابن حيان : المقتبس، بتحقيق ملتشور انطونيا ، ص ٧ ؛ ابن سعيد المغرب في حلى المغرب ، حـ١ ، ص ١٥٣ ؛ ابن عذارى : البيان المغرب ، حـ٢ ، ص ١١٣) .

في عهد الأمير عبد الله بن محمد
٢٧٥-٣٠٠هـ/٨٨٨-٩١٢م

٣٦- النضر بن سلمه بن وليد بن أبي بكر محمد بن علي بن عبيد الكلابي، أبو محمد .

تاريخ الوفاة : ٣٠٢هـ /٩١٤م .

تاريخ التولية الأولى : ٢٧٥هـ /٨٨٨م

تاريخ العزل : ٢٨٥هـ/ ٨٩٨م

درجة القرابة : أخو رقم (٣٨) .

(انظر في ترجمته : الخشني : قضاة قرطبة ، ص ١٨٦-١٨٩؛ ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص ١٥٨ (١٤٩٩) ، ابن حيان : المقتبس ، بتحقيق ملتشور انطونيا ، ص ٦-٧ ؛ الحميدي : جذوة المقتبس ، ص ٣٥٨ (٨٤٥) ؛ ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، حـ١ ، ص ١٥٣ ؛ ابن عذارى : البيان المغرب ، حـ٢ ، ص ١٥٢ ، المقرى : نفح الطيب ، حـ١ ، ص ٣٥٣.

٣٧- موسى بن محمد بن زياد بن يزيد بن زياد بن كثير بن يزيد بن حبيب الجذامي ، أبو القاسم .

تاريخ الوفاة : غير معروف

تاريخ التولية : ٢٨٥هـ /٨٩٨م

تاريخ العزل : ٢٨٥هـ /٨٩٨م

(انظر في ترجمته : الخشني : قضاة قرطبة ، ص ١٩٠ - ١٩٢؛ ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص ١٤٨ (١٤٥٩) ؛ ابن حيان : المقتبس ، بتحقيق ملتشور انطونيا ، ص ٦ ؛ ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، حـ١ ، ص ١٥٤ ؛ ابن عذارى : البيان المغرب ، حـ٢ ، ص ١٥٢) .

٣٨- محمد بن سلمه الكلابي ، أبو القاسم .

تاريخ الوفاة . ٢٩١هـ /٩٠٣ م

تاريخ التولية الأولى : آخر سنة ٢٨٥هـ / ٨٩٩م .

تاريخ العزل : غير معروف .

درجة القرابة : أخو رقم (٣٦)

(انظر في ترجمته : الخشني : قضاة قرطبة ، ١٩٣ - ١٩٩ ؛ ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص ١٢ (١١٢٤) ؛ ابن حيان : المقتبس بتحقيق ملتشور انطونيا ، ص ٦-٧ ؛ ابن عذارى : البيان المغرب ، حـ٢ ، ص ١٥٢) .

٣٩- النضر بن سلمه بن وليد بن أبي بكر محمد بن على بن عبيد الكلابي ، أبو محمد .

تاريخ التولية الثانية : غير معروف .

تاريخ العزل : غير معروف .

(انظر : الخشني : قضاة قرطبة ، ص ٢٠٠)

٤٠- محمد بن سلمه الكلابي ، أبو القاسم .

تاريخ التولية الثانية : غير معروف .

توفى قاضياً غير معزول .

(انظر . الخشني : قضاة قرطبة ص ٢٠٢) .

٤١- الحبيب أحمد بن محمد بن زياد اللخمي ، أبو القاسم .

تاريخ الوفاة : ٣١٢هـ /٩٢٤م .

تاريخ التولية : ٢٩١هـ /٩٠٣ م

تاريخ العزل : ٣٠٠ هـ /٩١٢م .

درجة القرابة : ابن رقم (٢٩).

(انظر في ترجمته : الخشني : قضاة قرطبة ، ص ٢٠٤ - ٢١١، ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص ٢٩ (٨١) ؛ ابن حيان : المقتبس ، بتحقيق ملتشور

انطونيا ، ص ٧ ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، حـ١ ، ص ١٥٥؛ ابن عذارى : البيان المغرب ،حـ٢ ، ص ١٥٢) .

يتضح من هذا الثبت أن عدد قضاة الجماعة الذين تولوا هذا المنصب في الفترة من ١٣٨ - ٣٠٠هـ /٧٥٦-٩٢٩م وصل إلى واحد وأربعين قاضيا ، منهم أثنان شغلا هذه الوظيفة أكثر من مرة (أرقام : ٢ .٣) ، وثمان شغلوها مرتين (أرقام : ٩ .١٨ .١٩ .٢١ .٣١ .٣٢ .٣٦ .٣٨) ، والباقي مرة واحدة .

ويستشف من هذا الثبت أيضا أن أطول مدة قضاها قاضي الجماعة في منصبه كانت عشر سنوات ، فقد أشارت المصادر التاريخية إلى أن القاضي النضر بن سلمه بن وليد بن أبي بكر محمد بن على بن عبيد الكلابي (رقم : ٣٦) شغل منصب قاضي الجماعة على مدى عشر سنوات متصلة، على النقيض تماما من القاضي موسى بن محمد بن زياد بن يزيد بن زياد بن كثير بن يزيد ابن حبيب الجذامي (رقم ٣٧) الذي لم يمكث في هذه الوظيفة سوى سبعة أيام فقط

ويتضح من الدراسة التحليلية لهذا الثبت أيضا وجود أحد عشر قاضيا كانت تربطهم صلات عائلية (أرقام : ٨ .٩ .١١ .١٢ .١٧ .١٨ .٢٨ .٢٩ .٣٠ .٣٢ .٣٦) ، الأمر الذي يدعونا إلى الإعتقاد بأن بعض العائلات احتكرت هذا المنصب مثلما كان يحدث في المشرق الإسلامي .

وتثبت الدراسة التحليلية لأسماء قضاة الجماعة في عصر الإمارة الأموية بالأندلس أن أغلب القضاة الذين أشارت إليهم المصادر بدون ذكر لقب قاضي الجماعة ، في عصر أميرماضمن كتابه وحجابه كانوا بالفعل يشغلون هذا المنصب في عصر الأمير المشار إليه . وحسبنا دليلا على ذلك ما يرويه ابن عذارى بصدد الأمير عبد الرحمن الداخل ، إذ يقول : " وقضاته خمسة هم : يحيى بن يزيد التجيبي ، ومعاوية بن صالح ، وعبد الرحمن بن طريف ، وعمر بن شراحيل ، والمصعب بن عمران ، وهكذا (٢٧) . ولسنا في حاجة إلى القول بأن هؤلاء جميعا كانوا بالفعل ضمن قضاة الجماعة .

سلطات قاضي الجماعة واختصاصاته :

تشير هذه الدراسة كذلك إلى أن قاضي الجماعة كان يعد بمثابة قاضي الحاضرة في قرطبة، يتم تعيينه مباشرة من قبل أمير الأندلس، ومن ثم فقد كان يعد من بين كبار رجال الدولة إلى جانب الحاجب والوزير اللذان يستمدان

سلطاتهم من الأمير مباشرة. كما كان قرار تعيين قاضي الجماعة من صميم اختصاصات الأمير ومن بين السلطات المخولة له كالشأن في سك اسمه على العملة، والدعاء له في الخطبة، وكان يؤذن لقاضي الجماعة بأن يتصرف في القضاة تقليدا أو عزلا ، وأن يتفقد أحوالهم وأن يعاملهم كأنهم نواب عنه ، فيختبر أقضيتهم ويراعي أمورهم ومكانتهم في مجتمعاتهم (٢٨) ، بدليل أن أهل كورة جيان jaen كانوا قد تظلموا للأمير الحكم بن هشام من قاضي كورتهم، فعهد الأمير الحكم إلى سعيد بن محمد بن بشير قاضي الجماعة بقرطبة في هذه الظلامة وسأله إن ظهر القاضي بريئا أقره على قضائه، وإن ظهر عليه ما دفع إلى الأمير فيه عزله عن قضاء الكورة ، وفي ذلك يقول الخشني : " فنظر قاضي الجماعة فألفاه بريئا ، فقال له : انصرف إلى قضائك " (٢٩) . وفي رواية أخرى للخشني يستفاد منها أن أهل مدينة استجه Ecija رفعوا إلى الأمير كتابا يطلبون منه أن يعين لهم قاضيا يفصل في منازعاتهم ، فحول الأمير الكتاب إلى محمد بن بشير قاضي الجماعة في قرطبة وأمره أن يتخير من يراه (٣٠) .

ونستدل من هذين المثلين على أن قاضي الجماعة في قرطبة كانت له سلطة على قضاة الأقاليم إذا أذن له الأمير بذلك ، وهذه حالة مؤقتة وليست دائمة ، ذلك لأن سلطة قاضي الجماعة الحقيقية كانت تقتصر على الحاضرة قرطبة، بعكس قاضي القضاة في المشرق في العصر العباسي ، فكان قاضي الدولة كلها ومن سواه من القضاة في الأقاليم يقومون عنه ويتم تعيينهم وعزلهم على يديه وبأمر منه (٣١) .

ونظرا لأن ولاية قضاء الجماعة في قرطبة كانت ولاية عامة ، فقد اتسعت اختصاصاته وشملت النظر في (٣٢):

١- الفصل في المنازعات وقطع التشاجر والخصومات إما صلحا عن تراضي ويراعي فيه الجواز أو إجبار بحكم بات يعتبر فيه الوجوب ، واستيفاء الحقوق ممن مطل بها، وإيصالها إلى مستحقيها بعد ثبوت استحقاقها من أحد وجهين إقرار أو بينة.

٢- ثبوت الولاية على من كان ممنوع التصرف بجنون أو صغر والحجر على من يرى الحجر عليه لسفه أو فلس ، حفظا للأموال على مستحقيها وتصحيحا لأحكام العقود فيها (٣٣) .

٣- النظر في الأوقاف بحفظ أصولها وتنمية فروعها والقبض عليها وصرفها في سبيلها، فإن كان عليها مستحق للنظر فيها راعاه ، وإن لم يكن تولاه(٣٤).

٤- تنفيذ الوصايا على شروط الموصى فيما أباحه الشرع ولم يخطره وإن كانت لمعينين كان تنفيذها بالإقباض ، فإن كان فيها وصي راعاه ولم يكن تولاه (٣٥) .

٥- إقامة الحدود على مستحقيها ، فإن كان من حقوق الله تعالى تفرد بإستيفائه من غير طلب إذا ثبت بإقرار أو بينة ، وإن كان من حقوق الآدميين كان موقوفا على طلب مستحقيه .

٦- تصفح شهوده وأمنائه واختيار النائبين عنه من خلفائه في إقرارهم والتحويل عليهم من ظهور السلامة والإستقامة وصرفهم والاستبدال بهم مع ظهور الجرح والخيانة .

٧- وأخيرا النظر في تعديل الشهود أو تجريحهم .

وكان يضاف إلى مهام قاضي الجماعة في قرطبة أحيانا بعض اختصاصات المحتسب كما كان الحال في المشرق الإسلامي ، ففي رواية عن محمد بن عمر بن لبابة يقول فيها : " حضرت وقد خاصم إليه (أي إلى سليمان بن أسود الغافقي قاضي الجماعة) رجل في فرن بناه صاحبه ، فأضر الدخان به وبالجيران ، وهذه المسألة ، يقول ابن قاسم : إن ذلك من الضرر الذي يجب قطعه ولايباح اتخاذه - فقضى سليمان بن أسود بغير ذلك أن يجعل أنبوبا في أعلى الفرن ، فيخرج الدخان من أعلاه ، فلا يضر بمن جاوره " (٣٦) .

وكان يسند إلى بعض قضاة الجماعة في قرطبة وظائف أخرى كخطة الصلاة (٣٧) ، ويلاحظ أن ذلك الجمع بين خطتي قضاء الجماعة والصلاة كان مقصورا على العرب فقط دون الموالي (٣٨) ، كما نستدل من ترجمة القاضي المصعب بن عمران على أن الأمير هشام بن عبد الرحمن أسند إليه بالإضافة إلى خطتي قضاء الجماعة والصلاة، النظر في ضيعته يومي السبت والأحد (٣٩) .

الشروط الواجب توافرها في قاضي الجماعة :

والمتتبع لتاريخ قضاة الجماعة في الأندلس إبان هذه الفترة يلاحظ بوضوح أنهم كانوا يتحلون بدرجة عالية من النزاهة والمحايدة الخالصة ، فقد كانوا يلتزمون بالمثل السامية الواردة في القرآن الكريم والحديث الشريف . فالإسلام لايسمح لأي إنسان مهما علت مرتبته أو ارتفعت مكانته أن يتدخل في حكم القاضي حين يحكم بالعدل ، ويقيمه في واقع حياة الناس ، بل إن القاضي إذا أحس بأي نية في التدخل في شؤونه كان من واجبه أن يرفض هذا التدخل

بشدة، وعليه أن يحكم بما يراه عدلا ، ووجب على الناس الإلتزام بحكمه.

ويبدو أن اختيار قاضي الجماعة كان يتم في أغلب الأحيان من بين كتاب قضاة الجماعة ، فقد روى الخشني أن محمد بن بشير كتب في حداثته للقاضي مصعب ابن عمران (٤٠) ، ثم ولي قضاء الجماعة في قرطبة في عهد الأمير الحكم بن هشام . وأن عمرو بن عبد الله بن ليث المعروف بالقبعة كان كاتبا لأحمد بن زياد قاضي الجماعة بقرطبة ثم ولي قضاء الجماعة في قرطبة في عهد الأمير محمد (٤١) . والحق أن تعيين هذا القاضي في هذا المنصب أثار استياء العناصر العربية في الأندلس لكونه من الموالي فبلغ ذلك الأمير محمد ، فكان رده " وجدت فيه مالم أجد فيهم " (٤٢) . هذا ومن المعروف أن الموالي قد لعبوا دورا هاما في تاريخ الأندلس منذ وفادتهم في طالعة بلج بن بشر وكانت عدتهم في هذه الطالعة حوالي ألفي رجل (٤٣) ، انضموا إلى موالي بني أمية في الأندلس وألفوا حزبا هاما . وكان أغلب هؤلاء الموالي من أهل المغرب الذين دخلوا في ولاء بني أمية أو عمالهم ومنهم بنو الخليع وبنو وانسوس ، وبقية الموالي من المشرق ، فمنهم دمشقيون وأردنيون وقنسريون وفرس (٤٤) ، ممن كان لهم دور ملموس في نجاح الأمير عبد الرحمن بن معاوية في تأسيس دولته بالأندلس (٤٥) ، وعليهم اعتمد بنو أمية في إدارة شؤون البلاد وعهدوا إليهم بأهم المناصب في الدولة ، لما لمسوه من تفانيهم في الإخلاص لها فكان منهم الوزراء والكتّاب والقواد والقضاة(٤٦) .

إستقلال القضاة :

يذهب فقهاء المسلمين إلى أن للقضاة حدودا ليس لأحد أن يتعرض لها ، يقول النباهي " وحدود القضاة في القديم والحديث معروف لايعارضون فيها، ولا تكون لغيرهم من الحكام " (٤٧) . فمن خلال دراستنا لتراجم قضاة الجماعة في قرطبة نلاحظ أن القضاة كانوا يستقلون بالرأي والأحكام بمعنى أنهم لايقعون تحت تأثير سلطة أو شخص من شأنه أن ينحرف به عن هدفه الأسمى في تحرى العدالة .

فلقد وردت أمثلة كثيرة في تاريخ القضاء والقضاة في الأندلس تؤكد مدى استقلال القضاة في إصدار أحكامهم ، فمنها مارواه أبو عمر بن عبد البر من أن حبيبا القرشي دخل على الأمير عبد الرحمن بن معاوية فشكا إليه القاضي نصر ابن ظريف اليحصبي ، وذكر أنه يريد أن يسجل عليه في ضيعة قيم فيها ، وادعى عليه الاغتصاب لها ، ولاذ بالأمير من إسراع القاضي إلى الحكم عليه من

غير تثبت ، فأرسل الأمير إليه ، وكلمه في حبيب ونهاه عن العجلة عليه ، فخرج ابن ظريف من يومه وعمل بغير ماأراد الأمير ، وأنفذ الحكم ، وبلغ الخبر حبيبا ، فدخل إلى الأمير متغرا غيظا ، فذكر له ماعمله القاضي ، ووصفه بالاستخفاف بأمره ، والنقض له ، وأغراه ، فغضب الأمير على القاضي واستحضره ، فقال له : " من أمرك على أن تنفذ حكما ، وقد أمرتك بتأخيره والإناءة به ؟ فقال له : قدمني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنما بعثه الله بالحق ، ليقضي به على القريب والبعيد ، والشريف والدنئ ، وأنت أيها الأمير ، ماالذي حملك على أن تتحامل لبعض رعيتك على بعض وأنت تجد مندوحة بأن ترضى من مالك من تعنى به ، وتمد الحق لأجله ؟ فقال له : جزاك الله ياابن ظريف خيرا " ، وخرج القاضي فدعا بالقوم الذين صارت الضيعة إليهم بالاستحقاق ، وكلمهم فوجدهم راضين ببيعها، إن أجزل لهم الثمن ، فعقد فيها البيع معهم وصارت إلى حبيب ، فكان بعد ذلك يقول : جزى الله ابن ظريف عنا خيرا ، كانت بيدي ضيعة حرام، فجعلها حلالا (٤٨) .

ويورد النباهي مثلا آخر يؤكد استقلال القضاة في إصدار أحكامهم ، فيذكر أن العباس بن عبد الملك المرواني اغتصب رجلا من أهل جيان ضيعته ، فبينما هو ينازعه فيها ، هلك الرجل ، وترك أيتاما صغارا ، فلما ترعرعوا ، وسمعوا بعدل القاضي مصعب وقضائه ، قدموا قرطبة ، وأنهوا إليه مظلمتهم بالعباس ، وأثبتوا ما وجب إثباته ، فبعث القاضي في العباس وأعلمه بما دفعه إليه الأيتام وعرفه بالشهود عليه ، وأعذر إليه فيهم ، وأباح له المدافع ، وضرب له الآجال، فلما انصرمت ، ولم يأت بشئ أعلمه أنه ينفذ الحكم عليه ، ففزع العباس إلى الأمير الحكم ، وسأله أن يوصي إلى القاضي التخلي عن النظر في قضيته ، ليكون هو الناظر فيها فأوصل إليه الأمير ذلك مع خليفة له . أكابر فتيانه ، فلما أدى الوصية إليه ، اشتدت عليه ، وقال : " إن القوم قد أثبتوا حقهم ولزمهم في ذلك عناء طويل ، ونصب شديد ، لبعد مكانهم ، وضعف حالتهم ، وفي هذا على الأمير – أعزه الله – مافيه فلست أتخلى عن النظر وإنفاذ الحكم لوجهه ، فليفعل الأمير بعده مايراه صوابا من رأيه " ، فرجع الرسول إلى الأمير بجوابه ، فوجم منه وجعل العباس يغريه بمصعب ، ويقول : " قد أعلمت الأمير بشدة استخفافه ، وغلطه في نفسه ، وتقديره له أن الحكم له ولا حكم للأمير عليه ، وكرر الأمير الطلب إليه أن يكف عن إصدار الحكم في القضية ، فأمر القاضي الرسول بالقعود وحكم للقوم بالضيعة ثم أنفذ الحكم وأشهد عليه ... قد حكمت بالعدل فلينقضه الأمير إن قدر، فاستشاط الأمير غيظا وأطرق مليا ... وأقر حكم القاضي " (٤٩) . وفي رواية للخشني أن الرسول عندما رجع وأبلغ الأمير بمقالة

القاضي أطرق الأمير ، وقال : " ما أشقاه من لطمه قلم القاضي ، ثم رجع إلى ماكان فيه ، ولم يعرض للقاضي ، ونفذ له حكمه " (٥٠) .

ويستفاد كذلك من رواية أوردها الخشني أن قاضي الجماعة في قرطبة عمرو ابن عبد الله بن ليث كان قد أصدر حكما على أحد أتباع الأمير أبي إسحاق أخو الأمير محمد ، فآواه أبو اسحاق وستره، فقال القاضي لرسول الأمير أبي إسحاق : " قل له : ظلمت وأسأت فيا فعلت ، عمدت إلى رجل قد أخذه حكمي فآويته وسترته ، تريد أن تمنع الحق من أن ينفذ عليه ، إن لم تخرجه وتبرزه ، ليؤدى ماعليه، ويصير فيه إلى الواجب ، وإلا أرسلت إليك من يسمر أبواب دارك(٥١) .

تخوف القضاة من توليهم منصب قضاء الجماعة :

وعلى الرغم من أهمية منصب قاضي الجماعة في قرطبة ، فقد كشفت دراستنا لتراجم القضاة عن إحجام البعض عن تولى هذا المنصب ، ربما بسبب ماجاء في القرآن الكريم ، وماورد في بعض الأحاديث النبوية الشريفة من عبارات تحذير حول ولاية القضاء ، من ذلك قول الله تبارك وتعالى : " ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون " (٥٢) . وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم " من ابتغى القضاء وسأل ، وكل إلى نفسه ، ومن أكره عليه ، أنزل الله عليه ملكا يسدده(٥٣).

لهذا كان الكثيرون يتحاشون هذه الوظيفة خوفا من ألا يستطيعون إقامة العدل على الأقوياء أو تحرجا من خدمة أمراء لا يرضون على كل تصرفاتهم (٥٤) . ومن الأمثلة المعبرة عن ذلك الفقيه المصعب بن عمران الذي عرض عليه الأمير عبد الرحمن بن معاوية ولاية القضاء ، " فأبى قبولها وذكر عذرا له في ذلك ، فرد عليه الأمير عبد الرحمن القول ، وأظهر له العزيمة، ولم يوسعه العذر في ترك القبول ، فأصر على الإباءة لها وتمادى على النفور منها ، فلما يئس الأمير عبد الرحمن منه ....، فقال لمصعب : اذهب ، فعليك كذا وكذا ، وعلى اللذين أشاروا بك"(٥٥). غير أن المصعب بن عمران عاد وتولى قضاء الجماعة في قرطبة في إمارة هشام ابن عبد الرحمن ضد إرادته على ما يبدو ، كما يفهم من رواية الخشني التي يقول فيها : " فلما قدم المصعب على هشام ، قال له : قد علمت أنه إنما منعك من قبول القضاء من أبى الأخلاق التي كانت له ، وقد عرفت أخلاقي ، فتول القضاء ، فأبى عليه ، فعزم عليه هشام رحمه الله – عزما شديدا حتى ولى القضاء " (٥٦)

كذلك أبى الفقيه يحيى بن يحيى قبول ولاية القضاء عندما عرضها عليه الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، وبرر ذلك بقوله للأمير أن : " المكان الذي أنا به لما تريدون خير لكم ، إنه إذا تظلم الناس من قاضي أجلستموني فنظرت عليه ... فقبل عبد الرحمن بن الحكم منه ذلك وعافاه " (٥٧) .

مجلس قضاء الجماعة ورسومه :

وكان لابد لقاضي الجماعة في قرطبة أن يتخذ مكانا يعرفه الناس ، ليأتوا إليه عند التنازع والتخاصم ، فالرسول صلى الله عليه وسلم قضى في المسجد ، وسلك الخلفاء الراشدون سنته فقضوا في المسجد (٥٨) ، فالمسجد أنسب مكان يجلس فيه القاضي وهو مكان معروف ومشهور بين الناس ، وطريقه سهل ميسور لجميع الناس ، يقيهم برد الشتاء ، وحر الصيف حتى يستطيع المتخاصمون والشهود الحضور إليه والإطمئنان فيه ، ويتمكن القاضي من إصدار الحكم دون منغصات كالبرد الشديد أو الحر الشديد . فقد كان قاضي الجماعة محمد بن بشير يقضي بين الناس في سقيفة معلقة بقبلى مسجد ابي عثمان القريب من منزله (٥٩) . وكان قاضي الجماعة يقعد لسماع الخصومة من الصباح حتى قبل الظهر بساعة ، ثم يقعد بعد صلاة الظهر إلى العصر ، لايكون نظره غير السماع من البينات (٦٠) .

وقد يقضي قاضي الجماعة بين الناس في داره ، يقول محمد بن عمر بن لبابه : " كان إبراهيم بن العباس ربما جلس يقضي في بيته بين الناس " (٦١) ، ولعل ذلك كان يحدث عند النظر في القضايا التي تقع بين المسلمين وأهل الذمة، كما كان يحدث في المشرق الإسلامي (٦٢) .

وكان قاضي الجماعة بقرطبة يعقد مجلسه بدون رسوم خاصة،فقد اعتاد أن يرتدي جبة صوف بيضاء ، ويضع على رأسه أقروف أبيض وغفارة بيضاء (٦٣) . وهناك إشارة أخرى تفيد أن القاضي محمد بن بشير المعافري كان يخرج إلى المسجد ويقعد للحكم في إزار مورد وملة مفرقة (٦٤) ، وذلك بخلاف ماجرت به رسوم القضاء في المشرق ، حيث جرت العادة أن يتشح القاضي منذ العصر العباسي بالسواد وأن يضع على منكبيه الطيلسان ، ويعد القاضي أبو يوسف أول من ميز لباس القضاة والعلماء ، فأصبح القاضي يتعمم بعمامة سوداء على قلنسوة طويلة ، كما كان قضاة الفاطميين يتشحون أيضا بالبياض ويحملون سيفا أثناء جلسات الحكم (٦٥) .

وكان مجلس الحكم يعقد علنا ، ويتكون عادة من جماعة الفقهاء المشاورين ،

والكاتب الذي يدون مايدور في الجلسة، والشهود العدول والشرطة والأعوان . فأما الفقهاء المشاورون فكان قاضي الجماعة يشاورهم فيما يشكل عليه ، لقوله تعالى : " وشاورهم في الأمر " (٦٦) . ومن المعروف أنه كان في قرطبة عدد كبير من الفقهاء المشاورين ذوي العلم الواسع والخلق المتين والدين القويم ، وكان هؤلاء الفقهاء يرفضون تولى القضاء أو الوظائف العامة مكتفين بالانصراف إلى العلم والتدريس والافتاء فيما يعرض لهم من مشاكل ، وكان هذا العزوف يرفع من مقامهم في أعين الناس (٦٧) ، فقد سبقت الإشارة إلى أن الفقيه يحيى بن يحيى أعرض عن ولاية القضاء عندما عهد إليه الأمير عبد الرحمن بن الحكم بولايتها، وقد ارتفعت منزلة هذا الفقيه حتى أصبح من أكبر شخصيات الدولة فكان له رأي في تولية القضاة وفي عزلهم (٦٨) ، ولذا نجد أن قضاة الجماعة في قرطبة كانوا يستفتون هؤلاء الفقهاء في أقضيتهم ، فيسجلها الكاتب حتى تولى الحبيب بن محمد بن زياد اللخمى قضاء الجماعة في قرطبة ، فطلب من أهل الفقه المشيرين عليه في أقضيته بضبط فتياهم وزمام رأيهم بخط أيديهم (٦٩) . وأما الكاتب ، فكان قاضي الجماعة يستعين به في تسجيل الدعاوي والإقرارات وما يتعلق بالأحباس وتعيين الأوصياء وتقدير نفقات الأيتام وتدوين محاضر الجلسات في الديوان والمحافظة عليه ، وكان يراعى في إختيار كتاب القضاة أن تتوفر فيهم صفات منها : أن يكون الكاتب حافظا عالما بالفقه ، وأن يكون أمينا حرا ، وأن يكون ورعا نزها لايستمال بهدية أو رشوة ، وأن يكون حسن الخط حتى يتمكن غيره من قراءته عند العودة إليه إذا دعت الحاجة واقتضى الأمر، وأن يكون صحيح الضبط ، وأن يكون ذا خبرة بكتابة المحضر والسجلات والأوامر والأحكام القضائية (٧٠) . وأما الشرطة والأعوان . فكان القاضي يحتاج إليهم في مجلس الحكم إجلالا له وفرض الهيبة على مجلسه ولأن وجودهم فيه إرهاب للمبطل وتأديب للمجرم .

ومن الآداب المرعية عند قضاة الجماعة بالأندلس إبان هذه الفترة ، أثناء النظر في القضايا المعروضة عليهم أن يعطي القاضي لكل خصم طابعا وهو كتاب مختوم بخاتم القاضي ، الذي يأمر كاتبه أن يدون به اسم الخصم وعنوانه ، ثم يأخذ القاضي الطوابع ويخلطها جميعا ثم يأخذ طابعا ثم آخر، وعلى ذلك يقدم الخصوم على مراتبهم في الحضور (٧١) . فإذا تخاصم رجل غريب مع آخر غريب مثله أو تخاصم الغريب مع رجل من أهل البلدة فإن القاضي يقدم النظر في هذه القضية على غيرها (٧٢) ، وذلك لأن هذا الغريب مسافر إلى أهله فإذا أخره القاضي ربما ترك الدعوى وترك حقه فضاع ، فكان تأخير القاضي له سببا في ضياع حقه ، وإن جاز للقاضي أن يؤجل له بقدر بعد مدينته (٧٣) .

حرية الاعتماد على المذهب المالكي أو الاجتهاد في إصدار الأحكام :

وتجدر الإشارة إلي أن قضاة الجماعة في قرطبة منذ قيام الدولة الأموية اعتمدوا في أحكامهم على مذهب عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي إمام الشام ٨٨-١٥٧هـ /٧٠٧-٧٧٤م (٧٤) ، وهو المذهب الذي كانت أحكامه تطبق في الأندلس لتوافق ما ذهب إليه هذا الفقيه وخاصة في التشريعات الحربية وأحكام الحرب والجهاد (٧٥) ، مع ماكاد يسود الأندلس في هذه الفترة من عدم استقرار واضطراب . ويذكر ابن الفرضي أن أول من نقل هذا المذهب إلى الأندلس هو القاضي الألبيري أسد بن عبد الرحمن السبئ (كان حياتــه ١٥٠هـ / ٧٦٩م) (٧٦)، وانتشر على يد صعصعة بن سلام الشامي (ت ١٩٢هـ /٨٠٧م) (٧٧) . وظل مذهب الأوزاعي ، غالبا على الأندلس إلى أن انتشر المذهب المالكي في عصر الأمير هشام بن عبد الرحمن بن معاوية الملقب بالرضا ١٧٢ - ١٨٠ هـ /٧٨٩-٧٩٦م ، ولم يلبث أن أصبح مذهب مالك هو المذهب الرسمي للدولة الأموية وحل /محل المذهب الأوزاعي ، غير أن الأندلسيين احتفظوا بمسألة استجازة غرس الشجر في صحون المساجد (٧٨) ، متبعين فيها مذهب الأوزاعي ، ومذهب مالك يكره ذلك ، وهذه المسألة ميزت المالكية الأندلسية عن غيرها حتى انتهاء دولة الإسلام في الأندلس . وهكذا انتقلت الفتوة في الأندلس إلى رأي مالك بن أنس وأهل المدينة، فانتشر علم مالك ورأيه في حواضر الأندلس (٧٩) .

ومع ذلك فينبغي أن يفسح للقاضي المجال ليفكر ويستنبط الأحكام ، فلقد شجع الإسلام القاضي على التدبر والتفكر والاجتهاد ، وعاب على أولئك الذين لا يفكرون بعقولهم ولايستخدمونها في الحكم على الأشياء والأفكار والعقائد بل ينساقون وراء الآباء والأجداد ، يرددون ماقالوه دون وعي أو أدنى تأمل ، قال تعالى : " إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون " (٨٠) . ومن هذا المنطلق ، وهو ترك الحرية للقاضي في الاجتهاد ، فإنه لايلزم بمذهب معين ، بل يقضي بما يتوصل إليه من أحكام ، يقول أبو يعلى الفراء : " ويجوز لمن يعتقد بمذهب أحمد أن يقلد القضاء من يعتقد مذهب الشافعي ، لأن على القاضي أن يجتهد برأي في قضائه ، ولا يلزمه أن يقلد في النوازل والأحكام من اعتزى إلى مذهبه " (٨١) . بل لقد ذهب الماوردي وأبو يعلى الفراء وغيرهما إلى أن القاضي لو ولي على القضاء واشترط عليه أن يحكم بمذهب معين فإن الشرط باطل . وعليه أن يحكم بما يؤدي إليه اجتهاده ، أي أن الشرط باطل والولاية صحيحة

على تفصيل في الحالات والشروط إن كان الشرط أمرا أو نهيا أو غير ذلك (٨٢). وهذا ماإعتقده قضاة الجماعة في قرطبة ، فالمصعب بن عمران يقضي باجتهاده دون أن يتقيد بمذهب معين ، فقد ذكر ابن عبد البر أنه كان لايقلد مذهبا معينا ، ويقضي بما يراه صوابا ، وكان خيرا فاضلا (٨٣) .

غلبة البساطة على حياة قاضي الجماعة :

أما عن راتب قاضي الجماعة في قرطبة ، فلم تنص المصادر التي بين أيدينا صراحة عليه ، ومع ذلك فهناك بعض الإشارات التي يفهم منها أن راتب قاضي الجماعة بقرطبة في عام واحد كان يكفيه لعامين ، ففي رواية للخشني أن الأمير عبد الرحمن بن معاوية كان " يديل بين معاوية بن صالح وعمر بن شراحيل عاما هذا وعاما هذا ، فولى عمر بن شراحيل عاما من تلك الأعوام ، فلما انقضى العام أقره على القضاء ولم يحركه (٨٤) ، فذهب القاضي معاوية بن صالح لمقابلة الأمير عبد الرحمن بن معاوية ، وقال له : " وليتني القضاء في أول مرة ، وأنا كاره ، فتوليته فلما تولى رأس الشهر رزقتني رزقا واسعا توسعت به ، ثم استمر الرزق كل شهر حتى عزلتني عند رأس العام ، فاستقبلت العام الثاني الذي كنت فيه معزولا ، بفضول من رزق العام الأول ، فانقضت تلك الفضول بانقضاء العام " (٨٥) . وهذا يوضح أن راتب قاضي الجماعة بقرطبة كان أيضا كافيا ويزيد عن حاجته حتى لاينحرف ويقبل الرشوة . فقد حرص الإسلام على نزاهة القضاء عن طريق توفير الحياة الكريمة لكل من يتولى هذا المنصب الهام ، فأوجب له راتبا في بيت مال المسلمين يكفيه هو ومن يعول ، يقول الإمام النووي في روضة الطالبين : " وليكن رزق القاضي بقدر كفايته وكفاية عياله على ما يليق بحالهم من النفقة والكسوة وغيرها " (٨٦) . وقد اتفق الفقهاء على جواز أخذ القاضي الرزق من بيت مال المسلمين ، واختلفوا في جواز أخذه إذا لم يكن محتاجا (٨٧) . وتؤكد هذه الدراسة أن قضاة الجماعة في قرطبة كانوا متزهدين في معيشتهم ، بدليل تلك الروايات العديدة التي تصور لنا البساطة المبالغ فيها في كثير من الأحيان ، والتي تميزت بها طبقة العلماء والفقهاء الأتقياء الذين كان القضاة يختارون من بينهم ، ففي رواية لمحمد بن عمر بن لبابة ، قال : " صلى بنا سعيد بن سليمان القاضي صلاة الجماعة في المسجد الجامع بقرطبة ثم خرجنا معا ، فمشى ولم يركب ، ومشينا معه حتى بلغ إلى الفرن الذي كان يطبخ فيه خبزه ، فقال للفران : خبزتي مطبوخة ؟ فقال له : نعم ، فقال له : هاتها فناولها له ، فأخذها فجعلها تحت عضده ، وأقبلنا نمشي حتى بلغنا الدار ، فدخل وانصرفنا عنه " (٨٨) .

ويسوق الخشني رواية أخرى تعكس لنا البساطة في معيشة قضاة الجماعة في قرطبة فيذكر أن يحيى بن معمر عندما عزل عن قضاء الجماعة أرسل إليه أحد خواصة من الوزراء ابنه وبعض أعوانه ليعاونوه في حمل متاعه ، فعندما أتوا بيت القاضي لم يكن فيه " إلا حصير وخابية بدقيق ، وصحفة وقلة للماء ، وقدح ، وسرير كان يرقد عليه" (٨٩) .

وعلى الرغم من تلك البساطة التي كانت تسود حياة قضاة الجماعة بقرطبة في معيشتهم إلا أنهم كانوا شديدي التهيب في قضائهم لايخاطبون في شئ من أمر الخصوم إلا في مجلس نظرهم ، ولا يأذنون لأحد من الخصوم بلقياهم في الطريق بمرافقتهم ، ولا أن ينصرفوا معهم ، ومن ألح فيما لاينبغي من ذلك أمر قاضي الجماعة بحبسه (٩٠) .

أسباب إقدام الأمراء على عزل قضاة الجماعة :

كان قضاة الجماعة بقرطبة يتعرضون للعزل وإنهاء ولايتهم لأسباب نلخصها فيما يلي : -

١- من ذلك أن يقوم الأمير بعزله إذا وجد أفضل منه أو ظهر عجزه أو عدم كفايته ، أو أقر أنه حكم بجور متعمدا أو ثبت عليه ذلك بالبينة، فقد عزل يحيى بن معمر الإلهاني عن قضاء الجماعة لما نسب إليه من أحوال قبيحة(٩١).

٢- كان القاضي يعزل أحيانا إذا ما استكثر من تنفيذ الأقضية، فلقد أحصى على قاضي الجماعة معاذ بن عثمان الشعباني تنفيذ سبعين قضية في ولايته ، فاستكثر منه ، وخيف عليه الزلل، ويعلق الخشني على هذا الخبر ، فيذكر أن هذه الرواية فيما يرى مدخولة لأنه لا ينكر تنفيذ الأقضية وكثرتها مع حضور الحق ، فإذا صحت فإنها قد تكون من تحامل الفقهاء ، إذ " كلما طالت الخصومات كان أنفع لهم " (٩٢) . .

٣- قد يكون العزل بسبب انتهاء مدة ولايته ، فإذا عين الأمير رجالا على القضاء مدة سنة ، فإن ولايته للقضاء تنتهي بانتهاء السنة، وخير مثال على ذلك معاوية بن صالح وعمر بن شراحيل المعافري ، فقد كانا يتداولان قضاء الجماعة عاما معاوية وعاما عمر (٩٣) .

٤- وقد يكون بسبب استعفاء قاضي الجماعة نفسه وموافقة الأمير على ذلك ، فلقد كتب أحمد بن زياد قاضي الجماعة في قرطبة إلى الأمير يطلب إعفاءه

من ولاية القضاء فعزله عنها (٩٤) .

٥- يتم العزل أحيانا عند وفاة قاضي الجماعة ، لأن الموت مبطل لأهلية التصرف ، فلقد توفى المصعب بن عمران الهمداني ومحمد بن سلمة وهما على القضاء (٩٥).

٦- وقد يكون ذلك أيضا بسبب خروج قاضي الجماعة للغزو ، فقد جرت العادة أنه إذا غزا القاضي ثم قدم ، لم ينظر حتى يعهد إليه بالنظر من جديد (٩٦) . جرت العادة أيضا أنه في حالة وفاة قاضي الجماعة أو عزله عن ولايته كان أمير الأندلس يعهد إلى صاحب المدينة بأستلام الديوان ، وأن يجعله بمكان الحفظ والصيانة حتى يولى قاضيا آخر مكانه (٩٧) . ولعله من المناسب أن نذكر هنا أن سبعا من قضاة الجماعة بقرطبة توفوا أثناء شغلهم لمنصب قاضي الجماعة (أرقام : ١، ٧، ١٣، ٢٠ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٤٠).

بقي أن نشير في ختام هذه الدراسة عن قضاة الجماعة في عصر الإمارة الأموية في الأندلس إلى أن هذه الوظيفة كانت مستقرة إلى حد كبير بدليل أنها شهدت على مدى ١٦٢ عاما واحدا وأربعين قاضيا فقط أي بمعدل قاض لكل أربع سنوات تقريبا . وقد وضح هذا الإستقرار بصفة خاصة في عهد الأمير هشام بن عبد الرحمن الذي حكم ما يقرب من ثماني سنوات قام خلالها بتعيين قاض واحد فقط . وفي عصر الأمير محمد بن عبد الرحمن الذي حكم مايقرب من خمس وثلاثين سنة تقلد قضاة الجماعة خمسة قضاة أي بمعدل قاض لكل سبع سنوات . وذلك على النقيض تماما مما كان يحدث في أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط الذي عين ثلاثة عشر قاضيا خلال السنوات الإثنين والثلاثين التي مكثها في الإمارة أي بمعدل قاض لكل سنتين ونصف ، ذلك بسبب تدخل جماعة الفقهاء المشاورين أحيانا في تعيين قضاة الجماعة وعزلهم في أيامه .

هوامش البحث

١- النباهي (أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن) . كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا أو تاريخ قضاة الأندلس ، نشر الأستاذ ليفي بروفنسال ، دار الكاتب المصري ، القاهرة ، ١٩٤٨، ص ٢ .

٢- ابن خلدون (عبد الرحمن) : المقدمة ، المجلد الأول ، الطبعة الثانية ، دار الكاتب اللبناني ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ٣٩٠ .

٣- نفس المصدر والمجلد والصفحة .

٤- الخشني (أبو عبد الله محمد بن حارث بن أسد) : قضاة قرطبة ، تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري ، الطبعة الأولى ، الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني ، ١٩٨١ ، ص ٢٥٢ .

٥- الخشني : نفس المصدر ، ص ٤٧ ، ويؤيد ذلك ماذكره ابن عذارى أن يوسف الفهرى والصميل بن حاتم أرسلا إلى عبد الرحمن بن معاوية عندما بلغ قرية أرمله Armilla من من قرى إلبيره ، ويعترفا بإمارته على الأندلس بشرط أن يؤمنهما في أموالهما ومنازلهما ويؤمن الناس كلهم ، فأجابهما إلى رغبتهما ، وأصطلحا في سنة ١٤٠هـ ٧٥٧م ، وكتب بينها كتاب صلح ، انظر : ابن عذارى : البيان المغرب ، حـ٢، ص ٧٢ ، مؤلف مجهول : أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، تحقيق لا فونتي الكنترا ، مجريط ، ١٨٦٧ ، ص ٩٤ .

٦- الخشني ، المصدر السابق ، ص ٤٧ ، النباهي : المصدر السابق ، ص ٢١ .

٧- النباهي : نفس المصدر ، ص ٢١ .

٩- نفس المصدر والصفحة .

٩- الخشني (أبو عبد الله محمد بن حارث بن أسد) : قضاة قرطبة ، تحقيق الأستاذ ابراهيم الأبياري ، الطبعة الأولى ، الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني ، ١٩٨١ .

١٠- النباهي (أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن) . كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا أو تاريخ قضاة الأندلس ، نشر الأستاذ ليفي بروفنسال ، دار الكاتب المصري ، القاهرة ، ١٩٤٨ .

١١- ابن الفرضي (أبى الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي الحافظ) تاريخ علماء الأندلس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٦٦

١٢- الحميدي (أبى عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي) : جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة . القاهرة ، ١٩٦٦ .

١٣- الضبي (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميره) : بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، تحقيق كوديرا وزيدان ، مجريط ، ١٨٨٤ .

١٤- ابن حيان (أبو مروان بن خلف) : كتاب المقتبس في تاريخ رجال الأندلس ، بتحقيق ملتشور انطونيا ، باريس ١٩٣٧ . وله أيضا كتاب المقتبس من أبناء أهل الأندلس ، بتحقيق الدكتور محمود على مكي ، دار الكاتب العربي ، بيروت ، ١٩٧٣ .

١٥- ابن عذارىٰ (أبو العباس أحمد) : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، حـ٢ ، تحقيق ومراجعة كولان وليفي بروفنسال ، الطبعة الثانية ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٨٠.

١٦- ابن خلدون (عبد الرحمن) : المقدمة ، الطبعة الثانية ، دار الكاتب اللبناني ، بيروت ، ١٩٧٩

١٧- ابن سعيد المغربي : المغرب في حلى المغرب ، تحقيق الدكتور شوقي ضيف ، حـ١ ، الطبعة الثالثة ، القاهرة .

١٨- المقرى (أحمد بن محمد) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، ثمان مجلدات ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٨ .

١٩- أن الفضل في هذا المنهج يرجع إلى المستشرق الفرنسي جاستون فيت الذي طبقه في مقالة عن كتاب السر في العصر المملوكي .

Wiet CG.) : Les secre'taires de la chancellerie en Egypte sous Les Mamlouks cirecassiens, Me'Langes de Rene' Basset. (Paris, 1932 .

وقد رأينا أن هذا المنهج يفيد الباحث في إجراء دراسة منظمة تعتمد على ثبت واف .

٢٠، ٢١- يذكر الخشني اعتمادا على رواية لأبي مروان عبيد الله بن يحيى ، أن الأمير عبد الرحمن بن معاوية كان يديل بين معاوية بن صالح وعمر بن شراحيل عاما هذا وعاما هذا ، انظر : قضاة قرطبة ، ص ٦١ .

٢٢- لم تذكر المصادر التي بين أيدينا شيئا عن تاريخ توليته أو عزله ، بينما رسم النباهي اسمه هكذا نصر بن ظريف اليحصبي ، انظر: المرقبة العليا ص ٤٤.

٢٣- يذكر ابن عذارى أن المصعب بن عمران تولى قضاء الجماعة في إمارة عبد الرحمن بن معاوية ، في حين أن الخشني يذكر أنه أبى قبولها في عهد عبد الرحمن ، وقبلها بعد تردد في عهد خلفه هشام . انظر : الخشني : قضاة قرطبة ، ص ٦٩ .

٢٤- أبقى الأمير الحكم المصعب بن عمران على قضاء الجماعة في قرطبة حتى وفاته ، انظر ، الخشني : قضاة قرطبة ، ص ٧٣.

٢٥- رسمه ابن عذارى هكذا ، حامد بن محمد بن يحيى ، انظر : البيان المغرب ، حـ٢ ، ص ٦٨ .

٢٦- يقول ابن الفرضي أن الأميرعبد الرحمن بن الحكم استقضاه بقرطبة سنة سبع وثمانين في آخرها، ولعلها ثمان ومائتين في آخرها ، انظر : تاريخ علماء الأندلس ، ص ١٣٣ ترجمة (١٤٣٠) .

٢٧- ابن عذارى : البيان المغرب ، حـ٢ ص ٤٨ ، وصفحات ٦٨ ، ٨٠ ، ٩٣ ، ١١٣ ، ١٥٣ .

٢٨- انظر ، أحمد شلبي : موسوعة النظم والحضارة الإسلامية ، حـ٨، الطبعة الثانية ، مكتبة النهضة ، ١٩٨١ ، ص ٢٨٤ .

٢٩- الخشني : قضاة قرطبة ، ص ٢٩ .

٣٠- نفس المصدر ، ص ٨٩ .

٣١- انظر ، عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، مكتبة الانجلو ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ٤٧

٣٢- انظر : الماوردي (أبى الحسن على بن محمد بن حبيب) : الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، الطبعة الثالثة ، الحلبي ، القاهرة ، ١٩٧٣، ص ٧٠، ٧١ ؛ النووي (زكريا يحيى بن شرف) : روضة الطالبين ، الطبعة الأولى ، حـ١١ ، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٧٥، ص ١٢٥ ، النباهي : المرقبة العليا ، ص ٣٢١ ، ٢٢ .

٣٣، ٣٤، ٣٥ - ويفهم مما جاء في هذه الاختصاصات أنه كان يجتمع لدى القاضي مبالغ كثيرة ، وبموجب هذه الاختصاصات كان يخول للقاضي النظر في الأوقاف وحفظها وتنمية فروعها، وقبض ريعها ، وقبض المال الموصى به لتنفيذ الوصية، والنظر في أموال المحجور عليهم من المجانين واليتامى وأهل السفه . كما يخول للقاضي قبض أموال الغرباء حتى يحضر الوارث .

انظر : محمد عبد القادر أبو فارس : القضاء في الإسلام ، الطبعة الأولى، عمان ، ١٩٧٨ ، ص ٧٣ ، هـ ١ .

٣٦- الخشني : قضاة قرطبة ، ص ١٦٥ .

٣٧- انظر الخشني : نفس المصدر ، صفحات ٥٤ ، ٦٩ ، ٧٥ ، ١٣٤، ١٨٤ ، ١٩٠ ، ٢٠٠ .

٣٨- الخشني : نفس المصدر ، ص ١٤٦ ، نقلا عن محمد الذي يقول : " أن عمرو بن عبد الله ، كان مولى ، وهو أول من ولى قضاء الجماعة للخلفاء من الموالى ، فشق ذلك على العرب فكلموا فيه .... فقال العرب : أما القضاء فإنا لانعترض فيه لأنه من سلطانه ، وأما الصلاة فإنا لانصلى وراءه ، فولى الأمير للصلاة النميري عبد الله بن الفرج "

٣٩- نفس المصدر ، ص ٦٩ .

٤٠- نفس المصدر ، ص ٧٣ .

٤١- نفس المصدر ، ص ١٤٣ ، ١٤٦ .

٤٢- نفس المصدر ، ص ١٤٦ .

٤٣- ابن القوطيه : تاريخ افتتاح الأندلس ، ص ١٥ .

٤٤- السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ص ١٢٦ .

٤٥- حسين مؤنس : فجر الأندلس ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٤٠٣.

٤٦- Le'vi - provencal : L'Espagne Musulmane au Xe sie'cle , p.106, Note 10 .

٤٧- المرقبة العليا ، ص ٥ .

٤٨- في ، النباهي : المرقبة العليا ، ص ٤٤ ، وانظر أيضا : الخشني ، قضاة قرطبة ، ص ٦٥-٦٦.

٤٩- المرقبة العليا ، ص ٤٦-٤٧.

٥٠- قضاة قرطبة ، ص ٧٠

٥١- نفس المصدر ، ص ١٥٠

٥٢- سورة المائدة ، أية ٤٧

٥٣- التبريزي : مشكاة المصابيح ، ص ٣٢٤ .

٥٤- حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٨٠ ، ص ٢٨٧ .

٥٥- الخشني : قضاة قرطبة ، ص ٢٧ .

٥٦- نفس المصدر ، ص ٦٩ .

٥٧- نفس المصدر ، ص ٣٠ .

٥٨- العيني (بدر الدين أبى محمد محمود بن أحمد) : عمدة القارئ شرح صحيح البخاري ، حـ ١٦ ، نشر مجموعة من العلماء ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٣٤٨هـ ، ص ٢٧٧ .

٥٩- الخشني : قضاة قرطبة ، ص ٧٦ .

٦٠- في الخشني : نفس المصدر ، ص ٧٧ .

٦١- نفس المصدر ، ص ١١٧ .

٦٢- الكندي : الولاة والقضاة ، طبعة جست ، ص ٣٥١ .

٦٣- الخشني : قضاة قرطبة ، ص ١٣٧ .

٦٤- انظر : أخبار مجموعة ، ص ١٢٧ ، ابن عذارى : البيان المغرب ، حـ٢ ، ص ٨١ ، ويقول الخشني أن محمد بن بشير القاضي كان يرتدي رداء معصفر ، وفي رجليه حذاء يصر ، وعليه جمة مفرقة ، انظر : قضاة قرطبة ، ص ٧٩ .

٦٥- انظر : ابن سيده : المخصص ، حـ٤ ، ص ٧٨ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، حـ٢ ، ص ٤٥٠ ، أحمد شلبي . المرجع السابق ، ص ٢٧٣ .

٦٦- سورة أل عمران ، أية ١٥٩ .

٦٧- حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٢٨٧ .

٦٨- انظر ، الخشني : قضاة قرطبة ، صفحات : ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١١٧، ١١٨.

٦٩- نفس المصدر ، ص ٢٠٦ .

٧٠- الكاساني (علاء الدين أبى بكر بن مسعود : بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ، نشر

الأستاذ زكريا على يوسف ، حـ٩ ، مطبعة الإمام ، ص ٤١٠، أبو فارس : المرجع السابق ، ص ٥٨.

٧١- الخشني : قضاة قرطبة ، ص ٧٧ .

٧٢- الكاساني : بدائع الصنائع ، حـ٩ ، ص ١٠٢ .

٧٣- الخشني : قضاة قرطبة ، ص ٧٧ .

٧٤- انظر في ترجمته ، كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، حـ٣ ، نقله إلى العربية الدكتور عبد الحليم النجار ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٩ ، ص ٣٠٧-٣٠٨، والمصادر التي وردت به .

٧٥- Mahmud Makki : op. cit, pp. 129,154

٧٦- ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص ٧٤ .

٧٧- Mahmud Makki : op. cit, pp. 129,154

٧٨- النباهي : المرقبة العليا ، ص ٥١ .

٧٩- المقرى : نفح الطيب ، المجلد الثالث ، ص ٢٣٠ ، ابن الخطيب (لسان الدين) : الإحاطة في أخبار غرناطة ، المجلد الأول ، تحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ١٣٤ ، اللذان يذهبان إلى أن المذهب المالكي انتشر في عبد الحكم بن هشام ، وهذا يخالف الأحداث التي وقعت في عهد ذلك الأمير ، والأقرب إلى الصحة أن هذا المذهب انتشر في عهد الأمير هشام بن عبد الرحمن .

٨٠- سورة الزخرف ، أية ٢٣ .

٨١- أبى يعلى الفراء (محمد بن الحسن) : الأحكام السلطانية ، الطبعة الثانية ، الحلبي ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ٦٣.

٨٢- الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص ٦٨ ، أبي يعلى الفراء : المصدر السابق ص ٦٣ - ٦٤ ، أبو فارس . المرجع السابق ، ص ١٨١ .

٨٣- في ، النباهي : المرقبة العليا ، ص ٤٧ .

٨٤- قضاة قرطبة ، ص ٦١.

٨٥- نفس المصدر ، ص ٦٢ .

٨٦- النووي : روضة الطالبين ، ص ١٣٧

٨٧- انظر : ابن قدامة المقدسي (أبى محمد موفق الدين عبد الله) : الكافي في فقه الإمام المبجل أحمد بن حنبل ، جـ٣ ، الطبعة الأولى ، منشورات المكتب الإسلامي ، دمشق ، ١٩٦٣، ص ٤٣٢ ، ابن أبى الدم الحموي (شهاب الدين أبى إسحق ابراهيم بن عبد الله) . كتاب أدب القضاء وهو الدرر المنظومات في الأقضية والحكومات ، الطبعة الأولى ، تحقيق د. محمد مصطفى الزحيلي ، دمشق ١٩٧٥، ص ٥٦ ، ابن فرحون : المالكي (برهان الدين ابراهيم بن على بن أبي قاسم بن محمد) : تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام ، جـ١ ، الحلبي ، مصر ، ١٩٥٨ ، ص ٣٠ .

٨٨- في ، الخشني ، قضاة قرطبة ، ص ١٣٩ - ١٤٠ .

٨٩- نفس المصدر ، ص ١٠٨ - ١٠٩.

٩٠- نفس المصدر ، ص ١٤٢ - ١٤٧ .

٩١- نفسه ، ص ١٠٦ ، أبو فارس : المرجع السابق ، ص ٧٤ .

٩٢- الخشني : نفس المصدر ، ص ١٢٥ - ١٢٦ ، ابن حيان : المقتبس ، بتحقيق الدكتور محمود على مكي ، ص ٦٨ - ٦٩ ، وهـ ١٧٧ .

٩٣- الخشني : نفس المصدر ، ص ٦١ ، وانظر أيضا ، فاروق الكيلاني : استقلال القضاء ، الطبعة الأولى ، مطبعة دار التأليف ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٧٨.

٩٤- الخشني : نفس المصدر ، ص ١٤٤ ، ابن فرحون : تبصرة الحكام ، جـ١ ، ص ٧٨ .

٩٥- الخشني : نفس المصدر ، ص ٦٧ - ٦٨ ، ٢٠١ - ٢٠٢ .

٩٦- نفس المصدر ، ص ١٧٢ ، وانظر أيضا ، أبو فارس : المرجع السابق ، ص ٧٨.

٩٧- الخشني : نفس المصدر ، ص ٢٠٤

البحث الثالث

أبو عبيد البكرى والبكريون فى ولبة وشلطين

يعتبر أبو عبيد البكرى — أبرز شخصيات هذه الأسرة — علماً من أعلام الفكر الاندلسى فى عصر نضجه أى فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) .

فهو واحد من أبرز أعلام ذلك العصر ، ومن أشهر علمائه دون جدال علماً وتحصيلا وقراءة ، ولذلك جاء تدوينه شيقاً رتيباً بأسلوب سهل ممتع وليست هذه الأمور كلها لتتاح لغير عبقرى . ولهذا يتفق الكثيرون من الباحثين على أنه من أعظم جغرافى الاسلام ، وهو بغير شك اعظم جغرافى أخرجته الاندلس (١) .

وهو أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمرو البكرى يرتفع نسبة إلى بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفضى بن دعمى بن جديلة

---

(١) أنظر :

Dozy (R) : Recherches sur l'histoire politique et litteraire de l'Espagne pendant le Moyen Age, t I , Leyde, 1849, P. 288 ;

Pons Boigues : Ensayo Bio-Bibliografico sobre los historiadores y Geografos Arabigo-Espanoles, Madrid, 1898, P. 160;

كراتشكوفسكى (أغناطيوس يوليا نوفتش) : تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، نقلة إلى العربية صلاح الدين عثمان هاشم ، القسم الأول ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٢٧٤ .

حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ، مطبعة معهد الدراسات الاسلامية مدريد ١٩٦٧ ، ص ١٠٨ .

جنثالث بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسى ، ترجمة حسين مؤنس ، الطبعة الأولى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ٣٠٩ ،

السيد عبد العزيز سالم : التاريخ والمؤرخون العرب ، مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٨١ ، ٢٩٨١ ، ص ١٩٥ .

ابن أسد بن ربيعة بن نزار (٢)

ولعل من المفيد القاء الضوء على حياته أو ما يحتمل أن يكون قد ورثه عن بعض أجداده من صفات ، ولحسن الحظ أن ابن بشكوال – أقدم مترجم لأبى عبيد البكرى – قد احتفظ لنا بترجمة لأحد أجداده وهو أيوب بن عمرو البكرى ، يفهم منها أن أسرة البكريين كانت من البيوتات الكبيرة فى الأندلس التى ترددت فيها الخطط والمناصب (٣) .

فأول من ولى منصباً ذا شأن فى أسرة البكرى هو أحد أجداده أيوب ابن عمرو البكرى ، ونعرف مما يورده ابن بشكوال (٤) ، أن أصل هذه الأسرة من لبله (Niebla) (٥) وأن أيوب بن عمرو كان ذا علم وفضل وسرو وعظمة ومروءة ، وأنه رحل إلى المشرق كعادة الأندلسيين فى ذلك العصر لطلب العلم والحج فالتقى بجماعة من علماء المشرق ودرس عليهم ثم عاد

---

(٢) ابن حزم (أبو محمد على بن أحمد بن سعيد) : جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٧ ص ٣٢١ ، ابن بشكوال (أبى القاسم خلف بن عبد الملك) : كتاب الصلة ، القسم الأول ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦ ، ص ١١٢ ،

ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر) : الحلة السيراء ، الجزء الثانى ، تحقيق حسين مؤنس ، الطبعة الأولى ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ١٨٠ ، حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ، ص ١٠٩ .

(٣) الصلة ، القسم الأول ، ص ١١٢ (ترجمة ٢٦٧) .

(٤) نفس المصدر والقسم والصفحة .

(٥) لبلة Ñiebla ، وكان اسمها فى القديم Ilipla ، وتقع فى جنوب غرب اسبانيا فى مقاطعة أونبه Onuba ، أنظر :

الحميرى (أبو عبيد الله محمد بن عبد الله) : كتاب الروض المعطار فى خبر الاقطار ، تحقيق ليفى بروفنسال ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٧ ، ص ١٦٨ ، الترجمة ليفى بروفنسال ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٧ ، ص ١٦٨ والترجمة الفرنسية ، ص ٢٠٣ ، وراجع أيضاً :

Ency of Islam, art Huelva. by levi- Provencal.

إلى الأندلس ، فتولى خطة الرد وهى من الخطط القضائية التى تميز بها الاندلس ، وكانت من بين الخطط الستة التى تخول لمتقلدها سلطة انفاذ الأقضية (٦) . وكانت مرتبة صاحب خطة الرد أدنى منزلة من قاضى الجماعة يدل على ذلك ترتيبه فى الجلوس والاحتفالات والمناسبات الرسمية إذ كان يأتى فى الترتيب بعد قاضى الجماعة ، وكان عادة ما يسند إلى صاحب خطة الرد الخروج إلى الكور لمطالعة رعاياها والكشف عن سير عمالها، والتحقيق فى الشكاوى المقدمة من أهل تلك الكور ضد عمالهم (٧) . وكان أيوب بن عمرو البكرى شديداً فى أحكامه من أهل النباهةوالذكر فى قرطبة(٨)

ويورد ابن الابار رواية هامة نقلا عن ابن حيان مفادها أن أيوب ابن عمرو هذا وأخيه محمد كانا ضمن الشخصيات الاندلسية الذين سمعوا من الخليفة هشام المؤيد ما أمر بعقده للحاجب المنصور بن أبىعامر مجددا للألفة بعد جفوة طارئة حدثت بينهما عندما رغب الخليفة هشام المؤيد واتباعه استرجاع السلطة من يد الحاجب المنصور بن أبى عامر ، وتاريخ العقد شهر صفر سنة ٣٨٧ هـ (فبراير – مارس سنة ٩٩٧م، (٩) .

ويفهم من هذا أن أيوب بن عمرو وأخيه محمد أجداد أبو عبيد البكرى كانا من رجال الخليفة هشام المؤيد وحظياً فى عهده بمكانة طيبة ، وتولى

---

(٦) والخطط الست هى : القضاء والشرطة والمظالم والرد والمدينة والسوق ، راجع ابن حيان (أبو مروان) المقتبس من أنباء أهل الأندلس ، تحقيق محمود على مكى ، لجنة أحياء التراث الاسلامى ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ص ٢٨٨ ، ٥٤١ .

(٧) أنظر : ابن حيان (أبومروان) : المقتبس فى أخبار بلد الأندلس ، تحقيق عبد الرحمن على الحجى ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، ١٩٦٥ ، ص ١٠٠ ص ١٠٤ .

(٨) ابن بشكوال : الصلة ، القسم الأول ، ص ١١٢ .

(٩) ابن الأبار : الحلة السيراء ، القسم الثانى ص ١٨١ .

أحدهما على الأقل خطة الرد بقرطبة فلما آلت السلطة إلى الحاجب المنصور ابن أبي عامر ، وأصبح هو المتصرف فى أمور الدولة ، انحازوا اليه ، وأصبحوا من رجاله الموثوق بهم ، ومن ثم استمرت مكانتهم فى الدولة الاموية ، يؤيد ذلك ما رواه ابن حيان «وكان (أيوب بن عمرو) من بيت الشرف والحسب والجاه والنعمة والاتصال القديم بسلطان الجماعة » (١٠) .
فنعم البكريون فى ظل العامريين بمكانة مميزة وأصبحوا محل ثقتهم فتولى أيوب بن عمرو ولاية ولبة وشلطيش فى أخريات أيامه ، ولعل تقلده أمر هذه الولاية كان بعد سنة ٣٨٧هـ وهى التى تؤرخ انحياز البكريين وتأييدهم للمنصور ابن أبى عامر المستبد بأمر الخليفة هشام المؤيد فى الأندلس .

وامارة ولبة وشلطيش تحتل جزءاً صغيراً فى جنوب غرب الاندلس عند ملتقى الوادى الأحمر (نهر التنتو Rio Tinto) ووادى القناطير (نهر الأوديل Odiel) مكوناً مصباً متسعاً تنتهى فى المحيط الأطلسى (١١) احتوى على بعض جزر صغيرة أكبرها جزيرة شلطيش Saltes وهى جزيرة صغيرة احترف أهلها صيد الأسماك وتمليحها وتصديرها إلى أشبيلية وغيرها من بلاد الأندلس ، وأهم مدن الجزيرة مدينة شلطيش فى جنوبها وهى مدينة غير مسورة بنيانها متصل بعضه ببعض ، ولها أرباض واسعة تضم البساتين والمراعى الخصبة ، ولها أسواق وبها دار صناعة انشاء السفن واشتهرت فى الأندلس بصناعة الحديد الذى يعجز عن صنعه أهل البلاد

---

(١٠) ابن بسام الشنتريني (أبو الحسن على) : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، القسم الثانى ، المجلد الأول ، تحقيق احسان عباس ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، ١٩٨١ ص ٢٣٤
ابن الأبار : الحلة السيراء ، القسم الثانى ، ص ١٨٢ .

(١١) أنظر :
Lévi-Provençal : La description de L'Espagne D'Ahmad Al Razi, Al-Andalus Vol, XVII, 1953, P. 92.

حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ، ص ١١٢

لصلابته وأهمها صناعة مراسي السفن (١٢) . وأما مدينة ولبه Huelva, ويطلق عليها أيضاً أونبه Onuba فهي مدينة صغيرة تقع بالقرب من ساحل المحيط الأطلسي ، ويدور حولها سور من الحجارة ، وتضم الأسواق ومختلف الصناعات (١٣) .

ظل أيوب بن عمرو واليا على ولبه وشلطيش إلى أن وافته المنيه فى شهر رمضان سنه ٣٩٨ هـ (مايو ١٠٠٨ م)، ودفن بمقبرة الربض (١٤)، وخلفه على ولايتها ابنه أبا زيد محمداً جد أبى عبيد البكرى ، الذى دامت ولايته عليها خمس سنوات ، آلت بعدها إلى أبنه أبو المصعب عبد العزيز الذى بويع بها سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) (١٥) ، وهذا يعنى أنه منذ ولاية الأخير استقل بولايته تماماً عن الحاضرة قرطبة التى كانت تشهد فى ذلك الوقت صراعاً مريراً بعد أن سقطت الدولة العامرية بمصرع شنجول بن المنصور بن أبى عامر وعلى أثر ذلك وما ترتب عليه من بداية التصدع فى هيئة الخلافة الأموية التى زالت تماماً بانتهاء رسم الخلافة الأموية فى الأندلس وتعدد الحكومات فى انحائها ، فانتزى الرؤساء والقواد والولاة على اختلاف أجناسهم فى سائر الأندلس واقتسموا خططها ، لا تجمعهم مصلحة مشتركة ، ولا تربطهم رابطة ، بل تفرق بينهم ، المنافسات والأطماع الشخصية وتضطرم بينهم حروب أهلية صغيرة ، وتعرف هذه الدول الصغيرة التى قامت على انقاض

---

(١٢) الأدريسى (الشريف) : المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، مأخوذه من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، ليدن ، ١٦٦٨ ، ص ١٧٨ ، الحميرى : الروض المعطار ، ص ١١١ والترجمة الفرنسية ، مخطوط جغرافية الأندلس لمؤلف مجهول ، رقم ٣٦ ، نسخة مصورة بالمعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد ، لوحة ٦٦ .

(١٣) الأدريسى : نفس المصدر ، ص ١٧٨ ، الحميرى : نفس المصدر ، ص ١٧٨

(١٤) ابن بشكوال : الصلة ، القسم الأول ، ص ١١٢

(١٥) ابن عذارى المراكشى : كتاب البيان المغرب فى اخبار الاندلس والمغرب ، الجزء الثالث تحقيق ليفى برو فنسال ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، ، ص ٢٩٩

الدولة الأموية بدول الطوائف ويعرف رؤساؤها بملوك الطوائف . وفى خضم هذا الصراع انتزى أبو المصعب عبد العزيز بولاية ولبة وشلطيش وبويع بها كما سبق فى سنة ٤٠٣ ﻫ .

وهكذا أصبح أبو المصعب أميراً مستقلا على احدى دويلات الطوائف فى ذلك العصر وتسجل المصادر العربية حسن سيرته فى رعاياه ، فدامت لذلك دولته مدة طويلة ، واتسم عهده بالرخاء والسلام والأمن ، وكان يمكن أن يستمر الحال كذلك لولا طمع بنى عباد أصحاب أشبيلية ، فلماقوى سلطانهم تطلعوا إلى الاستحواذ على امارات غربى الأندلس كلها ومن بينها ولبة وشلطيش (١٦) .

ونستشف من رواية لابن حيان أن المعتضدبن عباد أمير أشبيلية ، بعد أن فرغ من حربه مع المظفر بن الأفطس صاحب بطليوس Badajos وعقد معه صلحاً أجراه بينهما الوزير أبو الوليد بن جهور رئيس الجماعة فى ربيع الأول سنة ٤٤٣ ﻫ (١٠٥١م) أخذ فى تنفيذ مخططه بالاستيلاء على امارات غربى الاندلس ، فبدأ بحصار لبله ، فاضطر أميرها أبى نصر فتح ابن خلف اليحصبى إلى التسليم له ، وخرج فعلا فى أهله إلى قرطبة حيث مات بها (١٧) . ويبدو أن عبد العزيز البكرى أدرك – بعد سقوط لبله فى يد المعتضد بن عباد – أن الدور لابد آت عليه ، فعمل على استمالة المعتضد وتقوية الصلات بينهما ، فأرسل له يهنئه باستيلائه على لبله ، ويذكره بالصلات الوثيقة والمودة القديمة التى كانت بين أبيه وجده واسماعيل بن عباد آملا فى استمرار هذه المودة ، يقول ابن حيان : «فبادر (أى عبد العزيز) البعثة إلى المعتضد ساعة دخل لبله يهنئه بما تهيأ له منها ، وذكره بالذمام الموصول بينهما » (١٨) .

---

(١٦) ابن عذارى : البيان المغرب ، ﺟ٣ ، ص ٢٠٤

(١٧) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(١٨) فى ، ابن بسام : الذخيرة ، القسم الثانى ، المجلد الأول ، تحقيق احسان عباس ص ٢٣٤

غير أن المعتضد لم يحفل كثيراً بما أظهره عبد العزيز البكرى من مودة بل سار فى تنفيذ مخططه ، وتحقيق أطماعه فى ضم أمارة ولبه وشلطيش ، فأرسل على الفور قواته لحصار مدينة ولبه ، حاضرة الامارة ، ولم يكتف بذلك بل أمر قواده باحكام الحصار حولها لسرعة الاستيلاء عليها ، فانقطع كل اتصال بين المدينة وباقى المدن الأخرى ، وعانت كثيراً من الغارات المتتابعة التى شنتها قوات المعتضد بن عباد فاضطر عبد العزيز البكرى إلى طلب المفاوضة وأرسل إلى المعتضد يعرض الصلح ، بل ويعترف بطاعته ، ويعرض عليه التخلى عن ولبه والاحتفاظ بشلطيش فقط ان شاء ، فوافق المعتضد بن عباد على ما اقترحه عبد العزيز على الفور « فوقع له ذلك من المعتضد موقع ارادة » (١٩) وأرسل المعتضد يبلغه بالموافقه على الاجتماع به وعلى ما اقترحه غير أن عبد العزيز لم يطمئن إلى لقائه ، وحمل متاعه وأمواله وأسرته فى مراكبه إلى جزيرة شلطيش ، وتخلى للمعتضد عن ولبه «فحازها حوزة البله»(٢٠)ودخلت ولبه من ذلك الوقت فى طاعة ابن عباد(٢١).

لكن المعتضد بن عباد لم يترك عبد العزيز يهنأ بالهدوء فى جزيرته بل أخذ فى مضايقته وفرض الحصار عليه ، ومنع الناس طرا من الدخول اليه ، فتركه محصوراً وسط الماء ، إلى أن ألقى بيده من قرب ولم يغرب عنه الحزم (٢٢) وأرغمه على التفاوض معه مره ثانية ، وفى هذه المرة تنازل عبد العزيز عن آخر أملاكه جزيرة شلطيش سنة ٤٤٣ هـ (١٠٥١ م) بشروط

---

(١٩) ق ، ابن بسام : الذخيرة ، القسم الثانى المجلد الأول ، تحقيق احسان عباس ص ٢٢٤

(٢٠) نفس المصدر والقسم والمجلد والصفحة .

(٢١) أنظر : العذرى (أحمد بن عمر بن أنس) : نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان فى غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك ، تحقيق عبد العزيز الأهوانى ، مطبعة معهد الدراسات الاسلامية ، مدريد ، ١٩٦٥ ص ١٠٧ .

(٢٢) ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى ، المجلد الأول ، ص ٢٣٤ .

منها : أن يشترى المعتضد بن عباد أملاكه وسفنه وأثقاله ، فدفع له عشرة آلاف مثقال من الذهب (٢٣) ، يقول العذرى : «وفى سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة اشترى (المعتضد بن عباد) جزيرة شلطيش من البكرى ، ودفع اليه ثمن كل ما كان له فيها من عدة وطعام وغير ذلك من المثمونات» (٢٤) وأن يتركه يغادر الجزيرة فى أهله وأمواله فى طريقة إلى قرطبة يقول ابن حيان «فسأل المعتضد أن ينطلق انطلاق صاحبه فأمنه ولحق بقرطبة» (٢٥). فلبى المعتضد مطالبه وسمح له بذلك ، بل أعد له النزل والضيافة فى طلياطه Tejada (٢٦) وهو فى طريقه وأهله إلى قرطبة ، غير أن عبد العزيز البكرى لم يأمن جانبه وارتاب فيما أعده له ، فاتصل بصاحب قرمونه محمد بن عبد الله البرزالى يطلب منه حمايته ، وأجابه ابن البرزالى إلى ما طلب وبعث اليه بفرقه من الخيل لقيته بموضع اتفقا عليه ، فغير طريقه بدلا من أن ينزل فى طلياطه التى أعدها له المعتضد نزل بقرمونه (٢٧) ، ومنها توجه إلى قرطبه سالما ليعيش بها فى كنف رئيس الجماعة ابن جهور (٢٨) .

وهكذا رحل أبو عبيد البكرى فى صحبة والده إلى قرطبة لتعيش الأسرة فى كنف ابن جهور بعد وقوع جزيرة شلطيش فى قبضه المعتضد بن عباد ٤٤٣ هـ (١٠٥١ – ١٠٥٢ م) ، وهذا يجعلنا نرفض الرواية التى تحدد مكان

---

(٢٣) نفس المصدر والقسم والمجلد ، ص ٢٣٥ .

(٢٤) العذرى : المصدر السابق ، ص ١٠٧ .

(٢٥) فى ، ابن بسام : المصدر السابق ، ص ٢٣٤ .

(٢٦) طلياطه Tejada ، وتقع على بعد ثلاثين كيلومتر شمال كيلومتر شمال غرب اشبيليه ، راجع وصفها فى (الحميرى : الروض المعطار ، ص ١٢٨ ، والترجمة الفرنسية ، الأدريسى المصدر السابق ، ص ١٥٣ ، العذرى : ترصيع الأخبار ، ص ١٧٤ – ص ١٧٥) .

(٢٧) قرمونه Carmona ، وهى الآن مركز ادارى فى مديرية اشبيليه ، راجع وصفها فى (الحميرى : الروض المعطار ، ص ١٥٨ ، والترجمة الفرنسية ، ص ١٩٠ ، الأدريسى : المصدر السابق ، ص ٢٠٦ وكذلك مادة Carmona فى دائرة المعارف الاسلامية ، النسخة الفرنسية الجزء الأول ، ص ٨٤٩ .

(٢٨) ابن الأبار : الحلة السيراء ، الجزء الثانى ، ص ١٨٣ – ١٨٤ .

مولده فى قرطبة (٢٩) وان كانت هناك رواية أخرى تحدد مكان مولده فى مدينة شلطيش (٣٠) .

أما عن تاريخ مولده فغير معروف ، لم تورده المصادر التاريخية المعاصرة وان كانت هناك رواية ذكرها جايا نجوس Gayangos (٣١) فى بعض تعليقاته على ما ترجمه من نفح الطيب للمقرى أن أبا عبيد البكرى ولد سنة سنة ٤٣٢ هـ (١٠٤٠ — ١٠٤١ م) أى أن عمره عندما دخل قرطبة فى صحبة آله لاجئين اليها سنة ٤٤٣ هـ كانت احدى عشرة سنة ، ومن الغريب أن جايا نجوس لم يذكر المصدر الذى اعتمد عليه فى تحديد هذا التاريخ ، مما جعل المستشرق الهولندى رينهارت دوزى يرفض هذا التاريخ ، ويؤيد رواية لابن حيان يذكر فيها أن أبا عبيد البكرى « بذ الاقران جمالا وبهاء وسروأ وأدبأ ومعرفة» (٣٢) . ونستشف من هذه الرواية أن أبا عبيد كان فى مقتبل شبابه ، يؤيد ذلك رواية الفتح بن خاقان فى ترجمته له بقوله : «رأيته (أى أبو عبيد) وأنا غلام ما أقمر هلالى ، ولانبغ فى الذكاء كوثرى ولازلالى فى مجلس ابن منظور ، فى هيئة كأنما كسيت بالبهاء والنور ، وله سبلة كأنما يروق العين ايماضها ، ويفوق السواد بياضها وقد بلغ سن ابن محلم وهو يتكلم فيفوق كل متكلم » (٣٣) . وهذا يوضح أن أبا عبيد البكرى كان فى نحو

---

(٢٩) آنخل جونثالث بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسى ، ترجمة حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٣٠٩ ، نفيس أحمد : جهود المسلمين فى الجغرافيا ، ترجمة فتحى عثمان القاهرة (ألف كتاب ٢٧٢) ، ص ٧٥ .

(٣٠) الزركلى : الاعلام ، الجزء الرابع ، ص ٢٣٣.

(٣١) فى ، حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ، ص ١١٥، وقارن مؤنس ، نفس المرجع والصفحة .

(٣٢) فى ، ابن بسام : الذخيرة ، القسم الثانى ، المجلد الأول ، ص ٢٣٤ ، مؤنس : نفس المرجع والصفحة .

(٣٣) قلائد العقيان فى محاسن الأعيان ، قدم له محمد المنانى ، المكتبة العتيقة ، تونس ١٩٦٦ ، ص ٢١٨ — ص ٢١٩ .

الثمانين من عمره عندما كان ابن خاقان غلاماً وبالاسترشاد برواية ابن حيان نرى أنه كان شاباً يافعاً حين رحل إلى قرطبة فى صحبة والده ، ونرجح أن يكون مولده فى العقد الأول من القرن الخامس الهجرى وليس سنة ٤٣٢ هـ كما ذكر جايا نجوس ، وأن مولده كان فى مدينة ولبه التى كانت حاضرة امارة ولبه وشلطيش حتى سنة ٤٤٣ هـ .

على أية حال ، فان أبا عبيد البكرى عاش طفولته وصدر شبابه فى مدينة ولبه ، وتلقى تعليمه الأول فيها ، ثم رحل مع أبيه وآله إلى مدينة شلطيش سنة ٤٤٣ هـ وأكمل تعليمه وتربيته فيها ، وارتحل بعدها إلى قرطبة وهو فى ريعان شبابه ، ولا شك أن الفترة التى قضاها فى ظل امارة أبيه لشلطيش أفادته كثيراً فى تحصيل المعارف الاساسية ثم اكمل تعليمه فى قرطبة ، ولحسن الحظ فقد احتفظت قرطبة بعد سقوط الخلافة الاموية بأهميتها حيناً من الدهر كمركز ثقافى وكملاذ لأمراء الدويلات الذين فقدوا سلطانهم (٣٤) . وهناك أتم أبو عبيد البكرى دراسته بل وانتسب إلى المدينة فعرف أيضاً باسم أبو عبيد البكرى القرطبى .

ولسنا نعرف من أساتذة أبى عبيد البكرى — ممن نص عليهم ابن بشكوال أقدم مترجميه — الا ثلاثة سنعرض لهم بالتفصيل وهم أبو مروان بن حيان وأبو بكر المصحفى — لم اهتد إلى ترجمته — وأبو العباس العذرى سمع منه بالمريه ، وأجاز له أبو عمر بن عبد البر (٣٥) والواقع أن هذا العدد الذى حدده ابن بشكوال من الشيوخ قليل بالنسبة لسليل أسرة عريقة فى الأندلس كأبى عبيد إذ كان بوسعه أن يتردد على مجالس كثير من العلماء الذين كانت تزخر بهم قرطبة فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى ، على أن اقتصار ابن بشكوال على ذكر أولئك الشيوخ لا يمنع أن يكون أبو عبيد

(٣٤) كراتشوفسكى : المرجع السابق ، ص ٢٧٥ .

(٣٥) ابن بشكوال : الصلة ، القسم الأول ، ص ٢٨٧ ، ترجمة ٦٣٣ .

البكرى قد أخذ عن غيرهم ، وكما سنرى فان جل اهتمامه كان منصباً على الاطلاع على المصنفات المتعددة التى كانت ما تزال تعج بها قرطبة فى هذه الفترة .

أما شيخه الأول فهو المؤرخ القرطبى أبو مروان بن حيان (٣٧٧ — ٤٦٩ هـ / ٩٧٧ — ١٠٧١ م) الذى يعد من أعظم مؤرخى الاسلام ، وهو بلا جدال شيخ مؤرخى الاندلس بوجه عام ، ولهذا العصر بوجه خاص (٣٦) فقد أنتظم أبو مروان فى سلك وظائف الدولة ، وصنف عدداً كبيراً من الكتب لا يقل عن خمسين (٣٧) ، ولكن للأسف لم يصل الينا من هذه المؤلفات كلها الا أجزاء يسيرة وقد توسم ابن حيان فى أبى عبيد البكرى الذكاء والنجابة منذ شبابه حينما قدم إلى قرطبة ، فقد أثنى عليه ابن حيان حينئذ قائلا : «بذ الاقران جمالا وبهاء وسروا وأدباً ومعرفة» (٣٨) .

ويحتمل أن أبا عبيد البكرى لازم ابن حيان خلال اقامته فى قرطبة ، ويبدو أنه هو الذى وجهه إلى الاشتغال بعلم الجغرافية الذى كان وثيق الارتباط بكتابة التاريخ (٣٩) ، وبالرغم من أن ابن حيان قد اختص أبو عبيد بأخبار قليلة لا تغنى كثيراً فى التعريف به ، فاننا لا نجد أى غرابة فى ذلك إذ كان أبو عبيد ما يزال شاباً فى بداية تكوينه العلمى مما لا يستحق معه أن يفرد له ابن حيان أكثر مما أفرد ، ولعل ثناء شيخه عليه وهو بعد فتى فى سنى الشباب انما يدل على بعد نظره وصواب حكمه على تلاميذه وتمييزه

---

(٣٦) أنظر البحث الذى أعده الدكتور محمود على مكى فى مقدمة المقتبس لابن حيان ، القسم الخاص بعبد الرحمن الأوسط من ص ٧ إلى ص ١٢٧ ، القاهرة ، ١٣٩٠ هـ — ١٩٧١م وأنظر أيضاً

Pons Boigues : O P. Cit, N. 114, Melchor . M Antuna : Abenhayandede Cordoba y su Obra historica Escorial, 1924.

(٣٧) ابن حيان : نفس المصدر ، ص ٥٤ من مقدمة المحقق

(٣٨) فى ، ابن بسام : الذخيرة ، القسم الثانى ، المجلد الأول ، ص ٢٣٤ .

(٣٩) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق محمود على مكى ، ص ٥٢ .

للنابهين منهم ، وعلى أية حال فان تلمذة أبى عبيد على شيخ مؤرخى الاندلس حقيقه يؤكدها — فضلا عن رواية ابن بشكوال فى ترجمته تلك الاشارة الواردة فى فهرسة ابن خير الاشبيلى عن سند روايته لكتاب «اصلاح المنطق ليعقوب ابن السكيت» إذا جاء فيها : » .. وقرأته أيضاً على الشيخ الوزير أبى عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكرى ، قال : حدثنى به الشيخ أبو مروان ابن حيان ابن خلف بن حيان ..» (٤٠) .

وثانى شيوخ أبى عبيد البكرى ، فهو الجغرافى أبو العباس أحمد بن عمر ابن أنس العذرى (٣٩٣ — ٤٧٨ هـ/ ١٠٠٢ — ١٠٨٥ م) ، الذى ولد فى المريه سنة ٣٩٣ هـ/ ١٠٠٢ م ورحل إلى المشرق لطلب العلم ثم عاد إلى الأندلس (٤١) . وللعذرى مصنفاً جغرافياً بعنوان كتاب «ترصيع الأخبار وتنويع الاثار والبستان فى غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك» ، فقد معظمه ولم يتبق منه الاجزء مخطوط عنوانه «السفر السابع من ترصيع الأخبار وتنويع الاثار والبستان فى غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك» (٤٢) والكتاب يعتبر من أهم ما صنف فى الجغرافيه الاندلسية حتى الآن ، سواء من حيث المادة التى ضمنها اياه مؤلفه ، هذا بجانب دقته فى التحديد وضبطه

---

(٤٠) ابن خير (أبو بكر محمد) : فهرسته ، تحقيق فرنسيسكو كوديره وخليان ريبيرا ، سرقسطة ١٨٩٣ ، ص ٣٣٠ — ٣٣٢.

(٤١) رحل العذرى مع أبويه إلى المشرق سنة ٤٠٧ هـ ، ووصلوا إلى مكة فى سنة ٤٠٨ هـ ١٠١٧م ، وجاوروا أعواماً بها ، وسمع الكثير من شيوخها ومنهم الشيخ أبى العباس الرازى ، والشيخ أبى ذر عبد بن أحمد الهرمرى وعليه سمع صحيح البخارى ، كما سمع على الكثير من القادمين اليها من أهل الرواية والحفظ من أهل العراق وخراسان والشام (راجع ، ابن بشكوال : الصلة ، جـ١ ، ص ٦٧ ، ترجمة ١٤١) ورحل عن مكة فى سنة ٤١٦ هـ (١٠٢٥م) ، ومما لاشك فيه أن نشأة العذرى الدينية كان لها عظيم الأثر فى اهتماماته العلمية ، فان كنا نعرف العذرى مؤلفاً جغرافياً ، فقد وجه جل اهتمامه إلى علم الحديث «بل أن عنايته بالحديث تنهض فى المقام الأول على اقراء أمهات كتب الحديث وخاصة الصحيحين» (أنظر : العذرى : المرجع السابق ، ص ٢ من مقدمة المحقق) .

(٤٢) بتحقيق عبد العزيز الأهوانى ، مدريد ، ١٩٦٥ .

فى رسم الاعلام (٤٣) ،وتوفى العذرى فى سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) ودفن بمقبرة الحوض بالمريه (٤٤) . ويبدو أن دراسة أبو عبيد البكرى على يد شيخه العذرى فى المريه هو الذى حبب علم الجغرافية اليه ورغبه فى التأليف فيها لا سيما أن ابن حيان قد اكتشف ببصيرته النافذة موهبته فوجهه إلى الاشتغال بعلم الجغرافيه الذى كان متين الصلة بعلم التاريخ كما سبق القول ، ويحتمل أن يكون هو الذى أشار عليه بالاتصال بالعذرى فى المريه والاستفادة من علمه فى هذا المجال .

ويمكن أن نضيف اليهم الفقيه المحدث أبا عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمرى القرطبى ، الذى أجاز لأبى عبيد البكرى ، ولد فى الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة ٣٦٨ هـ (نوفبر ٩٧٨ م) ، وتفقه فى قرطبة ، وصار كما يقول ابن بشكوال امام عصره ، وواحد دهره (٤٥) . وكان أول أمره ظاهرياً ، واعتنق بعد ذلك مذهب المالكية وان مال كثيراً إلى مذهب الشافعى ، وبعد أن جال فى غرب الاندلس مدة سكن دانيه وبلنسية وشاطبه ، وتولى قضاء الاشبونة وشنترين فى عهد الملك المظفر بن الأفطس ، وتوفى بشاطبه فى التاسع والعشرين من ربيع الآخر سنة ٤٦٣ هـ (فبراير ١٠٧١ م) (٤٦) .

وإذا تأملنا معارف هؤلاء الشيوخ ، لاعطتنا فكرة عن ثقافة أبى عبيد البكرى فى دور تكوينه العلمى ، والتى ساعدت بلا شك على نضوج شخصيته

---

(٤٣) حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ، ص ٢٩٢

(٤٤) ابن بشكوال : الصلة ، جـ ١ ص ٦٧ ، الضبى بغية الملتمس ، ص ١٩٧

(٤٥) راجع فى ترجمته : الضبى : بغية الملتمس ، ص ٤٨٩ ، ترجمة ١٤٤٣ ، ابن بشكوال : الصلة جـ ٢ ، ص ٦٧٧ ، ترجمة ١٥٠١ .

(٤٦) أنظر ، جونثالث بالنثيا : المرجع السابق ، ص ٢٦٧ . كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربى ،جـ ٦، نقله إلى العربية السيد يعقوب بكر دارالمعارف،١٩٧٧ ، ص ٢٦٠ ومابعدها ،

Pons Boigues : Op. Cit, PP. 147—150.

وتحديد معالمها ، فجميعهم كانوا من أصحاب الثقافة الانسانية العامة وان مالوا إلى علوم اللغة والأدب والأخبار والمسالك والممالك ثم إلى علوم الحديث. وقد استفاد أبو عبيد لا شك من كل ذلك فوائد جمة ، وإذا أضفنا إلى ذلك نزعة البكرى الملموسة فى الانكباب على قراءة المصنفات العلمية التى كانت تزخر بها قرطبة فى ذلك الوقت والتى تجلت فى اهتمامه وحبه الشديد للكتب فأولاها اهتماماً متزايداً ، وكان يلفها فوق الجلد بقطعة من النسيج «اكراماً لها» ، يقول ابن بشكوال مترجماً له معبراً عن اهتمامه بالكتب أنه «كان يمسكها فى سبانى الشرب وغيرها اكراماً لها وصيانه» (٤٧) . وقد أفادته دراسة هذه العلوم فى مجال التأليف الجغرافى ، ذلك أن احصاء المواضع الجغرافيه وضبط اسمائها يتطلب قراءة أصول الحديث والسيرة والشعر والنثر لتقييد ما فيها من الاعلام الجغرافية مع ضبطها وما يرد عنها من التعريف فى كل أصل من هذه الأصول ، فضلا عن ضرورة وجود منهج مقرر فى القراءة والتقييد والمقارنة وهو ما تميز به البكرى .

أما تلاميذ البكرى فاننا نعرف منهم عدداً غير قليل ، وأهم ثبت بأسمائهم وتراجمهم تمكنا من استخراجه من «صلة» ابن بشكوال ، وتكملة الصلة لابن الابار وهم : أبو بكر محمد بن عبدالملك بن عبد العزيز اللخمى(٤٨) (ت ٥٣٦ هـ) ، اشبيلى المولد سكن قرطبة ، وفيه يقول ابن دحيه «انه بذ أهل وقته فى الكتابة والأدب واللغة وأنساب العرب ، وكان وزيراً جليلا بوزارة السلاطين بقرطبة (٤٩) . وأبو طالب عبد الجبار بن عبد الله بن أحمد

---

(٤٧) ابن بشكوال : الصلة ، القسم الأول ، ص ٢٨٧ ، وراجع أيضاً : ابن الأبار الصلة ، جـ ٢ ، ص ١٨٥ وسبانى جمع سبنيه وهى المنديل الكبير أو الملاءمة البيضاء ، راجع شرح هذه اللفظة فى نفس المصدر والجزء والصفحة هـ ٤ ،

(٤٨) ابن بشكوال : الصلة : جـ٢ ، ص ٥٨٧ ، ترجمة رقم ١٢٨٩ .

(٤٩) المطرب فى أشعار أهل المغرب ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩٥٤ ، ص ٢٠٨

ابن أصبغ القرشي من أهل قرطبة (٥٠) . وأبو جعفر محمد بن حكم ابن باق من سرقسطة . وهو [illegible] إذ كان جده محمد بن أحمد ذا الوزارتين حاكماً لمدينة سالم (٥١) . وسعد بن أحمد بن سعيد بن عبد البر المتوفى فى حدود سنة ٥٢٠ هـ (٥٢) . وآخر من نذكره من هؤلاء حفيد للبكرى له نفس كنيته واسمه (٥٠٧ — ٥٨١ هـ) ، قال عنه ابن الابار انه كان من أهل المعرفة بالغريب واللغة والآداب حدث بمصنفات جده كلها أخذها عن أبى بكر بن عبد العزيز عنه (٥٣) .

وكان الفضل فى تنمية هواية أبى عبيد البكرى للقراءة والاطلاع . للحركة الأدبية التى شملت الأندلس فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ، فعلى الرغم من التفكك السياسى الذى طرأ على الأندلس فى عصر ملوك الطوائف ، وما ترتب على ذلك من فتن واضطرابات وحروب أهلية ومنازعات بين مختلف دويلات الاندلس ، فقد نشطت الحركة الأدبية وبلغ النشاط الأدبى مداه ، وتنافس ملوك الطوائف فى تقريب فحول الشعراء والكتاب والمبالغة فى اجتذابهم إلى حواضرهم بالهبات القيمة (٥٤) ، فارتقى الأدب فى الأندلس وازدهر ازدهاراً لم تشهده من قبل وأصبحت قصور قرطبة واشبيلية والمرية وبطليوس منتديات لأهل الشعر والأدب (٥٥) .

ونضيف إلى ذلك عاملا هاماً ساعد على تفرغ أبى عبيد لتحقيق هوايته ذلك أن أبا عبيد كان أسعد حظاً من الكثيرين من أمثاله فى ذلك العصر ،

---

(٥٠) ابن الأبار : تكملة الصلة ، نشر عزت العطار ، ترجمة رقم ٨١١

(٥١) نفس المصدر ، ترجمة ١٢٦١ .

(٥٢) ابن عبد الملك الانصارى (أبو عبد الله محمد بن محمد) : بقية السفر الرابع من كتاب الذيل والتكملة تحقيق احسان عباس ، بيروت ١٩٦٤ ، ص ٢٣

(٥٣) ابن الأبار : تكملة الصلة ، ص ٨٦٠ — ٨٦١

(٥٤) جونثالث بالنثيا : المرجع السابق ، ص ١٣

(٥٥) السيد عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ، ج [illegible]

فلا نعلم أنه تولى أى منصب من المناصب بل اعتمد على مال مدخر تركه له أبوه استعان به على معيشته ، وبذلك توفر على تحقيق آماله الأدبية والعلمية ، فعاش عيشة كريمة ، وحظى بكل تقدير وترحيب ، واندمج فى مجتمع الطبقة الخاصة ، ولم يكتف بما حصل عليه من معارف فى قرطبة ، بل ارتحل إلى بلاط المريه وعاش حيناً فى كنف المعتصم بن صمادح ، وكان صديقه الأثير ، وأغدق عليه المعتصم فيض رعايته وصلاته (٥٦) ، وفيها اتصل بالجغرافى المشهور العذرى الذى شجع فيه الاتجاه إلى دراسة علم الجغرافية . ثم ارتحل إلى بلاط المعتمد بن عباد ، فوصل إلى اشبيلية فى سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) ، وكان ضمن الوفد الذى خرج فى وداع المعتمد ابن عباد حين عبر إلى المغرب لاقناع يوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين بضرورة العبور إلى الاندلس بجيوشه مرة ثانية أوائل ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، أى قبل وفاة البكرى بتسع سنوات (٥٧) .

ومن الغريب أن أبا عبيد البكرى الذى كتب فى علم الجغرافيا ، لم يغادر الاندلس أبداً حتى وفاته ، فلسنا نعلم له رحلة عن بلدة ولا مقاماً فى أى قطر آخر من المغرب أو المشرق العربى ، وهذا شىء غريب حقاً ، فالتأليف الجغرافى يتطلب بجانب قراءة الأصول الجغرافية المشاهدة والتنقل فى الأماكن المراد الكتابة عنها ، ورغم هذا جاءت مؤلفاته الجغرافية غاية فى دقة الملاحظة والموضوعية ، ذلك أنه اعتمد فى كتاباته فى المقام الأول فى القراءة والتصنيف والتصور وبذلك فاق فيما وصل اليه من النتائج أهل الرحلة والمشاهدة ويطلق على هذا العمل — بلغة العصر — الجغرافية المكتبية

---

(٥٦) محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ، الطبعة الثانية ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ١٩٦٩ ، ص ١٧٠ .

(٥٧) أنظر

Pons Boigues : op. Cit, P. 161.

(Arm Chair Geography) (٥٨) . وهذا يدل دلالة خاصة على أن أبا عبيد كان على سعة ثقافته، واستفادته الجمة من محصول قراءاته، عميق الادراك لما هو مقدم عليه ، فنرى له مصنفان جغرافيان ، حازا اعجاب معاصريه ، وتمتعاً بشهرة عريضة وهما «معجم ما استعجم» ، «المسالك والممالك» .

وإلى جانب اهتمام البكرى بعلم الجغرافيا ، فلقد كان مهتماً أيضاً بالشعر والأدب اللذين أفرد لهما بعض المؤلفات اللغوية والأدبية التى تنعكس فيها فيها مجادلاته مع اللغوى الشهير أبى على القالى الذى نقل ثقافة بغداد الأدبية إلى الأندلس ، فمن مصنفات البكرى كتاب «الاحصاء لطبقات الشعراء» (مفقود) (٥٩) ، وكتاب «اشتقاق الاسماء (مفقود) ،(٦٠) ، وكتاب التنبيه على اغلاط أبى على فى أماليه » (مطبوع) (٦١) «شفاء عليل العربية» (مفقود) (٦٢) ، وكتاب «صلة المفصول فى شرح أبيات الغريب المصنف (مفقود) (٦٣) ، وكتاب «فصل المقال فى شرح الامثال » (مطبوع) (٦٤) «وسمط اللالىء فى شرح أمالى القالى»(مطبوع (٦٥) و«اعلام نبوة نبينا محمد » (مفقود)(٦٦) ، «والتدريب والتهذيب فى ضروب أحوال الحروب»(مفقود) (٦٧)

---

(٥٨) أنظر : عبد الله يوسف الغنيم : مصادر البكرى ومنهجه الجغرافى ، مطبعة المدنى ، القاهرة ، ١٩٧٤ ص ١٥٠ .

(٥٩) فى البكرى : سمط اللالىء ، بتحقيق عبد العزيز الميمنى ، جا القاهرة ١٩٣٦ ، ص ٧٧ ، ٢٣١ .

(٦٠) فى ، السيوطى : بغية الوعاه ، ج ٢ ، ص ٢٥٣ .

(٦١) طبع فى القاهرة : ١٩٢٦ .

(٦٢) فى ، حاجى خليفه : كشف الظنون ، ج ٢ ، ص ١٠٥

(٦٣) فى ، ابن خير ، فهرستة ، ص ٣٤٣ .

(٦٤) طبع هذا الكتاب فى الخرطوم بتحقيق عبد المجيد عابدين واحسان عباس ، ١٩٥٨ .

(٦٥) نشره عبد العزيز الميمنى فى مجلدين ، القاهرة ، ١٩٣٦ .

(٦٦) فى ، ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ٢٨٧ ، ترجمة ٦٣٣ .

(٦٧) البكرى : معجم ما استعجم ، تحقيق مصطفى السقا ، ج٢ القاهرة ، ١٩٤٥، ص٢٩٨

«وكتاب النبات» (مفقود (٦٨) .

ولا يبقى علينا بعد ذلك فى معالجة اسهام البكرى فى غير ميدان التأليف الجغرافى الا ما نسب اليه من الضرب بسهم فى قول الشعر ، وهناك اشارات وردت فى ذخيرة ابن بسام (٦٩) منها : قول أبى عبيد البكرى يخاطب أبا الحسن ابراهيم بن محمد المعروف بابن السقاء وزير ابن جهور ، وقد خرج رسولا إلى باديس بن حبوس بغرناطة نورد أبيات منها :

كذا فى بروج السعد ينتقل البدر　　ويحسن حيث احتل آثاره القطر
وتقتسم الأرض الحظوط فبقعة　　لها وافر منها وأخرى لها نزر

وله فى المعتضد عندما أجاز البحر مستجيراً بأمير المسلمين وناصر المسلمين يوسف بن تاشفين :

يهون علينا مركب الفلك أن يرى　　محيا العلا لما نبا مركب الجرد
فجزنا أجاج البحر نبغى زلاله　　وذقنا جنى الشريان نبغى جنى الشهد

وله ، وكان مولعاً بالخمر :

خليلى انى قد طربت إلى الكاس　　وتقت إلى شم البنفسج والاس
فقوماً بنا نلهو ونستمع الغنا　　ونسرق هذا اليوم سراً من الناس
فليس علينا ، فى التعلل ساعة　　وان وقعت فى عقب شعبان من باس

وقد أثارت هذه الأبيات التى نظمها البكرى فى الخمر ، البعض من معاصريه الذين توهموا أن رأسه لم تسلم من أن يلعب بها الخمر ، يقول الفتح

---

(٦٨) فى ، ابن خير : فهرسته ، ص ٣٧٧ ، ذكره أيضاً ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء جـ٢ ، ص٥٢ سامم أعيان النباتات والشجريات الأندلسية .

(٦٩) فى ، ابن بسام : الذخيرة ، القسم الثانى ، المجلد الأول ، ص ٢٣٧ – ٢٣٨

ابن خاقان « .. فانه رحمه الله مباكر للراح ولا يصحو من خمارها ، ولا يمحو وسم ادمانه من مضمارها ، ولا يريح الأعلى تعاطيها ولا يستريح الا إلى معاطيها (٧٠) ، مما جعل المستشرق الهولندى دوزى يستبعدها ولا ينفيها مدافعاً عن أبى عبيد البكرى من أجل أعماله المتعددة التى تركها والتى لا تحمل أى آثار تبين أنها كتبت وهو فى حالة سكر ، ويبرر ذلك بأن البكرى كمعاصريه ، كان صديق الولائم بما تحفل به من مأكل ومشرب (٧١) . ويعزو مؤرخ محدث اقباله على الشراب إلى ما أصابه فى الماضى من ضياع ملك أبيه والاضطرار إلى مغادرة وطنه واللجوء إلى قرطبة هارباً مع أبيه وهو بعد فى شبابه، وما حاق بالاندلس من الفتن والاضطرابات والنكبات، مما أثر فى نفسية البكرى وفى مزاجه ، لاسيما أنه كان بطبعه رجلا مرهف الحس رقيق الحاشية ، لا يستطيع أن يفصل نفسه عن مأساة وطنه وعصره ، فمال إلى شىء من الخمر يتسلى به ، ويغرق فيه همومه إذا سئمت نفسه القراءة والكتابة (٧٢) . وإذا أضفنا إلى ذلك طبيعة حياة مجتمع الخاصه فى ذلك العصر ، والتى كانت تفرض على اعضائها حضور الولائم والحفلات بما تحتويه من مآدب الطعام والشراب فلا نستغرب فى البكرى وهو من هذه الطبقة أن يسايرها ويجاريها فى طبيعتها مع تناول القدر من الشراب الذى يحس فيه بالانتشاء والسعادة .

أما مصنفا أبى عبيد البكرى فى التأليف الجغرافى ونالا شهرة عريضة ، أحدهما بعنوان «معجم ما استعجم» وصفه البعض بأنه وسط بين اللغة والجغرافية

---

(٧٠) قلائد العقيان ، ص ٢١٨

(٧١) أنظر

Dozy : Op Cit, t. I, P 297

Pons Boigues : Op. Cit, PP. 161—167.

(٧٢) حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين ، ص ١٢٠ ، ص ١٢١ .

أو خطوة انتقال بينهما (٧٣) فهو إذن كان احياء أ للمنهج القديم فى المعالم الجغرافية الذى يرتفع إلى القرن الثالث الهجرى وهى المعاجم التى وضعها اللغويون ، والتى اضمحلت بعد ذلك خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين حتى ظهر معجم البكرى الذى كان ابذاناً بفاتحة عهد جديد لازدهار هذا النمط الأدبى (٧٤) ، وهو ما يمكن أن نطلق عليه الأدب الجغرافى .

وكان الغرض الذى دفع البكرى إلى تأليف معجمة هو شيوع التصحيف فى اسماء المواضع بين الناس ، فلما رأى أن ذلك قد استعجم على الناس ، أراد أن يفصح عنه بأن يذكر كل موضع مبين البناء، معجم الحروف ، حتى لا يدرك فيه لبس أو تحريف (٧٥) .

مهد البكرى لمعجمه بدراسة وافية لجغرافية شبه الجزيرة تبحث فى حدودها ومناطقها ونواحيها كالحجاز وتهامه واليمن، اتسمت بالدقة والشمولية، ثم تكلم عن القبائل المستوطنة بها وعن هجراتها .

والبكرى هو أول من استخدم الترتيب «الألف بائى» الحديث فى معجمه فهو أول معجم غير لغوى يبنى على الترتيب المعجمى (٧٦) . رتب البكرى معجمه على حروف الهجاء حسب ترتيبها عند الاندلسيين فى عصره (وهو أ ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز ط ظ ك ل م ن ص ض ع غ ف ق س ش هـ و ى) وجعل ترتيب الكلمات فى كل باب على ترتيب الحرفين الأول والثانى الاصليين من الكلمة دون نظر إلى ترتيب ما بعدها من الحروف ، وإذ كان الحرف الثانى ألف زائدة ، كألف صاحب وفاضل ، أهمله ولم ينظر اليه ، واعتبر الحرف الثانى ما بعد الألف وفى هذا ما فيه من العسر

---

(٧٣) نفس المرجع ، ص ١٢٣ .

(٧٤) كراتشوفسكى : المرجع السابق ، ص ٢٧٦ .

(٧٥) البكرى : معجم ما استعجم ، جا ص ١ .

(٧٦) عبد الله يوسف الغنيم : المرجع السابق ، ص ١٤٣ .

والتكلف (٧٧) .

هذا وقد لاحظ فرد يناند فستفيلد هذه الصعوبة عندما شرع فى نشر هذا المعجم لأول مرة فأورد فى نهايته ثبتاً أبجديا للاعلام مع ذكر أرقام الصفحات تيسيراً على الباحث .

وعندما قام الأستاذ مصطفى السقا بنشرة مرة أخرى بالقاهرة أعاد ترتيب الاعلام الجغرافية جميعاً ترتيباً أبجدياً حديثاً .

أما عن منهج البكرى فى تأليف معجمه ، الذى يتألف من سبعمائه وأربعة وثمانين باباً ، فقد التزم بمصادر معينة فى دراسته لبعض أقسام شبه الجزيرة العربية ، واعتمد على ما كتبه عرام ابن الأصبغ السلمى فى دراسة المواضع الواقعة فى تهامه والحجاز ،وعلى ما كتبه السكونى فى وصف الاحماء فى نجد، كما اعتمد على مصنفات الهمدانى فى دراستة للمواضع الواقعة فى اليمن وحضرموته .

وقد حرص البكرى على ذكر مصادره وأصوله بدقه ، فمن مصادره الفقهية والتاريخية كتب الحديث والسيرة النبوية والسير والانساب والتاريخ ، فنقل من كتب الحديث ما رواه محمد بن السائب الكلبى (ت : ١٤٦ هـ) وابنه هشام (ت : ٢٠٤ هـ) ،ونقل من كتاب السيرة «لابن اسحاق» وسمى كتابه «المغازى» فى موضعين (٧٨) وسماه «السير» فى موضع آخر (٧٩) مما يرجح أن البكرى كانت لديه أكثر من نسخة من هذا الكتاب ، فقد بين ذلك أكثر من مرة (٨٠) . كما اعتمد البكرى على عدد آخر من رواة الأخبار مثل الزبير بن بكار (ت : ٢٥٦ هـ) ، الذى ألف أكثر من ثلاثين

---

(٧٧) البكرى : معجم ما استعجم ، جـ ١ ، ص ٤ حسين مؤنس : المرجع السابق ،ص١٢٥

(٧٨) معجم ما استعجم ، جـ ١ ، ص ٣١٩ ، جـ٢ ، ص ٦٦٦ .

(٧٩) نفس المصدر ، جـ٢ ، ص ٥٤٦

(٨٠) نفس المصدر ، جـ١ ، ص ٥٢٣ ، جـ٢ ، ص ٦٩٨

كتاباً ووصفه الخطيب البغدادى بأنه «كان ثقه ثبتا عالماً بالنسب عارفاً بأخبار المتقدمين وسائر الماضيين ، وله الكتاب المصنف فى نسب قريش وأخبارها»(٨١) كذلك اعتمد البكرى على مصادر جغرافية نقل عنها وذكرها ، فرجع مثلا إلى أبى عبيد عبد الله بن بشر السكونى ونقل عنه ما جاء فى رسالة عرام ابن الأصبغ السلمى ونقل عن ابراهيم بن اسحق بن ابراهيم بن بشير ، أبو اسحق الحربى (ت : ٢٨٥ هـ) ومن أهم مصنفاته كتابيه «غريب الحديث» والمناسك ونقل عن أبى على هارون بن زكريا من كتابة «التعليقات والنوادر» ، والذى تأتى أهميته من تحديده الدقيق الكثير من المواضع التى تعرض لها ، فهو يصف مياهها وجبالها وقبائلها وماينبت فيها من ضروب النبت والشجر يجىء كل ذلك خلال تفسيره لغريب الشعر وما فيه من مفردات لغوية عربية(٨٢) .

ونتيجة لذلك خرج المعجم فى صورة طيبة نال ثناء الباحثين ، يقول دوزى : «اننا بينما نجد غيره من الجغرافيين يقعون فى خطأ بعد خطأ ويناقضون أنفسهم بين موضع وموضع ، اذ بنا نجد معلومات البكرى واضحة ناصعة ، وكتاباته توصف بعبارة واحدة أنها صادقة (٨٣) . ولذلك فان دوزى اعتبره فريداً لا يمكن مقارنته بأحد آخر (٨٤) . ولا شك اننا نوافقه فيما ذهب اليه فى انه يعتبر مصدراً هاماً لا غنى عنه بالنسبة للباحثين ، بالرغم من ظهور معجم ياقوت الذى يفوقه بشكل ملحوظ سواء فى اهتمامه بجميع البلدان ، وثراء ملاحظاته ، وضخامة مادته ، ومن الطريف أن ياقوت كان على علم بهذا المعجم ، ولكنه لم يستطع الاستفادة منه مباشرة فيقول : «ولم أره بعد البحث عنه والتطلب له» (٨٥) .

---

(٨١) الخطيب البغدادى (أحمد بن على) : تاريخ بغداد ، ج ٨ ، القاهرة ، ١٣٤٩ هـ ، ص ٤٦٧ – ٤٧١

(٨٢) عبد الله يوسف الغنيم : المرجع السابق ، ص ٨٤ – ٨٥ .

(٨٣) أنظر
Dozy : Op. Cit, t. I, PP. 303—305

(٨٤) I bid, P. 305.

(٨٥) ياقوت : المعجم ، جـ١ ، ص ٧ ، ٨

على أية حال فان رأى دوزى ومن تابعه من الباحثين يكفى لافساح مكان ممتاز للبكرى بين الجغرافيين .

أما مصنف البكرى الثانى فى الجغرافيا فهو بعنوان : «المسالك والممالك» الذى صنفه فى سنة ٤٦٠ هـ (١٠٦٧–١٠٦٨م) ، فهو كتاب جغرافية العالم المعروف يومها ، ويحتوى على كثير من المعلومات التاريخية (٨٦) .

التزم البكرى نفس المنهج الذى سار عليه فى تأليفه المعجم ، فعلى سبيل المثال اعتمد على كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر لعلى بن الحسين المسعودى (ت:٣٤٦هـ) فى دراسته للقسم الخاص بالبحار والانهار وذكر الممالك وعلى كتاب مسالك افريقية وممالكها للوراق القيروانى (٢٩١–٣٦٢هـ) فى القسم الخاص ببلاد افريقية ، كما اعتمد على كتاب «المسالك والممالك» للجيهانى فى دراسته لممالك الهند ومدن الصين ، وتأثر بالعذرى ونقل عنه نقولا من مصنفه «ترصيع الأخبار ، وتنويع الاثار والبلدان فى غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك » ، كما استفاد البكرى استفادة كبيرة من رحلة ابراهيم بن يعقوب الطرطوشى عند كلامه عن الصقالبة ، ومما لا شك فيه أن البكرى له الفضل الأكبر فى وصول أجزاء كبيرة من رحلة الطرطوشى إلينا ، فقد فقدت أصولها ، ولم تبق الا بعض النقول التى تضمنتها كتب البكرى والقزوينى وأبى الفدا ، غير أن أكبر قطعة من هذه الرحلة وصلت الينا عن طريق كتاب الممالك والمسالك للبكرى .

إلى جانب مصادرة الجغرافية ، اعتمد البكرى على مصادر أخرى دينية وهى الكتب السماوية كالتوراه والانجيل والقرآن ، ونقل عن كتب الحديث

---

(٨٦) أنظر :

Dubler (César) : Abu Hamid El Granadino, Madrid, 1953, P. 167.

ولما كانت كتابات البكرى جغرافيةتاريخية ،فقد أعتمد على مصدر تاريخى على قدر كبير من الأهمية وهو «تاريخ الرسل والملوك» لابن جرير الطبرى.

وان كان يعيب منهج البكرى أنه رغم اعتماده على مصادر جغرافية سابقة عليه أو معاصرة له على قدر من الأهمية ، ورغم اطلاعه على كتابى الاصطخرى وابن حوقل الا أنه لم يأخذ عنهم الخرائط ، فجاء كتابه خالياً منها ، ذلك على الرغم مما وصلت اليه الخرائط والأشكال التوضيحية من أهمية فى هذا العصر باعتبارها أساساً من أسس الدراسة الجغرافية (٨٧) .

وللاسف لم يصلنا كتاب المسالك والممالك كله ، فقد فقد معظمه ولم يتبق منه الا قطع متفرقة عن افريقيا الشمالية ومصر والعراق وسكان نواحى بحر قزوين وبعض أجزاء أسبانيا وأوربا .

ومن أكبر القطع تلك التى تصف افريقيا الشمالية والتى قام بنشرها البارون دى سلان De Slane (٨٨) ، وقد اعتمد البكرى فى كتابته عنها اعتماداً كبيراً على ما كتبه محمد بن يوسف الوراق القروى الذى يلقب بالتاريخى (٢٩١ هـ – ٣٦٢ هـ/ ٩٠٤ – ٩٧٤ م) فى مؤلفه بعنوان «مسالك افريقية وممالكها» ، إذ يقرر البكرى ذلك فى مواضع متعددة فى كتابه غير أننا نلمح فى كل فقرة أثر البكرى ومنهجه ودقته (٨٩) ، والتى يتضح منها معرفته االعميقة بالطرق وبكل الساحل بمرافئه وخلجانه العديدة (٩٠) .

---

(٨٧) عبد الله يوسف الغنيم : المرجع السابق ، ص ٢٠٢ .

(٨٨)
Descri ption de l'Afrique Septentrional por Abu Obeid el Bakri, Paris, 1873.

وأعيد طبعه فى سنة ١٩١١ .

(٨٩) حسين مؤنس : المرجع السابق ، ص ١٣١ .

(٩٠) كراتشوفسكى : المرجع السابق ، ص ٢٧٥ .

وهناك قطعة أخرى من كتاب المسالك والممالك نشرها الأستاذ عبد الرحمن الحجي بعنوان جغرافية الاندلس وأوربا . تحتوى على بعض النصوص الجغرافية عن شبه الجزيرة الايبرية فضلا عن المعلومات التاريخية المتناثرة فيها ، كما أنها تحتوى أيضاً على وصف لبعض الأقطار الأوربية وشعوبها تعتبر من أقدم وأدق المعلومات عن هذه الأقطار ، وقد اعتمد البكرى على الجغرافيين الرحالة أمثال ابراهيم بن يعقوب الاسرائيلي الطرطوشي ، وكان رحالة أندلسياً ينتسب إلى مدينة طرطوشة من رجال القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) وكان يهودياً أو مسلماً من أصل يهودى ، وزار مناطق أوربية كثيرة ، ووصفها وصفاً قيما (٩١) . ولا نستبعد أن يكون البكرى قد استطاع الوصول إلى كتابات ووثائق جغرافية ربما لم تصل إليها يد الآخرين بل لعله استطاع الوصول إلى الوثائق الرسمية المحفوظة فى قرطبة (٩٢).

ظل البكرى مقيما باشبيليه حتى سنة ٤٨٤هـ، عندما استولى عليها المرابطون واعتقلوا المعتمد بن عباد ، فلم يجد أبو عبيد البكرى مخرجاً سوى العودة إلى قرطبة فارتحل اليها وأقام بها إلى أن وافته المنية فى شوال سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤/ ١٠٩٥) ودفن بمقبرة أم سلمه (٩٣) .

---

(٩١) عن رحلة ابراهيم بن يعقوب الطرطوشى هذه ، أنظر

EL-Hajjii : Andalusian Diplomatic relations with western Europe during the Umayed period, Beirut, 1970

محمد محمد مرسى الشيخ : دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين فى الأندلس حتى أواخر القرن العاشر الميلادى ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨١ ، ص ٢٨١ وما بعدها .

(٩٢) نفس المرجع ، ص ٢٧٦ ، وأنظر أيضاً ، مادة أبو عبيد البكرى بقلم ليفى بروفنسال بدائرة المعارف الاسلامية .

(٩٣) ابن بشكوال : الصلة ، القسم الأول ، ص ٢٨٨ ، وتقع مقبرة أم سلمة فى ظاهر مدينة قرطبة من جهتها الشمالية خارج باب اليهود ، أنظر : السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة ، ج١ ، ص ٢٦٦ .

Torres Balbas : Ciudadades musulmanas Madrid, P. 239.

نستدل من هذا العرض السريع أن أبا عبيد البكرى كان احدى سبيل البيوتات الاندلسية العريقة التى تقلدت مناصب هامة فى الاندلس فى القرن الخامس الهجرى ، فنشأ أبو عبيد فى ظلها نشأة طيبة ، وتلقى معارفه الثقافية العامة بما وفرته له من الاسم والمجد والمال ، فلم يضطر إلى تقلد أى من الوظائف العامة بما وفرته له من الاسم والمجد والمال ، فلم يضطر إلى تقلد أى من الوظائف ، بل توفر على البحث والدراسة ، فخلقت منه عالما جليلا بذ أقرانه فى مجال العلوم الأدبية بصفة عامة ، والتأليف الجغرافى بصفة خاصة فجنت أسرته ثمرة كفاحه إذ عرفت به ، وانتسبت اليه .

مصادر ومراجع البحث

(أولا) مصادر عربية قديمة :

ابن الابار : (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر (ت : ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م

– الحلة السيراء ، الجزء الثانى ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس الطبعة الأولى ، لجنة التأليف والترجمة والنشر (القاهرة ١٩٦٣)

– التكملة لكتاب الصلة ، جزءان ، نشر الأستاذ عزت العطار الحسينى (القاهرة ١٩٥٦) .

الأدريسى : (أبو عبد الله محمد الشريف السبتى) ت : حوالى ٥٤٨ هـ / ١١٥٤ م

– المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس ، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الافاق ، ليدن ، ١٦٦٨ .

ابن بسام الشنترينى (أبو الحسن على) :

– الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، القسم الثانى ، المجلد الأول تحقيق الدكتور احسان عباس ، الدار العربية للكتاب (تونس ١٩٨١)

ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك) :

– كتاب الصلة ، جزءان ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ١٩٦٦) .

البكرى (أبو عبيد عبد الله عبد العزيز) ت ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م

– سمط اللالىء ، تحقيق الأستاذ عبد العزيز الميمنى ، الجزء الأول (القاهرة ١٩٣٦) .

– معجم ما استعجم ، تحقيق الأستاذ مصطفى السقا ، أربع أجزاء (القاهرة ١٩٤٥) .

– المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، نشر البارون دى سلان (الجزائر ١٩١١)
– جغرافية الاندلس وأوربا من كتاب المسالك والممالك ، تحقيق الدكتور عبد الرحمن على الحجى ، دار الارشاد (بيروت ١٩٦٨)
ابن حزم (أبو محمد على بن أحمد بن سعيد) :
– جمهرة أنساب العرب ، تحقيق الأستاذ عبد السلام محمد هارون الطبعة الرابعة ، دار المعارف (القاهرة ١٩٧٧) .
الحميرى (أبو عبيد الله محمد بن عبد الله) ت : أواخر القرن التاسع الهجرى
– كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار ، تحقيق ليفى بروفنسال مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (القاهرة ، ١٩٣٧) .
ابن حيان (أبو مروان) ت : ٤٦٩ هـ/ ١٠٧٩ م
– المقتبس من أنباء أهل الاندلس ، تحقيق الدكتور محمود على مكى لجنة احياء التراث الاسلامى (القاهرة ١٩٧١) .
– المقتبس فى أخبار بلد الاندلس ، تحقيق الدكتور عبد الرحمن على الحجى ، دار الثقافة بيروت (لبنان ١٩٦٥) .
ابن خاقان (أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله القيسى) ت : حوالى ٥٢٩ هـ
– قلائد العقيان فى محاسن الاعيان ، قدم له الأستاذ محمد العنانى ، المكتبة العتيقة (تونس ، ١٩٦٦) .
الخطيب البغدادى (أحمد بن على) :
– تاريخ بغداد ، الجزء الثامن ، (القاهرة ١٣٤٩ هـ)
ابن خير (أبو بكر محمد) :
– فهرسته ، تحقيق فرانشيسكو كوديره وخوليان ريبير، سنة ١٨٩٣) .
ابن أبى حيه (أبو الخطاب السبتى) ت : ٦٣٣ هـ/ ١٢٣٥ هـ

- المطرب فى أشعار أهل المغرب ، تحقيق الأستاذ ابراهيم الابيارى وآخرون المطبعة الأميرية (القاهرة ١٩٥٤) .

الضبى (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة) ت : ٧٠٣ هـ/ ١٣٠٤ م

- بغية الملتمس فى تاريخ رجال الاندلس (القاهرة ١٩٦٧) .

ابن عبد الملك الانصارى المراكشى (أبو عبد الله محمد بن محمد) ت : ٧٠٣ هـ/ ١٣٠٤ م

- بقية السفر الرابع من كتاب الذيل والتكملة ، تحقيق الدكتور احسان عباس (بيروت ١٩٦٤) .

ابن عذارى (أبو العباس أحمد بن محمد) ، كان حيا عام ٧١٢ هـ/ ١٣١٢ م

- البيان المغرب فى أخبار الاندلس والمغرب ، الجزء الثالث ، تحقيق ليفى بروفنسال دار الثقافة ، بيروت ، لبنان .

العذرى (أحمد بن عمر بن أنس المعروف بابن الدلائى) ت : ٤٧٨ هـ/ ٩٨٨ م

- نصوص عن الاندلس من كتاب ترصيع الاخبار وتنويع الاثار والبستان فى غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك ، تحقيق الدكتور عبد العزيز الاهوانى ، مطبعة معهد الدراسات الاسلامية (مدريد ١٩٦٥) .

مؤلف مجهول :

- جغرافية الاندلس ، مخطوط مصور بالمعهد المصرى للدراسات الاسلامية ، بمدريد ، تحت رقم م ٣٦ ، عن الأصل الموجود بالخزانة العامة بالرباط .

ياقوت الحموى الرومى (شهاب الدين ابى عبد الله) ت : ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩ م

- معجم البلدان ، الطبعة الأولى ، المجلد الأول (القاهرة ١٩٠٦) .

(ثانياً) مراجع عربية حديثة وأوربية معربية :

أحمد (الأستاذ نفيس) :

– جهود المسلمين فى الجغرافيا ، ترجمة الدكتور فتحى عثمان ، القاهرة (ألف كتاب ٢٧٢) .
– الشيخ (دكتور محمد محمد مرسى) .
– دولة الفرنجة وعلاقتها بالامويين فى الاندلس حتى أواخر القرن العاشر الميلادى ، مؤسسة الثقافة الجامعية (الأسكندرية ١٩٨١)
الغنيم (الأستاذ عبد الله يوسف) :
– مصادر البكرى ومنهجه الجغرافى ، مطبعة المدنى (القاهرة ١٩٧٤)
بالنثيا (جونثالث) :
– تاريخ الفكر الاندلسى ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، الطبعة الأولى ، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة ١٩٥٥) .
بروكلمان (كارل)
– تاريخ الأدب العربى ، الجزء السادس ، نقله إلى العربية الأستاذ السيد يعقوب بكر (دار المعارف ١٩٧٧)
سالم (دكتور السيد عبد العزيز) :
– التاريخ والمؤرخون العرب ، مؤسسة شباب الجامعة (الاسكندرية ١٩٨١) .
عنان (الأستاذ محمد عبد الله)
– دول الطوائف ، الطبعة الثانية ، بمكتبة الخانجى (القاهرة ١٩٦٩)
كراتشكوفسكى (أغناطيوس يوليا نوفنش)
– تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، نقله إلى العربية الأستاذ صلاح الدين عثمان هاشم، القسم الأول، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (القاهرة ١٩٦٣) .
مؤنس (دكتور حسين) :
– تاريخ الجغرافيا والجغرافيين فى الأندلس ، مطبعة معهد الدراسات الاسلامية (مدريد ١٩٦٧) .

ثالثا : مراجع أوربية :

Antuna (Melchor) :

— Abnhayan de cordoba *Y* Su obra historica & (Escorial 1924).

De Slane :

— Description de L'AF rique septentri onal por Abu obeid El Bakri, (Paris 1873).

Dozy (R

Recherches sur l'histoire politique et litteraire de l'Espagne pendant le Mo yen Age, t. I, (leyde 1849).

Dubler (César) :

— Abu Hamid El Granadino, (Madrid 1953).

Encyclopaedia of Islam.

Hajji (A.A :

— Andalusian Diphomatic relations with westean Europe during the Umayed period, (Beirut 1970).

Levi'provencal :

—La description de L'Espagne D'Ahmad AL-Razi, AL-Andalus, Vol. XVII, (1953)

Pons Boigues :

— Ensayo Bio-bibliografico sobre los historiadores *Y* Geografos Arabigo Espanoles, (Madrid1898).

Torres Balbas (L) :

— Ciudades musulmanas, T.I. Madrid.



البحث الرابع

أضواء على النشاط العلمى فى الأندلس

شهدت الفترة الأولى للوجود الاسلامى فى الاندلس اضطرابا شديدا فى الشئون السياسية واندلاع الصراع بين العصبيتين القيسية واليمنية، وبطبيعة الحال لم تترك هذه المنازعات المحلية كثيرا من الوقت للعناية بتنمية الحياة العقلية.

غير أنه منذ اعتلاء عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل (١٣٨ - ١٧٢هـ / ٧٥٦ - ٧٨٨ م) كرسى الأمارة فى الاندلس بدأت مرحلة جديدة فى تاريخ هذه البلاد فقد عمل هذا الامير أولا على توحيد أقاليمها واحلال الأمن والاستقرار بها، واستطاع أن يقضى على عناصر الفوضى ونزعات الانفصال المتمثلة فيما اقتطعه العرب والبربر من النواحى التى تطلعوا الى الاستقلال بها، فأخذهم عبد الرحمن الداخل بالشدة والحزم فدخلوا فى طاعته.وعلى ذلك أعاد هذا الامير هيبة الأمويين وأحاط نفسه بهالة من فخامة الملوك وأبهة الخلفاء، ومن ثم أخذ طابع الاستقلال السياسى عن المشرق يقوى فيها، وان استمرت الامارة الاندلسية تتلقى التأثيرات الحاضرية من المشرق متمثلة فى التيار الحجازى على عهد الامير هشام الرضا (١٧٢ - ١٨٠هـ / ٧٨٩ - ٧٩٦م) وسرعان ما حدث امتزاج حضارى بين الحضارتين اللاتينية والعربية أثمر المنابت الاولى للحضارة الاندلسية بما فيها العلم العربى.

ولقد اصبحت قرطبة على عهد الامير عبد الرحمن الاوسط مركزا حضاريا عظيما ورغدت حضارة المسلمين فى الاندلس مركزا للازدهار المادى والتقدم الادارى والنشاط الفكرى، ثم لم تلبث منذ عصر الخليفة عبد الرحمن الناصر(٣٠٠ - ٣٥٠هـ / ٩١٢ - ٩٦١م) وبفضل تشجيعه ان تزايد نشاطها الادبى والفكرى بتأثير مشرقى ايضا، فأصبح هذا الخليفة بحق حامى العلوم والآداب، ثم تزايدت هذه الحركة الادبية والعلمية فى عهد خلفه الحكم المستنصر(٣٥٠ - ٣٦٦هـ/ ٩٦١ - ٩٧٦م) الذى أبى إلا يكون هو نفسه من العلماء، فأرسل وكلاء عنه إلى جميع انحاء العالم الاسلامي لابتياع الكتب أو استنسلخها، ووفق فى جمع مكتبة غاية فى الثراء تقدر محتويتها بأربعمائة ألف كتاب، كما كانت تملأ أربع وأربعين جزءا، وكان من نتائج هذه النهضة العلمية إن دخل الاندلس الكثير من مؤلفات المشارقة فتدارسوها وأضافوا إليها

وقد استمر ازدهار الآداب والعلوم حتى بعد سقوط الخلافة الاموية فى الاندلس عام ٤٢٢هـ / ١٠٣١ م، بل يمكن القول أنها نشطت عن ذى قبل، فلقد استكثر ملوك الطوائف فى مختلف دويلاتهم من مهاد الحضارة الخصبة،

وضربوا مثلا جديدا لم يمكن أن يفعلهالذكاء الاجتماعى والتنافس بل التفاخر أحيانا.

وعلى الرغم من تبعية الاندلس منذ عام ٤٨٤هـ / ١٠٩١م لدولة المرابطين لم بالمغرب إلا أنها لم تقف عثرة دون تقدم العلوم والازدهار فاستمرت الحركة العلمية فى تقدم وازدهار.

ولم آلت الاندلس إلى دولة الموحدين بالمغرب لم يتوقف النشاط العلمى فى الاندلس، بل استمر حتى أيام مملكة بنى نصر فى غرناطة، وأن الدور الهام الذى اضطلع به الاندلس كان قد وصل إلى غايته. ويمكن القول ان سر النهضة العلمية لهذا القطر الاسلامى تمكن وراء تكريم الخلفاء، على النشاط العلمى فى الأندلس وأن المجال لايتع للكتاب والأمراء والعلماء والاعلاء من شأنهم.

ولما كان موضوع البحث هو: إلقاء أضواء فى كل فروع العلم، فأننا سوف نقصره على بعض فروع العلم، الطب والصيدلة والفلك، وذلك باستعراض تاريخ بعض العلماء الذين نبغوا منذ عصر الاذهار وحتى نهاية العصر الاسلامى فى الاندلس، حتى يمكن الوقوف من خلال مصنفاتهم عن الحالة العلمية بوجه عام فى الأندلس.

ففى مجال الطب، يمكن القول أن الذين نقلوا هذا العلم من المشرق الى الاندلس هم الاطباء النصارى، يذكر ابن جلجل «أنه لم يكن فى الاندلس لغاية اميرها عبد الرحمن بن الحكم إلا أطباء نصارى يعتمدون فى علمهم ودراستهم على كتاب مترجم من كتب النصارى، يقال له الابريشم ومعناه المجموع أو الجامع [١]، ويرجع أنه كتاب الفصول لأبقراط Aphorismi[٢].

وهذا يؤكد على دخول الكتب الطبية من المشرق فى هذا العصر، واستفادة العلماء منها، فابن جلجل نفسه ينقل فى كتابه «طبقات الاطباء والحكماء» أقوالا من كتب ابقراط وجالينوس وغيرهما، وليس من المستبعد أنه ينقل عن الترجمات العربية التى وصلت إليه من المشرق[٣] هذا وقد ورد فى ترجمة اسحاق

(١) ابن جلجل (أبى داود حسان الاندلسى): طبقات الاطباء والحكماء، تحقيق فؤاد السيد، مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٥٥، ص٩٢.

(٢) نفس المصدر، ص يا من مقدمة المحقق.

(٣) نفس المصدر، ص يب من مقدمة المحقق.

الطيب أنه لما ظهرت دولة الناصر لدين الله عبد الرحمن بن محمد، فتتابعت الخيرات فى أيامه، ودخلت الكتب الطبية من المشرق وجميع العلوم وقامت الهمم وظهر الناس ممن كان فى صدر دولته من الاطباء المشهورين»(٤).

وهناك من الدلائل التى تؤكد على دخول كتب إلى لاندلس فى عصر متقدم ، فكتاب الحشائش لديسقوريدس (Dioscorides) بترجمة اصطفن بن باسيل واصلاح حنين بن اسحق (ت: ٢٦٠هـ / ٣٧٨م)، كان معروفاعند الاندلسيين الى عصر عبد الرحمن الناصر، يذكر ابن جلجل فى مقدمة كتابة «تفسير أسماء الأدوية المفردة، أن كتاب الحشائش فى أصله اليونانى دخل فى الاندلس وكان معروفا(٥)، ذلك أن الكتاب ترجم إلى العربية فى بغداد فى عهد الخليفة العباسى المتوكل (٢٣٢ -٢٤٧هـ/ ٨٤٦ - ٨٦١ م) غير أن المترجم له واسمه اصطفن بن باسيل لم يترجم إلى العربية سوى جزء من أسماء الأدوية لعدم معرفته بما يقابل اليونانية فيها، ولهذا ظلت أسماء باقى النباتات على صورتها اليونانية بحروف عربية (٦)، وعندما ورد هذا الكتاب الاصلى بلغته اليونانية هدية من امبراطور بيزنطه أرمانيوس (Romanus) إلى الخليفة الناصر سنة ٣٣٧هـ / ٩٤٨م هدية مع هدايا أخرى، أرسل له الامبراطور البيزنطى بعد ذلك راهبا يدعى نيقولا (Nicola) الذى وصل إلى قرطبة سنة ٣٤٠هـ / ٩٥١م وقام بترجمة الكتاب مرة أخرى بالاشتراك مع بعض أطباء بلاط الناصر منهم حسداى بن شبروط الاسرائيل، وقد اعتنى بذلك الكتاب جميع من ألف فى المفردات الطبية عانية ما بيى شرح واستدراك وتصحيح من الاندلسين منهم ابن جلجل فى كتاب «تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس»، وابن وافد الاندلسى (ت : ٤٦٧هـ / ١٠٧٤م) فى كتابة « الادوية المفردة » الذى جمع فيه بين كتابى ديسقوريدس وجالينوس، والشريف الادريسى (ت: ٥٦٠هـ / ١١٦٤م) فى كتابه «الجامع لصفات أشتات النبات» واستدرك فيه على ما أغفله ديسقوريدس، وضياءالدين بن البيطار (ت ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م) الدى استوعبه فى كتابه « الجامع فى الأدوية المفردة «جميع المقالات الخمس»(٧)

---

(٤) نفس المصدر، ترجمة (٤٠)، ص ٩٧ - ٩٨

(٥) نفس المصدر، ترجمة (٧)، ص٢٢

(٦) أحمدمختار العبادى، وآخرون: دراسات فى تاريخ الحضارة الاسلامية العربية، الطبعة الثانية، دار السلاسل، الكويت، ١٩٨٦، ص ٣٨٨.

(٧) ابن جلجل: المصدر السابق، ص ٢٢، وحاشية ٧٠

بالاضافة الى دخول كتب العلوم المشرقية إلى الاندلس، فقد كان لرحلة الاندلسين لطلب العلم الى مشرق العالم الاسلامى الاثر الكبير فى نمو الحركة العلمية فى الاندلس .ففى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر رحل الى بغداد أخوة الحرانى وهما أحمد بن يونس وأخوه عمر سنة ٣٣٠هـ / ٩٤١م، وتأدبا فى بغداد بالطلب، ثم انصرف إلى الاندلس ودخلاها فى خلافة الحكم المستنصر فألحقهما لخدمته بالطب وأسكنهما مدينة الزهراء، ومات عمر بعلة المعدة، وبق أحمد الذى كان بصيرا بالأدوية المفردة وصانعا للاشربة والمعجونات[٨] . فتولى إقامة خزانة بالقصر الخلافى للطب لم يكن قط مثلها ، ورتب لها اثنى عشر صبيا طابخين للأشربة، صانعين للمعجونات، واستأذن أمير المؤمنين أن يعطى منها من احتاج من المساكين والمرضى فأباح له ذلك[٩].

وممن رحل من الاندلسين إلى المشرق لتلقى علم الطب محمد بن عبدون العددى، ففى سنة٣٤٠هـ/ ٩٥١م دخل البصرة، ثم أقام بمدينة الفسطاط حيث خدم بالبيمارستان العتيق الذى كان أنشأه أحمد بن طولون فيما بين عامى ٢٥٩ - ٢٦١هـ ٨٧٢ - ٨٧٤م، ثم رجع الاندلس سنتة ٣٦٠هـ /٩٧٠م، وخدم بالطب الخليفة المستنصر وهشام المؤيد[١٠].

ولم تقتصر الرحلة فى طلب العلم على المشرق الاسلامى فقط، فقد رحل أبوجعفر عمر بن جعفر بن برتق إلى افرقيه فدخل القيروان، ولزم عالمها أبى جعفر ابن الجزار[١١]، وأدخل إلى الاندلس كتابه « زاد المسشافر وقت الحاضر»، وهو كتاب فى الطب والعهلاج والمفردات[١٢].

ترتب على ذلك ازدهار علم الطب فى الاندلس ، فبرز أطباء عظام منذ القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى، منهم **ابو القاسم خلف بن عباس الزهرواى** نسبة الى مدينة الزهراء الواقعة شمال غرب قرطبة، وكان جراحا بارعا، اشتغل بالطب خلال عهد لخليفة الحكم المستنصر وابنه هشام المؤيد، ويعتبر كتابه «

---

(٨) نفس المصدر، ص ٤٨٧

(٩) نفس المصدر، والصفحة.

(١٠) ابن جلجل: المصدر السابق، ترجمة (٥٧)، ص ١١٥ .

(١١) ابن أبى اصبيعة: عيون الأنبياء فى طبقات الأطباء، منشورات دار الحياة، بيروت. ص ٤٨١

(١٢) نفى المصدر، ص ص ٤٩٠ - ٤٩١

التصريف لمن عجز عن التأليف» أكبر مولفاته وأشهرها[١٣]، فهو موسوعة طبية تقع في ثلاثين جزءا، فيه قسم طبى، وقسم صيدلى، وقسم جراحى، ويشتمل عل أكثر من مائتى شكل للأدوات والآلات الجراحية التى كان يستخدمها الزهرواى ومعظمها من ابتكاره[١٤]، إلا أن ما رفع قدره وخلد ذكره هو ذلك الجزء من كتابة «المقالة الثلاثون» التى أفردها للجراحة، وهى تعتبر أول ما كتب فى علم الجراحة مقرونابرسوم ايضاحية كثيرة لادوات والآلات الجراحية لت يستخدمها الزهرواى ومعظمه من ابتكاره ، ولأهمية هذه المقالة الثلاثين فقد ترجمها جيرارد دى كريونا (Gerardo de Cremona) إلى اللاتينية فانتشرت وجذبت الاهتمام إليها فى الجراحة . ومن مآثر هذا العالم الطبيب الجراح أنه أول من ربط الشرايين، وأول منعمل عملية استئصال حصى المثانة فى النساء عن طريق المهبل، وأول من وصف النزيف، ونجح فى عملية شق القصبة الهوائية، واخترع آله لتوسيع باب الرحم للعمليات الجراحية[١٥]، وأشار باستخدام مساعدات وممرضات من النساء عند اجراء العمليات الجراحية للنساء[١٦]وتوفى الزهرواى سنة ٤٠٤هـ / ١٠١٣م

وفى القرن الخامس والسادس الهجريين / الحادى عشر والثانى عشرالميلاديين، برز فى الاندلس أسرة من كبار الاطباء الاندلسيين هى أسرة بنى زهر، التى انجبت سلسلة كاملة من مشاهير الطب . وأول شخصية مشهورة من هذه الاسرة ، هو أبو مروان عبد الملك بن محمد بن مروان بن زهر الأيادى الاشبيلى، المولود فى مدينة اشبيلية سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١م، وكان قد رحل إلى المشرق، فدخل القيروان ثم مصر وتطبب هناك زمنا ثم رجع إلى الاندلس ، والتحق بخدمة مجاهد العامرى صاحب دانية بالطب ، وذاعت شهرته فى مدينة دانية بتقدمه فى صناعة الطب، ثم انتقل الى مدينة اشلبيلية زمن بنى عباد[١٧].

وقد تطبب على يده عدد من المرضى لفطنته فى التشخيص وبصيرته النافذه،

---

(١٣) نفس المصدر، ص ٥٠١.

(١٤) ألدوميبيلى: العلم عند العرب وأثره فى تطور العلم العربى، ترجمة عبد الحليم النجار وآخرون، القاهرة ص ٣٥٣.

(١٥) عمر رضا كحالة: العلوم البحتة فى العصور الاسلامية، دمشق ١٩٧٢، ص ٤٦ – ٤٧.

(١٦) سعيد عاشور وآخرون: دراسات فى تاريخ الحضارة الاسلامية العربية، ص ١٢٥.

(١٧) ابن ابى اصيبعة: المصدر السابق، ص ٥١٧.

فضلا عن خبرته الطويلة فى هذا المجال، ولاستخدامه على وجه الخصوص أدوية فعاله، وظل بمدينة اشبيلية إلى وفاته سنة ٥٥٧هـ / ١١٦١م[١٨].

وثانى شخصية من لهذه الأسرة الطبيب **أبى العلاء زهر بن أي مروان عبد الملك بن محمد بن مروا ن** الذى حظى فى دولة المرابطيين بمكانة كبيرة، ومنزلة رفيعة اشتغل بصناعة الطب وهو صغير منذ أيام المعتمد بالله أبى عمرو عباد بن عباد، ثم خدم بعد ذلك زمن المرابطين بعد تبعية الاندلس لها، وصنف العديد من كتب الطب منها: كتاب الخواص، وكتاب الادوية المفردة، وكتاب الايضاح بشواهد الافتضاح فى الرد على ابن رضوان فيما رده على حنين بن اسحق فى كتاب المدخل إلى الطب، وكتاب حل شكوك الرازى على كتب جالينوس، ومجربات، ومقاله فى الرد على ابن على بن سينا فى مواضع من كتاب الادوية المفرده[١٩].

وثالث شخصية من هذه الاسرة **أبو مروان عبد الملك بن أبى العلاء زهر ابن مروان عبد الملك بن محمد بن مروان بن زهر**، الذى تعلم على يد أبيه فى صناعة الطب، وكان جيد الاستقصاء فى الادوية المفردة والمركبة، حسن المعالجة، وقد ذاع صيته فى الاندلس، ألف فى الطب، وأعانت مؤلفاته أطباءالاندلس فى تفهم هذه الصنعة، حتى أنه «لم يكن فى زمانه من يماثله فى مزاوله أعمال صناعة الطب»[٢٠] خدم بن مروان دولة المرابطين بالطب، وحظى بمكانة مرموقه لديهم، كما خدم بعد ذلك دولة الموحدين على عهد عبد المؤمن بعلى، الذى قرب إليه أهل العلم وأكرمهم، وتمتع أبو مروان بمنزلة خاصة لديه فقد «كان مكينا عنده، عالى القدر، متميزا على كثير من أبناءزمانه»[٢١].

كم أشار ابو مروان إلى قيمة التجربة مثل والده ابو العلاء، وقد تتلمذ عليه عدد من الدراسين فى صناعة الطب منهم ابو الحسن بن أسدون، وأبوبكر بن الفقيه القاضى أبو الحسن قاضى اشبيلية، وابو محمد الشذونى، والفققيه الزاهد ابو عمران بن أبى عمران[٢٢].

(١٨) نفس المصدر، ص ٥١٩ - ٥٢١.

(١٩) ابن ابى اصيبعة: المصدر السابق، ص ٥١٧ - ٥١٨.

(٢٠) نفس المصدر، ص ٥١٩.

(٢١) نفس المصدر، ص ٥٢٠.

(٢٢) نفس المصدر، ص ٥٢١.

ومن مصنافته، كتاب المداوة والتدبير، أشار فيه الى قيمة التجربة، وكتاب الاغذية والأدوية الذى ألفه لابى محمد عبد المؤمن بن على، الذى يعرض فيه للنظام الغذائى المتنوع مع ذكر مكونات الاطعمة والتوابل والاشربة وطريقة استخدام الادوية والغذاء الناسب، ورسالة كتب بها إلى بعض أطباء اشبيلية فى عليّ البرص والبهامة ، وكتاب لابن ابى بكر ذكر فيه أول مايتعلق بعلاج الامراض(٢٣) .وأحيرا كتاب الاقتصاد فى اصلاح الأنفس والجسد، تضمن سلسلة من الارشادات العلاجية بجانب تعليمات وقائية(٢٤) .

أما الشخصية الرابعة والأخيرة من أسرة بنى زهر التى اشتهرت بصانعة الطب ،هو **أبو بكر محمد بن ابى مروان بن ابى العلاء بن زهر**، ولد فى اشبيلية سنة ٥٠٤هـ/ ١١١٠م، ونشأ بها وتميز فى العلوم، أخذ صناعة الطب عن أبيه، وباشر أعمالها، وكان صائب الرأى حسن المعالجة، جيد التدبير، وقد حظى بثقة الخلفاءالموحدين، يعقوب المنصور وأبا عبد الله محمدد الناصر، ومن مصنفاته كتاب الترياق الخمسينى الذى ألفه للمنصور لموحدى، ورسالة فى طب العيون، وتوفى عام٥٩٦هـ / ١١٩٩م(٢٥).

وفى نهاية القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى، نشطت حركة الاسترداد فى شرق الاندلس، فاضطر عدد من علماء الاندلس إلى الهجرة إلى المغرب ومن بين هؤلاء أبى اسحق بن طملوس المولود فى جزيرة شقر، تعلم الطب على يد الطبيب أبى محمد عبد الله بن أبى الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد، رحل ابو اسحق إلى مراكش والتحق بخدمة الخليفة الموحدى الناصر بالطب، ثم عاد إليالاندلس، وتوفى عام ٦٢٠/ ١٢٢٣م(٢٦)، كتب تعليقا على

---

(٢٣) ابن ابى أصبعه: المصدر السابق، ص ٥٢١، وانظر ايضا:
Micelanea de Estudios Arabes Y Hebraicos, Universided de Graada, X X V I, I, 1977, pp. 103 - 116 Rachel Arie: Espana Musulmana Siglos VIII - XV, T. III, Editorial - Labor S. A, 1924, P. 419.

(٢٤) وكتاب الاقتصاد فى اصلاح الانفس والجسد، كان موضوع رسالة دكتواره باسم روزاكوهيه باربانت (Rosa Kuhne Barbant) اجيزت فى جامعة مدريد المركزية عام ١٩٧١، انظر:
Rachel Arie: Op Cit, P. 419.

(٢٥) ابن ابى اصبيعة: المصدر السابق، ص ٥٢١ - ٥٢٢:
Rachel Arie: Op Cit, P. 419

(٢٦) ابن ابى اصبيعة المصدر السابق، ص ٥٢١ - ٥٢٢.

ارجوزة ابن سينا في الطب[٢٧].

وفي عصر بني نصرفي مملكة غرناطة، برز بعض الاطباء مثل ابن السراج، وكان طبيبا للسلطان محمد الثاني الفقيه، نال شهرة فريدة لنزاهته، فنال ثناء كل من ترجم له ، اذا حرص على علاج الفقراء بالمجان، كما وهب لهم ثلث دخله[٢٨]. والطبيب محمد فرج الصفار الذي التحق بخدمة سلاطين بني نصر بالطب، فاتخذوه طبيبا لهم في بلاطهم بوادي آش فقد كان جراحا ماهرا وعشابا بارزا[٢٩].

ويلاحظ أيضا في هذا العصر الاهتمام بالمعارف الجديدة في مجال الطب، تمثل في مداومة الرحلة العلمية إلى مشرق العالم الاسلامي للاطلاع والاستزادة من تقدم الطب هناك ، فعلى سبيل المثال سافر ابوتميم غالب الشقوري إلى القاهرة للاستزادة من تقدم الطب هناك، فمارس الطب في بيمارستانتها[٣٠].

كما برز أيضا في غرناطة عدد من الاطباء الذين تمتعوا بشهرة منهم ابو زكريا يحيى بن هذيل، وكان من شيوخ لسان الدين بن الخطيب[٣١]. وصفه ابن الخطيب بأنه «درة بين الناس معطلة، وخزانة على كل فائدة مقفلة»[٣٢]. والطبيب عبد الله محمد اللخمي الشقوري حفيد أبو تميم غالب الشقوري، ولد في جزيرة شقر سنة ٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م، ومارس الطب في البلاط الغرناطي على عهد كل من يوسف الاول ومحمد الخامس الغني بالله، ثم اضطر إلى الهجرة إلى المغرب فأقام في تلمسان عام ٧٧١هـ /١٣٦٩م، كتب عدة في الطب منها رسالة في الطب الشعبي، ومجربات في الطب[٣٣].

---

(27) Rachel Arie: Ob. Cit, p. 419.

(٢٨) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنه في اعيان المائة الثامنة، الجزء الاول، حيدر أباد، ١٩٢٩، ص ٣١٥.

(٢٩) ابن الخطيب: الاحاطة في اخبار غرناطة، الجزء الثالث، بتحقيق محمد عبد الله عنان، القاهرة، ص ١٧٩ - ١٨٠.

(٣٠) نفس المصدر والصفحة.

(٣١) في المقرى: نفخ الطيب، جـ٣ ص ٢٥٨.

(٣٢) في المقرى: نفس المصدر، جـ٣، ص ٢٥٨. وانظر ايضا، محمد عبد الله عنان: نهاية الاندلس وتاريخ العرب المنتصرين، الطبعة الثالثة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٦، ص ٤٦٨.

(33) Rachel Arie: Ob. Cit, PP. 420 - 421.

=/=

ومن المؤلفات الطبية الاندلسيية المشهورة، الكتاب الذى ألفه لسان الدين بن الخطيب، وعنوانه: «عمل من طب لمن حب»، وهو مؤلف طبى كبير، تناول فيها ابن الخطيب الأمراض المختلفة، مع ذكر أسباب كل مرض، وأعراضه وطرق علاجه، وتخوطاته، ونظام الغذاء الذى يناسبه، كما يحدث عن مختلف أعضاءا لجسم، وطرق العناية؛ ذكر ابن الخطيب فى مقدمة الكتاب «أنه لم يجد السلطان أبى سالم المرينى أفضل من الطب، فألف له هذا الكتاب تعبيرا عن حبه لهذا السلطان»، وكان ذلك فى سنة ٧٦١هـ / ١٣٥٩م[٣٤].

إلى جانب ثلاث رسائل عن الوباء الكبير الذى عصف بالأندلس عام٧٤٩هـ / ١٣٤٨ م الاولى بعنوان: مقنعة السائل فى المرض الهايل «لابن الخطيب»الذى يصف فيها أعراض المرض لكبير[٣٥]. والرسالة الثانية من تأليف ابى جفعرأحمد بن على بن محمد بن خاتمة الانصارى بعنوان: تحصيل غرض القاصد فيتفصيل المرض الوافد»، يصف فيها عصف الوباء وسيره بمدينة المرية[٣٦]. أما الرسالة الثالثة والأخيرة كتبها الشقورى عن نفس المرض بعنوان: تحقيق النبأ عن أمر الوباء»[٣٧].

أما علم الصيدلة، فيمكن القول أنه كان تابعا بالضرورة لعلم الطب وأن جميع الاطباء الاندلسين قد كتبوا فى الاعشاب بوصفها فنين لازمين للطب. وقد حظى هذا العلم بقدر من الاهتمام فى عصر الخلافة الأموية فى قرطبة[٣٨]، على يد عدد من الاطباء منهم ابن جانة، وهو طبيب يهودى عاش فى قرطبة ثم انتقل إلى مدينة سرقسطة فى منتصف القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى، مصنف رسالة فى الصيدلة[٣٩].

=/=

وانظر ايضا: احمد مختار العبادى: لسان الدين بن الخطيب وكتاباته التاريخية، عالم الفكر، المجلد السادس عشر، العدد الثانى، ص ٢٥٤، هـ ١٩.

(٣٤) ابن الخطيب: الاحاطة فى أخبار غرناطة، جـ١، دار المعارف بمصر، ص ٧٥ - ٧٦.

وقد نشر هذا الكتاب باسكيث دى بينتو Vazquez de Benito فى سلمنقة عام ١٩٧٢، انظر: Rachel Arie: Op. Cit, p. 459, Nota 82

(35)Rachel Arie: Op. Cit, p. 421.

(36) M. M. Antuna: Abenjatima de Almeria Y su Tratado de Peste, en Re - Ligion Y Cultuber de 1928, pp. 68 - 96.

(37)Rachel Arie: Op. Cit, p. 421.

(38) Encyclopedie de L Isalam, 2 ed, T. III, p. 773.

(39)Rachel Arie: Op. Cit, p. 418.

والطبيب القرطبى ابن سمجون الذى ألف كتابا بعنوان « الجامع فى الأدوية المفردة» ، عدد فيه أعضاء الجسم ووصف النباتات وفوائدها الطبية وأشار فى مؤلفه إلى العشاب المشرقى ابى حنيفه الدينورى ومؤلفه النباتات [٤٠] . كذلك الطبيب الزهراوى الذى لم يقتصر على الطب والجراحة كما يظن الكثيرون، بل كان أيضا عالما متمقا فى الصيدلة، يصفه ابن ابى اصبيعه بقوله «كان طبيبا فاضلا خبيرا بالأدوية المفردة والمركبة جيد العلاج [٤١] ، وكتابه «التصريف لمن عجز عن التأليف» لا يحوى إلا مقالتين مخصصتين للجراحة، أما باقى المقالات فخاصة بالأدوية، بحيث يمكن اعتباره صيدليا اكثر منه جراحا، ولقد ألف فى الأدوية كتابا آخر خاصا بعنوان: «مقاله فى أعمار العقاقير المفردة والمركبة» [٤٢] . ولعل عدم تقدير الزهرواى كعالم يرجع إلى أن المؤلفين العرب وغيرهم وان ذكروا كتاب التصريف لم يعطوا معلومات وافيه عن جميع مقالاته، ولم يهتمواإلا بالجزء الخامس الخاص بالجراحة الخاص بالجراحة والطب، وقد اقتبس ابن البيطار كثيرا من الزهرواى ، وأبلغ هذه الاقتباسات كيفية صنع الخبز المركب من أجود انواع القمح والذى يخمر ويكون خفيفا خاليا من الشوائب [٤٣] .

وفى عصر ملوك الطوائف، برز بعض علماء الصيدلة ممن ذاعت شهرتهم فى الغرب الأوربى، نذكر منهم الطيب العشاب عبد الرحمن بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم المعروف بابن وافد الذى أقام فى طليلة منذ عام ٤٦٠هـ / ١٠٦٧م، ودرس الادوية المفردة وبرع فيها وألف كتابا بعنوان « الادويةالمفردة» جمع فيه بين كتابى ديسقوريدس وجالينوس، وفى طليطلة كلفه صاحبها المأمون بن ذى النون بالوزارة بجانب خدمته بالطب، وقبيل سقوط طليطلة فى يدالقشتاليين لجأ ابن وافد إلى اشلبيلية وأقام بها [٤٤] .

(40) Ibid.

(٤١) ابن ابى اصيبعة: المصدر السابق، ص ٥٠١.

(٤٢) انظر: الموجز فى تاريخ الطب والصيدله عن العرب، باشراف د. محمد كامل حسين، اصدار المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

(٤٣) نفس المرجع.

(٤٤) ابن ابى اصيبعة: المصدر السابق، ص ٤٩٦ وانظر ايضا:
Veret Gines (J). Historia de La Eilecia Espanola Madrid, 1975, P. 64
Rachel Arie: Op. Cit. P. 418.

وفى القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى، برز العشاب ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد المالقى النباتى العروف بان البيطار، ولد فى مقاله وتوفى فجأة فى دمشق سنة ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م، ويعد ابن البيطار من أبرز علماء عصره وأكثرهم شهرة وتعمقا فى علم النبات زار دول الاندلس والمغرب مصروالشام وآسيا الصغرى، وفى أثناء رحلاته التقى بمن يهتمون بعلم النبات وأخذ عنهم العديد من أنواع النبات عاينها فى موضعها، كما درس كتاب الحشائش لديسقوريدس واتقنه اتقانا تاما حتى لا يكاد يوجد من يحاربه فى التعمق فيه(٤٥). امتاز ابن البيطار بعقلية علمية أصيلة، فكان يعتمد على التجربة، ويؤمن بالمشاهدة والإستنباط، وكان أمينا ودقيقا فى نقله عن الآخرين، وهو أكثر علماء النبات انتاجا وأعمقهم دراسة، ومن مصنفاته «كتاب الجامع لمفردات الاغذية والادوية»(٤٦)، الذى وصف اكثر من ألف وأربعمائه دواء من أصل نباتى وحيوانى ومعدنى، مرتبة على حروف المعجم، منها ثلاثمائة لا توجد فى أى كتاب آخر وهى من صنعه، وقد استقصى فى كتابه ذكر ماهية الأوية المفردة ومنافعهاومضارها والصحيح منها، وما وقع الاشتباه فيه معتمدا على دراساته الخاصة وتجاربه الى جانب مانقله عن العلماء الذين سبقوه كديسقوريدس وجالينوس وابن سيناوالادريسى وغيرهم، وكان وصفه للأدوية دقيقا جدا مع ذكر مترادفاتها وترجمتها بالاغريقية، كما ذكر الكثير من المترادفات بالفارسية والبربقرية(٤٧).

أما علم الفلك فقد جاء اهتمام المسلمين به مواكبا لم ورد فى القرآن الكريم من آيات فى مواضع عديدة: (فلا أقسم بمواقع النجوم، وأنه لقسم لو تعلمون عظيم)(٤٨). (والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم، والقمر قدرناه

(٤٥) ابن البيطار: كتاب الجامع لمفردات الاغذية والأدوية، أربع اجزاء بولاق، ١٨٧٤ ، وانظر أيضا:
Leclerc (l): Traite des Simples d Ibn El - Beithar, Arie Op. Cit, P. 419
أحمد مختار العبادى: دراسات فى الحضارة العربية الاسلامية، ص٣٩١.

(٤٦) نفس المصدر.

(٤٧) العلى الدفاع: اسهام علماء العرب والمسلمين فى علم النبات، ص٢٥٨ - ٢٦٠، عبد الحليم منتصر: فى العلوم الطبيعية وأثر العرب والاسلام فى النهضة الاوربية الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٧، ص ٢٢٤ - ٢٢٥.

(٤٨) قرآن كريم: سورة الواقعة، الآية (٧٥، ٧٦).

منازل حتى عاد كالعرجون القديم، لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر والليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون)(٤٩).

ولما ود من آيات تحث المسلمين على التفكير والتأمل فى خلق الله (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، والفلك التى تجرى فى البحر بماينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها، وبث فيها من كل دابة، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون)(٥٠)، (إن فى خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب، الذين يذكورن الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض، ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار)(٥١).

فضلا عن ارتباط بعض أحكام الدين بالظواهر الفلكية فاتجاه القبلة وأوقات الصلاة واختلافها حسب المواقع والفصول، اقتضى معرفة المواقع والفصول، اقتضى معرفة المواقع الجغرافية للبلدان وحركة الشمس فى البروج.

لذلك كان اهتمام المسلمين بهذا العلم، فنشطوا فى دراسته واعتمدوا فى بادى الأمر على مؤلفات الفلك الهندية واليونانية، فقرب الخلفية العباسى ابو جعفر المنصور الفلكين وأخذ يستشيرهم فى أموره، وشجع حركة النقل والترجمة، فنقل أبويحيى البطريق كتاب «الاربع مقالات لبطليموس» فى صناعة النجوم، كما ترجم ابراهيم الفزارى أول الفلكيين المسلمين كتاب «السند الهند» عن الهندية، وأخرج ابنه محمد كتابا على غراره «السند هند» الكبير واختصره الخوارزمى وعمل منه زيجا اشتهر فى كافة البلاد الاسلامية ووصف بقوله «السند هند الصغير».

انتقل هذا العلم إلى الاندلس فى عصر الخلافة الامويه فى القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى، إذا قام مسلمه ين أحمد المجريطى (ت: ٣٩٨هـ / ١٠٠٧م) بانشاء مدرسة علم الفلك والرياضة فى قرطبة، ودرس على يديه فيها عدد من الاندلسين من أشهرهم ابن الصفار وابن السمح والزهرواى وابن

(٤٩) قرآن كريم، سورة ياسين، الآيات (٣٨، ٣٩، ٤٠)

(٥٠) قرآن كريم، سورة البقرة، الآية (١٦٤)

(٥١) قرآن كريم، سورة آل عمران، الآية (١٩٠، ١٩١)

(٥٢) ابن ابى اصيبعة: المصدر السابق، ص٤٨٢، ٤٨٣.

فى زيج الخوارزمى الى الحساب العربى(٥٣). كما كتب شرحا على كتاب المجسطى (Plaisphacrium) لبطليموس.ويبدوا أيضا أنه قد شارك فى التعريف بكتاب رسائل اخوان الصفا فى بلاد الاندلس، ومن مصنفاته رسالة فى الاسطرلاب ترجمت إلى اللاتينية، كما شروحه على كتاب بطليموس(٥٤) لذلك أصبح بحق أمام الرياضين بالاندلس فى وقته وأعلم من كان قبله لعلم الافلاك وحركات النجوم(٥٥).

وعندمامزقت الحرب الاهلية الاندلس فى بديات القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى، لجأ تلاميذه إلى شرق الاندلس وإلى طليطله وغرناطة، فأقام ابو القاسم احمد بن عبد الله بن عمر المعروف بابن الصفار فى دانية(٥٦)، فألف زيجا مختصرا على مذهب السند الهند، وكتابا فى العمل بالاسطرلاب ترجم الى اللاتينية، كما أقام ابو السمح أصبغ بن محمد بن السمح المهدى فى غرناطة حيث توفى بما سنة ٤٢٦هـ / ١٠٣٤م ،وكان محققا لعلم العدد والهندسة، متقدما فى علم هيئة الافلاك وحركات النجوم، ألف كتابين فى الاسطرلاب، أحدهما فى التعريف بصورة صنعتها، ويتكون من مقالتين،والثانى فى العمل بها والتعريف بجوامع ثمارها(٥٧). وأبو الحسن على بن سليمان الزهرواى، وكان عالما بالعددوالهندسة، معتنيا بعلم الطب، ومن مآثره كتاب فى المعاملات عن طريق البرهان وهو الكتاب المسمى بكتاب الاركان(٥٨).

وأبو مسلم عمر بن أحمد بن خلدون الخضرمى، نزيل اشلبيليه، وكان متصرفا فى علوم الفلسفة مشهورا بعلم الهندسة والنجوم والطب(٥٩).

كما برز أيضا فى هذه الفترة العالم الرياضى الفلكى أبواسحاق ابراهيم بن يحيى النقاش المشهور بالزرقالى، الذى احتل مكانه رفيعه بين الرياضيين والفلكيين فى الاندلس، أقام فى مملكة طليطلة فى ظل بنى ذى النون، والزرقالى باحث مفكر،

---

(٥٣) نفس المصدر، ص ٤٨٣.

(54) Rachl Arie: Op. Cit. P. 417.

(٥٥) ابن ابى اصيبعة: المصدر السابق، ص ٤٨٣.

(٥٦) نفس المصدر، ص٤٨.

(٥٧) ابن ابى اصيبعة: المصدر السابق، ص ٤٨٣.

(٥٨) نفس المصدر، ص ٤٨٠.

(٥٩) نفس المصدر، ص ٤٨٥.

ورياضى فلكي، اختراع آلات فلكية جديدة، مثل نوع الاسطرلاب المعروف باسم الصفيحة، وأخرج الازياج الطليطلية، وجمع فيها نتائج الملاحظات الفلكية التى أجراها بمشاركة فلكيين اخرين عاشو فى طليطلة(٦٠). وقد وصفه خوان برنيت(Juan Vernet)بقوله: الزرقالى علم نفسه، صانع متخصص فى تصنيع الآلات الفلكية التى كلفه به المأمون بن ذى النون فى طليطلة، كما قام بعمل جداول فلكية تتنافس مع الجدوال الفلكية المشرقية(٦١). ولقيمة اعماله العلمية ترجمت الى اللاتينية. ولأهلية هذا العالم فى علم الفلك فقد خصه ميلا بياكورسا (Millas Vallicrosa)بدراسات عديدة ووصفه، بأنه أول فلكى أوربى سابق لكبلر KAPLER(٦٢). وتوفى الزرقالى عام ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م

وفى القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى، تراجعت دراسات علم الفلك وإن ظهر فى قرطبه الفلكى ابو محمود جابر بن الافلح حيث ألف كتابا فى الفلك بعنوان: كتاب فى اصلاح المجسطى أى فى نظريات بطليموس التى تتعلق بالكواكب، وينسب اليه اختراع بعض الآلات الفلكية (٦٣).

وفى عصر بنى نصر فى مملكة غرناطة برزت بعض اسماء علماء اندلسين فى الفلك منهم الفلكى محمد بن رقام، المولود فى مرسيه، رياضى وفلكى، كتب مصفات فى الرياضيات، وتوفى بغرناطة سنة٧١٥هـ / ١٣١٥(٦٤). كما نبغ العالم الاديب منصور الزواوى عالم الرياضيات فى غرناطة خلال النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى، وقدعاصره ابن رضوان الوداى آشى، الذى اهتم بدراسات الرياضيات والفلك، ألف أجوزة عن الفلك ، وصنف رسالة عن الاسطرلاب، وتوفى ٧٥٧هـ / ١٣٥٦(٦٥).

وهكذا إذا أردنا الخلاصة فيما يختص بالنشاط العلمى فى الاندلس فى العصر الاسلامى تجانبها حقائق لامراء فيها، **أولاها** أن الأثير المشرقى على الاندلس فى مجال الطب والصيدلة وبعض العلوم لا ينكره أحد حتى أن ازدهار علم الطب

---

(60) Rachl Arie: Op. Cit. P. 417.
(61)Rachl Arie: Op. Cit. P. 417.
(62) Millas Vallicrosa: Estudios Sober Azarquiel, Madrid, 1945 - 1950 ٧ Revista del Instituto de Estudios Islamicos en Madrid, V., 1 - 2, 1957, Pp. 49 - 61,Rachl Arie: Ibid, PP. 417 - 418.
(63) Ibid, PP. 418.

(64)Ibid, PP. 419 - 420.
(65) Ibid, P. 420.

عند الاندلسيين انما يرجع الى مانقله الاطباء النصارى الى الاندلس من المشرق من كتب سواء بلغتها الأصلية أو ترجمات هذه الكتب أو ما ترجم منها إلى العربية، أو رحلات الاندلسيين إلى المشرق فى طلب العلم، وكانت محصلة ذلك كله بروز علماء أجلاء فى الاندلس منذ القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ذاع صيتهم فى الآفاق وقدموا للحضارة هناك عناصر هامة أسهمت فى احتلال ذلك القطر مكانه العظيم كمركز من مراكز الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى.

وثانى هذه الحقائق التى يمكن أن نخرج بها ومن دراسة هذا الموضوع ان جميع الاطباء الذين برعوا فى الاندلس كانوا أيضا صيادلة كتبوا فى الاعشاب والأدوية، أى أنهم شخصوا الداء ووصفوا الدواء بل وصنعوه بأيديهم من واقع معرفتهم بالإعشاب ودراستهم لها، ولهذا تلازم الطب والصيدلة وتواكبا فى تلك الحضارة وقدما مظهرا من أعظم مظاهر الازدهار العلمى فى تلك البلاد، وكتب معظم الاطباء كتبا فى الادوية ووصفوا النباتات وفوائدها الطبية وذاعت شهرة بعضهم فى اتحاد اوربا والغرب، واطبقت شهرتهم الآفاق.

وثالث هذه ا لحقائق أن علم الفلك انتقل الى الاندلس أيضا فى عصر الخلافة أى منذ القرن الزابع الهجرى (العاشر الميلادى) فأنشئت مدارس الفلك والرياضة وكتبت الشروح على كتب الفلك، ولما تكالبت المحن انتقل بعض علماء هذا العلم إلى شرق الاندلس وطليطه وغرناطه، فازدهر العلم ليواكب مظاهر الحضارة الاندلسية فى ذلك الوقت وذاعت شهرت علماء الفلك هناك فى كافة الانحاء.

البحث الخامس

ملاحظات حول ألبسة المدجنين فى اسبانيا

المدجنون هم جماعات المسلمين الذين عاشوا فى حماية الممالك المسيحية فى أسبانيا بعد أن اشتدت حركة الاسترداد المسيحى فى شبه الجزيرة الايبيرية فى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى وما يليه إلى سقوط غرناطة ٨٩٧هـ / ١٤٩٢م . وكان يطلق أيضا عليهم " المعاهدون " أو " المعاقدون " ، إلا أن اللفظ الذى شاع واستخدم للدلالة عليهم هو لفظ الدجن [١] .

والمعروف أن هذه الجماعات الاسلامية قامت بدور فعال مؤثر فى البيئة المسيحية الاسبانية ، ومثلت صورة حية للإسلام والمجتمع الاسلامى بنظمه وتقاليده وعاداته بعد زوال الهيمنة السياسية والعسكرية للمسلمين فى أسبانيا وإن بقيت آثارها الروحية والمادية .

والدراس لموضوع المدجنين بصفة عامة يلاحظ تاثيرهم فى مختلف نواحى الحياة الاسبانية فقد أبقى عليهم ملوك اسبانيا المسيحية واستخدموهم فى ممالكهم إدراكا منهم بأهمية هذه الجماعات وبراعتهم فى الفنون والصناعات فى الوقت الذى حافظت فيه هذه الجماعات على عروبتها وتقاليدها فبقيت آثارها ماثلة للعيان لاسيما فى مجال العمران

وتهدف هذه الدراسة إلى التعرف على ألبسة المدجنين فى اسبانيا من خلال الاجابة على بعض التساؤلات . فهل احتفظ المدجنون بألبستهم الاسلامية أم تاثروا بالألبسة المسيحية ، وما مدى تاثير الألبسة الاسلامية فى الزى الاسبانى المسيحى .

---

(١) ورد لفظ الدجن فى لسان العرب (مادة دجن) ، دجن بالمكان يدجن دجونا : أقام به وألفه فهو داجن ، ورد هذا اللفظ فى نص لابن الخطيب حيث يقول عند حديثه عن الوزير المغربى عمر ابن عبد الله : " وهو على القلم بهوى الناس إليه على فرضه رجلا من مدجنة الأشبونة " . انظر : نفاضة الجراب فى علالة الأغتراب ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى ، دار الكاتب العربى ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٣٠٢ ، وانظر أيضا لطفى عبد البديع : الاسلام فى اسبانيا ، الطبعة الثانية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة – ١٩٦٩ ، ص ١٦٥ .

وقبل البدء في هذه الدراسة ينبغي أن ننوه بالدراسات العديدة عن تاريخ الزى الاسلامى فى اسبانيا ، فقد وضع العلامة رينهارت دوزى منذ ما يقرب من قرن ونصف قاموسه المفصل عن الزى عند العرب متضمنا الزى الاندلسى (٢) ، كما قدم كل من أجوادو بلاى (٣) وليفى بروفنسال (٤) وصفا للزى الاندلسى فى عصر الخلافة الأموية بقرطبة . وخصص مارسيه (٥) بعض صفحات عن الزى الاندلسى فى بحث عن الزى الاسلامى فى الجزائر ، وما كتبه ريكارد (٦) عن مصطلحات الزى الاسبانى الموريسكى ، وخوان مارتينث (٧) عن زى الموريسكين ، وجوين (٨) فى بحثها بعنوان وثائق عن زى المسلمين فى اسبانيا . والدراسة التى أعدتها راشيل آريا (٩) عن زى مسلمى قشتاله فى القرن الثالث عشر، وكذا بحثها عن زى مسلمى اسبانيا فى عهد دولة بنى نصـــر(١٠) . فضلا عما ورد عن الـــزى فـــى

---

(٢) Dozy (R.) : Dictionnaire détaillé des noms de vétement chez les Arabes , Amesterdan , 1845 .

(٣) Aguado Bleye (P.).: Manuel de Historia de Espsna , Tomo I , Espasa - Calpe S.A. 1947, P. 471 .

(٤) lévi-provençal (E.):Histoire de l'Espagne musulmane,T.lll ,Paris,1953. p. 442

(٥) Harçais (G.) : le costume musulman d'Alger Paris , 1930

(٦) Ricard (R.) : Recherches sur le vocabulaire de vétement hipano-mauresque,Bulletin hispanique,t.L lll , 1951 pp . 131 - 156 .

(٧) juan Martinez Ruiz:la indumentaria de las morisios segun perez deHita y los de la Alhambra cuaserns de la Alhamnra , 3, Granada MCMLXVll .

(٨) Jauin (J.) : Documentos sur le costume des musulmans d' espagne , Revue Africane , 1934 .

(٩) يرجع الفضل إلى راشيل آريا فى التعريف بمخطوطألعاب الشطرنج حيث كتبت مقالا فى عدد ثمان صفحات ، والمخطوط محفوظ بمكتبة " دير الاسكوريال باسبانيا ، ويتكون من ٩٧ لوحة مكتوبة بخط كوفى وتحمل رقم T-I-6 ؛ انظر: Arié (R.) : le costume de Musalmans de castille au xlll siécle d'apres les miniatures du libro del Ajedrez .Melanges de la casa de velazques , Tomo ll , 1966 , Paris , pp. 59-66.

(١٠) Arié (R.) : Quelques remarque sur le costume des muslmans d'Espagne au temps des Nasrides , Arabica , T. xll , 1965, fasc. 3, pp. 244 - 261

الشعر العربى فى بحث هنرى بيرس [11] عن الشعر الاندلسى والبحث الذى أعدته رويث عن زى وزينة المرأة المسلمة فى جبالا (١٢) ، وعن الأحذية كتب أوليفر أسين عن القرق [13] ، وباجلى عن الاحذية التقليدية الجزائرية [14] .

ولدراسة الألبسة أهمية كبيرة فى تاريخ الحضارة عموما فهى من الأدلة على المستوى الذى وصلت إليه الحضارة المادية ، وعلى الطبقات الاجتماعية ، وتمايزها ، والثروة وقدرها ، كما تدل على رقى الصناعات المحلية وازدهار التجارة، وكذلك على مستوى الاسعار ومستوى المعيشة ، وهى تدل أيضا على الأذواق وتطورها [15] .

ارتبطت الألبسة فى الاندلس بالانسان ولازمته فى كل أدوار حياته ، وكانت تختلف من صقع إلى آخر باختلاف ظروف البيئة والمناخ ، كذلك تختلف باختلاف الظروف الاجتماعية فى المجتمع الاندلسى ، فاتسمت ألبسة الطبقة الراقية بالأبهة والفخامة من حيث الجودة و الزخرفة فى حين غلب مظهر البساطة على ثياب العامة

---

(١١) Pér`es (H.) : la poésie Andalouse en arabe classique au xi siéele , Paris , 1953, PP.316-321 .

(١٢) Albarracin de Martinez Ruiz : Vesrido y adorno de la mujer musulmana de Yebala (Marruecos), Madrid , 1964 , pp. 22-29 .

(١٣) Oliver Asin (J.) Quercus en la Espana musulmana , Al-Andalus , vol , xxlv , fasc. 1 , 1959 . pp. 125-181 .

(١٤) Quahiba Ba Ghli : chaussures traditionnelles Algeriennes , Alger , 1977 .

(١٥) صالح أحمد العلى : الألبسة العربية فى القرن الأول الهجرى دراسة أولية ، مستل من المجلد الثالث عشر من مجلة المجمع العلمى العراقى ، ١٩٦٦ ، ص٣

وابتداء من القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى أخذت التقاليد البغدادية تترك بصماتها على ألبسة الطبقة الراقية فى الأندلس إذ تدفقت مستلزمات انشاء دور الطراز البغدادية على حواضر الاندلس مع التجار المشارقة الوافدين إلى الاندلس ، فضلا عما أدخله المغنى زرياب من نظم مستحدثة فى الازياء فقد أشار عليهم بلبس الملابس فى أوقاتها المناسبة من حيث اللون أو الخفة والثقل ، فالشتاء يحتاج إلى المعاطف الصوفية أو الجلدية والملابس الفاتحة اللون ، بينما تستعمل الملابس الخفيفة الزاهية الألوان فى الصيف والربيع (١٦) .

كان هذا التوجيه الايجابى نحو التأنق فى الأردية باعثا على إقبال الاندلسيين على تطوير ألبستهم ، وقد ساعد على ذلك توفر الحرير الطبيعى والديباج والحلل الموشية فى قرطبة وبجانة والمرية ، واشتغال هذه المدن بصناعته (١٧) ، ومن الواضح أن صناعة الحرير تطورت فى عصر دولة المرابطين تطورا تشهد به

(١٦) أنظر : المقرى (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد) : نفخ الطيب من غصن أندلس الرطيب ، الجزء الرابع ، تحقيق الاستاذ محمد محى الدين عبد الحميد ، الطبعة الاولى ، مطبعة السعادة ، مصر ، ١٩٤٩ ، ص ١٢٤ ؛ أحمد مختار العبادى ، فى التاريخ العباسى والاندلسى ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ص ٣٤٢-٣٤٣ (١٧) الحميرى (ابى عبد الله محمد بن عبد المنعم) : صفة جزيرة الاندلس ، منتخبة من كتاب الروض المعطار ، تحقيق الاستاذ ليفى بروفنسال ، القاهرة . ١٩٣٧، ص ٣٨؛ ياقوت الحموى (شهاب الدين ابن عبد الملك) : معجم البلدان ، الطبعة الاولى ، المجلد الخامس ، القاهرة ١٣٢٣هـ / ٩٠٦ م ص ١١٩ ، وانظر ايضا :

El sayed Abdel Aziz Salem : Algunos aspectos del florecimiento económico de Almeria Aslamica , durante el periodo de los Taifas y de Almoravides , Revista del Instituto Egipcio de Estudios Islamicos en Madrid , Vol.xx , Madrid , 1979 - 1980 , P.21

النصوص التاريخية (١٨) ، وتسجل القطع التى وصلت إلينا من عصر الموحدين بتقدم صناعة النسيج وغلبة التأثيرات المشرقية مصرية وعراقية فارسية ، وقد ترتب على ذلك أن اتخذت النساء الحلل الموشية ملاحف وأردية مرصعة بصفوف الجوهر وتفننت النساء فى صباغتها بالألوان الزاهية ومختلف أنواع الزخارف (١٩) ، ونستدل من النقوش الآدمية المحفورة على علب العاج الاندلسية فى عصر الطوائف على أن أفراد الطبقة الراقية كانوا يرتدون جبابا فضفاضة تدور بأكمامها أشرطة مزخرفة ، أما الرؤوس فحاسرة ، ولكن شعورهم كانت تنسدل على أصداغهم وجباهم لافرق فى ذلك بين الرجال والنساء ، وللنساء ثياب فضفاضة أشبه بالملاحف مشقوقة من الامام يحزمنها بزنانير (٢٠) .

وهكذا كانت صناعة الوشى أو الحلل الموشية تتمتع بمكانة هامة فى الاندلس وفى اسبانيا المسيحية بالذات ، يدل على ذلك بقايا المنسوجات الاسلامية المصنوعة فى قرطبة ومريهية والمرية فى عصر الموحدين والتى عثر عليها فى مقابر المسيحين فى اسبانيا مثل أكفان دون رودريجو خيمنيث دى رادا ، والامير دون فيليب وزوجته ، ومثل أنسجة كاتدرائية لارده ، وكان أعيان قشتاله وأراغوان يجلبون من الاندلس

---

(١٨) الادريسى (الشريف أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز) : صفة المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس ، تحقيق دى غويه ودوزى ، ليدن ، ١٨٦٤ ، ص ١٩٧ ، يشير الادريسى الى أن طرز الحرير وأنواع المنسوجات الحريرية بلغت فى المرية خلال الربع الاخير ين القرن الخامس الهجرى ثمانمائة نول ، وشملت أنواع المنسوجات الحريرية : الحلل الموشية والديباج والسقلاطون والاصبهانى والجرجانى والثياب المعينة والخمر والعتابى والمعاجر .

(١٩) lévi- provençal : Espana musulmana , en Historia de Espana , dirigida por Ramon Menéndez pidal , Tercera édicion , Espasa Calpe , 1973 , P. 278 .

(٢٠) السيد عبد العزيز سالم : صور من المجتمع الاندلسى فى عصر الخلافة الأموية وعصر دويلات الطوائف من خلال النقوش المحفورة على علب العاج ، مجلة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية فى مدريد ، المجلد التاسع عشر ، مايو ١٩٧٦-١٩٧٨ ، ص ٨٠-٨١ .

أقمشة لثيابهم [٢١] ، وفى عصر بنى نصر تقدمت صناعة المنسوجات الحريرية فى الاندلس وتعددت مراكز صنعها ، فاشتهرت مالقة والمرية وأندرش وفنيانه ودلاية وغرناطة بهذه الصناعة ، وعن تقدم صناعة الحرير فى غرناطة يقول ابن الخطيب : " وكفى بالحرير الذى فضلت به فخرا وقيتة ، وغلة شريفة " ، وفائدة عظيمة ، تمتاره منهـا البلاد ، وتجلبه الرفاق ، وفضـيلة لايشاركها فيهـا إلا البلاد العراقية " [٢٢] ، وكانت هذه المنسوجات الاندلسية مما يهادى به سلاطين غرناطة ملوك المسيحية [٢٣] ، ففى رسالة بعث بها السلـطان محمد الخامس فى ٣٠ مايو ١٤١٨ م إلى الملك الارغونى ألفونسو الخامس ، يعدد من الهدايا القيمة التى بعث بها إليه : جبة موشاه ، جلبابا من الحرير ، دراعة ، برنس ، قلانس موشاة بالحرير وملوطة موشاه بالذهب [٢٤] . وكثير ما كان الامراء الأسباب يتشبهون فى أزيائهم بالمسلمين مثل روى دياث دى روخاس قائد انتقيره الذى كان يؤثر ارتداء الثياب الاسلامية [٢٥] .

والواقع أن ألبسة المدجنين لم يطرأ عليها تغير كبير فى القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى وما يليه ، فمـن خلال بعض المنمنمات التى وردت فـــى

(٢١) Gomez Moreno : El pantéon Real de la Huelgas de Burgos , Madrid , 1946 , P. 81. Marques de Lozoya : Historia del arte hispanico , T . I,P.269 '

السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية الاسلامية قاعدة أسطول الاندلس ، مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ، ١٩٨٤ ، ص ١٦٠ .

(٢٢) ابن الخطيب (لسان الدين) : الاحاطة فى أخبار غرناطة ، الجزء الأول ، تحقيق الاستاذ محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، ١٩٨٨ ، ص ١٠٥ .

(٢٣) Torres balbas : Ars Hispanaie , T . Iv . Madrid 1949 . P . 198 :

وانظر أيضا : السيد عبد العزيز : السيد عبد العزيز سالم :تاريخ مدينة المرية ، ص ١٦١-١٦٢.

(٢٤) Jimenz soler : la carona de Aragan y Granada, en el Boletin de la Real Academia de Buenas letras de Barcelona , III - Iv , 1905 - 1908 , PP . 340-341 .

(٢٥) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية ، ص ١٦٣ .

مخطوطة ألعاب الشطرنج (٢٦) ، يمكننا التعرف على ألبسة المدجنين ، ففي اللوحة رقم ١ يظهر جماعة من المدجنين ، وعلى يمين اللوحة حول رقعة الشطرنج أحد المدجنين يرتدى جبة ذات لون أبيض وعباءة خضراء ، أما منافسه الجالس على يسار اللوحة والذى يبدو أنه يستشير شخصا آخر فى قوانين لعبة الشطرنج فإنه يرتدى جبة ذات ألوان برتقالية ووردية .

كما يظهر فى اللوحة رقم ٢ إثنان من المدجنين يمارسون لعبة الشطرنج وهم يرتدون الجبة ويضعون طيلسانا (٢٧) رقيقا ذا لون أبيض .

والمعروف أن الطبقة الراقية من المدجنين كانوا يرتدون الجبة وعباءه فضفاضة بأكمام طويلة ، والتى كانت مستخدمة منذ عصر الامارة الاموية بالاندلس وتوضح لنا المصادر العربية أن هذه الألبسة قد صنعت فى الاندلس من أقمشة فاخرة ذات ألوان زاهية (٢٨) .

أما طبقة العامة من المدجنين فكانوا يرتدون زيا اكثر تواضعا كان يتمثل فى جبة من الصوف أو القطن فى الحواضر ، أما فى الارياف فقد كانوا يرتدون معطفا قصيرا من الصوف وفقا للازياء القشتالية السائدة انذاك ، كما يلبسون

(٢٦) Arié (R) : Le castume des musulmans de Castilla , P . 60 .

(٢٧) عن الجبة ، انظر :

Dozy : Vérement , pp. 107-117 ;
lévi- provençal : Esp . Mus .t. III . p.425

وعن الطيلسان ، انظر :

Dozy : op . Cit , pp . 278-280 '
Léve - provençal : op . cit , p . 429 .

(٢٨) انظر : المقرى : نفح الطيب ، حـ١ ، ص ١٨٧ ، ص ٢٣٤ ، هـ ٤، ص ٢٠٧ ؛
Léve - provençal : la descripcion del Al- Andalus - Andalus , Vol , xvIII , 1953, p.65' Salem : Algunos aspectos del Florecimiento econòmico de Almeria , pp 20 - 21 .

البرنس[٢٩] فى رحلاتهم ، وهو كما يقول ابن منظور " كل ثوب رأسه منه ملتزقبه ، دراعة أو جبة " [٣٠] .

ويظهر فى اللوحة رقم ٣ أحد شيوخ المدجنين يجلس على يمين اللوحة يرتدى طيلسانا أمام رقعة الشطرنج يتبارى مع شخص مسيحى ، ويبدو أن المدجنين زمن ألفونسو العاشر قد فضلوا ارتداء الطيلسان إقتداء بإخوانهم المسلمين فى مملكة بنى نصر [٣١] .

وكانت العباءة السائدة فى اسبانيا المسيحية هى الملوطة Marlota ، وهى عبارة عن رداء " فوقانى " صدار يشبه الجلباب بغير أكمام ، وكانت مزودة أحيانا بغطاء للرأس ، فتذكر الوثائق أن ملوطة من الديباج صنعت فى قشتاله عام ١٤٨٥ م لابى عبد الله بن الاحمر آخر ملوك بنى نصر [٣٢] . كما جاء فى وثيقة قسمة تركه رقم ٩٢ مؤرخه فى ١ جمادى الثانيه عام ٩٠٠ هـ / ٧ فبراير ١٤٩٥ م لفظ ملوطه ملف Marlota de pano [٣٣] ، وقد شاع ارتداء الملوطة فى اسبانيا بين جماعات المدجنين والمستعربين [٣٤] .

أما فيما يتعلق بكسوة الاقدام والسيقان ، فكانت جوارب ذات ألوان زاهية [٣٥]

---

(٢٩) عن البرنس ، انظر :

Dozy :Vêtement , pp. 73-80 ;
Lévi- provençal : Esp . Mus . T. II , p.428 '
Marçais : le costume musulmans d'Alger, pp. 17-19 .

(٣٠) ابن منظور : لسان العرب . حـ ٧ ، ص ٣٢٨ .

(٣١) Arié: op . cit , p . 63 .

(٣٢) Cuentas de Gonzalo de Baeza : Tesorero de Isbel la catòlica,T.I,(1477-1491) . Madrid , 1951, éd . A . de la Torre , p . 88'

(٣٣) فى ، وثائق عربية غرناطية من القرن التاسع الهجرى الخامس عشر من الميلادى ، حققه وقدم له لويس سيكودى لوثينا ، معهد الدراسات الاسلامية ، مدريد ١٣٨٠هـ / ١٩٦١ م ص ١٤٢ - ١٤٤ من النص العربى ، وص ١٤٤ - ١٤٧ من الترجمة الاسبانية .

(٣٤) Juan Martinez Ruiz : la indumentaria de los Moriscos , pp . 55-124 .

(٣٥) Lévi - provençal : Esp . Mus . T . III , P.424 .

لكسوة الساق حتى أعلى الركبتين ثم ينتعلون نعلا من الجلد مبطنة باللباد فى فصل الشتاء (٣٦) ، فى حين ينتقلون نعالا غير مرتفعة بدون كعب ، كانت تترك رقبة القدم مكشوفة وتسمى سباط (٣٧) لوحة رقم ٦ ، أو يتخذون نعالا من الخشب بأحزمة من الجلد (قبقاب) (٣٨) ، لوحة رقم ٧ ، أو من القنب أو الحلفاء مزودة بمشبك وتعرف بالقرق (٣٩) لوحة رقم ٨ فى فصل الصيف ، ففى اللوحة رقم ٣ يظهر فيها المدجنون وهم ينتعلون أمداسا سوداء مقدمتها مدببة ، حيث أن الأوامر الاشبيلية الصادرة فى عام ١٢٥٢ م قد حرمت عليهم ارتداء الامداس البيضاء أو المذهبة (٤٠) ، لذلك اضطر المدجنون إلى مسايرة الوضع السائد فى قشتاله (٤١) .

أما فيما يتعلق بغطاء الرأس عند المدجنين ، فنستدل مما أوردته المصادر العربية أن الرجال فى شرق الاندلس كانوا يتركون رؤوسهم مكشوفة ، وفى ذلك

---

(٣٦) انظر :
Los documentos arabes inédit sus la vie sociale et économique en Occident musulman au Moyen-Age , Publiés par lévi - Provençal , Le caire , 1955 , p. 73 .

(٣٧) Dozy : Suppl , T.I , P. 25

(٣٨) عن القبقاب انظر :
Dazy : Suppl . t.II,P.303 '
Ouahiba Baghli : chaussures traditionnells Algeriennes , P . 43 .

(٣٩) عن القرق ، انظر :
Oliver Asin (J.) : Quercus en la Espana musulmana , P. 59 , N°3 .

(٤٠) Fernandez y González : Estado social y politico de los Mudejares de castilla , Madrid , 1866 , p . 127 .

(٤١) عن الامداس التى عثر عليها فى القبور الملكية فى دير أوليجاس (Manastére (Burgos de las Huelgas والتى ترجع إلى القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى مثلت هذا الشكل المدبب الذى اصبح الاستخدام الشائع فى قشتالة فى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى ، انظر :
Puiggari (J) : Estudios de indumentaria Espanala , concreta y compareta Barcelona , 1890 , P . 29 .

يقول ابن سعيد المغربى : " وأما زى أهل الاندلس فالغالب عليهم ترك العمائم ، لاسيما فى شرق الاندلس ... وقد تسامحوا بشرقها فى ذلك ، ولقد رأيت عزيز بن خطاب أكبر عالم بمرسية حضرة السلطان فى ذلك الأوان وإليه الاشارة ، وقد خطب له بالملك فى تلك الجهة ، وهو حاسر الرأس وشيبه قد غلب على سواد شعره ، وأما الاجناد وسائر الناس فقليل منهم من تراه بعمة فى شرق منها أو غرب ، وابن هود الذى ملك الاندلس فى عصرنا رأيته فى جميع أحواله ببلاد الأندلس وهو دون عمامه (٤٢) . كذلك كان ارتداء العمامة نادرا فى مملكة بنى نصر فى عهد الامير محمد الأول الذى كان يذهب وجنوده حاسرى الرؤوس (٤٣) ، وإن كان ارتداء العمامة قد أصبح مظهرا رئيسيا لرجال القضاء والفقهاء والعلماء ، والأقلية منهم كان يغطيها بكوفية من الكتان أو شاشية من اللباد (٤٤) . ثم تطورت العمامة فأصبحت تغطى الرأس فقط إذ أصبحت تشبه القبعة لوحه رقم ١ ، وكانت تتميز بطاقية ذات لون غامق بشكل مسحوب ظاهر من قطعة القماش البيضاء التى كانت تغطى الرأس . أما العمامة التقليدية فكانت ترخى على الخدين وتدور حول الرقبة وتنسدل على الكتفين وهذا ما يظهر فى اللوحة رقم ٥ التى يظهر فيها المحارب المسلم وهو جالس فى خيمة ويتمنطق بزنار يثبت فيه سيف ويلعب الشطرنج مع فارسى مسيحى .

---

(٤٢) فى ، المقرى : المصدر السابق ، حـ١، ص٢٠٧ ، وقارن ماذكرته

Arié : le costume musulmans , p . 64

(٤٣) فى ، المقرى: نفس المصدر والجزء ، ص ٦٣ .

(٤٤) الشاشية وهى الطاقية التى توضع فوق الرأس ويلف حولها قطعة من القماش لتكون بهذه الطريقة العمامه ، انظر

Dozy : vêtemant , p . 240 .

أما عن ألبسة السيدات المدجنات فنستدل من بعض لوحات مخطوط ألعاب الشطرنج (٤٥) ، السيدة المدجنة مرتدية جبة متواضعة وردية ، ورأسها مغطى بخمار شاش رقيق ينسدل على الوجه فيغطيه .

وكانت السيدات ينتعلن أمداسا مدببة ذات لون أسود تشابه أمداس الرجال ، ويظهر فى اللوحة رقم ٤ مجموعة من سيدات بلاط ألفونسو العاشر يرتدين جبابا فضفاضة من الحرير الرمادى أو الوردى ياقاتها وأكمامها مزينة بشرائط ، وقميص من الشاش الشفاف المطرز بخيوط من الذهب ، والوجه سافر ، والشعر مربوط بشريط بسيط " وقاية " أو مغطى بمنديل مسرفل ينسدل على الجبهة بطرف مذهب أو مفضض ، ولفافة تدور حول الرأس تثبت بها طرحه فضفاضة تسمى المقنعة طرفها ينزل بفرنشة سوداء على أكتاف العازفة على العود .

ويستدل من النقوش المتأخرة من القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى أن السيدات المدجنات كن يرتدين قبعات مستديرة أشبه بالقلانس ينسدل من تحتها على الكتفين ، وإن كانت بعضهن يظهرن حاسرات الرؤوس (٤٦) .

ومن كتابات الرحالة الاجانب الذين زاروا اسبانيا خلال القرن التاسع والعاشر الهجريين / الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين ، يمكننا أن نتعرف على ألبسة السيدات المدجنات ، فقد لاحظ الرحالة التشيكى البارون ليون دى روز ميتال الذى زار أسبانيا عام ١٤٦٦ ، ونزل فى أحد قصور مدينة بورجس (Burgos) ضيفا على أحد نبلائها ، أن سيدات وآنسات هذا القصر مرتديات ألبستهن وفقا للزى

---

(٤٥) لوحة رقم ٣٨ يمين ، وانظر ايضا :
lévi - provençal : Esp. Mus .t. III , p.424 .

(٤٦) السيد عبد العزيز سالم : صور من المجتمع الاندلسى ص ٨١ .

الاسلامى (٤٧) . كما لاحظ الرحالة الألمانى جيروونومو مونزر Jerònimo Munzer الذى زار غرناطة عام ١٤٩٤ م أن ملابس السيدات المسلمات كانت تتكون من قميص أبيض من الكتان أو القطن أو الحرير وسروال مسترسل به طيات ، ويلبسن فوقهما رداء من قماش أبيض من الكتان ، فوشاح من لون أبيض يغطى الرأس والجسم (٤٨) . أما الرحالة الالمانى جوهان لانج Johanne Lange الذى زار غرناطة عام ١٥٢٦ فقط لاحظ أن سيدات وأنسات المدينة كن يرتدين سراويل فضفاضة ويغطين أرجلهن بجوارب سميكة كثيرة الطيات ، ويرتدين فوقه رداء لعله ملوطه (٤٩) . ونستنتج مما ذكره الرحالة الايطالى أندريه نافا جيرو Andrea Navagero الذى زار غرناطة عام ١٥٢٦ م أن السيدات المسلمات كن يلبسن قمصانا وسراويل من قماش مكبوس فوقها معطف قصير مطرز هو وأكمامه بالحرير يغطيه عباءة بيضاء طويلة من القماش ، كما لاحظ أن السيدات المسلمات من الطبقة الراقية كانت ياقات قمصانهن موشاة بزخارف من الذهب ، وكانت العباءة أيضا مكسوة بزخارف هندسية بخيوط من الذهب ، كما يضعن فوق رؤوسهن قبعات سوداء ، أما غطاء الساق والقدمين فكن يلبسن جوارب مجعدة تجعل الركبة ضخمة جدا ، وينتعلن بأمداس مطرزة بالحرير (٥٠) .

---

(٤٧) Fabie (A.B) : viajes por Espana de Jorge de ringhen , de Baron leon de Rosmithal de Blanta de Fransisco Guiccordini y de Andres Navagero , Madrid , 1877 , P . 157 '

أحمد الطوخى :مظاهر الحضارة فى مملكة غرناطة ، رسالة دكتوراه غير منشوره ، آداب الاسكندرية ، ١٩٧٩ ، ص ٥٦ .

(٤٨) Arié (R) : Acerca del traje musulman en Espana desde La caida de Granada hasta la expulsion de los Moriscos , en , Revista del Enstituto De Estudios Islamicos en Madrid Vol X III . Madrid , 1965-1966 . PP . 106-107 .

(٤٩) Ibid , P.110,N°1 .

(٥٠) Viaje a Espana del Magnificio senor Navagero (1524 - 1526), Trad . Alonso Gamo , Valencia , 1951 , PP . 73-74 '

Arie : op . Cit , PP . 109 -110 '

أحمد الطوخى : غرناطة الاسلامية فى نظر الرحالة الاجانب ، مجلة أوراق ، العدد الرابع ، مدريد ، ١٩٨١ ، ص ١٤٢ .

أما عن أدوات الزينة للسيدات المدجنات ، فيذكر جونثالث بالنثيا أن السيدات المدجنات كن يتزين بعقود وبأشناف ودمالج وخواتم لوحة ٤ . وتشير الوثائق أن أدوات الزينة كانت من الذهب الخالص عند الطبقة الراقية ، ومن الفضة عند طبقة العامة (٥١) ، وهذا ليس بغريب على السيدات المسلمات ، فيصف ابن الخطيب مبالغة السيدات المسلمات الغرناطيات فى التزين بالأصباغ والذهب والديباج حتى " وصلوا إلى حد التماجن فى أشكال الحلى إلى غاية بعيدة " (٥٢) . ولقد بلغ اتقان المدجنين فى صنعة الصاغة درجة عالية من المهارة حتى أن ألفونسو العاشر استعان ببعضهم ، وقد احتفظت الوثائق المعاصرة بأسماء ثلاثة منهم هم : Mahomat . Abrahem , Harnet (٥٣) .

وعلى الرغم من ذلك فإن السيدات المدجنات لم يكن يتمتعن بحرية كاملة فى ارتداء ما يحلو لهن ، فنستنتج مما ذكرته المصادر الاسبانية أنه كان محظورا عليهن إرتداء الألبسة المطرزة حول الرقبة بخيوط ذهبية أو فضية أو حريرية حتى عهد ألفونسو العاشر ، ففى الكتابات الأرشيفية المملاة عام ١٢٥٢ م منح هذا الملك السيدات المدجنات حرية ارتداء أقمشة ذات ألوان بيضاء أو حمراء أو خضراء ، وكذلك ارتداء أردية مبطنة بالفرو وأمداس بيضاء ومذهبة ، ولم تضف اجتماعات شريش Jerez عام ١٢٦٨ م سوى السماح للسيدات المدجنات بارتداء فرو القاقم والأقمشة ذات الالوان القرمزية أو البرتقالية ، فضلا عن حرية استخدام الاساور الذهبية (٥٤) .

---

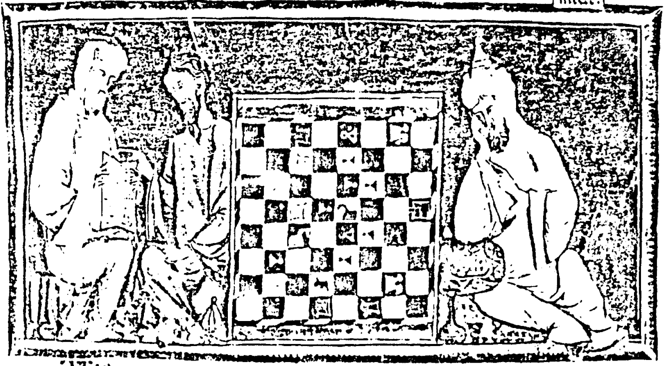
(٥١) Gonzalez Palen cia:los Mozarabes de Toledo en los siglos xII y x III ,Madrid 1930 , t.I , P. 387 y t. III , P . 283 '
Ruiz : vestido y adorno de la mujer musulmana , PP. 128-129 .

(٥٢) اللمحة البدرية فى الدولة النصرية ، تحقيق الاستاذ محى الدين الخطيب ، القاهرة ، ١٣٤٧ هـ ، ص ٢٩ ؛ احمد الطوخى : مظاهر الحضاره فى مملكة غرناطة ص ٥٧

(٥٣) Ballesteres y Baretta : Le Joyeres moros de Alfonso El sabis , Al-Andalus , Vol , VII , 1942 , Fasc 2 , PP . 475 - 477 .

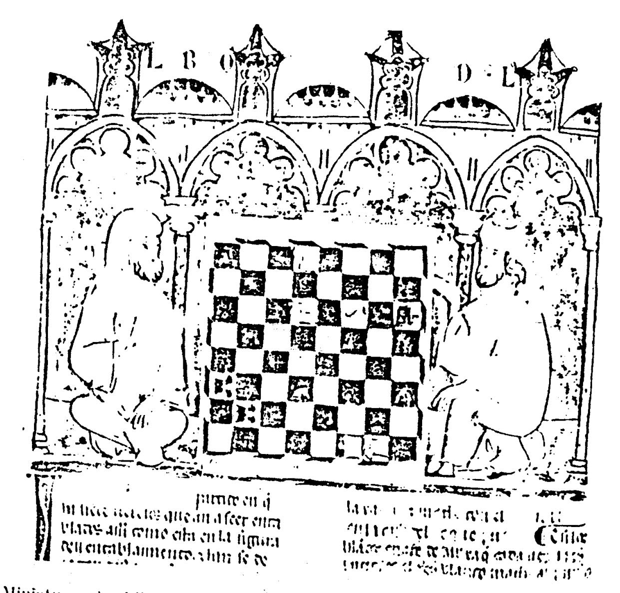
(٥٤) Eernandez y Gonzalez : op . Cit . P . 127 .

PLANCHE I



لوحة رقم (١)

(عن مخطوطة ألعاب الشطرنج لوحة رقم ٤٤)

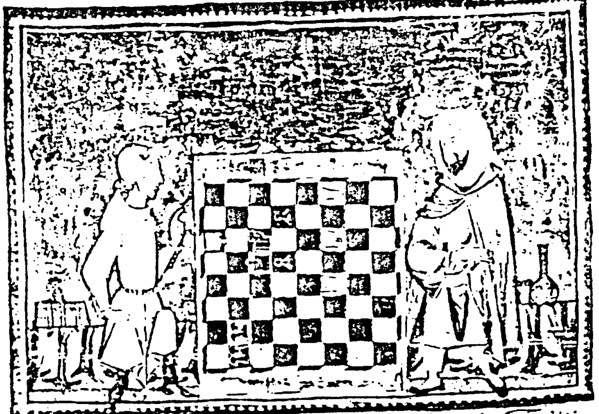


Miniatures du *Libro del Ajedrez* (Bibliothèque du Monastère de l'Escurial).

لوحة رقم (٢)

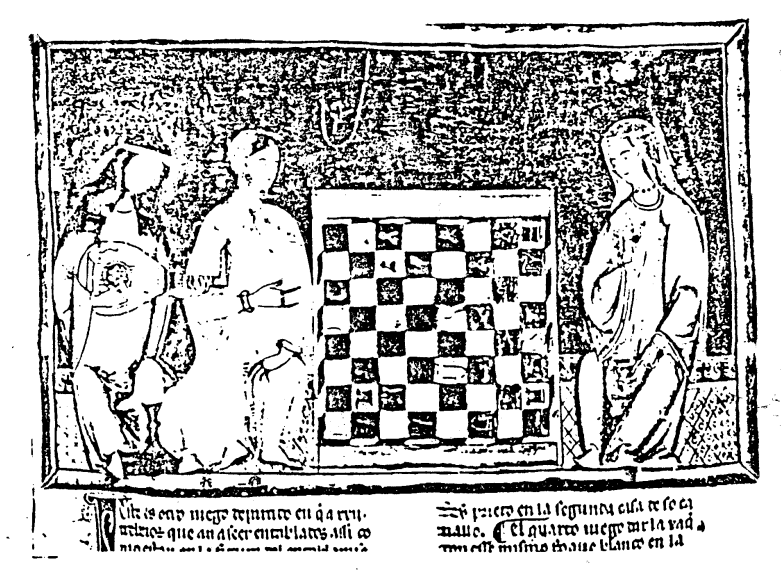
(عن مخطوطة ألعاب الشطرنج لوحة رقم ٤٤)

PLANCHE II



لوحة رقم (٣)

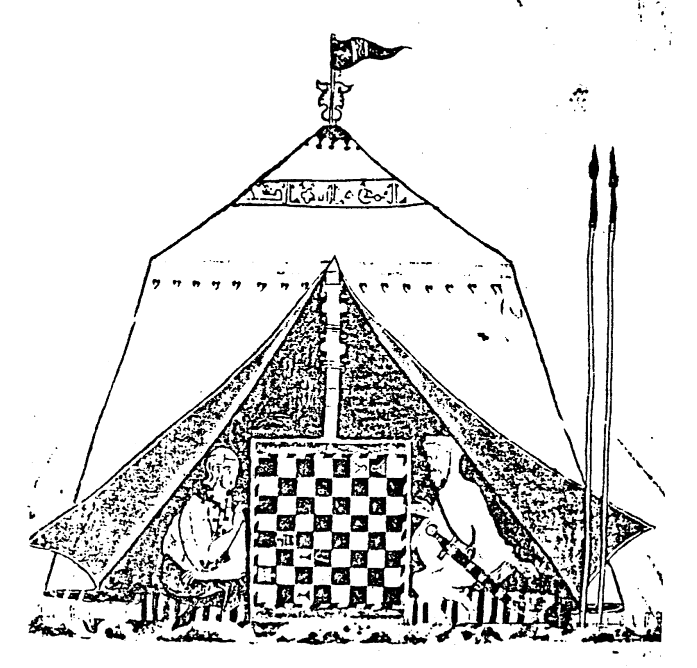
(عن مخطوطة ألعاب الشطرنج لوحة رقم ٤٤)



Miniatures du *Libro del Ajedrez* (Bibliothèque du Monastère de l'Escurial).
4. Fol. ... verso.

لوحة رقم (٤)

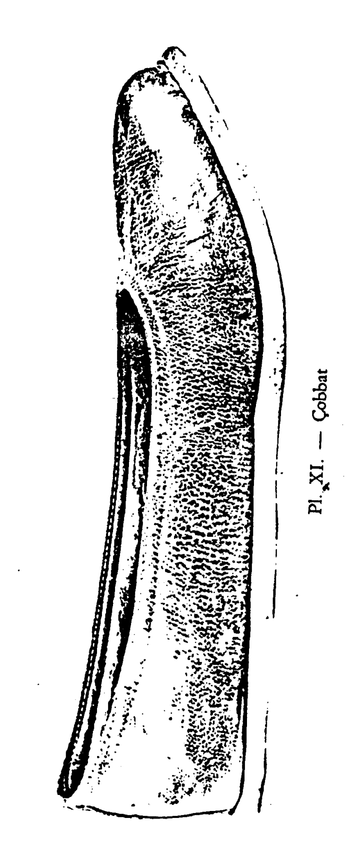
(عن مخطوطة ألعاب الشطرنج لوحة رقم ١٨)



Miniature du *Libro del Ajedrez* (Bibliothèque du Monastère de l'Escurial.)
Fol. 64 recto.

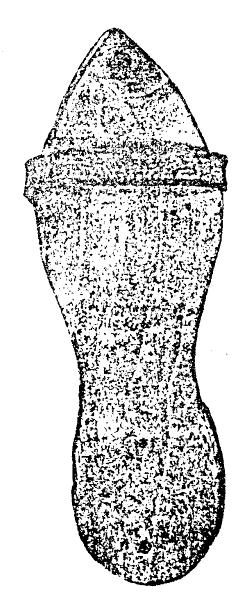
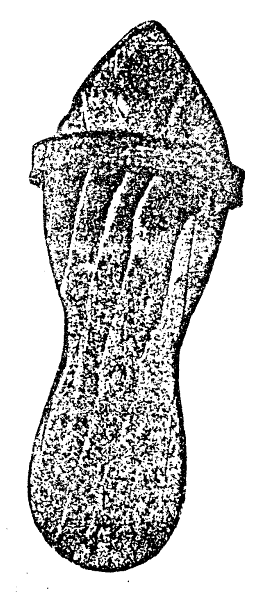
لوحة رقم (٥)

(عن مخطوطة ألعاب الشطرنج لوحة رقم ٦٤)



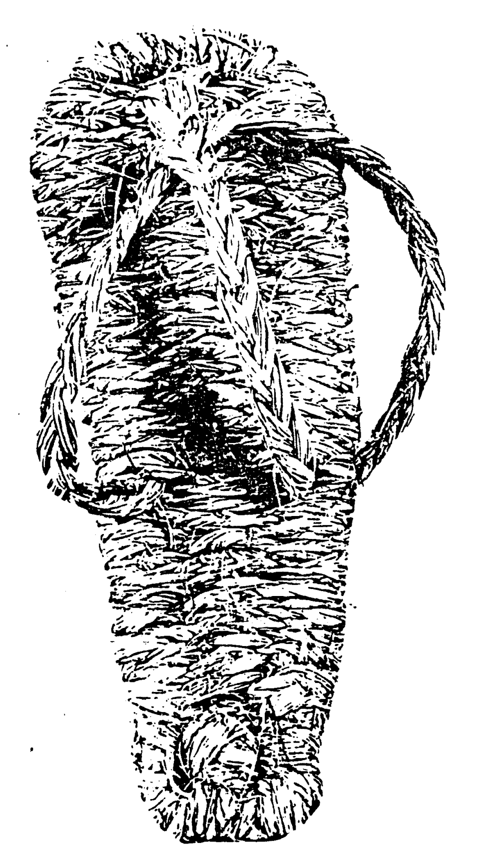
لوحة رقم (٦)

(عن كتاب الأحذية التقليدية الجزائرية)

Pl. XVI. — Kab-Kab Plat

لوحة رقم (٧)
(عن كتاب الأحذية التقليدية الجزائرية)



Pl. XXII. — Naïl d'Alfa.

لوحة رقم (٨)
(عن كتاب الأحذية التقليدية الجزائرية)

فهرس المحتويات